الأعمال القصصيّة الكاملة

(الجزء الثالث)

د. سناء شعلان

الأعمال القصصيّة الكاملة

الطبعة الأولى
٢٠٢٠
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

المؤلّف ومن هو في حكمه	: د. سناء شعلان
عنوان الكتاب	: الأعمال القصصيّة الكاملة لسناء شعلان/ جزء٣
بيانات الناشر	: أمواج للنّشر والتّوزيع، عمّان – الأردن
عدد صفحات الكتاب	: ٤٢٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة	: ر. أ (٢٠٢٠/٦/١٥٣١)
الرقم المعياري الدّوليّ (ISBN)	: ٨-٤٦-٥٤٥-٩٩٥٧-٩٧٨
الواصفات	: /القصص العربية// المجموعات القصصيّة// الأدب العربي/

- يتحمل المؤلّف كامل المسؤوليّة القانونيّة عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنيّة أو أي جهة حكومية أخرى.
- تم إعداد بيانات الفهرسة والتّصنيف الأوليّة من قبل دائرة المكتبة الوطنيّة

جميع حقوق الملكيّة الأدبيّة محفوظة للمؤلّفة سناء شعلان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة هذا الكتاب أو أي جزء منه أو إدخاله على الكمبيوتر أو ترجمته على اسطوانات ضوئيّة إلا بموافقة خطيّة منها.

أمـــــواج للطباعة والنشر والتوزيع
المملكـــة الأردنية الهاشميـــة ـ عمان
تلفاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٨٨٨٣٦١/ ٠٠٩٦٢٦٤٨٨٩٦٥١
amwajpub@yahoo. com
www. amwaj- pub. com

الأعمال القصصيّة
الكاملة

د. سناء شعلان

الجزء الثالث

الطّبعة الأولى

٢٠٢٠

الفِهْرستْ

كلمة النّاشر ١٣

(٨)

المجموعة القصصيّة "مقامات الاحتراق"

الحكاية البداية ٢٣
مقامات الاحتراق.. ٢٥
سِفْر الجنون.. ٣٥
مآتم الرّصاص.. ٤٧
في القدس لا تُشرق الشّمس ٦٠
القبّعة الزّرقاء ٦٥
أمينة ٧٠
هديّة الإله ٧٣
كائن ليليّ.. ٧٧
صوت الصّمت ٧٨
هلال المجرم ٨١
المصعد القديم ٨٣
أصابع وقحة.. ٨٤
الكفّ.. ٨٤
السيّدة أنوار ٨٥
خليفة الله.. ٨٦
عابد المستعجل.. ٨٨
عمليّة ناجحة ٨٩
الشّيطان يعشق.. ٩١

حادثة انتحار عصفوري حبّ ٩٢
السيّد نجمة ٩٣
سرير صغير ٩٤
الطّفل الأعجوبة ٩٤
تمثال الحرّيّة ٩٥
المطاردة ٩٦
لوحة جميلة ٩٧
مرايا ٩٨
عدالة ٩٩
قوائم ثلاث ١٠١
تواصل إلكترونيّ ١٠٤
أنتِ ١٠٧

(٩)

المجموعة القصصيّة "ناسك الصّومعة"

ناسك الصّومعة ١١٣
سِفْر المتعة: النّاسك الجديد ١٢١
سِفْر الرّحيل الأكبر: الشّرخ ١٢٢
سِفْر القيامة: احتمالات ١٢٣
سِفْر الغفران: هواجس الصّومعة ١٢٦
المجاعة ١٢٧
السّجّان ١٣٠
حكاية لكلّ الحكايات ١٣٢
يوميّات حروف ١٣٨

عبوديّة ١٥١
عام النّمل... ١٥٨
ولادة متعسّرة.. ١٦٠
حدث في ليلة ماطرة ١٦٢
أقاصيص رجل لا ينام ١٦٤
حذاء عنترة ١٦٥
الموزة اللّغز ١٦٧
حتى النّصر ١٦٩
إذن استثنائيّ خاصّ... ١٧١
زوجة الحذّاء ١٧٣

(١٠)

المجموعة قصصيّة "قافلة العطش"

قافلة العطش... ١٨١
النّافذة العاشقة.. ١٨٥
رسالة إلى الإله ١٨٨
الفزّاعة ١٩١
سبيل الحوريّات.. ١٩٥
تيتا.. ١٩٩
الرَّصَدْ ٢٠٤
امرأة استثنائيّة.. ٢٠٨
قطار منتصف اللّيل ٢١٢
تحقيق صحفيّ... ٢١٧
قلب لكلّ الأجساد ٢٢٥

احكِ لي حكاية.. ٢٢٨
بئر الأرواح ٢٣٣
قطّته العاشقة ٢٣٨
زاجر المطر ٢٤٥
الجسد.. ٢٥٦

(١١)

المجموعة القصصيّة "الهروب إلى آخر الدّنيا"

لحظة عشق.. ٢٦٥
سعادة الرّوائيّة ٢٦٩
باميلا الصّغيرة ٢٧٢
عروس النّيل.. ٢٧٦
دعوة زفاف ٢٨٠
الهروب إلى آخر الدّنيا ٢٨٤
دعوة إلى الحبّ والحياة ٢٩٠
أنامل ذهبيّة ٢٩٦
عينا خَضِر ٢٩٩
كرنفال الأحزان.. ٣٠٤
الملاك الأزرق.. ٣١١
الغرفة الخلفيّة ٣١٦

(١٢)

المجموعة القصصيّة "مذكّرات رضيعة"

صانع الأحلام ٣٢٥
عروس عمّان ٣٣٣

الطّرحة البيضاء ٣٣٧
الوداع الأخير ٣٤١
فنجان القهوة ٣٤٥
اللّعبة الوحيدة ٣٤٩
مذكّرات رضيعة ٣٥٣
نور الصّباح ٣٥٩
النّبوءة ٣٦٣
ذات الشّعر الأسـود ٣٦٧
دعوة للكبار فقط ٣٧١
مستشـفى الأرواح ٣٧٥
نـوارس البحـر ٣٧٩
غناء الملائكة ٣٨٣
دعوة إلى المـوت ٣٨٧
أحـلام المسـاء ٣٨٩
الهاربة من الموت ٣٩١
المقاتل ٣٩٥
القصيدة ٣٩٩
التّذكار ٤٠٣
الطّيف ٤٠٧
الباحث عن الشّمس ٤٠٩
وتمضي الأحزان ٤١٣

الإهداء

إلى أمّي سيّدة الكلمات والحكايات

كلمة النّاشر

حرصنا في هذا الكتاب الجامع الكبير الذي يقع في جزأين على جمع القصص القصيرة والقصيرة جداً التي صدرت للأديبة الأردنيّة د. سناء شعلان على امتداد عقد ونصف من عطائها الإبداعيّ، وهي قصص نشرت فرادى في المجلّات والصّحف والملاحق الثّقافيّة والمواقع الثّقافيّة، وبعد ذلك نُشرت في مجموعات قصصيّة مستقلّة صادرة عن أكثر من جهة ناشرة.

لقد حظيت هذا القصص بالاهتمام النّقديّ والأكاديميّ والبحثيّ والشّعبيّ والإعلاميّ، وحصلت على أكثر من جائزة محليّة وعربيّة ومحلّيّة، كما حصل كامل إبداعها على الكثير من الجوائز المهمّة، مثل: جائزة المثقّف العربيّ عن مجمل إنتاجها النّقديّ والإبداعيّ، مؤتمر القمّة الثّقافيّ العربيّ التّحضيري الأوّل، وزارة الثّقافة العراقيّة ومؤسّسة جائزة العنقاء والمنظّمة العربيّة لحقوق الإنسان في مصر والشّبكة العربيّة للتّسامح وتجمّع عقول وجامعة ابن رشد في هولندا، ميسان، العراق، ٢٠١٨، وجائزة مؤتمر المرأة العربيّة للعام، جائزة التّميّز الإبداعيّ والأكاديميّ والتّأثير عن مجمل إنتاجها الإبداعيّ والنّقديّ، مؤتمر المرأة العربيّة، مركز التّفكير الإبداعيّ، عمان، الأردن، ٢٠١٢، وجائزة كلاويز التّقديريّة للإبداع عن مجمل إنتاجها الإبداعيّ والنّقديّ، مهرجان كلاويز، مركز كلاويز الثّقافيّ والإبداعيّ، السّليمانيّة، إقليم كردستان العراق، العراق، ٢٠١١، وجائزة الشّيخ محمد صالح باشراحيل للإبداع الثّقافيّ العالميّة في دورتها الثّالثة في حقل الرّواية والقصّة القصيرة عن مجمل إبداعها الرّوائيّ والقصصيّ، السّعوديّة، ٢٠١٠

وهذا يدلّ على مدى أهميّة هذا المنجز القصصيّ التي تميّز بالفرادة والاستثنائيّة والتّجريب وتحطيم الأشكال الإبداعيّة الكلاسيكيّة والمكرورة، حتى غدت د. سناء شعلان مدرسة إبداعيّة خاصّة أغرت الكثيرين لدراسة أعمالها في مقالاتهم ودراساتهم وأبحاثهم وكتبهم ورسائلهم وأطروحاتهم الجامعيّة.

يأتي هذا الكتاب الجامع لقصصها في جزأيه مرحلة أولى في سبيل جمع الإرث القصصي لشعلان، في خطوة أولى في هذا الدّرب في سبيل جمع المزيد منه في المستقبل في أجزاء أخرى؛ لنقدّمه هديّة نادرة للمكتبة العربيّة وللقارئ العربيّ بغية مساعدته في الاطّلاع على هذا الإبداع القصصيّ كاملاً غير مجزوء.

لقد انتهجنا في هذا الكتاب نهجاً خاصّاً لأجل جمع هذه القصص الثّرّة المميّزة، وهذا المنهج قام على ما يلي:

١. هذا الكتاب هو نسخة جامعة مزيدة منقّحة من المجموعات القصصيّة كلّها.
٢. قمنا بحذف المجموعات القصصيّة التي تتشابه في القصص التي تضمّنتها، وأشرنا إلى ذلك في هامش الكتاب ليسهل على المطّلع والباحث أن يدرك هذا الأمر.
٣. قمنا بإدراج القصص القصيرة وفق المجموعات القصصيّة التي وردت فيها وبالتّرتيب ذاته التي وردت به في تلك المجموعات القصصيّة.
٤. هذا الكتاب بجزأيه يحتوي على المجموعات القصصيّة التاليّة:
   ١. المجموعة القصصيّة "أكاذيب النّساء ٢٠١٩
   ٢. المجموعة القصصيّة "الذي سرق نجمة"، ٢٠١٥
   ٣. المجموعة القصصيّة "تقاسيم الفلسطينيّ"، ٢٠١٥

٤. المجموعة القصصيّة "حدث ذات جدار"، 2015

٥. المجموعة القصصيّة "تراتيل الماء"، ٢٠١٠

٦. المجموعة القصصيّة "أرض الحكايا"، ٢٠٠٦

٧. المجموعة القصصيّة "الكابوس"، ، ٢٠٠٦

٨. المجموعة القصصيّة "مقامات الاحتراق"، ٢٠٠٦

٩. المجموعة القصصيّة "ناسك الصّومعة"، ٢٠٠٦

١٠. المجموعة القصصيّة "قافلة العطش"، ٢٠٠٦

١١. المجموعة القصصيّة "الهروب إلى آخر الدنيا"، ٢٠٠٦

١٢. المجموعة القصصيّة " مذكّرات رضيعة"، ٢٠٠٦

٥. راعينا في إدراج المجموعات القصصية في الكتاب أن ندرجها مرتّبة ترتيباً زمانيّاً تنازليّاً وفق تاريخ صدورها الميلاديّ.

٦. وضعنا في هوامش الكتاب معلومات ببيليوغرافيّة مهمّة عن المجموعات القصصّية والقصص القصيرة.

نتمنّى أن نكون قد وفّقنا في مسعانا هذا، والله من وراء القصد، ونتمنّى قراءة ممتعة لكلّ من يطلّع على جهدنا الكبير والمخلص في هذا الكتاب في جزأيه.

(٨)

المجموعة القصصيّة "مقامات الاحتراق" [١]

١ - صدرت المجموعة القصصيّة "مقامات الاحتراق" في طبعتها الأولى عن نادي الجسرة الثقافيّ والاجتماعيّ، الدّوحة، قطر، ٢٠٠٦

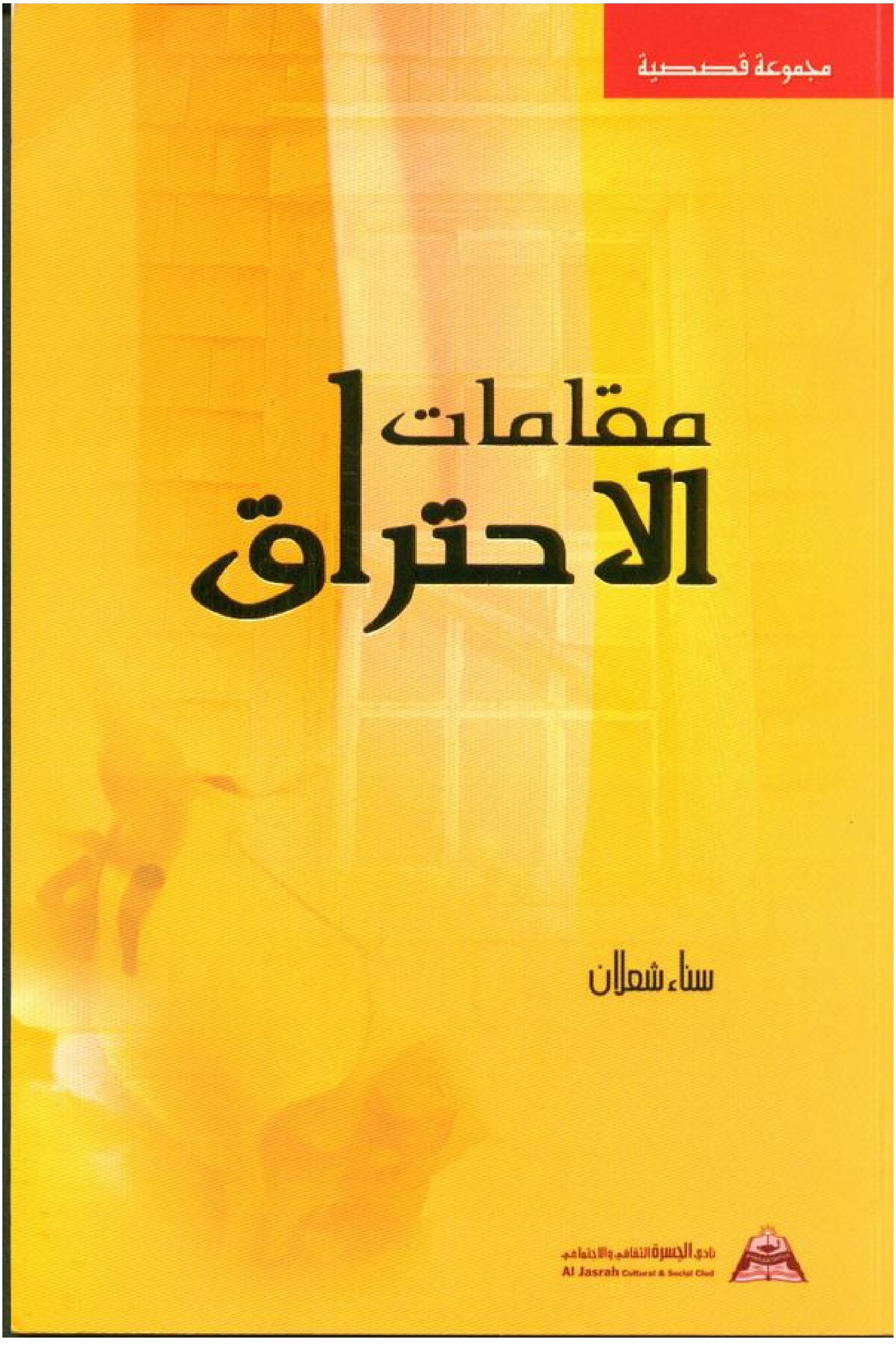
مجموعة قصصية
مقامات الاحتراق
سناء شعلان
نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

الحكاية البداية

في البدء كانتْ الكلمة، ثم كانتْ الحكاية، ثم كانتْ أرض الحكايـات التّـي فيها سفرٌ قد كُتبت على صفحاته بسلطة الزّمن: "في السّـماء جعـل الله السّـعادة والحياة والحبّ وكلّ شيء جميل على شكل أحلام عمياء، لكـن عذبـة، وجعـل الموت والفراق وكلّ شيء حزين على شـكل كـوابيس حـادّة البصـر، وأرسـلها جميعاً إلى الأرض. أحلامنا الجميلة تُسرق، وتكون حقيقة غيرنا، ويسمّون ذلـك نصيب، وكوابيسنا تجدنا بنظرها الحادّ، ويسمّون ذلك قـدر، ونبكـي؛ فيسـمّوننا لذلك بشر."

مقامات الاحتراق

"من سِفْر سلطان الواهبين سمعان الأطرش" ([1])

(١)

مقام الشّوق

أمضى ليلته في حضن سمرائه الصّغيرة، لا يذكر تماماً أين قابلها، لكنّه يحفظ جيّداً طقوس شهوتها، وجغرافيا جسدها، شرب منها حتى الثّمالة، وانسلّ من جانبها؛ ليسدر في فراش زوجته التّي طال انتظارها له، التصق بها، وقال بحروف الارتواء الولهى: "أنا عطشان إليك".

(٢)

مقام الموت

الاسم الذي نُقش بماء الذّهب على واجهة القبر البارد كان اسم أمّها، المشيعون الذين انفضّوا عن القبر عزّوها بوالدتها، في أصبعها الصّغير دسّت خاتم زواج أمّها، الباقي الوحيد بعد رحيلها، قدماها تسيران بانتظام دون عرج، الدّلائل كلّها تشير إلى أنّ أمّها العرجاء هي من ماتتْ، فلماذا إذن تُحسّ بالقبر يطبق على صدرها، ويعلو صوت خطوات عرجاء على وجيب قلبها الدّامي؟!

١- كان سيعطى لو سمع.

(٣)

مقام الغياب

بلغ مشارق الأرض ومغاربها بحثاً عن ابنه الضّائع، فقد سرقته نسائم رياح تشرين، وذرّته مع نسائمها، أراده يداً حانية تسند شيخوخته، أراده إرادة خضراء تزُهر أرضه، أراده قدح ماء زلال يروي عطشه، تنسّك في بحثه، وطالتْ لحيته الخضراء حتى طوّقتْ الأرض، واستمهل الموت حتى يجد ابنه الضّائع، ثم وجده، فكان ابن برودة الرّياح لا ابنه، كان قاسياً مثل صرخة مقهور، بارداً مثل ابتسامة ميّت، صامتاً مثل وجه غريب، عندها قرّر أن يعود للبحث من جديد عن ابنه الذي وجده؛ لأنّه عاد، ولم يعد.

(٤)

مقام التّمنّي

عرفتْ من الرّجال الوغد واللّئيم والبخيل والجبان والخائن والبشع، ولم تعرف الشّهم الكريم المقدام صاحب المروءة شأنه هو، لذلك قرّرتْ أن تقطع علاقتها به؛ فهو أجمل من أن يكون حقيقة، وهي تكره الأكاذيب.

(٥)

مقام الزّهد

اعتكف في رأس جبل عارٍ من الشّهوة والارتواء، ثمانين عاماً ما ذاق شهوة، ولا انتفض من رغبة، ولا أطلق زفرة حرمان، وعاهد الرّبّ على أن يموت عطشان جوعان يسكن البرد في عظامه.

لكنّه مات بعد أن أخذ رشفة رحيق من شفتيها، فمات ريّان شبعان، تلفح عظامه حرارة العشق.

(٦)

مقام الخيانة

انتصب أمامها كعملاق أعرج، اتكأ على آلاف الحجج، وعلّل خياناته لها بمئات الأسباب، برم شفتيه اللّتين لاكتا شفاه معظم عاهرات المدينة، ثم بصقتها بتقزّز، وقال: هناك يا زوجتي الكثير من الأسباب التّي دفعتني إلى خيانتك.

قالتْ دون مبالاة ممزوجة بالسّخرية وهي تلمّع أرض الكنّيف: اعطني بالله عليك سبباً واحداً من هذه الأسباب الكثيرة.

قال بثقة، وهو يذبّ لثاثته: على سبيل المثال لون صبغة شعرك التّي اشتريتها لكِ لا يعجبني.

(٧)

مقام التّضحية

تمثّل بحبّها أجمل أنواع البذل والتّضحية، وهبها ذاكرة مطعّمة بالعطايا والهبات والصّلات، عرّفها بالكرم العربيّ أمام الجمال الأعجميّ، جوّع الرّعية، وأشبع كلابها الخلاسيّة المئة، وعندما أرادت أن توقد شموع مخدع ليلتهم الحمراء، أضرم النّار بالسّلطنة، كي تأخذ منها قبساً لشعلة واحدة من المكان الذي تشاء.

(٨)

مقام الحياء

على جدار المعبد رُسمتْ صورة ألف طريقة للمعاشرة، كانتْ ترقب الزّوّار بتقزّز، صرختْ فجأة: هذه وقاحة لا تُطاق، وغادرتْ المعبد على عجل.

في اليوم الثّاني صباحاً وقفتْ أمام الجدار تتأمّل الصّور بمكبّر تحمله بيدها المرتجفة، وتسلّطه على تفاصيل الصّور؛ فقد كانتْ الصّور صغيرة للغاية، ودقائقها تحتاج إلى توضيح.

(٩)

مقام الوفاء

لم يستطع أن يتخيّل امرأة أخرى تنام في سريرها، وتلبس ملابسها، وتسقي زهورها؛ لذلك فقد استأجر بيتاً جديداً، لا زهور أو نباتات منزليّة فيه، وتزوّج امرأة نحيلة، لا تناسبها ملابس زوجته المتوفّاة.

(١٠)

مقام الحرمان

قالوا بترحّم ممجوج على خيّاط الحيّ العجوز: "رحمه الله، مات؛ لأنّه قد بلغ من العمر عتيّاً، فعمره قد انتهى".

لكنّ صاحبة ثوب الزّفاف الأبيض كانت ترى دماءه مسفوكة على ثوبها الذي خاطه بدموع عشقه العاجز، وأهداه لها، لتزفّ به إلى رجل سواه.

(١١)

مقام الغيرة

لم يستطع أن يحتمل أن يرى رجلاً ينظر إلى جاريته نظرة اشتهاء، وفي لحظة غيرة مجنونة سمل عينيه، واستراح من عذابه.

(١٢)
مقام الشّرّف

كان الشّرّف كائناً كسولاً إذا ذهب لا يعود، أمّا بعد الحميّة الصّحيّة والرّياضة السّويديّة المكثّفة فقد غدا كائناً نشيطاً مرناً يأتي ويعود وَفْق الضّرورة والحاجة إليه، وتُخاط منه غلائل برّاقة للخطب ولمواسم الأفراح.

(١٣)
مقام التّجربة

يملك أفكاراً مجنونة، وفرضيّات غير مثبتة، وآراء متطرّفة، لكنّه مولع بشكل خاصّ بالتّجربة والإثبات والنّتائج العلميّة الثّابتة.

مشاعر البشر عنده حقل للتّجارب والتّفاوض، في التّجربة الأولى والثّانية والثّالثة كانت نتيجة الحبّ تساوي إخلاص، لكن في المرّة الرّابعة كانت النّتيجة تساوي بُعاد وألم.

خلص إلى قاعدة تقول: إنّ الحبّ مادّة هلاميّة مطّاطة، تتأثر بالحرارة، وبعنصر مجهول غير محدّد حتى الآن.

(١٤)

مقام الحقائق

ضحّى بنصف عمره؛ ليصل إلى الحقيقة، وأنفق النّصف الثّاني؛ لينسى تلك الحقيقة.

(١٥)

مقام الاجتهاد

لألف يوم لم ينمْ، هجر دنيا النّوم، وعالم الأحلام، وتشبّث بمداده ودواته ليستحضر فريد علمه، وغزير ثقافته، ويانع موهبته كي ينتهي من مصنّفه الخالد، جمع فيه علم الأوّلين والآخرين، وصاغه بجمان نثره، وعقيق نظمه، وانتهى من مصنّفه مع شفق اليوم المضروب لذلك.

جاء الغريب رسول سوق الورّاقين، دفع ثمن المصنّف فريد عصره، ثم قلّبه على عجل، وأمر بأن يخطّ عليه اسم الذي اشتراه، وسيّدعي أنّه سطّر ما فيه من علم، ارتجفتْ يدا العالم الفقير، وشعر بأنّ نفسه تتساقط أنفساً، وخرّ ميّتاً على مصنّفه الضّخم دون أن يكتب عليه اسماً غير اسمه، في حين تيبّستْ عيناه في نظرة نحو السّماء بعيداً عن كيس المال المهدور عند قدميه.

(١٦)

مقام الصّفاء

مدّ يده بعد جهد وليّ، وصافح منافسه التّاجر، زكمتْ أنفه رائحة طيبته المقرفة، وكاد يتقيّأ تقزّزاً من سماحة ملامحه، وحلو معشره، أقسم على الصّفاء، ونسيان مقت الماضي وغلّه، وكي لا يحنث بقسم الصّفاء فقد أوصى رجاله بأن يُطعنوا غريمه التّاجر برقّة بسكين من ذهب.

(١٧)

مقام الأخوة

دمهما واحد، رحم واحد حمل بهما، غذّيا بطعام واحد، ولأنّ أفكار أحدهما موجّهة أولاً نحو الآخر؛ فقد قرّرا في لحظة واحدة ودون سابق تخطيط أن يقتل أحدهما الآخر، ومن جديد اختلط دمهما الواحد.

(١٨)

مقام الثّورة

أخطاؤه كثيرة، لكن لحظات استغفاره وتوبته أكثر، وعلى الرّغم من ذلك لا يستطيع أن يحدّد بالضّبط ذلك الأمر الخيّر الذي أدخله إلى الجنّة، ونِعْم الأمر هو أيّاً كان.

للوهلات الأولى كانت الجنّة جميلة وممتعة وأرض للرّفاهيّة، لكنّها باتــتْ في ثوان ضوئيّة مملّة لا محفّز فيها للأمل أو الطّموح، حـاول أن يحتـال علـى نفسـه، ويقنعها بالسّعادة، وعندما فشل في ذلك قاد ثورة على رتابة الجنّة، وطالب بحفنة من الأمنيات صعبة المنال، والطّموحات مجهدة التّحقيق.

(١٩)

مقام التوحّد

فشل في أوّل تجربة حبّ له، وقُطع لسانه في مجلس القاضي؛ لأنّه قال الحقّ، وكاد يأكل نفسه جوعاً؛ لأنّه رفض أن يأكل مال الأيتام، وطالتْ قائمـة الفشـل والهزيمة والانكسارات، فبحث عن نفسه فلم يجدها، وما عاد يشعر بأنّه يسمع أو يحسّ أو يحلم، فبحث عن شيء يشـبهه، ووجـد ضـالته في حـائط صـلد بـارد، فتوحّد معه.

سِفْر الجنون

"سِفْر لمن يصمّم على أن لا يعرف أيّ شيء"

(١)

الجسد المجنون

كانت القضيّة أعقد من شرح حالـة سـلوكيّة أو سـيكولوجية؛ لـذلك فقـد عجز عن أن يشرح حالته بالكلمات للأطبّاء المعالجين له، تماماً كما أُلبستْ حالته على التّشخيص الطّبّي، فحُوّل إلى قسم الأمراض النّفسيّة فالعقليّة، أصابه وجوم ملازم، وسقط عليه الصّمت من السّماء، فأعتنقه ديناً ومنهجـاً بعـد أن أُصـيب بحالة بوح فريدة، فقد انزلق في حالة هستيريّة جعلتْ لسانه لا يتحـرّك إلا بقـول الحقّ، ولا ينطق إلا بصدق، وما كان قد عرف قبلاً من الصّدق إلا قليلاً.

بدأتْ الحالة عندما شعر برغبة مفاجئة وجارفة بأن يبصق أكاذيبه ومجاملاته الفارغة وجمله البرّاقة التّي لطالما فتحتْ أمامه أبواب المال والسّلطة، وجعلتْ لـه نافذة على مخادع الجميلات؛ كان يريد أن يخلص لنفسه، وأن يكونهـا ولـو لمـرة واحدة.

ما كاد يأخذ قراره، ويسمح لنفسه بأن تحلّق بحريّة في جسـده حتـى غمـره دفء سكونيّ عميق، بل غمرته برودة سمحاء، للدّقة غمره الشّعوران معاً دفعة واحدة، فشعر بنشوة غريبة، وبعقـدة تحـلّ مـن لسـانه، فطفـق يسـمّي الأشـياء

بمسمّياتها، ويقول الحقّ دون أن يحيد عنه قَيْد أنملة، ونبذ جانباً المجاملات المكسوة بقشور الكذب، وتكلّم وتكلّم وتكلّم... بصدق، وسرتْ رعدة من السّعادة في جسده، فانسرب في رقص عنيف لا يعرف توقّفاً.

شعر بسعادة غامرة، وأحسّ لأوّل مرة في حياته بالحرّيّة والطّمأنينة، لكنّهم شعروا بالخطر، وتآمروا على جسده المسكون بجنون الصّدق، فدفعوه إلى ما خلف العقل، حيث مستشفى المجانين، وتمنّوا أن ينسى الجميع كلامه الصّادق الذي قاله في لحظة جنون.

هو الوحيد الذي لم ينسَ كلامه الصّادق، بل ضحك كثيراً وكثيراً؛ لأنّه قال كلّ ما يريد أن يقوله، ثم اعتلى الصّمت الجميل، وانقطع في سريره الأبيض في جناح المجانين الخطيرين؛ ليتأمّل نفسه الجديدة، وطال التأمّل؛ فالمطلّع كان هائلاً، والعمر كان قصيراً.

(٢)

قلب مجنون

كان في حاجة إلى قلب واحد فقط ليهبه الحياة، قلب يضخّ الدّماء في حركة رتيبة خالدة اسمها نبض الحياة، كان يحتاجه بقدر عطشه إلى المزيد من اللّحظات الدّنيويّة لا سيما تلك المسروقة من حياته، وما أكثرها من لحظات مسروقة كانت في حياته!

قيل له إنّ القلوب تتشابه إذا كانت في صحّة جيّدة، وليست معطوبة مثل قلبه الذي وُلد به، فكان بئس القلب، ضعيف البنية، هابط الهمّة، قاسياً، لا يرقّ لبشر.

اشترى قلباً جديداً، وطفق ينتظر بفضول مع أطباء المستشفى الاستثماريّ الذي أودعه قلبه القديم المعطوب أن تتحسّن أحواله الصّحيّة.

لقد تحسّنت صحّته، لكن قلبه بقي معطوباً، يُحسن ضخ الدّم، ويحتمل ضغوط التّعب والرّياضة والانفعال، ويقوم بواجبه البيولوجيّ على خير ما يرام، لكنّه معطوب بخلجاته الإنسانيّة الكثيرة، تتقبّض وشائجه عند آلام أيّ بشر، وتنتفض غلائله لمرأى المنكوبين والمنكودين، ويتوتّر بجنون عند مرأى البحر، ويحنّ بشوق غريب إلى إلهه الأخضر المعشوشب.

كان قلباً مجنوناً يحفظ آلاف الذّكريات عن عالم تلك المرأة السّاحليّة التّي اشترى قلبها بعد أن يطفئ إعصار غاضب جذوة حياتها الشّابة، ويلفظها لأصدافه المنكوبة، ولسواحله المدمّرة.

هاجم وجيب قلبه المثخن بأحزانه وبذكريات عقله جسده، واحتلّ عواطفه، حاول أن يشرح معضلته للأطباء، لكنّه فشل في ذلك تماماً، نَعِمَ على حين غرّة بحبّ النّاس والأهل؛ إذ غدا إنساناً رقيقاً مرهفاً، ولا عجب، فهو يمتلك قلباً من زبد البحر.

استسلم لقلبه المجنون المعطوب، وسدر في وجيبه العتيق اللّذيذ، وقدّم نفسه قرباناً للبحر.

(٣)

عنبر رقم (٩)

لا يروقه أبداً مبدأ التّقسيم والتّصنيف إذ كان التّصنيف عـدوّه الأوّل، لقـد وصل إلى هذا المكان الذي يضجّ بالملاءات البيضاء والأسـرّة الحديديّـة الصّـدئة والرّؤوس المثخنة بالهراء والجنون بسببه.

في البيت كان تصنيفه الابن الزّائد؛ لأنّه المتواضع في الوسامة والـذّكاء، في ساحة المعركة كان تصنيفه الجنديّ المتمرّد على الأوامر، والخـارج عـن الطّاعـة، والرّافض أن يرفع إشارة الاستسلام، وفي العمل كـان تصـنيفه المشـاغب الـذي يفتقد إلى المرونة، ومعها كان تصنيفه الرّجعيّ المأفون الذي لا يجيد مقايضة جسد الزّوجة الجميلة مقابل المنصب الخطير، ولأنّه صرخ قائلاً: لا، فقد كـان تصـنيفه في هذه المستشفى التّي ابتلعهـا النّسـيان في عنـبر (٩)، حيـث المجـانين الأخطـر، والحالات الميئوس من شفائها.

لكنّه يستطيع أن يعترف بأنّه سعيد ولأوّل مرة حياته بتصنيف ما وُهب لـه؛ ففي هذا العنبر رجال يشرّفه أن يكـون في خـانتهم، ولـو كـان ذلـك في الـدّرك الأسفل من الجحيم، فجميعهم وصلوا إلى هذا المكان؛ لأنّهم ثـاروا علـى مبـدأ التّقسيم والتّصنيف، ورفضوا أنصاف الحلـول، وأنصـاف الأخـلاق، وأنصـاف الشّرّف، وأنصاف المبادئ؛ لذلك آلوا إلى العنبر (٩).

يتكئ على مسند سريره الصّـدئ، يقضـم بروية خيـارة يحملـها، ويبتسـم راضياً بتصنيفه الجديد، فإن كان عنبر (٩) هو عنبر رافضي التّصنيفات الجـائرة، فإنّ العالم خارجه هو ساحة للمجانين الأوغاد الطّلقاء.

(٤)

لحظة عقل

لا تستطيع أن تتذكّر شيئاً ما قبل الجنون؛ فالجنون تاريخ بحدّ ذاتـه، وميّزتـه اللّذيذة والمهمّة أنّه ينسخ غيره من التّواريخ، ومـا يعنيهـا في هـذا المقـام هـو أن تستجمع نفسها، وتلتقط بأناة وإرادة جبّارة وجادّة لحظات عقلها؛ كي تخرج من هذا المكان الرّهيب، آن لها أن تستجيب لنداء العقل، وأن تخلع معطف الجنون ما دام ذلك يعني أنّها سـتخرج مـن المستشـفى بمجـرّد هجرهـا لطقـوس الجنـون، واستجابتها للعلاج.

القرار المتعقّل الأوّل الذي اتخذته كان قرار أخذ أقراص الدّواء المقـرّر لهـا، بدل أن تلصقها على الحائط حيث صنعت جداريّة ضخمة مـن أقـراص الـدّواء المصلوبة على نيّة رفضها.

هي مصابة بكآبة حادّة منذ أن اغتصبها ذلك الـوحش الرّهيـب، لسـنوات وهي تتعالج دون طائل، بل إنّها ترى نفسها في كلّ ليلة ضحيّة ضعيفة تتناوشها أعضاء ذكريّة مفترسة، فتدميها مرة تلو أخـرى، وهـذا الكـابوس كـان وجعهـا الوحيد في باحة الجنون.

لكن منذ أيّام قد بلغت السّن القانونيّة التّي تسـمح لهـا بـأن تـرث ثروتهـا المتبقّية الوحيدة من ذكرى شيء عذب اسمه عائلة، لكن عليهـا أولاً أن تتماثـل للعقل كي تخرج من هذا المكان، وتظفر بحياة جديدة في فسحة ما.

حالتها النّفسيّة والعقليّة في تحسّن مستمرّ، لكنّ ذلك الكـابوس الـدّامي مـا يزال ينتهك حرمة ليلها، ويلوك عذريّتها المهـدورة، لا بـدّ أن تفتـك بكابوسـها

اللّئيم، ستقتله كما قتلتْ ذلك الوحش في ذاكرة الماضي، تسرق سكّينة كبيرة من المطبخ، وتحزّ عنقه مع أوّل خطوة يقترب بها منها، ويموت الكابوس. [1]

(٥)

ليلة ماطرة تقريباً

كان الجوّ شبه ماطر، بالتّحدّيد يمطر بقوّة، لكنّه لا يبلّل أشواقه أو يخمدها، إذن فهو ماطر تقريباً، حزم حقيبته الجلديّة الصّغيرة على عجل بعد أن ألقمها سخّان شاي قديم، وصورة لها، وبعض النّقود المفقودة الغالية في هذا المكان، وانسرب من المكان لا يلوي على شيء.

هي كانت وجهته، استجمع ذاكرة جنونه كلّها التّي تضجّ بالنّسيان وبها وبحبّهما، وقطع دُجى اللّيل الماطر بلحظات جنون عذبة، اسمها حبّ.

---

[1] - سرّيّ للغاية:

- المريضة ما تزال في حاجة إلى المزيد من العلاج النّفسيّ لا سيما بعد أصابتها بلوثة جنون دفعتها إلى قتل طبيبها المعالج.
- المريضة مصابة بكآبة حادّة بعد عمليّة إجهاض عاجلة أُجريتْ لها سرّاً.
- نأمر بهدم الجدار الغربيّ الفسيفسائيّ في الغرفة رقم (٧).
- يُوصى بتحويل المريضة إلى جناح الحالات الخطيرة.

ركن بانكسار إلى سور حديقة بيتها، وقطف بشوق زهرة حمراء، أثقلتْ حبّات المطر بتلاتها النّضرة، طرق بابها بضع طرقات، بحث في ذاكرته المشحونة بالتّوتّر والشّوق عن كلمات تستطيع أن تشرح لها أنّه عاد إلى العقل، وهرب من مستشفى المجانين فقط ليهديها زهرة، وليقول لها: أحبّك. لكنّه لم يجد تلك الكلمات.

فتحتْ الباب نعسى حزينة، وجنتاها باهتتان، فيهما آثار انتظار طويل، مدّ إليها زهرته الوحيدة، ابتسمتْ بصفاء هيّج قيعان شوقه، وثوّر لجج حرمانه، وأنساه لحظة مجنونة كاد يقتلها فيها قبل سنوات غيرة عليها، وضناً بها على أيّ رجل آخر.

تناولتْ الزّهرة بأناملها الورديّة الصّغيرة، اقتربتْ منه حتى كادت شفتاها تلمسان رقبته التّي غزتها دفقات المطر. وقالتْ له: ادخل؛ فاللّيلة ماطرة.

ابتسم لها وهو يتنشّق سيلاً عجيباً من المخاط والدّموع وحبات المطر، وقال: ليلة ماطرة تقريباً.

(٦)

خطوة واحدة

"هناك خطوة واحدة تفصلنا عن المآل، خطوة واحدة تفصلنا عن الحقيقة، خطوة تفصلنا عن البداية، وخطوة تفصلنا عن النّهاية، كما أنّ هناك خطوة تفصلنا عن السّعادة أو الشّقاء أو الحبّ أو الكره".

صوت تصفيق الغوغاء من نزلاء المصحّة يقطع عليه خطاب"الخطوة" الـذي اعتاد على أن يتحف المرضى به إجباراً كلّما داهمته حمى التّخوم، وفوضى الحدود، وفلسفة الخطوة.

كان في زمن ما يعيش قبل جغرافيا الخطوة الأخيرة، وتاريخ الدّلوف فيها، لكنّه في لحظة غاية في الجنون أو في التّعقّل أدرك أنّ الفاصل ما بين دنيا الفوضى والمفارقات والانكسارات المسمّاة العقل، ودنيا الرّاحة والوضوح والمآل اللّذيذ المسمّاة جنون خطوة جريئة واحدة؛ لذا فقد استجمع كامل عقله، وخطا خطوته الأخيرة الميمونة، ودلف إلى دنيا الجنون، حيث يدرك أصحابها أنّ الفاصل بين العالمين هو خطوة.

(٧)

مسابقة شعريّة

كم هو معجبٌ بمقولة النّفري إذ قال: "كلّما اتّسعت الرّؤية ضاقت العبارة"، لكن ما نفع المقولات المعلّلة للعيّ إذ قعدت به في هذه اللّحظة دون أن يكمل هذه القصيدة الخالدة التّي سيقدّمها إلى أعرق مسابقة للشّعر في كوكب الأرض، وبالتّحديد إلى أكاديميّة النّفح السّحريّ في عاصمة أطلنطا الغارقة في المجهول.

هو في حاجة إلى هذه الفوز لألف سبب، ومصمّم على الظّفر به بسبب ألف تحدٍ؛ فقصيدته فيها أجمل معاني الدّنيا، جرس حروفها موسيقى خالدة، وكلماتها مقدودة من جذوة الموهبة المقدّسة، وموسيقى أنينها مسروقة من رحم الأحزان، هي ليست قصيدة فحسب، بل أرجوزة البشريّة الخالدة، وترنيمة

التّمنّيات، هي خلاصة السّحر، ومآل الكلمات، هي الكمال بعينه، لكن ينقصها شيء صغير، تُنقصها أن تنقل من فكره إلى سطور الورق، وهذه هي المرحلة الأصعب، وهي المرحلة التّي يكابدها منذ سنوات، فهو مسجون بين الكلمة وظلّها.

كم هي متعسّرة عمليّة مخاض قصيدته الأسطورة، تقيّأ آلاف الكلمات، لكن لم يتقيّأها، دهن نفسه بمسك الأمنيات، لكن لم يقبض عليها، صمتْ ألف عام، وتصوّف في محراب غسقها، لكنّها ما أطاعته، فخلع عقله، وجلس عليه، وكتبْ قصيدته المشتهاة؛ إذ إنّ العقل لا يتسّع لولادة قصيدة أسطورة، لكن الجنون يتسّع لأكثر من ذلك.

(٨)

فقدان توازن

كان متأكداً وهو في مستشفى المدينة للأمراض العصبيّة والنّفسيّة من أنّه على جادةّ العقل، وأنّ من حوله من النّزلاء هم عقلاء تماماً؛ لذلك فقد خلد زمناً طويلاً في مختلاه الإجباريّ، لكنّه منذ أن خرج من المستشفى، وخالط النّاس العاقلين، وهو يشعر بأنّه مجنون بين مجانين، وهنا يكمن الدّاء الذي يفقده توازنه تماماً.

فإنّ كان العمّ جبر المجاهد العتيد مجنوناً، وإن كان فضل معلم الرّياضيات المخلص مجنوناً، وإن كان زكي الذي رفض أن يسرق مال الفقراء مجنوناً، فكيف نعدّ فخامته المتاجر بأرواح الأبرياء عاقلاً؟! وكيف نعدّ معاليه تاجر المخدرات

عاقلاً؟! وكيف نعدّ عطوفته القوّاد عاقلاً؟! وكيف نعدّ هدى التّي نسي ماذا فعلت بالضّبط عاقلة؟!

فكّر طويلاً في هذه التّناقضات التي تدفعه دفعاً إلى الخبل، وابتسم ابتسامة خضراء صفراء وربما حمراء؛ إذ أدرك أنّ المجانين في كلّ مكان، وأنّ الأسوار إنّما تحدّد الإقامات الإجباريّة للمجانين داخل الأسوار أو خارجها، شعر بغثيان مُداهم، وألقى بجسده المضني من فوق شاهق منحدر، وكان ضحيّة محزنة للحظة فقدان توازن.

(٩)

الحالة المرضيّة رقم (١٠٠)

استغرق بحثه الأخير سنوات ليشرف على نهايته، استعرض حالات كثيرة لأناس ضمّهم الجنون إلى حظيرته الجهنميّة، كوّن فرضيّات مثيرة حول أسباب الجنون، وسجّلها وَفْقَ حالات وأمثلة ومجموعات، وكانت الحالة المرضيّة رقم (٩٩) هي حالته المرضيّة الأخيرة في الدّراسة.

عرف أبواب الجنون كلّها، وحفظ عن ظهر قلب المسالك كلّها المؤدّية إليه، لكنّه لم يعرف درباً واحداً للخروج من أرض الجنون، فكّر طويلاً وطويلاً، لكن دون أن يهتدي إلى ذلك الباب السّحريّ، أمسك قلمه، ورسم على الحائط باباً، ولمّا أعياه اختراقه غضب بشدّة، وزمجر، وثار، وتوعّد، وأُغمي عليه، ولم يستيقظ من غيبوبته حتى الآن، وباتتْ الحالة المرضيّة رقم (١٠٠) هي الأصعب علاجاً.

(١٠)

سِفْر الجنون [١]

انطلق الرّحالة العالم الفيزيائيّ الزّراعيّ الجغرافيّ السّياسيّ الفلكيّ الموسيقيّ الطّبيب... [٢] في عام... [٣] ضوئيّ؛ ليجمع مادّة لسِفْره العظيم المسمّى "ضرب الفنون في مسالك الجنون".

طوّف على الدّنيا كلّه، وعرّج على بعض المجرّات المجهولة، وجمع مادّته المنشودة بمشقّة وعناء بعد أن مزّق شبابه في ذلك، وأوهى عظامه وإرادته في سبيل مهمّته الفريدة، ثم شرع يحبّر مادّته المجموعة على رقائق الكاغد بماء الذّهب، وما كاد ينتهي من تحبير سِفْره العظيم حتى... [٤] أو... [٥]، لكنّ المؤكّد أنّه أعدم سِفْره بطريقة مجهولة بسبب حالة جنون مفاجئة ألّمتْ به.

---

١ - نقلاً عن المخطوطة الوحيدة والمفقودة وشبه التّالفة.

٢ - المخطوطة مخروقة في هذا الوضع.

٣- لا يمكن قراءة المكتوب في هذا الموضوع من المخطوطة.

٤ - كلمة غير واضحة.

٥ - المخطوطة مخروقة في هذا الموضوع.

مآتم الرّصاص

"مآتم للروح هي مآتم الرّصاص عندما تُردي أحبّتنا أمواتاً في لحظات الفرح والحياة".

المأتم الأوّل [١]

رسالة عاجلة... [٢]

عزيزي الدّكتور جورج آرثر،

تحياتي لك،

لعلّ رسالتي هذه ستدهشك، وأخال أنّك لا تتوقّعها، فأنا لا أكتب هذه الرّسالة المستعجلة كي نتناقش في إحدى تلك القضايا العالقة التّي اعتدنا على أن نتشاجر بسببها، ولا كي أسمع تعليقاتك حول الوضع الرّاهن في الشّرّق الأوسط، ولا كي أسمع نكاتك الباهتة عن الذين يموتون جوعاً في الصّومال، أو عن الذين يهلكون في صحارى الحروب، كذلك لا يعنيني أن أعرف تفاصيل آخر مغامراتك العاطفيّة، إنّما أُرسل إليك هذه الرّسالة؛ لأنّك تبجّحتَ في الماضي كثيراً قائلاً: "لا مستحيل تحت الشّمس، ولا مستحيل في الطّبّ"، ولأنّك صديقي العزيز الذي أسرني بطيبته وبكرمه وبرقّته التّي جعلته يحزن طويلاً على كلبه الذي قتله بالخطأ بعيار ناريّ في رحلة صيد، فأقسم من يومها على أن لا

١- حدث في بيتنا.

٢- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة جمعيّة مكافحة إطلاق العيارات النّاريّة في القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٦، جمعيّة مكافحة إطلاق العيارات النّاريّة، عمّان، الأردن.

يحمل سلاحاً إلاّ لحرب، وأن لا يقرن متعة بموت يورثه وخزات ضـمير تهمـزه دون رحمة.

عزيزي جورج،

قلتَ دائماً: "إنّ لا مستحيل في الطّبّ"، ولطالما تحمّسـتْ لآرائـكَ، وقـدّرتُ فيك الطّبيب المجتهد، وقد يكون حبّ مساعدة الآخرين، وتخفيف آلامهم هو ما جمعني بك، لا المهنة ولا سنين الدّراسة الطّويلة، وها أنا ذا اليوم أقول لكَ بهزيمة نكراء: "إنّ هناك مستحيل حتى في الطّبّ".

لا تغضب يا عزيزي، ولا تتسّرع في تحضير ردّ علـى كلامـي قبـل أن تـتمّ قراءة باقي خطابي، لعلّك عندها تؤمن بصدق ما أقول، فتعرف أنّ الطّبّ كلّـه، وكامل مهارة الأطبّاء عجزتْ، وستعجز عـن ردّ عـين فيصـل، أنـت لا تعـرف فيصلاً، وقد لا تبالي بعينه المطعونة إلاّ بمقدار مبالاتك بحالته الطّبّية، لكنّني أريد أن أحدّثك عن فيصل، لأنّك صديقي؛ لذلك عليك أن تعرف فيصلاً؛ كي تعرفني بشكل أكبر، أنا لم أحدّثك من قبل عنه، لكنّني سـأحدّثك عنـه مفصّـلاً في هـذه الرّسالة.

فيصل طفل عذب، عمره ثلاثة عشر عاماً، هو سليل العزّ والمجـد والغنـى، لكنّه كذلك سليل العجز والضّعف والإعاقة؛ وُلـد فيصـل بعـين واحـدة تـرى النّور، أمّا العين الأخرى، فكانتْ زينة خضراء جميلة، يسكنها الظّلام، ولا تعرف النّور.

أدركتْ أمّه بفطرتها التّي أملتْ عليها أن تراقب نمو ابنها أنّ فيصـلاً يعـاني من مشكلة ما في إحدى عينيه، فعرضه أبوه على أطباء الأردن، وعلى الكثير من

أطباء العيون في العالم، لكنّهم عجزوا عن ردّ قبس النّور المسلوب إلى عين فيصل، وعاد الأب كسيفاً إلى بلده، يحمل فيصلاً ذا العين الخضراء المظلمة.

لكنّ الله أهدى فيصلاً هديّة سحريّة خلاّبة، فأنساه بها آلام عينه المظلمة؛ فقد كان فيصل رسّاماً ملهماً، ترى عينه اليتيمة ما لا تراه عيون آلاف البشر، فتُصوّر ما ترى، وتحذق ما تصوّر، فتنطق ألوانه بالعجائب، وتكاد تُبعث الرّوح والحياة فيما يرسم، فيصل كان فنّاناً مدهشاً، عاهد عينه اليتيمة على أن يمتّعها بالنّظر والرّسم، فبرّ بعهده، وملأ نفسه سعادة، وأسعد والده الحزين وأمّه التّي لطالما تمنّت أن تهبه إحدى عينيها؛ لتضيء ظلمة عينه الخضراء، بل وأسعدني أنا بالذّات.

أتذكر تلك اللّوحة التّي تحتضن خيلاً عربية تجري في الصّحراء، فتكاد تسمع وقع سنابكها، ورفيف لهاثها العذب، هي كانت لوحتي ولوحتك المفضّلة، وقد صمّمتُ على إعادتها معي إلى الأردن على الرّغم من رغبتك بالاحتفاظ بها، فيصل كان قد رسمها، ذلك الطّفل العذب، الذي لم أحدّثك يوماً عنه؛ فأنت لا تسأل، وأنا لا أقدّم معلومات بالمجّان.

الرّسم كان متعة فيصل الوحيدة، لم يحذق غيرها في الحياة، ولم يحبّ غيرها؛ فقد قامتْ بينه وبين ألوانه حميمية غريبة، وكان مرسمه المُزوّد بأفضل أنواع القماش والألوان معبده المقدّس، في حين انقطع أترابه للعب والمشاكسة.

كان يريد أن يكون أصغر فنان يقيم معرضاً للوحاته، وكان والده على استعداد لأن يشتري له قصراً ليعرضَ لوحاته فيه، مقابل أن يرى في عينيه بارقة سعادة أو رضا، لكنّ فيصلاً كان مصمّماً على أن تُعرض لوحاته في معرض

صغير في العاصمة. وكاد حلم فيصل يتحقّق، لكنّه سرعان ما غدا هباء منثوراً، أتعرف لماذا؟

لأنّ فيصلاً ما عاد قادراً على الرّسم، لم يمت كما قد تتوقّع، وليته مات، إذن لوضع القدر حدّاً لمأساته، لكنّه أُصيب بالعمى، لقد سرقتْ رصاصة طائشة عين فيصل الوحيدة، أخطأت العين المظلمة، وصممّتْ على التهام عينه السّليمة، لم ترضَ أن تستقرّ إلاّ في ظلام عينه التّي كانت مبصرة قبل لحظات، فشربتْ من زلالها حتى ارتوتْ دماً.

أصبح فيصل أعمى، لم تأته الرّصاصة من يد عدوّ، ولا داهمته في حرب ظالمة، لكنّها أتته من يد أبيه، وفي حفل زفاف أخيه الكبير والوحيد، فخُضّبَ أبيض الزّفاف بأحمر دماء فيصل، وكانت عينه الوحيدة قربان ذلك العرس الدّامي، كأنّ الفرح لا يكتمل إلاّ إذا أُريقتْ فيه دماء الأبرياء.

كان فيصل ليلتها يراقب العرس، ويحاول أن يحفظ فعاليّاته وطقوسه؛ ليرسمها في لوحة يزمع أن يهديها فيما بعد لأخيه العريس، لكنّ رصاصة من المسدس الذي يحمله والده قد أهدرتْ أحلام فيصل، وسفكتْ سعادة أسرة كاملة مع دمائه المهدورة ، وأسلمته مجبراً للعمى، فهجر مرسمه دون رجعة.

لا تحزن يا جورج، فأنا أريد منك بدلاً من ذلك أن تتحدّى المستحيل كما تقول، وأن تعيد عين فيصل بطبّك، نعم، أنا أتحداك أن تفعل ذلك، لابدّ أنّك تنكّس الآن رأسك عاجزاً، وتبرم شفتيك القرمزيتين، وتقول بلكنتك المتعالية بعض الشّيء: "أنتم شعب متخلّف".

لن تغضبني كلماتك، ولن أهبّ أردّ الاتّهام بحجج ومبررات واهية، فمن يعبّر عن سعادته بإطلاق العيارات النّاريّة، وبإهدار دم الأبرياء هو -دون شكّ-

متخلّف، ويستحقّ الموت؛ لذلك فقد حزن والد فيصل حزناً عظيماً، وحبس نفسه قي غرفته، حتى قضى حزناً، فمات نادماً منكوداً.

أنت تعرف يا صديقي معنى ألم الضّمير؛ فقد حزنتَ طويلاً على كلب أرديته قتيلاً دون قصد في رحلة صيد ، فما بالك بمن يردي ابناً أو أخاً أو صديقاً بسلاحه العابث؟

عزيزي جورج،

صدّقني، هناك مستحيل في الطّبّ؛ لذلك من المستحيل أن تقدر على ردّ عين فيصل، أو على ردّ والده إلى الحياة، أو على أن توقف أحزاني على أخي ووالدي، ففيصل كان أخي الصّغير، ووالده كان والدي، الذي لطالما حدّثتك عن عجيب حبّه وحنانه.

أنا لم أعد قادراً على مزاولة مهنة الطّبّ منذ تلك اللّيلة المشؤومة التّي عجزتُ فيها عن ردّ عين فيصل إلى مكانها، لكنّني أعمل الآن في جمعيّة وطنيّة لمكافحة إطلاق العيارات النّاريّة، وشعاري دائماً: "أوقفوا استعمال إطلاق العيارات النّاريّة في المناسبات؛ لأنّ من المستحيل أن نعوّض ما نفقد بسببها".

عزيزي جورج،

عندي رغبة حقيقيّة في البكاء، لكنّني أخجل من الاستسلام لهذه الرّغبة الملحّة.

لا تنساني يا صديقي العزيز من دعائكَ؛ فهو عزاء المنكوبين، ولك عميق حبّي.

أخوك: سالم

المأتم الثّاني [1]

حليمة المجنونة

يقولون: "الغرباء يرون بأعين نافذة"، لكنّني لستُ غريباً، لكنّني قضيتُ زمناً طويلاً في بلاد الصّقيع والبرد أشرئبُ للدّفء وللعلم، وأحلم بالعودة إلى قرية تنام بين أحضان الزّيتون والبلوط، وتحلم دائماً بالأفراح وبمواسم جني الثّمار وبالزّواج وبمآدب الطّعام وبالأهازيج وبالدّبكات، وتحتال على الزّمن لتسرق السّعادة منه في لحظات اللّقاء، وتنثر الملح في عيون الحاسدين والغرباء، وتستقبل الآتي بالزّغاريد.

لكنّها قرية تنسى الحكايات كلّها، تنسى حكايات البائسين والهاربين والمظلومين، وتنسى كذلك حكاية حليمة المجنونة، وتبتلع ماضيها كلّه، فتحليها إلى أسطورة عرجاء، تتصيّدُ الأفراح والولائم، تأكلُ منها بنهم، وعلى عجل، وترقصُ فيها كيفما اتّفق، فتثيُر ضحكَ النّساء، وصخبَ الأطفال، وتصفّقُ بعتهٍ بفردتي الحذاء اللّتين تربطهما إلى بعض منذ سنوات حول رقبتها بخيط قنب شبه بالٍ.

كم لهوتُ في الماضي مع أطفال القرية بأحزان تلك المرأة الكسيرة! كم طربنا إلى بكائها وجنونها! وهي تطاردنا من حي إلى آخر، ومن ربوة إلى أخرى؛ لنردّ إليها الحذاء الصّغير الذي تلفّ خيطه حول رقبتها، فنردّه إليها بعد أن ننهكها بكاء وركضاً، وتنهكنا ضحكاً وتسلية، ما بالينا يوماً بأحزان حليمة، ولا

١- حدث في قريتنا.

سألنا يوماً من تكون حليمة المجنونة، فقد كنّا نظنّ –لجهلنا– أنّ المجانين دون حكايات أو ماضي أو أحزان، فقط هم بدموع وبطقوس عتهٍ.

لكنّني اليوم أعرف من هي حليمة، وأعرف أنّ حليمة لم تكن مجنونة، بل كانت أمّ سعد لعشرين عام من الزّواج، قبل أن يجود القدر بسعد، فيأتي وليد العجز والشّيخوخة وسنوات الانتظار.

عينا حليمة الغائرتان في صفحة وجهها الذي لوّحته الشّمس، وجلده حزن دفين، كانتا أوّل صيحة هزأتْ بأفراحي في القرية، كما هزأتْ بأفراح أهلي وبزغاريدهم التّي كلّلتها طلقات ناريّة لعينة، تستقبل السّعادة بالموت، جاءتْ حليمة كعادتها في حمّى من الجنون والصّراخ والزّغاريد، وسرعان ما انقضّتْ على ابن خالي الذي تمترس وراء سلاحه الصّدأ، يعبّر به عن فرحه بطريقة تذكّرني برجال الغابات الأوائل، وبطقوس الدّم والتّضحية البدائيّة، طفقتْ حليمة تعضّه بجنون، وتصفعه بفردتي حذائها الصّغير ذي السّرّ الدّفين، وكاد الأولاد يشرعون بطقوسهم اليوميّة في إزعاج حليمة، لكن يدي امتدتا دون إرادة مني إلى جسد حليمة الصّغير، وجذبتاه بحنان، لأوّل مرّة تحزنني دموع حليمة، وتستفزّني أحزانها، أنهرُ الصّغار بشدّة، فيبتعدون عنها، أعدّل من هندامها الأزرق الدّاكن الذي احتلّتْ الأوساخ والمِزق جلّ نسيجه، أمسّد على رأسها، وأجلسها بالقرب من زهور الرّيحان التّي تعتني بها جدتي منذ زمن طويل، وأطلب لها الماء والطّعام، وأشرع أراقبها تأكل بهناءة عجيبة، وبانكسار محزن.

حليمة المجنونة –وفقاً لما تقوله جدّتي– كانت جميلة القرية، وسيّدة النّساء بالعقل والخلق والاتزان، انتظرتْ سعداً عشرين عاماً دون كلل أو تعب، طوّفتْ على القبور والأضرحة والمشعوذين والأطبّاء، تضرّعتْ إلى الله طويلاً كي يأتي

سعد الذي تتكنّى باسمه منذ دهر، فتتجـرّع الحرمـان والألم كلّمـا صـكّ اسمـه أذنيها المشنفتين بشوق لكلمة ماما.

وجاء سعد بين غفلة التّمنّي وشهوة الانتظار ومفاجأة القدر، وأبدل الحـزن سـعادة، وغـدتْ أمّ سـعد تطـرب لكنيتهـا، وتختـال بفخـر بسـعد ذي العيـنين العسجدتين المكحّلتين بالإثمد، والمطوّق بالرّقى والحجابات وقطع الذّهب المحلاّة باللّون الأزرق؛ لتردّ عنه العين والحسد.

اشترى أبو سعد -الذي يستعجل اللّحظات، ويحـثّ السّـاعات لتمضـي سريعاً، فـيرى سـعداً رجـلاً يرافقـه في الزّيـارات، ويشـاركه حضـور الأفـراح والأتراح- حذاءً صغيراً لسعد كـي يكـون حـذاءه الأوّل، كـان حـذاءً طفوليـاً صغيراً، عليه قلوب حمراء، وضفادع صغيرة.

لكن أمّ سعد قد زهدتْ بهذا الحذاء، فمـا كانـت تريـد أن يفارقهـا سـعد، وقلّما خرجتْ من البيت ضنّاً به على المرض أو الإرهاق، ولزمـتْ البيـت معـه سعيدة راضية، لكن معتكفها ما كان ليعصم ابنها سعد من الموت، فقد تسـلّلت رصاصة غادرة في حُمّى عرس ما، أطلقهـا أرعـن دون حـذر ليكـرّس بصـورة وحشيّة طقوس موروثة للأفـراح، فتحـوّل العـرس إلى مـأتم، واغتـال فرحـة أمّ سعد، فرصاصته الغادرة أبت إلاّ أن تُحرق قلب أمّ أضناها الانتظار، إذ انسـلّت بدوي مخيف، واخترقت مهد سعد الذي يركن إلى نافذة قريبة من ساحة العرس، ويسدر في نوم لذيذ، مزّق ألم مفاجئ صدره، فندتْ عنه صرخة صغيرة وجلـى، سرعان ما كتمها الموت، وأخرس احتجاجها.

مات سعد، اغتالته فرحة مجنونة برصاصة آثمة، وركن إلى قبر صـغير ابتلـع جسده، كما ابتلع سعادة والديه، وعقل أمّه التّـي مـا اتسـع لهـا العقـل، ففـرّتْ

بحزنها إلى الجنون، وغدتْ حليمة المجنونة التّي تربط حذاء سعد الذي تيتم سريعاً حول رقبتها، وتطوّف به على العرصات والأحياء، تبحث عن سعد، وتتبع بكاءه الذي لا يعرف نهاية.

آه يا هاجر، لست مجنونة! بل مطعونة في قلبك وأمومتك، أمّا الجنون فهو الوصف الذي يلائم يداً تعبّر عن سعادتها بالرّصاص وبالموت.

أما آن لأحزانك أن تُجهض؟ وللرّصاص أن يُعدم، فتحلّ السّعادة والزّغاريد مكان دويّ الرّصاص، ودفق الدّماء المهدورة، والأرواح المزهقة.

من جديد تلمح عيني يدي ابن خالي تمتدّان بخرف نحو المسدس، ليعبّر عن سعادته وفخره برصاصاته الملعونة، غضب أحمر يجتاح نفسي، آهات سعد تداهم روحي، انقضّ عليه دون وعي، أضربه كيفما اتّفق، وحليمة المجنونة تزغرد باضطراب؛ فهي الوحيدة التّي فهمتْ ما عجز الآخرون عن فهمه، وعرفتْ تماماً لماذا انهلت عليه بالضّرب المحموم.

يجتمع بعض الأقارب، ويبعدونني بالقوّة عن ابن خالي الذي كدتُ أهصره بلكماتي المتشنّجة، تحوقل جدّتي، وتضرب أمّي كفاً بكفّ، وهي تقول: "أصابته والله عين، أو أصابه جنون حليمة"، لكنّني أصرخ بلهاث يكاد يدمي صوتي قائلاً: "هذا هو الجنون بعينه، إطلاق العيارات النّاريّة هو الجنون، توقّفوا عن القتل بدعوى الفرح، توقفوا عن ذلك".

تصمتُ العيون، وفي البعيد ألمح حليمة المجنونة تزغرد مذبوحة، وهي تطارد عين الشّمس التّي تتهيّأ للأفول، وتجتهد كي تجد سعداً قبل أن يخيّم الظّلام؛ فسعد يخشى من الظّلام؛ لأنّه طفل صغير، والأطفال الصّغار يخشون الظّلام والرّصاصات الطّائشة.

المأتم الثّالث[1]

حالة خاصّة

كم حاولتُ أن أُفهم القاضي والمحامي الخاصّ بي أنّ حالتي حالة خاصّة! لكنّ أحداً منهما لم يفهم ذلك، وكاد ذلك القاضي الأحمق المأسور لسطور قانونه الرّتيب أن يرسلني إلى مستشفى الأمراض العقليّة، فقط لأنّه لم يفهم معنى حالة خاصّة؛ لذلك فقد أرسلني إلى حبل المشنقة.

أليس هناك حالة خاصّة في الأعراف الدّوليّة؟ أو في القوانين الوضعيّة؟ أو في الأحكام الفقهيّة؟ فضلاً عن قانون العقوبات والجنايات الكبرى؟ فلماذا إذن لا يقدّرون ملابسات جريمتي؟ ويعدّونها حالة خاصّة؟ فيطلقون سراحي، أو حتى يخفّفوا الحكم الجائر الصّادر بحقّي؟

أنا لا أخشى الموت، ولا أخشى كذلك حبل المشنقة؛ ليس لأنّني شجاع، أو صالح أو حتى عبثيّ أو وجوديّ، بل فقط لأنّني ميّت من قبل أن يعدموني؛ لذلك فمن السّخف أن يخشى ميّت الموت، أيخشى الغريق من البلل؟ أتخشى الطّيور من الارتفاعات؟ طبعاً لا. إذن من الطّبيعيّ أن لا أخشى الموت، لكنّني أخجل من دمعة أمّي، وأشفق عليها من التّصدّع حزناً، كما أشفق عليها من أن تفقد ابنين في عام واحد.

قد يقول قائل أنّني قد ساهمتُ في صنع آلامها، وفرّطتُ بنفسي بدل أن أحافظ عليها من أجل رعاية أمّي الثّكلى، وهذا صحيح بمنطق الفلاسفة ورجال الشّرطة والقضاة، لكنّه غير صحيح بمنطق القلب والدّم والعِشْرة.

١- حدث في المعمورة.

طوال تسعة شهور كنّا في رحم واحد، فجبر لم يكن أخي التّوأم فقط، بل كان روحي وقلبي وصورتي التّي تسير أمامي ليل نهار، ما كان للحياة طعم دونه، لا يكاد أحدٌ يميّز أحدنا عن الآخر، فنحن توأمان متشابهان، حتى أمّي ما كانت لتميّز بيننا، ولعلّها حتى الآن لا تستطيع أن تجزم تماماً من هو الذي مات؟ أهو كايد أم جاسر؟

لقد وقع في نفسي منذ طفولتنا أنّني إيّاه، وأنّه إيّاي، ذكرياتنا كلّها مشتركة، أصدقاؤنا مشتركون، حتى المرأة التّي عشقتها قد وقع هو الآخر في عشقها، وعندما صمّمتُ على أن أؤثره على نفسي، وأن أتنحّى بعيداً، لكي يسعد بمن يحبّ، كان هو الآخر قد أخذ القرار نفسه، وانسحب كذلك من حياة تلك العاشقة البائسة التّي خسرتْ في لحظة واحدة عاشقين؛ فقط لأنّ العاشقين أخوان متحابّان للغاية.

كم فرحتُ عندما قرّر كايد أن يتزوّج سلمى زميلتنا في الدّراسة الجامعيّة! فهي تناسبه تماماً بدماثة خلقها، وبرقة مشاعرها، أمّا أنا فتناسبني امرأة حديديّة، مثل خديجة ابنة عمّي صفوان التّي كنتُ أنوي أن أخطبها بعد زفاف أخي التّوأم كايد.

لكنّ الأفراح والسّعادة المؤجّلة باتتْ ملغاة الآن، بسبب رصاصة ثمنها عشرة قروش، وحجمها أصغر بكثير من أصبع اليدّ، فقد قلبتْ تلك الرّصاصة حياتي رأساً على عقب، ودمّرتْ سعادة أسرة بأسرها.

تلك الرّصاصة التّي أطلقتها يدٌ مستهترة، أرادتْ أن تعبّر بها عن سعادة، لكن بطريقة شاذّة، تلك اليد كانت يد جارنا عمران، الذي يمتّ بصلة قرابة لأمّي الحبيبة، ويسمّيها تأدّباً: "خالتّي".

يده كانت قويّة وثابتة، لكنّ القدر أوهاها في تلك اللّيلة المشؤومة، فأطلقتْ رصاصة، استقرّتْ للتّو في قلب كايد الذي لم يذق طعم السّعادة بعد، ففارق الحياة ودهشة مذبوحة تعلو محيّاه، دون أن يودّعني ولو بكلمة واحدة، أو يوصيني خيراً بأحبّته.

كم كرهتُ السّلاح والموت! وقاطعتُ أنا وأخي كايد أيّ عرس يُسمح فيه بإطلاق العيارات النّاريّة، فما يليق بنا نحن المثقّفين أن نقبل بهذه الظّاهرة المتوحّشة، كما لا يليق بأيّ مواطن صالح أن يرضى بسلوك لا أعدّه إلاّ همجيّاً.

لكنّ عمران فاجأنا برصاصته التّي كانت حجراً سُحب من بناء عظيم، فدكّه على أهله. أين المعقول في سلوك كهذا لأكون عاقلاً؟ أنا ضدّ الموت والثّأر، لكنّني ما كنتُ لأطيق أن أرى ولو للحظات أنّ قاتل أخي يتحسّس هواء الحياة، وأخي يأوي إلى رمس مظلم.

نعم، لقد قتلتُ عمران بدم بارد، وبرصاصة واحدة فتّتتْ جمجمته، فما كنتُ أطيق أن أصيب قلبه، فالقلوب غالية عندي كثيراً.

لقد حُكم عليّ بالإعدام؛ لأنّني قتلتُ مع سبق الإصرار والتّرصّد، والحقيقة أنا لا أبالي أبداً بهذا الإعدام، فقد متُ لحظة مقتل أخي؛ فالرّصاصة التّي أصابتْ قلبه قد أدمتْ قلبي كذلك، كم هو تقليد عابث وسخيف تقليد إطلاق العيارات النّاريّة في الأعراس! فالسّلاح خُلق للموت وللأعداء،لا للأفراح ولصدور الأحبّة والأقرباء.

حسناً، ليعدمني القاضي، لكن عليه أن يعدم كذلك عادة إطلاق العيارات النّاريّة في المناسبات؛ ليرتاح كايد في قبره، ولتقرّ عيون الأمهات، ولتجفّ دمعة أمّي الحبيبة.

أمّي الحبيبة،

ليتك تسمعينني الآن، أفٍّ لجدران السّجن التي تخنق الزّفرات والنّـداءات، ليتك يا أمّي تسمعينني الآن لتسامحينني، ولتوسّدي رأسي بيـديك الطّـاهرتين في قبري، أريد أن تدفني قلبي في قبر كايد، أريد أن يجمعنا قبر واحد، كما جمعنا رحم واحد، وليتك تكتبين على قبري بدموع عينيكِ: "هنا يرقد نجلاي: كايد وجاسر اللّذان قضيا ضحيّة العيارات النّاريّة، وضحيّة الجهل".

أمّي، هل تسمعينني؟

أنا خائف، خائف كثيراً.

في القدس لا تُشرق الشّمس

كم تمنّى أن يغرق عينيه في وهجها الأسطوريّ! وكاد يتمنّى أن يتفرّس في قسماتها السّماويّة، وأن يستلقي أرضاً على ظهره، وينبطح قبالتها تماماً، ويسلم نفسه إلى دفئها، فتشتمله الشّمس كما تشمل باقي البشر دون الخوف من رصاصة غادرة أو هراوة ظالمة، ودون حصار أو حظر تجوّل، أو عيون غرباء. أكثير على المرء أن يتمنّى الاستلقاء قُبالة عين الشّمس بسلام وهناء دون خوف؟

كان يبحث عنها في السّماء، ويتمنّى لو أنّ شعاعها يداعب هدبيه الصّغيرين، ولو أنّ أديمها السّرّمديّ يسكن باحتراق في عميق عينيه، ويرسو في بحيرتيهما إجلالاً لطفولته المسروقة، وأمنياته المؤجّلة.

في الأرض، وبالتّحديد حوله في مدينة القدس يسكن العدوّ والحصار والموت الأسود والظّلّ، أمّا في السّماء فكان البحث عن أمنية ضائعة تسمّى الشّمس، أجال نظرة عجلى في المكان، ومن جديد عاد يبحث عن الشّمس بحثاً موصولاً دون أن يجدها، فقد تلاشتْ منذ زمن مخلّفة الظّلّ الأسود حيث يرتع العدوّ الذي يسحقهم، تمتم بخيبة توازي آلام طفولته المصلوبة على باب القرن العشرين، وعلى مرأى من الإنسانيّة الظّالمة المتجاهلة لحزنه وألمه، وقال في نفسه: "في القدس لا تُشرق الشّمس".

صوت اللّهاث تطارده الأحذية الجلديّة ودوي الرّصاصات ينزعانه من دنياه الشّمسية، ويعيدانه إلى أرض القدس، كان الجنود يطاردون بعض صبيّة حيّة، عرفهم جميعاً، كانوا نوارس صغيرة بريئة تطاردها الوحوش الكاسرة، أخذ يهتف معهم: "الله أكبر، خيبر، خيبر يا يهود، جيش محمد سوف يعود"، وأخذ

يرشقهم ببعض الحجارة، وولّى هارباً مع الصبيّة نحو البعيد، اختبأ في إحدى الزّقاق مع صديق له من الصّف الخامس اسمه أحمد، هو يكبره بعام، لكنّه يعرفه جيّداً، كان يصلّي معه الفجر في المسجد الأقصى بحضرة المعلّم رفيق، لكن كان ذلك في الماضي، قبل أن يرحل معلّمهم الطّيّب دون عودة، وقبل أن يعلو جدار الفصل، فيغلق الدّروب دون المسجد.

الحائط اللّعين يتمطّى بظلّه الأسود الظّالم، فيغرق القدس في الظّلام، ويحجب ضوء الشّمس، ويقسم المدينة شطرين حزينين، فقد كان جداراً مرتفعاً لا يعرف الرّحمة، تمتصّ جنباته الإسمنتيّة الصّرخات والاشتياق، وتبتلعها إلى الأبد.

كان محيي الدّين الباحث عن الشّمس الأسطوريّة أقصر بقليل ممّا هو عليه الآن عندما بدأ العدوّ ببناء هذا الجدار العاتي، وسريعاً ما أصبح محيي الدّين أطول بقليل ممّا كان عليه، لكن الجدار كان أسرع منه نمواً، وأشدّ منه فتكاً، فغدا كغارب يشقّ السّماء، فمنذ أن ربض هذا الوحش الإسمنتيّ في قلب المدينة قد حجب الشّمس، وأغرق المدينة في الظّلام، ومن يومها بات هاجس محيي الدّين أن يجد الشّمس المنتظرة التّي رحلت بانكسار بسبب الجدار.

كان يريد أن يجدها إكراماً لآلاف الصّور والأفكار الممتدّة بتمطٍ في ذاكرته الصّغيرة، المسيجة ببراءتها وبلون الدّم، أراد بالتّحدّيد أن يجدها إكراماً لذكرى معلّمه رفيق الذي علّمه الصّلاة، وهو ما يزال في الصّف الأوّل، يومها قال له ولزملائه في الصّف ودفء الإيمان يعلو قسماته السّمراء: "يا أبنائي، الشّمس عادلة تغمر الجميع بنورها، ولا يحجبها ظلم".

ثم غابت الشّمس، وغاب معها المعلّم رفيق الـذي يسـكن القـرآن صـوته، وعاد بعد أيّام مدثّراً بكفن أبيض، أمّه والجـارات اسـتقبلنه بالزّغاريـد، وقـالوا: "جاء العريس". يومهـا شـقّ جمـوع المشـيعّين، وحـدّق في جسـد معلّمـه المسـجّى بطمأنينة، تفرّس في لحيتـه الرّقيقـة، وأراد أن يسـأله عـن الشّـمس الغائبـة عـن القدس، لكن الشّمس لا تشرق في القدس.

كان الجري والهروب من زاوية إلى أخرى من العـدوّ الصّـهيونيّ مضـنياً في مطاردة تبدو أسطوريّة، ودون نهاية أمام جنود لا يعرفـون الرّحمـة، كـان يلـتقط أنفاسه بصعوبة.

في الزّقاق كان الرفاق يتناوبون على الجهاد، وعلى رشق العـدوّ بالحجـارة تارة تلو أخرى، كما يتنـاوبون علـى الشّـهادة تباعـاً. في كـلّ مكـان بحـث عـن الشّمس وهو يركض، كانتْ سنينه العشر اليتيمة تركض معه، ويا للعجب! فقـد رأى شمساً منيرة تمتدّ لتكتسح البريق الآثم لآليّات العدوّ وسلاحه الذي يُشـهر في وجوه الأطفال والنّساء والشّيوخ والعزل، رأى بريقاً يمتدّ ليضيء المقدّسـات، ليمحو الجدار، وليضع حداً لانتظار الأمّهات الفلسطينيات إشفاقاً على آهاتهنّ، رأى شمساً تمتدّ كما طائر الفنّيق، تشعل ناراً تطهّر المكـان، ولا تبيـده، فتغـرق المدينة في أسطورة طائر الفنّيـق الـذي يُولـد في النّـار ولا يحـترق، بـل يتجـدّد، ويتجدّد.

كان في ركضه وهروبه، ثم في إقدامه وإصلاء العدوّ بحجارتـه كأنّمـا يفـي بنذر مقدّس مفاده زيارة أرجاء المدينة الغارقة في حزنها وفي قدّسيتها.

في نظرة أحد الجنود الصّـهاينة رأى اشـتهاء قويّـاً لدمـه، عينـاه الزّرقـاوان الخرزيتان كانتا تلتهمانه دون رحمة، رآه يقترب منه ومن الأصدقاء، كـان جسـداً

صغيراً أعزل أمام دبابة مدرّعة، أطلق قدميه للرّيح المسمّمة بالغاز المسيل للدّموع، ودلف سريعاً إلى الحارّة القديمة، كانت روح الإسلام وعمر بن الخطاب وصلاح الدّين والوليد بن عبد الملك وسليمان القانونيّ تسكنها، وذكرى الأصالة تفترعها، لكن الشّوارع المسمّاة بالعبريّة والوجوه الغريبة التّي كانت تطالعه من واجهات المحلّات ذكّرته دون رحمة بذلك الاحتلال الذي تفشّى حتى في أسماء الشّوارع، واغتصب المحلّات القديمة التّي تنتشر على طول السّوق القديم المرصوف بالحجارة القديمة.

واجهات محلّات التّحف الشّرّقيّة القديمة سرقتْ نظره للحظات، الكثير من التّحف الخشبيّة كانت مصنوعة من جذوع أشجار الزّيتون، تذكّر عمّه رزق الذي قطع العدوّ قدميه من كثرة تعذيبه في المعتقل، فأمضى حياته يصنع الأقدام الخشبيّة من أشجار الزّيتون، وأقسم على أنّه سيستخدمها ليذهب سيراً للصّلاة في المسجد الأقصى بعد تحريره، لكنّه مات قبل أن يبرّ بقسمه الدّامي.

في البعيد القديم لاح بيته الغارق في ذاكرته، بيته الذي داهمه المستوطنون الصّهاينة، وسكنوا الطّابق العلويّ منه، كم آلمه أنّهم احتلوا غرفته وغرفة أخيه نور الدّين، لكنّه حقد عليهم عندما ألقوا بتلك المادّة الكاوية على فناء بيتهم، فأحرقتْ رقبة ابنة أخته الصّغيرة، وأهدتها بالإجبار تشويهاً يطوّق وجهها الجميل، ولا يفارقه أبداً، يومها تمنّى من كلّ قلبه أن تصلي الشّمس وجوههم بالنّار، لعلّها تطهّرهم من آثامهم، وتشفي قلبه المكلوم، وإن كانت لن تشفي ابنة أخته من حروقها.

الحارّة القديمة التّي ابتلع المستوطنون الصّهاينة الكثير منها باتت هي الأخرى دون شمس، ركض محيي الدّين خارجاً منها، كان متشوقاً إلى الشّمس، وكانت الأرض تتباعد بين قدميه، البيت بدا بعيداً، والشّمس أبعد، أمّا الجدار

الفاصل فكان في قبالته، توقّف للحظات أمامه، كان العدوّ يقترب منه، ثلّة من الأصدقاء كانوا في الجوار يساندونه بحجارتهم الصّغيرة، تثاءبتْ سنونه العشر، وتاقتْ بشوق الطّفولة إلى النّور، مآذن الأقصى تدعوه بآذانها العذب إلى الاقتراب، وبدا له أنّ الجدار الفاصل أحقر من أن يوقفه، وبات العدوّ بجبروته وآلاته وموته أضعف من أن يسحق رغبة طفولته بالاقتراب من الجدار.

خطا خطوة، فاثنتين، فثلاث، فأربع، وركل بقدمه الصّغيرة جزءاً من الحجاز الحديديّ القائم على إحدى بوابات الجدار، وكاد يخطو خطوة خامسة نحو الباب، لكن الرّصاصات سارعتْ إليه من كلّ صوب، تماسك، وحاول بجسده المثقل بالجروح والرّصاصات أن يكمل خطوته، لكن المزيد من الرّصاصات الآثمة سارعتْ إلى جسده، بسرعة شعاع الشّمس جالتْ روحه في أرجاء القدس، ورفرفتْ بسعادة في جنبات القبّة والمسجد الأقصى، ورآها تحوم بسعادة في كنيسة القيامة والقلعة وجبل الزّيتون وطريق الآلام وجبل صهيون والنّبي داود والصّلاحيّة والمتحف وبئر الأرواح.

من ثم عادتْ روحه لتقبّل جسده قبلة الوداع، قدم صهيونيّة ركلتْ وجهه المسجّى على الأرض، فكسرتْ فكه، لكنّه لم يبال، الكثير من دمه تنزّى في لحظات، رأى يدي معلّمه رفيق تمتدّان إليه لتقوداه إلى طريق النّور، الشّمس تستطع في دنيا رفيق.

أخيراً آن له أن يتمطّي قبالة عين الشّمس، سمع دبيب زغاريد أمّه يتمطّى في البعيد، أغمض عينيه، وبصعوبة فتحهما من جديد، في السّماء لم تكن هناك شمس، كان يعلم أنهّا مسجونة خلف الجدار العازل، والجدار لن يمنع الشّمس التّي لم تُشرق بعد في القدس، وأسلم عينيه للنّور، وغاب.

القبّعة الزّرقاء

القبعـة الزّرقـاء التّـي طـارت بعيـداً في الهـواء المشـبّع برائحـة الكبريـت، والمشحون بحرارة الانفجار وبصوته، كانتْ آخر حركـة رآهـا قبـل أن ينزلـق في غيبوبة دافئة لزجة دبقة تشعره بأنّه قد تبوّل في فراشه في ليلـة صـيف، لم يعجبـه أبداً لون القبعة الأزرق الفاتح البهيج الذي يناسب الفتيات الجميلات أكثـر ممّـا يناسبه.

لطالما تمنّى أن يبدل لون قبّعته بأيّ لـون آخـر إلاّ لونهـا الأزرق، وتسـاءل باستهزاء وفضول: "ما علاقة اللّون الأزرق بهيئـة الأمـم المتّحـدة؟"، لكنّـه ركـن باستسلام إلى السّائد، وقبل باللّون الأزرق منذ أن تطوّع ضمن زمرة من جنـود الوطن، ليشارك في قوّات هيئة الأمم المتّحدة للسّلام في هذا المكـان النّـائي مـن أفريقيا، الذي ما كان يعرف بوجوده أصـلاً، وتـرك أمّـه المـرأة العجـوز الدّافئـة تتلعثم طويلاً باسم المكان الذي قصده إلى أن تهتدي إلى أقرب لفظ يشبهه عندما تتفاخر أمام الجارات والقريبات والصّديقات بابنها حميد عضو قوّات هيئة الأمم المتّحدة للسّلام.

جاء إلى هذا المكان بالطّائرة التّي مـا فتـئ يقـرأ المعـوذات ودعـاء السّـفر ليتصدّى لرهبتها، ولينسى أنّه على ارتفاع خرافيّ، ومن دون قصـد وجـد نفسـه طوال طريق السّفر -وقد كان سفراً طويلاً- يردّد الآية الكريمة التّـي ودّعـه بهـا الشّيخ مرزوق مشجعاً له على ما هو مقبل عليه، ومذكّراً له بأنّ ما هو في صدده هو امتحان صعب من الله، للمرة الخمسين ردّد بتلعثم وقلق: "ولنبلـونّكم بشـيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثّمـرات، وبشّـر الصّـابرين

الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربّهم، وأولئك هم المهتدون".

هو غير محافظ عن صلاته، لكن الإيمان يعمر قلبه؛ لذلك يعدّ نفسه في هذه اللّحظات الحرجة بأن يلتزم بالصّلاة لا سيما صلاة الفجر التّي أوصته أمّه خيراً بها، وهو حافظ أمين لوصايا أمّه.

جاء إلى هذا المكان بعد أن اجتاز دورة تدريبيّة مكثّفة في اللّغة وفي التّعامل مع ضحايا الحرب، وللأمانة ما كان معنياً بحروب الآخرين، فحسبه تلك الحروب التّي طحنت أمّته، وسرقت أجزاء عزيزة منها، لكن سياطاً من الخجل من النّفس ألهبتْ ذاته عندما وصل إلى ذلك المكان النّائي، ليجد بقايا بشر وبقايا أماكن قد لاكتها الحرب، وأُعملتْ فيها آلة الخراب والدّمار، كان يريد أن يحافظ على بذلته العسكريّة الأنيقة، وإن كان زاهداً بقبعته الزّرقاء، لكنّه وجد كلّ ما جُبل عليه من شهامة ومروءة وما زرعه الجيش فيه من معاني البطولة والإثار، وما ورثه كابراً عن كابر عن أمته من شجاعة طائر الفنّيق ينتفض تحت ركام الموت، ويستعدي نفسه وجهوده، ليكون في عون أولئك الضّحايا الذين انقطعت بهم السّبل، وأرهقهم الخوف والحاجة.

تلقّى الكثير من كتب الشّكر والتّقدير من إدارة مجموعته تقديراً لبطولته ولتعاونه، لكنّه ما كان ليبالي بها، بل كان يبالي باختبار الله له، وبأولئك الأطفال الشّيوخ والنّساء من المحاصرين المعرّضين في أيّ لحظة للإبادة العرقيّة.

ساعد طويلاً في زرع الأسلاك الشّائكة واللاّفتات التّحذيريّة حول الأماكن التّي تزخر بالألغام الأرضيّة، وما كان يظن أنّه سيجد نفسه في وسط إحدى تلك الحقّول بمحض إرادته، للدّقة بمحض إرادة القدر، فقد اندفع ذلك الطّفل

الإفريقيّ الصّغير ذو السّاقين النّحيلتين والجسد العاري والابتسامة البيضاء خلف إوزة صغيرة داهمت حقل الألغام، وما كان يستطيع أن يراه فتاتاً وأشلاء تتناثر في المكان، على الرّغم من أنّه كان يعلم تماماً ماذا يعني الدّخول في حقل الألغام، إلا أنّ قوّة قاهرة دفعته إلى اللحّاق بالصّغير وبإوزته في مهمّة مستحيلة لإنقاذهما، لكنّ الموت كان أسرع، فقد وطأتْ الإوزة لغماً ثار بها وبالصّغير، فتطايرا أشلاء في لحظات في حين طغى دفء عجيب على إدراكه، واحتجبتْ الرّؤية بعد أن حلّقتْ قبعته الزّرقاء في البعيد، لأوّل مرة يشعر باكتراث بمصيرها، لم يعرف أين سقطتْ؛ لأنّ الوجود غادر في تلك اللّحظات، وغار في ألم سكونيّ عجيب ملك عليه مداركه كلّها قبل أن يفقد الإحساس بألمه.

لم يعرف إن كان ذلك النّفق المتعرج ذو الألوان البهيجة سوف يقوده إلى الحياة الآخرة، وقد كان يحفظ قصصاً مخيفة روتها له جدّته آمنة عن حياة البرزخ، وعلى عجل راح يحصي تلك الصّلوات التّي ضيّعها، وشعر بندم كبير على ذلك، ولاح في ذهنه كلمات مسرور البقّال الذي كان يمازحه كثيراً قائلاً: "أتاك الموت يا تارك الصّلاة".

كان يسمع أصوات مجهولة، وجلبة غريبة بلغة عربية نادراً، وبلغة أجنبيّة في غالب الأحيان، وما كان يفهم شيئاً منها، لكنّه ميّز من تلك الجلبة كلّها صوت خشبيّ أجشّ حفظه من طفولته، وهو صوت عصا والده يتكئ عليها منذ أن دلف في عقده الخمسين حتى توفّي قبل بضع سنوات، وكاد يتمنّى لو أنّ والده ذا الجسد الصّغير، والقدم العرجاء والملامح البدويّة الحادّة يدركه في هذا المكان، فهو يشعر بخوف كبير في هذا النّفق المجهول الذي لا يدرك كنهه.

لكن أمنيته الوحيدة في هذا النّفق لم تصدف غفلة القدر، وبقي محبوساً في نفق سرمديّ عجيب، وظلّ صوت عصا والده تصكّ الأرض برتابة يستطيع أن

يعدّ معها خطوات القابض عليها يطغى على الأصوات كلّها، تخلّى بلحظة شجاعة عن كاملّ شجاعته، ورفع عقيرته بكلّ خضوع الأطفال طالباً مساعدة ولده، وساد صمت، ثم سمع صوت والده بكلّ ما فيه من حزم وحنو، يقول له: "يا حميد، عار عليك ما تفعل، تماسك، أنت بطل، لا تكن طفلاً، أتسمعني؟ عليك أن تتماسك".

من جديد ساد الصّمت، وغاب صوت قرعات عصا والده، تلك العصا التّي استخدمها بعد أن كبر، ووهن، وما عاد يستطيع أن يحفظ توازنه بوجود قدم أقصر من أختها، فقد خُلقتْ ضامرة، تجبره على عرج بادٍ جعل صغار الحيّ يلقّبونه نكاية به بـ"أبو عرّاج"، وبقي هذا اللّقب يطارده على كرهٍ منه، إلى أن تطوّع للذّهاب مع الجيش العربيّ هو وصديقه حسّان في معارك الدّفاع عن الأراضي الفلسطينيّة ضدّ العصابات الصّهيونيّة، وقتها استنكر الكلّ أن يشارك أعرج في حرب خطيرة، وسرعان ما تحوّل الاستنكار إلى شفقة، وبزمن أسرع تحوّلتْ الشّفقة إلى جليل احترام وعظيم إكبار، وعاد والده من الحرب بقدم عرجاء مقدّسة لم تعرف القهقرى أمام الصّهاينة، ولم يعد معه صديقه حسّان الذي دُفن هناك بعد أن أُستشهد في ساحة المعركة.

من ذلك اليوم ما عاد والده يُلقّب بـ"أبي عرّاج"، بل غدا يُلقّب بالبطل، ويسير بكلّ فخر يجرّ قدمه القصيرة، ويزهو بعرجه الذي اختال على أجساد قتلى العدوّ، ويتلقّى برضا ربتْ الأكف على كتفيه.

وغدا هو ابن البطل، لطالما شعر بامتنان جنونيّ لوالده الذي ورّثه لقباً كهذا اللّقب يفخر به باستمرار، ويقتنص المناسبات ليشير إليه، ويعتزّ به، لا سيما أنّه الفقير خامل الذّكر الصّغير المستضعف الذي ما كان يملك غير مجد والده البطل.

من جديد سمع صوت والده يقول بنبرة أشدّ حزماً: "عليـك أن تتماسـك، هيّا، استيقظ، أتسمعني يا حميد؟ عليك أن تستيقظ".

ما كان حميد ليعصي أوامر والده، ولو كانت أوامـره ليسـت إلاّ تهويمـات شبح في نفق عجيب، استجمع حميد ضعفه، وفتح جفنيه بصعوبة، كان الأبـيض أوّل ما لفح عينيه اللّتين بحثتا بلهفة عن قبعته الزّرقاء، وشعرتا بحـزن إذ لم تكـن موجودة، حسبه الأبيض يغرق المكان في رهبته الحزينـة، يـد الممرّضـة الإفريقيّـة مسّدت بعطف على جبهته، سأل بضعف: "ماذا حدث للصبيّ الصّغير ولإوزتـه؟" ردّت الممرّضة برطنة لم يفهم منها شيئاً، وتابع رحلته بالبحث بعينيـه عـن قبعتـه الزّرقاء في أنحاء الغرفة، لكن لم يجدها.

بعد مدّة توقف عن البحث عنها؛ لأنّه ما عاد في حاجة إليها، فقـد غـدا في حاجة إلى عصا غليظة ليتكىء عليها؛ ليعود إلى وطنه بعد أن فقد قدمه اليسـرى في الانفجار المريع الذي تعرّض له، لكنّه كان يشعر بالفخر، بـل بـوافر الفخـر؛ لأنّ قدمه أُستشهدتْ في سبيل إنقاذ طفل وإوزته من لغم آثـم، وأحـسّ في ذاتـه بدبيب فخر، خمّن أنّه سوف يلازمه طوال حياته؛ لأنّه كـان يومـاً مـن أصـحاب القُبعات الزُّرق.

أمينة

أمينة لم تكن امرأة استثنائيّة، لكنّها كانت امرأة تجيد الخجل من نفسها؛ لذلك أدارتْ ظهرها للحائط، وبكتْ، في حين كان يمكنها أن تتبجّح بجمالها، وأن ترتقي تمثال شرف، ولأنّها رفضتْ أن تدنّس قدسيّة حجر، فقد غدتْ في ذاكرتي امرأة استثنائيّة، وإن كانت مهنتها القميئة تحتّم عليها أن تهب جسدها لكلّ شارٍ آثم، يدسّ جنيهات قليلة في يديها المرتجفتين، ويستبيح صلب روحها في جسدها الصّغير البضّ.

أظنّ أنّها كانت تنحدر من أسرة طيّبة، لم ترث شرف المحتّد، وعراقة النّسب، لكنّها ورّثتْ أبناءها الكدّ المثابر، والثّقافة المتنوعة، والنّفس الذوّاقة للآداب والفنون، اعتدنا على أن نراها في المعارض الفنّية ناقدة رقيقة، وذوّاقة ماهرة للألوان والحركات والوجلات، ولم تعد زوجة زميلنا الرّسام التشكيلي الموهوب وحسب، بل غدت عضواً يجيد الرّسم بالنّظرة والكلمة والإحساس، وإن كان لا يجيد الرّسم بالفرشاة والألوان، وحفظنا جميعاً اسمها، فقد كان اسمها السيّدة أمينة.

لكن بعد موت زوجها الفنّان في حادث مأساوي، غدا اسمها أمينة، ولا شيء غير أمينة، ولم تعد فنانة كلمة، ولا سيّدة ذوّاقة، ولا حتى زوجة زميلنا الرّسام الموهوب، بل غدت امرأة تُشترى لياليها بالمال، بعد أن فشلتْ في أن تجد عملاً يسدّ حاجتها وحاجة أطفالها الأربعة، وألحّ عليها صاحب البيت والبقّال والجزّار بدفع مستحقّاتهم التّي في ذمتها، لكنّها كانت تصرّ على أن يكون زبائنها من الرّسامين والمثقّفين، لا من دهماء الشّوارع، وزوّار الخانات والدّور الحُمر.

لبستْ الجلد الأسود المثير بدل الغلائل الرّقيقة، وأبرزتْ صـدرها الصّـغير الخجول، وأطلقتْ العنان لشعرها الأسود الطّويل بعد أن صبغته بالأحمر القاني، فبدتْ مثل مهرة جهنميّة مثيرة، لكنّها بقيتْ أسيرة الألوان، تقف أمام اللّوحات طويلاً، تتفرّس الخطوط والألوان، وتنحني مع الظّلال، ثم تلتقط زبون اللّيلة.

مرة قفزتْ إلى جسدي حمّة حيوانيّة جائعة، وفكّرت بـأن الـتّهم جـزءاً مـن روح أمينة، أوصلتها إلى البيت ليلاً بعد حفلة صاخبة، وتحسّسـت محفظـتي دون إرادة مني، فقد كنتُ أريد أن أشتري جسـد أمينـة، ولـو لـدقائق، لكـنّ نظرتهـا الكسيرة جعلتْ رجولتي الشّيطانيّة ترتدُّ عاجزة كسيفة، فمن هو الـذي يسـتطيع أن يلوك دموع أمينة؟ أنا لا أستطيع ذلك، صمتتْ أمينة، وبكيتُ طـويلاً؛ لأنّـني أخجل من دموع النّساء الكسيرات، وأتعاطف بشكل خاصّ مع اسم أمينة.

بعد أيّام قابلتْ أمينة، كان ذلك في اللّيلة الأخيرة قبل افتتاح معرضي، كـلّ شيء كان معدّاً كما يجب، إلا تلك الصّخرة الصّغيرة التّي لا يربو ارتفاعها عـن متر واحد، كانت في حاجـة إلى حركـة مـا، إلى روح مـا، إلى حـزن مـا، تنـاوب الحاضرون من الأصدقاء وتلاميذي في قسم الفنـون التّشـكيليّة وبعـض مُحبّـي الفنّ والمتطفّلين على المكان على الوقوف عليهـا بأشـكال استعراضـيّة متفاوتـة متباينة، نظرة الكبر والاستعلاء كانتْ القاسـم المشـترك بـين وجـوههم، خـيلاء لئيمة سكنتْ قسماتهم وعيـونهم التّـي تستضـيء بنـور كشّـاف يُسـلّط عليهـا، وتشرئب في داخل عيونهم نظرات الانقطاع عن العالم الذي يسـمون عنـه فقـط بمسافة متر، فتسكب في أرواحهم معاني التّوحّد والذّاتيّة، فيختـلّ جمـال الحجـر تحتهم، ويغدون في لحظات قطع صخر أخـرى نصـبتْ علـى صـخرة، لا بشـراً يقفون على صخرة.

لكن ما هذا ما أردتُ، لم أرد نظرات استعلاء وتكبّر، وعيون تتبجّح، وقسمات يكسوها نور اصطناعيّ، بل أردتُ أحزان أمينة، التّي وقفتْ أخيراً على الصّخرة وقفة تجتهد لتكون استعراضيّة، لكنّها تفشل في ذلك بعد أن دفعتها يدي فنان مستهتر إلى الصّخرة بعد أن ضغطتا بقوّة على إليتيها الصّغيرتين.

وقفتْ أمينة مرتبكة مضطربة، برزتْ قسماتها الحزينة في صفحة وجهها الذي غمر ضوء الكشّاف كسوفه وزرقة بشرته المنهكة، صفّق الجميع لأمينة، لكنّها انكمشتْ على نفسها، وأدارتْ جسدها للجميع، وانكفأتْ على الحائط، وشرعتْ تبكي بحرقة، فهي لم تشعر بالكبرياء وهي ترتقي صخرة، ويكسوها النّور، وتشرئب إليها الرّؤوس والعيون، بل شعرتْ بأنّها عارية، فخجلتْ من عريها، وبكتْ بشدّة؛ فأمينة لم تُخلق لتكون عارية.

هديّة الإله [1]

قراءة في مخطوطة "سِفرْ العاشقين"

(مخطوطة ح/ب ١)

تتضارب الأقوال والتّصريحات والمراجع والأسفار المقدّسة حول سبب خلق ذلك الكائن العجيب الذي اسمه امرأة، لكنّها جميعاً تجمع على أنّ الإله قد خلقها في لحظة تجلٍّ ورضا، وعلى أنّه جعلها خلاصة إبداعه، وشبيه مخلوقاته جميعها، فأخذ من البحر هديره، ومن السّماء كرمها، ومن الأرض حنانها، ومن الشّجر حفيفها، ومن الشّمس وهجها، ومن الوحوش غضبتها، ومن الزّهور أريجها، ومن الماء عذوبته، ومزجها جميعاً، ونفث فيها من روحه، فكانتْ المرأة، فأهداها للرّجل الأوّل الذي لا تذكر الأسطورة شيئاً عنه سوى أنّه كان كثير التّذمّر، ولا يقدّر هدايا الإله، ويعيش في وحدة خرافيّة.

كان الرّجل الأوّل زاهداً بهديّة الإله، وسرعان ما ضاق ذرعاً بها، فهي أقامتْ الدّنيا فوضىً، ولم تقعدها، وملأتْ دنياه نشاطاً ومرحاً وسلبته راحته ورتابته المجيّدة، وألهته حتى عن صنع المذنّبات التّي كان يعشق صنعها، حتى أنّه توقّف عن كتابة مذكّراته الماجدة منذ أن جاءتْ، وحلّتْ ضيفة إجباريّة في بيته الطّينيّ الصّغير، فقد كان إرضاؤها والشّجار معها ومطاردتها في الوديان أموراً تستنفذ الوقت كلّه، وتستنزف الجهد والرّغبة في الخلوة.

لكنّها أصبحتْ حديثاً كائناً لا يُطاق، يبكي كثيراً، ويغضب أكثر، وقلّما يفيض عليه بالسّعادة والحنو اللّذين كان يشعر بهما معها في الماضي القريب،

---

١ – تحقيق فضيلة العلاّمة إنسان بن إنسان بن إنسان أطال الله بقاءَه.

وإنهاء لألمه وحيرته فقد حسم أمره، وقرّر أن يردّ هديّة الإله، ويضع بذلك نهاية لسِفْر عذابه مع هذا الكائن العجيب الذي ما سعى للحصول عليه أبداً.

لقد كاد يتراجع عن قراره عندما تفاجأ صباحاً بصحاف من طيب الفاكهة قد أُعدّت له، بعد أن جمعتها المرأة من الغابة أثناء نومه، لكنّه عاد وجدّد النيّة، وعقد العزم على ما كان قد نوى أن يفعل عندما غضبتْ المرأة مساء؛ لأنّه داس دون قصد بعضاً من محاراتها الجميلة التّي جمعتها من الشّاطىء، فكسر بعضها، فاتّهمته بتجاهل مشاعرها، والتّدخّل بخصوصيّاتها، وهدر ممتلكاتها.

وقف الرّجل الغاضب أمام الإله الأسطوريّ الغارق في بياض لحيته التّي كادتْ تلمس الأرض، وقال له بصلافة: أنا لا أريد هديتك هذه، خذها؛ فأنا لم أعد قادراً على العيش معها أبداً، الحياة معها جحيم أحمر. هزّ الإله كتفيه دون مبالاة، وقالها: لك ما تشاء، فالمكان هنا يتسع لي ولها ولك إن شئتَ.

- "لا أريد أن أعيش في مكان هي فيه"، قال الرّجل وهو يغادر جنّة الإله لا يلوي على شيء سعيداً بتخلّصه من هديّة الإله، وإن كان يشعر بحزنٍ يغالبه بصعوبة كلّما تذكّر نظرة الانكسار في عيني المرأة، وهو يردّها إلى الإله.

"لكنّه لن يعود إليها، نعم، لن يعود إليها"، كرّر هذه الجملة في نفسه ألف مرة، لكنّه عاد، ووقف أمام الإله منكسراً موزّعاً بين كبريائه المهدور وقراراته الخطيرة، وبين شوقه إلى تلك المرأة التّي لم يفارق طيفها خياله، وطغى صوتها ورائحتها وحركاتها عليه حتى وهي غائبة، فملك حواسه عليه، ونفذ إلى مداركه، قال للإله بتلعثم يوتّره الخوف من الصدّ والرّفض: "لسبب أجهله أنا لم أعد قادراً على العيش دونها، يا إلهي، ردّها إليّ، وسيكون لي شأن آخر معها".

كاد الإله أن يرفض طلبه انتقاماً لنفسه، فأنّى لبشر أن يردّ هديّة منه؟ لكنّ المرأة تضرّعت طويلاً له كي يردّها إلى رجلها، فسرقتْ موافقة رحمانيّة منه، وغادرتْ المكان، وهي تتأبّط ذراع الرّجل، فيما وقف الإله يراقبهما بصمت عميق، ثم قال: " لا بدّ أنّ كليهما مجنون، ربما كلاهما مجنون، أو أنّ كليهما عاشق"[١]

- تعليقات توضيحيّة بقلم العلاّمة المحقّق:

١. الجنون والعشق مخلوقان من مادّة واحدة.

٢. الإله خلق المرأة في لحظة غضب ليكسر صلف الرّجل.

٣. المرأة لم تغادر الجنّة، بل بقيت فيها خالدة تنتظر عودة الرّجل.

٤. الرّجل هو المسؤول عن إتلاف باقي هذه المخطوطة لأسباب أمنيّة خطيرة.

(مخطوط ح/ب ٢)

من جديد تسلّل الملل والغضب إلى نفس الرّجل، فقد باتتْ الحياة مع المرأة محنة لا تُطاق، فقد غادرتها رشاقتها المعهودة منذ أن اعتادت على أن تنضخّم لأشهر تسعة، ثم تتفتّق عن كائن لحميّ غريب، يشبهه، ويشبه المرأة، وإن كان كذلك يشبه صغار القرود، وإن اختلف عنها بشحّ شعر جسده، فالقرود تُولد بشعر كثيف ناعم مثل الزّغب.

١- ملاحظة: باقي المخطوطة تالفة تصعب قراءتها.

أصبحتْ المرأة عصبيّة، وشعر الرّجل لأوّل مرة في حياته بأنّ حنانها أصبح ملكاً لغيره من الصّغار أشباه القردة، جاهد نفسه لينتصر على حاجته إلى حنانها، لكنّ نفسه خذلته، فوجد نفسه يتكوّر إلى جانبها ليلاً، ويوسّد رأسه إلى صدرها الدّافئ.

بدأت الأمور تختلط، تماماً كما اختلطت المشاعر، وتضاربتْ في نفس الرّجل، وشهدتْ السّماء مئات المرّات من ردّ المرأة إلى الإله، ومن التّضرّع والبكاء عند قدميه لاستعادتها.

بات من المألوف أن يُسمع صوت الرّجل في الجنّة مجلجلاً يردّ هديّة الإله، أو ذليلاً يرجوها أن تأوب إليه، حتى ما عاد الإله يأبه بالرّجل الذي أسماه الأحمق، ولا بالمرأة التّي أسماها الحمقاء، وإن كان يدعوهما أحياناً بالعاشقين، وردّ المرأة بشكل نهائيّ إلى الرّجل، وقال له وهو يغادر المكان غير آبه بشكوى الرّجل وبتذمّره المستمرّ من المرأة: "أنتَ لا تستطيع أن تعيش مع المرأة، ولا تستطيع أن تعيش دونها؛ إذن حاول أن تستطيع أن تفهم كيف تعيش مع المرأة".

قال الرّجل بقهر المظلوم: لكنّني بحقّ لا أستطيع العيش معها.

ردّ الإله بسأمٍ بادٍ: ها قد عدنا من جديد.

كائن ليليّ

يصرّ على أن يسكر طوال النّهار، فيتطوّح يمنة ويسرة هنا وهناك، يجدّف ما شاء له السّكر أن يفعل، يتفتّق ذهنه عن كلمات يكتبها على عجل على ورقه الأصفر، تتناسب كلماته مع قرفه، ومع وحي اضطرابه، وصعوبة تعاطيه مع نفسه وعالمه، يسمع على مضض موسيقى عالميّة؛ لأنّ المثقف المأزوم –وَفق ظنّه– عليه أن يكون ذوّاقاً للموسيقى العالميّة، ملمّاً بالثّقافة المحليّة، وحرصه على الإلمام بتلك الثّقافة المحليّة يجعله يستقطب راقصات المنطقة وبائعات الهوى فيها، إذ هنّ مكوّن أساسيّ من مكوّنات ثقافة الفراغ والهزيمة والسّقوط التّي يمثّلها، ويطرب للعيش على جلدها الموبوء.

أمّا في اللّيل، فيستيقظ، يكتب، يقرأ الصّحف والمجلّات، يطارد الأخبار ومواقع الأنباء على الشّبكة العنكبوتيّة، يسبّ الأنظمة الحاكمة في كلّ مكان في المعمورة، ويتقيّأ على نفسه وعلى تاريخه الفارغ، ويعلن لعشرات العشيقات اللّواتي يلبس إحداهن في كلّ ليلة أنّه كائن ليليّ؛ لذلك يستبيح اللّيل وسلوكيّات الكائنات اللّيليّة المنبوذة.

يشعر هذه اللّيلة بإعياء شديد، وتتوق نفسه إلى راحة طويلة، يستلقي في فراشه الذي يستسلم لروائح السّكر والانكسار والمرض ودموع بائعات الهوى، يتحسّس جلده الذي يغزوه وبرٌ كثيف، يأرجح ذيله الصّغير بكسل، ويستسلم لقدره بأن يكون كائناً ليلاً، ويغطّ في سبات شتويّ طويل.

صوت الصّمت

مـن الميّـزات المفترضـة التّـي يعـدّها سـاكنو أسـطح المنـازل مـن الفقـراء للأعشاش التّي يعيشون فيها، وتسمّى بيوتاً، أنّها تشرف على الأحيـاء المجـاورة، فتراها من علٍ، حيث تُرى الأشياء من هناك على حقيقتها، فمن يرى مـن عـلٍ يرى الأمور كما هي، لا كما يُعتقد، أو كمـا يُفـترض، وهـذه مقولـة تحتـاج إلى نقاش، لكن ما يعنيني من هذه المقولة أنّ من يرون من علٍ قد يعجـزون كـذلك عن رؤية جيرانهم من سكّان الأسطح على حقيقتهم.

أنا شخصيّاً اكتشفتُ في تلك اللّيلة أنّي على الرّغم من فضولي الإنسـانيّ العجيب لم أرَ فتحيّة جارتي منذ عامين على الرّغم من أنّي قد احترفـتُ مراقبـة الجيران، سكّان البيوت المتزاحمة حدّ التّدافع في الحي، وحفظتُ عـن ظهـر قلـب محتويات أسطحها من الخردة والقمامة والأحذية البالية والملابس القديمة وحبال نشر الملابس.

لكن فتحيّة هي من لم أرَ، لعلّها لو كانتْ تسكن في شقّة أسـفل منّـي، لا في غرفة ملاصقة لغـرفتي، إذن لكنـتُ اسـتطعت أن أراهـا، اعتـدتُ علـى رؤيتهـا بسحنتها السّوداء القاتمة، وقسماتها البارزة، وهيكلها العظميّ المتدثّر بثوب أسود قديم، تذرع المكان ذهاباً وإياباً دون أن تنبس ببنت شـفة، حتـى خلـت أنّهـا لا تراني، وقد راقني ذلك، فأنا باغي هدوء وخلوة، وهـي ليسـت المـرأة التّـي قـد يطمح الرّجل إلى الحديث معها؛ فهي أقرب ما تكون إلى طلل امرأة يخلو من رقة أو أنوثة، كلّ ما يشغلها هو أن تقضي حاجة ثم تعود مسرعة إلى غرفتها الجحر،

أو تخدم أمّها المقعدة، أو أخاها المُعاق عقليّاً منذ أن وُلد، فيظنّه الرّائي ابن تسع سنوات، لا ابن تسع عشرة سنة كما قيل لي إنّه قد بلغ من العمر منذ أشهر.

لم أسمع فتحيّة تنبس يوماً بكلمة، ولوما أنّها كانت ترافق أختها المتزوّجة أحياناً حتى بداية السّلّم، وتودّعها بطيب الكلمات، لما عرفت أنها تجيد كلاماً أو لغة، فهي امرأة صامتة شأنها شأن أسرتها المتهالكة بين يدي المرض والفقر، وحمداً لله الذي يسرّ لي أسرة صامتة؛ إذ إنّ الحائط الإسمنتيّ الرّقيق ما كان ليمنع أيّ ضوضاء أو كلام من أن يتسرّب إلى غرفتي، فيمنعني لذيذ الرّاحة، وعزيز الهدوء الذي أحتاجه في مهمّة دراستي الجامعيّة.

كان من المحتمل أن تبقى فتحيّة صامتة إلى الأبد، ودون أن أعرف قصّتها، وما كنت لأبالي بذلك، وأخال أنّ القليل من الرّجال كان سيعنيه أن يعرف قصّة امرأة أخطأها الجمال، وخانها الشّباب، ولم يحالفها الحظّ يوماً، لكن حادثة مفاجئة أجبرتني على أن أسمع قصّة فتحيّة؛ كانت ليلة ماطرة من ليالي الشّتاء الباردة عندما استيقظ الحيّ على صوت سيّارة الإسعاف، لم نعرف من استدعاها، ولم نخمّن سبب حضورها، لكنّنا تفاجئنا جميعاً عندما عرفنا أنّها جاءتْ لتُسعف فتحيّة الصّامتة صمت القبور، أحدٌ لم يعرف ما حدث لها، غادرت الحيّ دون مشيّعين لها من الأهل، ودون أصوات استغاثة أو ألم أو بكاء، وعادتْ إلى المكان أيضاً بصمت في الهزيع الأخير من اللّيلة نفسها، لكنّها عادت مختلفة، عادتْ امرأة لا تعرف الصّمت، طوال اللّيل هذرتْ بكلام لا يتوقّف، يهدر بغضب ومقت وحقد، حمّمتْ أخاها المعاق في حوض حديديّ صدأ، صفعته كثيراً دون رحمة، فتأوّه بشدّة، وأطلق بكاء مثل حشرجات صلدة، ثم اتّخذتْ مكاناً قريباً من الحائط الذي يفصلنا، فبات صوتها قريباً منّي كثيراً، لعنتْ الدّنيا والنّاس، وجدّفت دون حياء، ولامتْ أمّها وأباها وأخاها وأختها

وكلّ من عرفت ولم تعرف على معاناتها الطّويلة، وعلى حرمانها، كانت فتحيّة شقيّة وظالمة ومظلومة وبشعة ومهمشة من الدّاخل كما هي بشعة من خارج.

صرختُ بملء فمي وأنا أركل الحائط الذي يفصلنا قائلاً: "يكفي ثرثرة، دعينا ننام يا فتحيّة"، لكنّ هدير كلام فتحيّة لم يتوقّف، فلبستُ على عجل، وهمتُ على وجهي في الشّوارع حتى حان موعد أوّل محاضرة، فذهبتُ إليها، واتّخذتُ مكاني في المقاعد الخلفيّة، وأكملتُ نومي.

حلمت بأنّني قد رحلتُ من غرفتي هرباً من هدير كلام فتحيّة، ووضعتُ فرضيّات مضحكة لانطلاق لسانها بعد عمر من الصّمت، واستيقظتُ وفي نفسي أن أحقّق حلمي، لكنّني سرعان ما اكتشفتُ أن لا حاجة لتحقيقه، فقد هربتْ فتحيّة من البيت دون رجعة، وتركتْ أخاً ميّتاً من الصّفع والرّكل في وعاء استحمام حديديّ صدأ، وأمّاً ميّتة في فراشها إثر نوبة قلبيّة حادّة.

من جديد ساد الصّمت في غرفتي التي فوق السّطح، وإن كنتُ ما أزال أسمع من حين إلى آخر صوت صمتْ فتحيّة يصكّ المكان، فأشعر بخوف لا أجدُ له تفسيراً، فانكمش في فراشي، وأتظاهر بالنّوم إلى حين يرحل صوت صمتها الرّهيب.

هلال المجرم

تدفقّتْ الجماهير الغاضبة من الزّقاق والعرصات والشّوارع، وشكّلت سيلاً عرمرماً يهدّد بابتلاع مقرّ إقامة فخامته، نجحتْ الشّرطة بأن توقف الغاضبين عند تخوم القصر، لكنّها ما كانت لتعد بالمزيد من الضّبط والحماية؛ فالسّؤال الملحّ اللاّهث يضطرم في النّفوس، ولحظة الإجابة عنه ستكون نار تلظّى، والجماهير تطالب برأس من تسبّب بهزيمة الأمّة، وفضح سترها في تلك الحرب العجيبة التّي انتصر فيها شرذمة من الضّعاف الجائعين على فلول المجاهدين الأبرار، والتّي خرست فيها أسلحة الوطن، في حين أنشدتْ فيها أسلحة العدوّ ترانيم النّصر والمجد.

بحركة تمثيليّة متقنة أقنع فخامته الشّعوب بعدالة غضبها، وانضمّ إلى صفوفها انتفاضتها، وخلع من رقبته طوق الاتّهام، ووضعه في رقبة معاونيه وكبار قوّاد دولته الماجدة المنتصرة، وأقسم بشرف أمّه سليلة المجد المدّعى والحسب المزعوم على أنّه سيسلّم المجرم بحقّ القوميّة والوطنيّة والعروبة إلى الشّعب قبل أن تغيب شمس ذلك النّهار الذي يحمل في حرارته تباريح الموت.

تسرّبت الرّاحة إلى نفوس الجماهير الغاضبة، وطالبتْ بمحاكمة عادلة تردّ الأمور إلى نصابها، وتبرّئ المظلومين، وتجرّم الخائنين، طار فخامته بالفكرة، وهلّل وكبّر، ووسّم نفسه وسام الحرّيّة والعدل، وسمّى نفسه رئيساً أعلى لتلك المحكمة التّاريخيّة.

تابعتْ الجماهير تفاصيل المحاكمة، وتجرّعتْ على مضض إجراءات التّفتيش والتّحقيق والتّنكيل والتّبريء، وذاقتْ مرارة السّجن والتّعذيب والبطش، لكنّها تحمّلت ذلك كلّه بصبر عريض لأنّها كانت مؤمنة بأن يوم الانتقام قريب.

وجاء اليوم المنتظر أخيراً، إذ سُمّي ذلك اليوم بناء على رغبة فخامته بـ"يوم الغضب"، وشهدتْ المحكمة أعجب تفاصيل المقاضاة والتّبرئة والتّجريم، فقد بُرّئ فخامته؛ ضنّاً به على الخيانة، وبُرّئ معاليهم وسعاداتهم وسياداتهم وحضراتهم؛ لأنّهم أقوى من القانون، وبُرّئ الأعداء من جريمة الاعتداء؛ لأنّهم دفعوا ثمن البراءة لفخامته، وبُرّئ كبار القادة والجنود والضباط؛ لأنّهم كانوا سكارى ليلة المعركة، والسّكارى فاقدو العقل، والإنصاف يقتضي أن فاقد العقل لا يُجرّم بأيّ جرمة مهما اقترفت يداه، وباء هلال الأعور مجنون الأحياء القديمة بلقب "عدوّ الشّعب"؛ فقد تمخّضت التّحقيقات السّرّيّة عن أنّ خسارة المعركة كانتْ بسبب عين هلال، إذ هي عين حسودة شريرة، أصابتْ الأسلحة بالعطب، ودفعت بالجنود المسلّحين بالوهم إلى الموت، وفي تقرير أكثر سرّيّة نشرته صحيفة دوليّة مرموقة كُشف النّقاب عن أنّ هلال عميل مزدوج لأكثر من جهة معادية؛ لذلك فقد اقتضتْ العدالة أن يُجرّم هلال، وأن تُنزل به أقصى عقوبة، وأن يغرّم غرامة ماليّة ضخمة تعوّض خسارة الوطن، وتعيل أُسر الشّهداء، وتغطي نفقات إعادة تسليح الجيش، فضلاً عن إسكاره.

تفاجأ الشّعب بالحكم العجيب هذا، لكنّهم سرعان ما هتفوا بسقوط هلال المجرم، عدوّ الشّعب، وشهدوا بتشفٍ إعدامه رمياً بالرّصاص، وعادوا سعداء إلى بيوتهم، بعد أن عاقبوا المجرم، وأحقّوا الحقّ، وأفهموا فخامته أنّ إرادة الشّعوب الواعية هي من تنتصر في النّهاية.

المصعد القديم

كانوا جميعاً مسرعين مثقلين بأعباء يومهم، وقفوا متراصّين في المصعد مثل حبّات طماطم ناضجة تكاد تنهرس، كلّ يطالع ساعته بتأفّف، هي كانت زبونة حمراء لشقّة رقم (٧)، هو جاء ليتمّ صفقة مشبوهة، وهما يجتمعان مع الأصدقاء لتعاطي المخدرات، وهو عاد متحفّفاً من أمّه بعد أن رماها في دار العجزة، مثقلاً بأكياس فيها طلبات زوجته، وحوائج البيت، وهي مثقلة بوزن جسم خرافيّ حملته منذ أن هجرها حبيبها، فانتقمتْ منه بأن أكلتْ دون توقّف، فأصبحتْ مثل وسادة بالية، تكاد تتفتّق، وتلك ستحفظ دورها جيّداً، وتقسم بالله كذباً في المحكمة، وتقبض المُتفق عليه من المال، وليحترق المظلومون.

عندما توقّف المصعد فجأة، وانقطع الضّوء، أدركوا أنّهم أسرى جدرانه الحديديّة الصّلدة، كانوا معلّقين في الهواء ما بعد الطّابق السّادس عشر والسّابع عشر، أوهنوا الجدران ضرباً، لم يلبّ أحد استغاثاتهم، عندها تكوّموا على أرضيّة المصعد بتراصٍ مزعج، وسمحوا لإنسانيتهم بأن تحلّق، فالإنسان المعلّق على ارتفاع سبعة عشر طابقاً غير ملزم بهجر ذاته، اعترفوا بذنوبهم دون أن يُجبروا على ذلك، بكوا على سجيتهم في الظّلام حيث لا شهود، عقدوا العزم على التّعاظم على ضعفهم، وهجر ذنوبهم دون عودة، وطال الانتظار، وتجدّد العزم آلاف المرّات في الأنفس وعلى الشّفاه.

عندما فُتح باب المصعد بعد خمس ساعات طالع كلّ ساعته بتضجّر، وتأفّف بعمق، وغادر المصعد دون ابتسامة وداع للآخرين، وتوجّه إلى ما كان يقصده كي يكمله، فقد تأخر عنه خمس ساعات بسبب ذلك المصعد القديم كثير العطب، ونسي وعوده لنفسه، وقرارته بالتّغيير والإصلاح والتّوبة!

أصابع وقحة

كانت له أصابع يدين متمرّدة ووقحة، تكتب بحريّة، فقطعوها؛ ليريحوه من ثرثرتها المزعجة، فكتب بأصابع قدميه، فبتروها، فكتب بأصابع روحه، فأردوه قتيلاً برصاصة باردة، ودفنوه في العراء، فتسلّلتْ أصابع روحه، وكتبتْ على جدران المدينة: "لا للاستبداد"، فأحرقوا قبره اللّعين، فأصبح مزاراً لعشّاق الأشباح المتمرّدة، والأصابع الوقحة.

الكفّ

يؤمن هو بما تقوله خطوط كفّ يده، يراقبها باهتمام، يلاحق عيني العرّافة وهي تركض في خطوطها، تتنهّد، وتقول له: "خطوط يدك غامضة، لا تفسير لها، لا يمكن أن تُقرأ".

يصمم على أن يعرف طالعه، يفتح كفّه لكلّ قارئ، أحدهم يقول له: "قدرك أن تُفني العمر في البحث".

يقطع الوالي كفّ يده لجرم لا يعرفه، ويلقي بها بعيداً، فيطفق صاحبها يبحث عنها ليل نهار كي يقرأ فيها سبب قطع الوالي لها.

السيّدة أنوار

أذابت أوراقها الثّبوتيّة كلّها، ووأدتْ الماضي بسقطاته وهفواته وآلامه جميعها عندما وأدتْ اسمها الحقيقيّ، ولبستْ اسمها الفنّي الجديد "أنوار" الذي اختاره لها تاجر الأراضي الذي تحوّل في ليلة وضحاها من بائع أفلام إباحيّة إلى مدير أعمالها الفنّية، وتاهتْ باسمها غيّاً عندما احتلّ واجهات دور السّينما، وصفحات المجلّات الصّفراء، وأصبح رديفاً للدّلع والأنوثة والتّعرّي.

الحقيقة أنّ اسمها وما ارتبط به من فُحش وإثارة جعلاها تتنازل عن الكثير من قماش ملابسها، حتى بات يكفيها نصف متر من القماش ليغطي اليسير من جسدها، في حين يعلن الباقي منه الكشف والجهار، كذلك ضحّت بالكثير من قيمها وحصانة جسدها وروحها مع ما ضحّت به من القماش في سبيل أن يبقى اسمها الفنّي "أنوار" مضاء على واجهات دور عرض الأفلام.

لكن إخلاصها لفنّها هو الشّيء الوحيد في حياتها الذي لم يخضع لحملة حمية وتقليصلات وتنازلات؛ فقد كان أثيرها، وخليل روحها؛ لذا فقد كانت الممثلّة المبدعة التّي لا تتقمص الدّور أو تلبسه أو تعيشه بل تكونه ويكونها، فيبكي قلبها عندما يكون عليها أن تبكي، وتتراقص على وقع خلجات قلبها عندما يكون عليها أن تفرح.

فكّرتْ كثيراً قبل أن تقبل بدور العابدة التّاريخيّة التّي لم تسمع باسمها قطّ، وعجبتْ من نهايّتها الغريبة، إذ تحوّلت إلى خيط نور، واختفتْ، لكنّها قبلتْ بهذا الدّور الغريب على شخصّيتها من باب التّحدّي، ونزولاً على رغبة مدير

أعمالها الذي هلّل وكبّر وتقافز مثل جندب فرح عندما رأى الأصفار الكثيرة المكتوبة في العقد مقابل تأدية "أنوار" لذلك الدّور.

عجزت عن أن تتقمّص الدّور؛ فهي ما كانت يوماً عابدة ورعة، بل كانت أنوار، وأيّ خطيئة كانت أنوار؟ قررتْ أن تكون العابدة لكي تجيد تمثيل دورها، اعتكفتْ في بيتها، وفضّتْ حفلات السّهر والعربدة من حولها ، وطالتْ ملابسها حتى كستْ جسدها، وذاقتْ حلاوة الإيمان، وعرفتْ معنى احتشام الجسد والرّوح، وعشقتْ عطر الوضوء والصّدقة والطّهارة، وكانتْ العابدة بحقّ.

انتهتْ فترة الاستعداد لتصوير الفيلم، وبحث الجميع عن أنوار التّي اختفت، وصرّح أصدقاء مقرّبون بأنّها لم تسافر أو تُخطف بل تحوّلت إلى خيط نور.

خليفة الله

هو يحبّ للغاية أن يتمثّل ضروب الملك وألوان السّلطة كلّها من باب التغيّر والتّجريب الذي يزعم أنّه من روّاد مدرسته؛ لذلك فهو يطبق المنهج الرّأسماليّ فيما يخصّ احتكار أموال الدّولة التّي يحكمها، ويطبق المنهج الاشتراكيّ عندما يستولي على أموال المعارضين والمنشقّين، أو يشارك لصوص الدّولة بغنائمهم بدل أن يحاكمهم على جرائمهم، كذلك هو من أنصار مدرسة التّذوّق الجماليّ، لذلك هو لا يشبع من الوجوه الحسناء، والأجساد الأنثويّة المثيرة، والمأكولات الشّهيّة، وهو رياضيّ الدّولة الأوّل؛ لذلك فهو يمارس رياضة الصّلاة والحج والاعتمار كلّ عام.

لقد جرّب ألقاب الحكم كلّها، فأرضاه لقب خليفة الله؛ إذ عدّ نفسه ظلّ الله في الأرض، فأطلق يده في دم العباد، وحدّث نفسه طويلاً بأنّه ليس خليفة الله في الأرض، بل هو إله الأرض عينه.

تحت غطاء لقبه المجيد فقد شرع في كلّ ليلة يتفقّد الرّعية، ويذرع المدن سيراً على قدميه ترافقه ثلّة من حرسه متدثّرين جميعاً باللّيل وبملابس الدّهماء، وبذلك استطاع أن يكون عيناً على العيون التّي أذكاها في كلّ مكان.

في اللّيلة الأولى اكتشف مدى فساد نظام الصّحة؛ لذلك فقد أمر ببناء مستشفى عظيم مجهّز بأحدث ما وصل إليه العلم، ومؤهّل بأفضل أطباء البلاد، وبنى داخله سكّة جديد، إذ أجرى قطاراً ترفيهيّاً فيه، يركبه كلّ من دفع أجرته، ورغب في أن يستمتع بآهات المرضى، وأنّات المنكوبين.

في اللّيلة الثّانية كانت زيارته إلى ديوان قاضي القضاة، ودار المظالم، وقد زحمته طوابير المتظلّمين حتى ما استطاع أن يتفقّد أيّ المكان؛ لذا فقد أمر بفرض ضريبة باهظة على كلّ متظلّم حتى يفضّ جموع المتجمهرين حول ديوان قاضي القضاة ودار المظالم.

أمّا اللّيلة الثّالثة فقد وقفها على طعام الرّعية، وجرّب بقرف أن يأكل من طعامهم، فتذوّق طبقهم الشعبيّ الفقير الذي يخلو من لحم أو مرق أو دهن، إذ كان الطّبّق الوحيد المتوفّر في أيديهم التّي فرغتْ من المال، وامتلأتْ هواء وجوعاً، اللّقمة الأولى كانت على حذر، اللّقمة الثّانية ذابتْ في عروقه مثل الصّمغ، أعجبه ما يأكل، وتحرّق ندماً على تفريطه لجهله بهذا الطّعام اللّذيذ، وسنَّ قانوناً يحرّم على الرّعيّة أكل هذا الطّبّق الشعبيّ اللّذيذ؛ إذ قفه على نفسه، فيما ألزم الرّعية بحمية إجباريّة حفاظاً على صحتهم المتدهورة لسبب يجهله.

عابد المستعجل

لم تكن علاقته مع المسجد علاقة موظّف مع عمله على الرّغم من أنّه كـان يتلقّى راتباً زهيداً من وزارة الأوقاف مقابل أن يأذّن للصّلوات الخمس كلّ يوم، ويفتح المسجد ويغلقه، ويقوم على شؤون نظافته، ولو كان في غير ضائقة ماليّـة ملازمة لم قَبِل أجراً علـى ذلـك، لكنّـه كـان في حاجـة ماسّـة إلى ذلـك الأجـر المتواضع كي ينقطع لمسجده ولخدمته، ويكفي نفسه شرّ السّؤال، أو جهد العمل المضني والشّاغل عن لزوم مسجده الحبيب.

علاقته بمسجده تشبه علاقة المرء بالوطن، أهناك من يُسئل عن سـبب حبّـه لوطنه؟ لقد وُلد في هذا المسجد، وبالتّحديد على سجّاده القديم؛ إذ كانـت أمّـه من خدمه، فجاءها المخاض فيه، فولدته في قاعة الصّلاة، فسـمّى لـذلك "عابـد"، أملاً في أن يكون ملازماً لهذا المكان الطّاهر، وكذلك كان.

لم يبتعد في حياته كلّها عنه أكثر من ساعات، في حين تبقى روحه مرتهنة به، تحلّق حوله، وترفرف في جنباته، حتى حذق مقداراً طيباً من علوم الدّين، وغـدا مؤذّن المسجد، يطرب في كلّ يوم خمس مرات وهو يترنّم بالآذان، ويقـوم علـى خدمة المسجد، وتنظيم أموره ابتداء من استقبال الصّدقات مروراً بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين انتهاء بالعناية بأشجار المسجد، والعمل على صيانته، وغسـل حماماته ومغاسل الوضوء.

بيته كان بعيداً للغاية عن المسجد؛ لذلك ما كان يراه النّاس إلا مهـرولاً إلى المسجد، لذلك فقد أسموه تنـدّراً عابـد المسـتعجل، لـذلك فكّـر في بنـاء غرفـة صغيرة في حديقة المسجد؛ كي يلزمه ليل نهار، وشرع في ذلـك، لكـن مشـروعه

تعطّل، إذ وقع من مئذنة المسجد في حادثة غريبة، وخرّ ميّتاً، ودُفن في مقبرة المنطقة في أقصى الشّمال.

كاد الجميع ينسى المؤذّن العابد، وشرعوا يعتادون على صوت المؤذّن الجديد، إلا أنّ بعضهم كان يقسم على أنه يسمع مع كلّ آذان صوت لهاث عابد، وهو يحضّ الخطى ليصل إلى المسجد، وفي بعض اللّيالي الشّتويّة الغائمة المشحونة بالمطر كانتْ تُرى قدما عابد العاريتان تسيران سريعاً نحو وجهتهما المقدّسة.

عمليّة ناجحة

احتشدوا جميعاً مثقلين بقلقهم وتوسّلاتهم وأدعيتهم على باب غرفة العمليّات، لطالما انتظروا جميعاً هذا اليوم لينهوا آلام أمّهم ومعاناتها التّي بدأتْ منذ سنوات، بعد أن أجذبتْ جيوبهم في سبيل جمع المال الكثير لهذه العمليّة الباهظة، وبعد أن لاك المرض أمّهم حتى كاد يبتلعها.

ها هم اليوم يقفون هنا ينتظرون اللّحظة المتمنّاة التّي يخرج فيها الطّبيب ليبشّرهم بنجاح العمليّة، الصّمت يلفّ المكان، ورائحة المطهّرات الطّبّية تزكم الأنوف، وصور العيون الزّائغة تنعكس على بلاط المستشفى الاستثماريّ المخصّص لأمراض الأغنياء، ولآخر صرعات عمليّات التّجميل، وشفط الدّهون، وتكبير الشّفاه والصّدور، وتصغير الخصور والبطون والأفخاذ.

خرج الطّبيب الأصلع ذو النّظارات الشّفافة مثل البلور بلباس العمليّات، فيما خرجتْ في إثره ممرضتان وطبيبة على عجل، تحلّقتْ أجساد المنتظرين حول

الطّبيب، وحاصرته العيون الوجلى، وسأل والد العيون المنهكة بانكسار وقلق عن صحّة المريضة، وعن مدى نجاح العمليّة.

ابتسم الطّبيب ابتسامة ضيّقة كشفتْ عن سنّه الذّهبيّ، وقال على عجل وبحركات إلكترونيّة ممجوجة لكثرة ما قام بها: "الحمد لله، كلّ شيء قد سار على ما يرام، العمليّة نجحتْ نجاحاً باهراً، والسّرطان قد أُستئصل كاملاً، والتّنفّس كان جيّداً، وضغط الدّم وَفْق معدله الطّبيعيّ، وقد نظّف الجرح بشكل دقيق، ثم خِيْط بدقّة ومهارة، وقد رُوعي في ذلك أن لا يترك الجرح أيّ تشويه أو ندبة.

تقافز الأبناء بفرح، وهلّلوا مكبّرين، وشدّوا على يدي الطّبيب مصافحين شاكرين، في حين طبعتْ حفيدة صغيرة قبلة امتنان على كفّ الطّبيب الذي تنحنح وقال بثقة: "نحن حريصون على سمعة المستشفى، كما أنّني حريص على سمعتي المهنيّة".

قالتْ إحدى بنات المريضة بلهفة: "متى ستخرج أمّي من المستشفى يا طبيب؟"

قال الطّبيب بجزم وهو يخطو خطوات عملاقة مبتعداً عن ردهة الانتظار: "الآن فوراً".

هتف الكلّ بعجب: "الآن؟"

- "نعم، الآن، فقد نسيتُ أن أخبركم أنّ العمليّة قد نجحتْ، لكنّ المريضة لسوء الحظّ قد ماتتْ".

الشّيطان يعشق

أخفق الشّيطان في أن يسترضي السّماء، وأخفق كذلك في أن يعتنق أيّ ديانة، بل ورُفض أشدّ الرّفض في كلّ ديانة بغى أن يعتنقها؛ فاعتناقه لأيّ ديانة يعني بالضّرورة خسارتها لقطب رئيس من أقطاب فكرها، وهو قطب الشّرّ، لذلك قرّر أن يخلع الغلّ من قلبه كخطوة أولى نحو التّنكّر لأصله النّيرانيّ الملعون أملاً في أن تواتيه الفرصة، فيهجر لعنته الأبديّة، وينطوي تحت رداء الصّالحين والملائكة والأبرار.

لكن ما كان يتوقّع أبداً أن يمتلأ قلبه بذلك الرّذاذ السّحريّ المسمّى عشق في ليلة وضحاها، لقد عشق تلك الآدميّة حدّ الاحتراق بنيران العشق المقدّسة، حاول أن يقترب منها؛ ليبثّها لواعج قلبه، ويهديها فريد عشقه، لكنّه أحرق وجهها الجميل مع أوّل زفرات عشقه، إذ انطلقتْ حامية سخينة، فألهبتْ بشرتها الجميلة، وحاقتْ بملامحها الفاتنة، وفي زيارة ليليّة مفاجئة لها في المستشفى الذي تستطّب فيه إثر احتراق وجهها، حاول أن يمسّد على كفّها الصّغير الورديّ، فكاد يذيبه بجسده المحموم، عندها آل على نفسه أن يبتعد عمّن يحبّ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، إذ عرف أنّ الحبّ الحقيقيّ لا يكون بالقرب فقط، بل يكون بالتّضحية، وصرّ أحزانه ووجده كسفاً من نار وأسى في نفسه، وقضى صريعاً، فَقُيِّدَ اسمه في سِفْر الأبرار في مقام العاشقين.

حادثة انتحار عصفوري حبّ

جيناتهما المقدّسة تحمل العشق والحبّ والإلف؛ لذلك كانا عصفوري حبّ، عشقا بعضهما كما ينبغي لهما أن يكون العشق، إذ هما سفيرا المودّة والمشاعر الدّافئة، ولزما بعضهما في قفص ذهبيّ صغير أُعدّ خصيصاً لهذه الشّقة الفارهة، حيث سيعيش الزّوجان الشّابان حديثا الاقتران، وشحذا قريحتيهما لتجودا بأجمل سقسقات العشق، لكنّ لا أحداً من الزّوجين عناه أن يستمع إليهما؛ إذ كان كليهما متورط في فوضى السُّباب، وحمى البكاء والتّكسير، وتراشق التّهم والزّهريات وأدوات المطبخ.

حاول عصفورا الحبّ أن يخلقا هدنة برفيفهما المضطرب، وشدوهما المبتور قسراً، لكن دون فائدة، فقد هزم الكره والخلاف والتّنابذ صوت القلب والتراحم.

أصيب عصفورا الحبّ بصدمة شديدة، أفقدتهما القدرة على التّغريد، ثم أصيبا بحالة كآبة شديدة، وفي حالة فريدة من نوعها انتحر العصفوران غير نادمين، ودفعا بجسديهما الدّاميين إلى قطّة البيت لتلتهما كما تمنّت دائماً.

لم يجد الزّوجان وقتاً ليرثيا لعصفوريهما المنتحرين، ولم تشعر القطّة بالشّبع، بل اتّقدت شهوتها لأكل عصافير الحبّ، وأملّتْ نفسها بالمزيد من عصافير الحبّ المنتحرة في الحروب الأسريّة الدّامية المعتادة، وانتظرتْ بشوق ولهفة أن يفكّر الزّوجان العدوّان باقتناء عصفوري حبّ جديدين يكملان بهما رونق شقتهما المعمورة بالأثاث الفخم والمشاعر الخربة.

السيّد نجمة

هي سيّدة حالمة للغاية، لكنّها تؤمن بأحلامها، وتجتهد كـي تحقّقهـا، تـنجح أحياناً في ذلك، وتخفق غالباً، لكنّها سعيدة بأحلامها التّي لا تملك غيرها.

بحثتْ طويلاً عن فارسها اللّيلكيّ في الأرض، ولمّا لم تجده، ولم يسعَ رجـل كي يكونه، قرّرت أن تصاده في الأحلام، نثرتْ شباكها الشّفافة المنسـوجة مـن أديم الحرير، فطوّقتْ أجمل نجمات السّماء، كانتْ رجلاً نجمـة، أو نجمـة رجـل، كان رجلها على قدر التّمنّي، ومستحيل هـو الرّجـل الـذي علـى قـدر أمنيـة، عرجتْ إلى السّماء، وطوّقتْ رجلها بطوق من زهور النّرجس، وتأبّطتْ ذراعه، واستسلمتْ لأفراح النّجوم، ولزغاريد السّماء، وعـادتْ بـه إلى الأرض، حيـث نودي في صبيحة تلك اللّيلة السّماويّة لصلاة الجنازة على صـبحيّة التّـي خـرّت ميّتة عن سطح بيتها، إذ كانتْ تسير أثناء نومها.

سرير صغير

كان له الكثير من الأحلام الملوّنة والأمنيات المؤجّلة، لكنّه كان يدعو بحرارة إله الأشياء الصّغيرة كي يهبه سريراً كبيراً، ينام فيه وحده، لا يزحمه فيه أخ أو جدّ أو ضيف، فاستسلم الإله لدعواته الحارّة، ووهبه سريراً كبيراً، ومن ذلك اليوم، وهو يدعو الإله بضراعة كي يهبه شخصاً يشاركه النّوم في ذلك السّرير، إذ اكتشف أنّ الأسرّة الكبيرة باردة أكثر ممّا يحتمل، وتخلو من لغة الجسد، وألفة التّراص، وأدرك أنّه من أولئك الذين يفضّلون الدّفء على الأماكن المتسعة، لكن الإله لم يبالِ بإدراكه ذاك، ولم يستجبْ أبداً لدعائه الأخير.

الطّفل الأعجوبة

اعترف الجميع بأنّ طفلها أعجوبة مخيفة؛ فقد وُلد أبيضَ من غير سوء، مُكتنز الأعضاء، دون قدمين أو يدين، وبوجه دائريّ متسع، يكسوه استواء مخيف، وتعلوه رتابة دائمة، إذ لا أنف أو عينين أو فم أو أذنين له، لكنّه طفلها العزيز الحبيب، الذي نجتْ به بعد أن اجتاح العدوّ الصّهيونيّ قريتها، فشرّد الأهل، وقتل الزّوج، وحال دون الأبناء، فنجتْ بجلدها وبطفلها الرّضيع الأعجوبة الذي تعلّمت أن لا تتركه ولو للحظة في سريره يداعب نوماً لذيذاً، فقد يداهم العدوّ الصّهيونيّ المكان في أيّ لحظة، ويسلبها طفلها الحبيب.

أليس من حقّ الأمّ بل من واجبها أن ترعى طفلها الرّضيع؟ ليس في ذلك أيّ عجب، إذن لماذا يطاردها أولئك الصّغار الحمقى من شارع إلى آخر، ويصرخون في وجهها قائلين: هذه هي المجنونة التّي تحمل مخدّة ليل نهار؟!

تمثال الحرّيّة

جاء مع والده إلى أرض الحرّيّة كي يتعالج من مرض عضال، همس الأب في أذنه قائلاً: "من هنا جاء أولئك الجنود الذين قتلوا أبناء صفّك، وخطفوا عمّتك، وخرّبوا حديقة الزّهور".

صمتْ الصّغير، وانكمش على نفسه وهو يرمق التّمثال الأصمّ، كان تمثالاً كبيراً، برأس أنثويّ متوهّج، وبيد تحمل مشعلاً كبيراً هو أوّل ما لفتَ نظره في تلك البلاد، اقترب من أبيه، وسأله بفضول: "تمثال من هذا يا والدي؟"

قال الأب دون حماس: "تمثال الحرّيّة".

قال الصّغير بفرح من وجد سكاكر في يد مقفلة راهن عليها: "فهمتُ؛ هم إذن يشيدون التّماثيل لموتاهم، تماماً كما نفعل نحن في بلادنا".

أومأ الأب بإيماءة غير مفهومة، وشدّ بحزم على يد ابنه الصّغير، وانطلقا نحو المستشفى.

المطاردة

المطاردة هي اللّعبة الوجوديّة الوحيدة التّي عرفتها وورثتها عن أسلافها، كما ورثها ذلك الشّبل الصّغير عن سلالته الدّامية من السّنوريات، كما تمنّت أن تداعب الماء دون وجل، أو أن تتسكع في البراري دون خوف، لكن ذلك الشّبل طاردها دون كلل، فقد كانت طِلْبته؛ فسيقانها الرّشيقة هيّجتْ ثورة القرم فيه، فعكّر صفو أيّامها، وحرمها من صغير أمنياتها، وما رحم جمال عينيها، ولا ألف نفرتها.

بدأ اليوم بمطاردة إجباريّة اعتياديّة، وعندما كاد قلبها يتوقّف تعباً، وحنّت أوصالها إلى الرّاحة، ونازعتها نفسها إلى الاستسلام، توقّفت إثر قرار جنونيّ مفاجئ، وقالتْ للشّبل الذي يزدرد لهاثه وتعبه: "يا هذا، توقف قليلاً، وقل لي: لماذا تطاردني ليل نهار؟"

قال الشّبل وهو يحاول أن يجمع شتات أفكاره: "لأنّكِ ظبية، وأنا شبل، والأشبال تطارد الظباء، هذا هو قانون الغاب".

قالتْ الظّبية بخضوع ورجاء: "لكن لماذا لا نكون أصدقاء؟ فنلعب ونمرح ونسعد بالحياة بحقّ، بدل هذه المطاردة التّي أوهنتنا وأتعبتنا، ومزّقت سعادتنا وأيّامنا؟"

قضّبَ الشّبل حاجبيه، ورقّص ذنبه الفتي ذا الشّعرات الكثيفة، وقال: "تبدو لي فكرة الصّداقة واللّعب فكرة جميلة"، تساءلتْ الظّبية بوجل ورجاء وسعادة: "إذن نكون أصدقاء؟"

قال الشّبل بحماس: "نعم، لنكن أصدقاء، ولنلعب معاً".

الظّبية بفرح وارتياح: "لتكن لعبتنا مسلّية ومثيرة وحيويّة".

قال الشّبل بانفعال: "نعم، لتكن لعبتنا مسلّية ومثيرة وحيويّة، لكن ما هي اللّعبة التّي تقترحين أن نلعبها؟"

قالتْ الظّبية بحماس من وجد ضالته: "ما رأيك أن نلعب لعبة المطاردة؟"

- "كيف؟" سأل الشّبل بفضول.

ردّتْ الظّبية بحماس: أنا أركض، وأنتَ تحاول الإمساك بي.

لوحة جميلة

كان أفقر شخص في المدينة، وأفضل رسّام فيها، اعتاد على أن يرسم لوحة كلّ يوم، وعلى أن يبيعها في حانة المدينة بزهيد المال، ثم يتناول بثمنها طعام العشاء، وجبته اليوميّة الوحيدة، ثم يشتري الخمر بالباقي من المال؛ لينسى لوحته المسكينة التّي باعها ليشتري بها الطّعام والخمر.

رسم في ليلة جاع فيها كثيراً أرضاً خضراء، ومياه رقراقة، وشمساً مشرقة، ووجوهاً باسمة، وطيوراً سعيدة، وباباً صغيراً.

اجتهد كي يبيع لوحته في الحانة، لكن أحداً لم يرغب بها، حدّق في لوحته الجميلة، مسح دمعتين سخينتين انزلقتا على وجنتيه، وفتح باب اللّوحة، ودلف إلى عالم اللّوحة الجميل، وأقفل الباب بقوّة.

مرايا

كان عاشقاً للأجساد النّسائيّة الجميلة والأعضاء المتناسقة والعيون المشقوقة بعناية، ومتيّماً بالعطور الفرنسيّة، والملابس التّي تواكب آخر صرعات الموضة، لا سيما تلك التّي تجتهد كي تظهر من الجسد أكثر ممّا تُخفي منه، كان يرى بعينيه فقط دون قلبه، فيرى الأجساد البشعة، ويغفل عن الأرواح الجميلة؛ لذلك لم يكن سعيداً.

أصابته صاعقة عجيبة في ليلة غير ماطرة، بل صافية للغاية، فأصبح يرى بقلبه لا عبر عينيه، فنعم بصداقة الأرواح الجميلة وبحبّها، وأحبّها هي بالذّات؛ فقد كانتْ صاحبة أجمل روح قابلها.

سخر الأصدقاء من حبيبته المسخ، وكرهتها الأمّ والشّقيّقات، وحوقل الأب عندما قابلها، لكنّه يحبّها، وسيتزوّجها؛ فهي أجمل امرأة قابلها في حياته، وإن كان الجميع يعجزون عن رؤية جمالها، حتى تلك المرايا تخونها، وتظهرها بسحنة دون جمالها، لكن من يحتاج إلى المرايا ما دام يعشقها؟"

رأس خنزير

كي يكون حضاريّاً عليه أن يكون متحرّراً، وكي يكون متحرّراً عليه أن يكون متهتكاً، وكي يكون متهتّكاً عليه أن يسعد بصرة ابنته تلوح في الشّارع، وبثديي امرأته يتراقصان بغنج أمام بقّال الحيّ، وبوجه أمّه يشدّ كلّ عام حتى الأذنين؛ لتبدو في سنّ حفيدتها الصّغرى، وبرشاقة لعبتها البلاستيكيّة، وكي يرسم ابتسامة دائمة لا تزول، فقد دخل إلى أقرب محلّ جزارة، واشترى رأس خنزير، وخلع رأسه، ولبس رأس الخنزير، وسار في الشّارع، فأصبح حضاريّاً متحرّراً، وصاحب آخر صيحة موضة!

عدالة

اعتادت البومة الأمّ على أن تصطحب ابنتها البومة الصّغيرة إلى شتّى أصقاع الدّنيا؛ لتطلعها على شؤون البشر والحيوان والطّير، ولتعلّمها الحكمة والفطنة، وكانت تطمئن إلى حصافة ابنتها البومة يوم إثر يوم، وتركن إلى حسن إدراكها، إذا وجدتها تخلص إلى عبرة من كلّ ما ترى.

في يوم ما اصطحبتها إلى سجن من سجون البشر، وقفتْ البومة الصّغيرة مندهشة من هول المطّلع، وكادتْ تشفق على البشر المحبوسين في أشباه حضائر، لولا أنّ نبهتها أمّها إلى ضرورة التّبصّر لحين معرفة الجرائم التي أدخلتهم إلى

السّجن، فلعلّها عندئذ تبدّل عطفها على أولئك المحبوسين نقمة، وتقتنع برجاحة قرار سجنهم.

تابعتْ البومة الصّغيرة المساجين طويلاً، وعرفتْ أنّ ذلك الفتى اليافع النّحيف مثل قصبة قد سرق دجاجة ليأكل، فقُبض عليه، وحُكم عليه بالسّجن لثلاث سنين، وقد كادتْ ترقّ لجوعه، لكنّها سلّمتْ أخيراً بعدالة عقوبته، لكنّها لم تستطع أن تسلّم أبداً بعدالة عقوبة ذلك السّمين الذي سرق خزينة أموال الأيتام، وابتنى بها قصوراً ومنشآت ومصانع، وادّخر الباقي من المال المسروق في مصارف بعيدة، وطفق يقضي أوقاتاً ممتعة لسنين ثلاث في سجن اشترى كلّ من فيه لخدمته.

عجزتْ البومة الصّغيرة عن أن تخلص بعبرة ممّا رأتْ، وحدّقتْ بضياع في عيني أمّها البومة التّي هزّت رأسها بأسى، وقالتْ لها: "هذه يا ابنتي هي عدالة الأقوياء من البشر".

قوائم ثلاث

غضب بشدّة، وأزبد، وأرعد، وتوعّد الكلّ بالعذاب، وزجّ بوالدها وحبيبها في السّجن، أليس هو ابن السّلطان المدلّل وعشقه أمر على الجميع، وحبّه فرض على النّاس، لكنّها لم تركع، ولم تعشقه، بل رفضته، وآثرتْ عليه حارساً وسيماً معدماً من حرّاس الحدود؛ لذلك غضب بجنون، بالتّحديد غضب لأنّها آثرتْ عليه من هو دونه مكاناً وحسباً وبطشاً وسؤدداً، ولعلّه دونه حبّاً لها، فهو يحبّها، وعلى استعداد لمقايضة سلطنة والده التّي لا تغيب عنها الشّمس بنظرة رضا منها، لكنّها لا تأبه بسلطنة والده، ولا بحبّه المزعوم، الذي بات يتحوّل إلى غلّ وحقد يقتاتان قلبه، وشهوة أعضائه.

صبّ جامّ غضبه على شعبه المسعور بحمّى إرضائه، أقام أيّاماً سوداً لا ترحل، ومنعها من الأفراح، وأعدم مئات طيور الحبّ، واغتال سعادة الشّفاه، ودبّ المرض في أوصاله، لكنّها لم تشفق على حاله.

أعدم والدها، وسلخ جلد من أحبّتْ، وصلبه على أعلى جبل صخريّ في المملكة في مواجهة الحصن الصّخريّ الذي سجنها في ذروة عليائه، لكنّها لم تذرف دمعة استعطاف.

انعزل في مقصورته الذّهبيّة، وسدر في أحزانه وحيرته، واعتكف دون الطّعام والجواري والطّيّب، وكادت ذاكرة الشّعب أن تنساه، لكنّه لم ينسَ تلك التّي عشقها ورفضته، فامتلأتْ روحه حزناً وحقداً بسببها، لكنّها لم ترقّ لحاله أو لحالها.

وحده حكيم الجبل الذي استجمع شجاعة نفسه، وسار بتؤدة، وهو يكبّد عصاه المنخورة حمل جسده المتهدم ذي الظّهر المقوّس، وادّعى أنّ في جعبته علاجاً لسقم الأمير الشّاب، ففُتحتْ دونه الأبواب، وحُجبتْ عنه الأسئلة والتّحقيقات، وبالعجل كان في حجرة الأمير الذي شابتْ ذوائبه في ليلة وضحاها، واستسلمتْ قسمات وجهه للتّجاعيد وللهالات السّود وللعجز، تعلّقتْ عينا الأمير الغائرتان في محجريهما بعيني حكيم الجبل، انتظر بلهفة أن يعطيه ترياقاً سحريّاً يبدّل جفاء فتاته وصلاً، وينزله في قلبها منزلتها في قلبه.

ساد صمت ثقيل مشوب بالانتظار، ثم قال الحكيم بصوت رخيم واثق منهك بافكار كثيرة: "يا مولاي الأمير، الحبّ جواد بريّ أصيل، لكنّه لا يمكن أن يعدو دون قوائم أربعة، وبثلاث هو عاجز تماماً، وليس جواداً، بل كتلة من العظام والعضلات والشّعر والحرمان، وحبّك يا ولدي جواد جامح تنقصه قدم، ولا يمكن أن ينطلق متحدّياً الرّيح به؛ لأنّه حبّ لم يكتمل، لا يكفي أن تحبّ امرأة ما حتى يجري جوادك، بل عليها أن تحبّك أيضاً لكي يستوي الأمر".

- "لكنّ..."

- "يا مولاي الأمير، لا تجادل؛ فهذا قانون طبيعة، لا جواد يسير بقوائم ثلاث، مهما عظم شرف نسبه، لك أن تغضب، ولك أن تتحدّى، وأن تتوعّد أيضاً، لكن جوادك سيبقى عاجزاً عن أن يطلق قوائمه للرّيح".

كاد الأمير أن يستسلم لسطوة قانون الطّبيعة، لكن الأوسمة السّلطانيّة التّي تثقل صدره، وغلائل الحرير، وقشور الذّهب التّي تغشى مخدعه حالتْ دون لحظة التّسامي التّي كاد يبلغها، وصمّم على أنّ جواده قادر على العدو بقوائم ثلاث، وعندما عجز عن أن يبرهن على ذلك بشكل عمليّ أمر بإعدام جياد

السّلطنة؛ لتورّطها بجريمة الخيانة العظمى، وأمر حرسه بمطاردة الـرّيح، والقـبض عليها، بتهمة تحدّي رغبته السّامية، واعتكف من جديد حزيناً فرداً في مقصـورته التّي تطلّ على بوابة القصر حيث عُلِّق رأس حكـيم الجبـل الـذي أمـر بتقديمـه للنّطع، وانهمك يفكّر في سبب عجز جواده عن أن يعـدو علـى قـوائم ثـلاث، وطال تفكيره، وأكله النّسيان، وخانته الرّيح من جديد، وتحدّتْ رغباته، وداعبتْ خصلات شعر امرأة مسجونة في برج منذ ألف عام؛ لأنها لم تركع.

تواصل إلكترونيّ

في بلدته حيث الفقر والجوع وأمراض الماء المعديّة لا توجد أمراض نفسيّة؛ ففي تلك البلدة يكفي أن تجلس في مقعد خيزرانيّ على قارعة الطّريق أو على درجة من درجات سلّم البيت حتى تستطقب بعضاً من السّابلة أو أصحاب الحاجّات أو الجيران والأصدقاء لتحدّثه طويلاً حتى تتمزّق حنجرتك، فتفرغ ما تحمله النّفس من خبائث وضغوط وضغائن، وتفرغ لنفسك، ولسماع أحاديث مجالسيك.

هكذا هي بلدته فيها كلّ شيء إلا المال والأمراض النّفسيّة، أمّا في هذه المدينة الإسمنتيّة المتغوّلة التّي شيّدت بين ليلة وضحاها، وغصّت بالوجوه الغريبة فليس فيها إلا المال والأمراض النّفسيّة.

منذ أشهر يعمل في هذه المدينة، يلوكه العمل المضني، وتمضغه الوحدة والغربة، يضمّ القرش إلى الآخر، ويصرّ ماله بحذر، وينتظر اللّحظة التّي سيعود فيها إلى بلده، حيث التّواصل الإنسانيّ بالمجّان.

كان يتبع حمية ماليّة شديدة الصّرامة، كي تتقلّص مدّة غربته إلى أقلّ مدّة ممكنة، لكنّه ضاق ذرعاً بصمته وبحظر التّواصل الإنسانيّ المفروض عليه، فلا بشر يكلمونه في هذا المكان خلا الموظّفين والمدير يطلبونه بتقزّز لتأدية خدمات لهم، أو صاحب الغرفة التّي يسكن فيها، يطرق بابه في بداية كلّ شهر، ويقول له كلمة واحدة يتيمة مكرورة، وهي: "الإيجار"، ثم يدير ظهره بعد أن يأخذ ماله لا يلوي علي شيء؛ وهو يطبق بحنان على المال المقبوض.

قرّر أن يشتري تواصلاً إنسانيّاً، ولو استلزم ذلك أن يُخضعَ حميّته الماليّة إلى شيء من المرونة، تهندم وَفْق ما يملك من قديم الملابس، ومشّط شعره، وانطلق سيراً إلى إحدى حوانيت المشروبات المشهورة في المدينة، جلس إلى طاولة فارغة، طلب فنجان قهوة مع بعض السّكاكر اللّذيذة، وطفق يتفرّس الوجوه، لعلّه يظفر بإنسان يحدّثه، لكنّ انتظاره طال، واستنفذ ثلاثة أقداح من الشّاي، دون أن ينعم ولو بنظرة من عين، فكلّ زبون في الحانوت كان يختلي إلى جهاز حاسوبه الشّخصيّ الخاصّ، ويتواصل عبره مع آخرين.

عجب في نفسه من حمق أولئك الذين يركنون إلى أجهزة صماء يتواصلون عبرها، ويضربون صفحاً عن التّواصل مع من حولهم من البشر، حاول أن يلفت نظر ذلك الشّاب الأسمر الملتحي، لعلّه يظفر منه بحديث من أيّ نوع، بادله الشّاب ابتسامة بابتسامة، وجد في نفسه محفّزاً كي يغادر مكانه، ويتوجّه إلى طاولة الشّاب الأسمر، رضخ لرغبته بالحال، ابتسم، وقال للشّاب الأسمر، وهو يمدّ إليه يداً بعروق بارزة ليصافحه: "أنا اسمي مراد".

ردّ الشّاب بأدب يعلوه تحفّظ واضح: "أهلاً وسهلاً، وأنا اسمي محمد".

- "فكّرت في أن نشرب فنجاني قهوة معاً".

ردّ الشّاب الأسمر دون مبالاة: "لكنّني مشغول الآن بالحديث مع صديق، اعطني عنوان بريدك الإلكترونيّ، وسأتواصل معك ليلاً إن شاء الله".

- "لكن لا بريد إلكترونيّ عندي".

- "خسارة، كنتُ أرغب حقّاً بالحديث معك".

- "أنا كنتُ أرغب في ذلك أكثر منك".

- "إذن خذ عنوان بريدي الإلكترونيّ، وراسلني عندما يتهيّأ لك ذلك".

- "لا أظن؛ فأنا راحل في القريب".

- "حقّاً؟ إلى أين؟"

- "إلى حيث لا نحتاج إلى عنوان بريدي لنتواصل إنسانيّاً".

- "أين ذلك؟"

- "في بلدتي حيث الكلام من الفمّ إلى الأذن، ومن القلب إلى القلب، العين في العين، والنّفس قريب من النّفس".

- "إذن لا تنسَ أن تراسلني من هناك، وأن تحدّثني عن بلدتك".

- "أعتذر عن عدم قدرتي على مراسلتك عندئذ؛ فأنا سأكون عندها مشغول بالحديث مع الكثير من البشر المحمّلين برغبة الحديث والإفصاح".

أنتِ

قابلها منذ أيّام معدودة، لكنّها كانتْ أيّام الضّياع والخوف والحرمـان؛ لـذا فقد كانتْ ملاذه وحصنه وعرّابته، وعدّها منقذته في زمن التّيه الأكبر، ارتبطـت أوّل الكلمات والأماكن والدّراهم في بلاد الضّياع بها، علّمتـه مـن معجـم لغـة قومها حيث نزل الكلمات التّي يحتاجها للتّعبير عن حاجاته الأساسية، وطلباتـه الملّحة، لكنّها لم تعلّمه كلمة "الحـبّ"؛ إذ مـا ظنّـت أنّـه سـيحتاجها هنـاك حيـث الصّقيع والعلاقات التّجاريّة الناجحة والوشائج الإنسانيّة المتهرئة، لكنّـه احتـاج إلى هذه الكلمة بالذّات، ففتّش عنها في معجمها القديم، لكن جهله بتلـك اللّغـة حال دون أن يقبض على كلمته المنشودة.

وقف أمامها، أومأ لها كـثيراً دون أن يفلـح في أن يقـول لهـا تلـك الكلمـة السّحريّة، ابتسم مستسلماً لعيّه، وقال لها، وهو يراقب ارتعاشات رموشها التّـي تداعب نمشها البنّي المشاكس، وهـي تنتظـر بفضـول كلمتـه، وقـال: "الصّـداقة، والأمان، والدّفء، وأنا كلّها أنتِ".

(٩)

المجموعة القصصيّة "ناسك الصّومعة" (١)

١- صدرت المجموعة القصصيّة "ناسك الصّومعة" في طبعتها الأولى عن نادي الجسرة الثقافيّ والاجتماعيّ، الدّوحة، قطر، ٢٠٠٦، وقد حازت هذه المجموعة القصصيّة على جائزة النّاصر صلاح الدّين الأيوبيّ، جائزة الأديب المرحوم محمد طمليه في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠١٤، بلديّة الكرك، الكرك، الأردن.

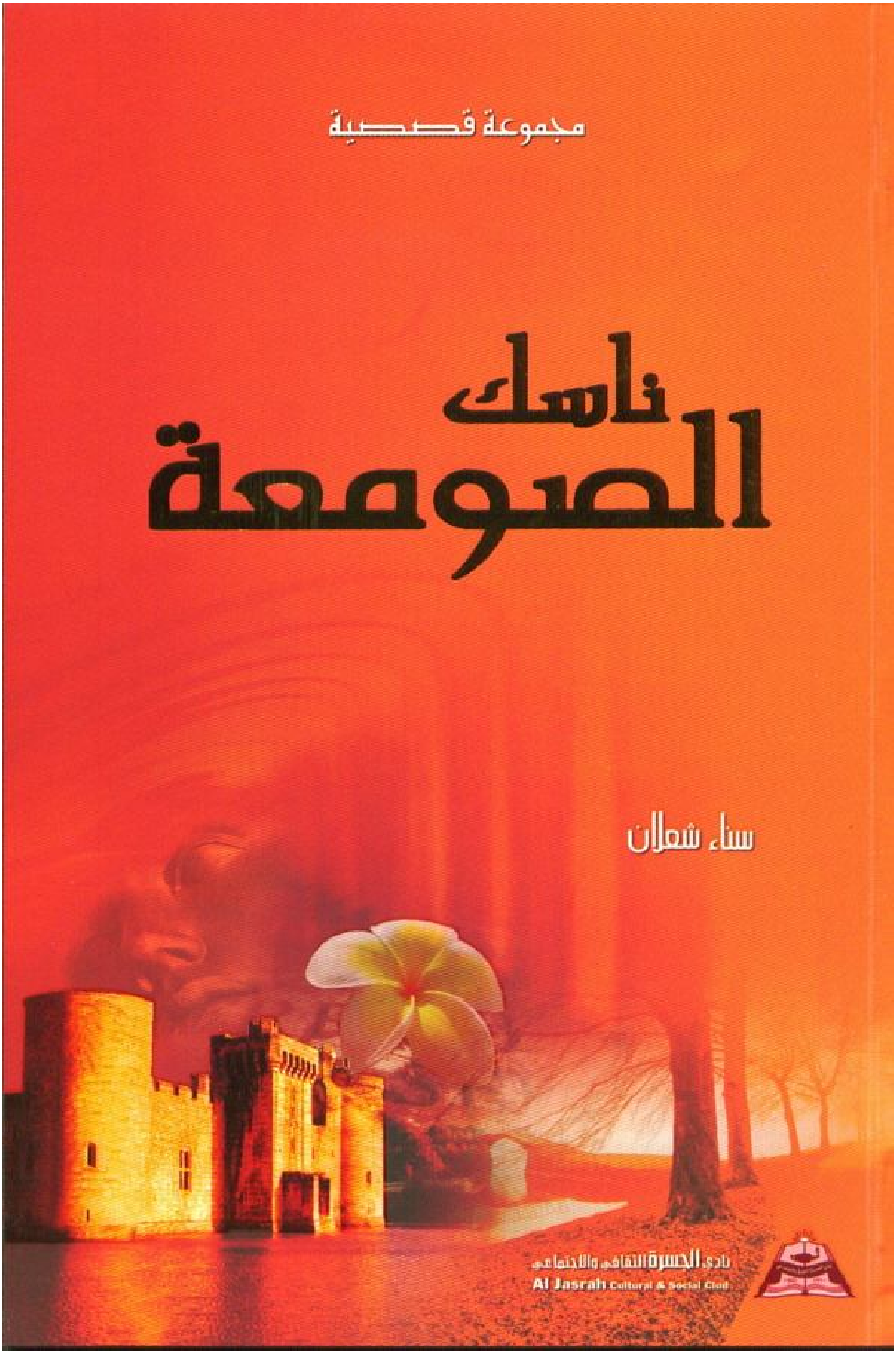
مجموعة قصصية
ناسك الصومعة
سناء شعلان
نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

ناسك الصّومعة

"لم يكن ناسكاً في تاريخٍ ما، بل كان عالماً من الرّقة والتّداعي العذب في الزّمن المفترض للماء".

(١)

سِفْر التّكوين: الدّخول في الصّومعة

صومعة العشق

والده كان رجل حرب، لم يعرف من الدّنيا إلا الأراضي اليباب، والجنود المُعذبين بالموت والقتل والأوامر الصّارمة والإجازات القصيرة، لكنّه كان عاشقاً من الدّرجة الأولى، وكان يجيد أدوار الفرسان العاشقين، رأى تلك السّمراء النّحيفة ذات الملامح البارزة، وعظام الذّقن الحادّة، سليلة أرض الجبابرة في صبيحة يوم صيفيّ قائض، كانتْ تكبره بسنواتٍ من العمر والصّرامة، وتشبهه بالعطش إلى ذلك المسمّى بالحبّ، يومها أشاحتْ بوجهها عنه، ثم أغمضتْ عينيها كي لا تتسرّب ملامحه المثيرة المغمورة برجولة جارفة من ذاكرة نظراتها.

في المساء جاء وخطبها من والدها، فوافقتْ على مضض، وأجادتْ إخفاء فرحة عارمة أصابتْ حواسها بإعصار، واستغرقتْ في بكاء عميق تنزّى إلى مسمعيه، فأصابه بشهوة جارفة؛ إذ كان يعشق النّساء الرّافضات المتمنّعات.

من تزاوج العشق والصّرامة وُلد هو، فكان وليد العشق، فعاش أسير صومعته، حيث الاحتراق بشهوة التّمنّي.

صومعة الشّهادة

اسمه أحمد، وله من الصّفات ما ينبغي لاسم أحمد، ملامحه طيبة رائقة، شفتاه مكتنزتان فيهما وجل وارتعاشة غير جريئة، وجنتاه متورّدتان بالقدر الذي تسمح به سمرته اللّذيذة، وشعره أسود ناعم تأسر خصلاته المنسدلة غلائل بشرة وجهه الملائكيّ، صوته خفيض عميق، كأنّه خارج من بئر عميقة، وفي رائحة أنفاسه رذاذ ماء بحيرات ثلجيّة سادرة في عميق الأرض الحبلى بصمته ودفئه.

من سجل الأبرار والشّهداء والأحباء الرّاحلين اختار له والده اسم أحمد، فهو أحمد الابن الذي يحمل اسم أحمد الخال الذي مات شهيداً على أرض مقدّسة، فحطّم قلوب أحبّته، وخلّد اسمه بماء الموت.

لأنّه يحمل اسم شهيد من الأبرار، فقد انطبع في فهمه الطّفوليّ السّاذج أنّ عليه أن يستشهد حتى يدفع ثمن هذا الاسم الشّريف الذي قُلّد به، ومن يومها دخل في صومعة الشّهادة، حيث رائحة المسك، ودم الخلود، ورائحة الجنّة، ولم يخرج منها أبداً.

صومعة الرّجولة

في البداية كان والده ذو الحذاء المركب والجسد الفارغ والعينين الصّغريتين يجرّه جراً هو وأخوه إلى ساحة المعسكر الذي يرأسه في أقصى الصّحراء حيث تخوم الماء والعدوّ والانتظار، لكنّه بعد ذلك بات يسابق والده إلى سيارته

العسكريّة الخاصّة به لرتبته العليا في الجيش كي يصلوا مبكرين إلى المعسكر بعد فصل دراسيّ طويل، ليقضي وأخوه هناك عطلة صيفيّة استثنائيّة، لا لعباً ولا حارات ولا عصابات من الصبيّة المشاكسين فيها على غرار ما اعتاد أترابه، بل كلّها نظام وصرامة وتدريب على أخلاق الجنديّة، وعلى أخلاقيّات المنتسبين إليها.

نشأ على الصّرامة والجلد والتّصبّر سعيداً راضياً بنشأته، بل وفخوراً بها، وإن كان يُلقى القبض على نفسه الطّفلة تمتد رغم أنفه بعينين متحسّرتين إلى أترابه من الصبيّة الذين ينقطعون إلى التّسلية واللّهو واللّعب، ولا يعرفون معنى صرامة الجنديّة، حينها يؤنّب نفسه كما كان والده سيؤنّبه لو علم بأمنياته تلك، ثم ينسرب طائعاً في صومعة الرّجولة، حيث بناء الجسد والرّوح، والقيام بالعبء، ويبتسم بعمق كلّما ربتَ أحد من الجنود على كتفيه الصّغيرتين؛ لأنّه طفل جنديّ أو جنديّ طفل.

صومعة الموت

سمع عن الموت كثيراً، وحفظ الكثير من قصصه المحزنة والمخيفة في روايات مرفوعة إلى جنود المعسكر الذين ترعرع بينهم، وإن لم يسمع والده يحدّثه يوماً عنه، كأنّه ما صادفه أبداً وجهاً لوجه في المعارك مراراً، ولا صارعه بعد هزيمة الأمّة أمام عصابات الضّباع، وكاد يصرعه عندما توقّف قلبه الضّعيف أمام هزيمة وطنه، لكنّه انتصر عليه ببسالة، وبقي يحمل في جيب قميصه علبة دواء

بيضاء صغيرة كي تنجده في أيّ لحظة أزمة تنقضّ على قلبه المنكوب بضـعفه في لحظة استسلام.

لكنّ العمل في متجر اللّحوم الذي اكتراه والـده منـذ زمـن جعلـه يواجـه الموت مراراً في كلّ يوم، ويحفظ مكرهاً عـن ظهـر قلـب طقـوس ثغـاء المـوت، وتقاليد السّلخ والفرم والتّقطيع.

أصابه تقزّز شديد من يديه، إذ كانتا الشّرّيك الدّائم في كـلّ وليمـة مـوت، ونفرتْ نفسه من الطّعام، وكاد يموت جوعـاً، فـأدرك والـده علّـة ابنـه، فـأغلق متجره بين ليلة وضحاها، وحرّم دخول اللّحم إلى البيت لأشهر حتى ينسى أحمد طقوس الموت، وما لبثتْ صحته أن استقامتْ، ومن جديد تورّد خدّاه بماء الحياة والصّحة، وإن كان قد سقط وإلى الأبد في صومعة الموت التّـي تأسـر النّفـوس، وتجثو على الآمال، وتجعل البشر يبجّلون لحظات الحياة.

صومعة الجسد

كان طفلاً صغيراً يافعاً تعرّف على وظائف أعضائه السّرّيّة وعلى مسمّياتها الصّريحة من أترابه الذين كانوا يصفعون أذنيـه في الأزقـة والحـارّات بكلمـاتهم الجريئة التّي لم يألفها في بيته ذي التّقاليد الصّارمة والكلمات المنتقاة.

عرس ابنة تاجر الخردة محمود العزب كان أوّل عرس يحضره بعـد أن وقـع على أسرار جسده الصّغير، لم يكن عرساً بقدر ما كان مهرجاناً حَفِـلَ بـاللّحوم والأطعمة الدّسمة وموائد الطّعام التّي مدّت على طول الحارّة الغربيّـة للفقـراء وأهل السّبيل وأهل المنطقة الذين انهالوا على المكان من كلّ حدب وصوب، أمّا

هو فقد جلس في الصّوان ذي السّتائر الحمراء والأرائك المنجّدة حيث جلس والده وكبار المدعوّين من تّجار ومتعلّمين وموظّفين.

تابع بفضول رهيب الراقصات الزّنجيّات اللّواتي أتين من مكان مجهول لطفولته بأجساد سمراء ضخمة، وشعور مجدّلة بالخرز والرّيش، وأعضاء معرّاة وسافِرة، كان رقصهنّ عجيباً لم يألفه من قبل، وكانتْ أثدائهنّ المنظر الأكثر بروزاً وظهوراً في مشهد حضورهنّ البهيّ.

انفضّ العرس مع ساعات الصّباح، وحصل العريس على العروس، في حين كان نصيب التّاجر محمود تلك الزّنجيّة السّمينة التّي سافدها في حظّيرة بيته لقاء زهيد المال، وعجب من اكتناز أعضائها، وعظيم شهوتها.

انقضتْ ليلة العرس، وجاءتْ ليالي السّهر والتّندّر التّي دارتْ في جلّها حول وصف أعضاء تلك الزّنجيّة، إذ تفنّن التّاجر محمود بوصفها، حتى خالَ السّامع أنّه يتحدّث عن أعضاء نبتتْ لها امرأة لا امرأة لها أعضاء، في حين كان يغصّ الرّجال بالتّعجّب والضّحك والشّهوة والكلمات البذيئة، أمّا أحمد فقد غصّتْ طفولته برثاء مرير لتلك الزّنجيّة التّي استباح التّاجر محمود جسدها مقابل زهيد المال، ووجد عزاءه في صومعة الجسد حيث التّقديس للجسد الإنسانيّ، والارتقاء به عن المهانة والابتذال، فقد أدرك أحمد أنّ الأجساد هي أوعية الرّوح، ولا يجوز لعابث أن يسكب ما في تلك الأوعية أو أن يدنّسها بشهوته المحرّمة.

صومعة الحرمان

لم يكن محروماً من مال أو علم أو رفاهية، فقد كان له النّصيب الأكبر منها، فمال والده قد دفع به إلى أفضل الجامعات، كما أمدّه بالرّاحة والرّضا، وجعله يدخل إلى أرقى المطاعم والأنديّة الرّياضيّة وأعرق بيوت الأزياء وماركات الأحذية والسّاعات والنّظارات الشّمسيّة.

خلقه الرّفيع، وطبعه الدّمث، وورعه السّمح جعلوا الأصدقاء يثقون به، وجعل الزّميلات في الجامعة يأنسَ له، كما جعل آباؤهن من الجيران والأقارب يودعون بناتهنّ أمانة في رقبته، فيحسن حمل أمانته، إذ يصحبهن إلى الجامعة ومنها، ويحفظهنّ كما ينبغي الحفظ أن يكون، لكنّه بقي يشعر بالحرمان من شيء اسمه المشاكسة والحبّ، الحرمان من وضع كفّه في كفّ جميلة في زقاق مظلم، أو سرق قبلة في الظّلام، ولأنّه عفيف طاهر فقد آثر أن يركن إلى صومعة الحرمان، ويسكتْ أنّات جسده بالرّياضة الشّاقة، لعلّها تخنق شهواته المتفلّتة.

صومعة الفضيلة

جاء من أرض الماء والخصب وشروق الشّمس والمسلّات الطّاعنة في خاصرة التّاريخ إلى جزيرة النّفط واللّؤلؤ والأمنيات، حاول أن يبحث عن عمل يناسب مهاراته أو تخصّصه، فلم يجد، فرضي بالكفاف غنيمة، وعمل زمناً طويلاً قيّماً على تلك المكتبة الكبيرة التّي تضجّ بآلاف العناوين في شتّى أنواعها المعرفة، وخلا وجهها له، إذ زهد أبناء تلك الجزيرة العائمة في بحر المال بالحضور إليها،

في حين كانتْ طِلْبته ومآل وحدته وغربته، فانكفأ يعبّ من علمها دون أن يروى.

كلمات الحكمة هي معينته الوحيدة في التّصدّي لتلك الجارة ذات الملامح الخلاسيّة والعطور الفرنسيّة التّي ما انفكتْ تطارده بغنجها ودلالها وخدماتها المعروضة دون احتشام، فيرفض كرمها المزعوم على استحياء واستعجال، ويغلق بابه بإصرار، ويحصّن نفسه بسورة يوسف، ويتشبّث بستائر صومعة الفضيلة التّي ركن إليها، وأفاء إلى ظلّها.

صومعة الظّلام

دُفع إلى هذه الصّومعة دفعاً، لم تكن صومعة للاعتزال والعبادة، بقدر ما كانت صومعة للانتظار المشوب بالخوف، والموت الحاضر بصحبة الغدر والظّلم، كان يعرف أنّ هناك الكثير من الأيدي الغاشمة السّوداء التّي تترصّده بالموت وبرصاصات باردة تشتهي بإثم تذوّق دمه المشحون بالطّهر والإيمان وبالتّقوى، يستطيع أن يعدّ ألف عدوّ يهمّه أن ينال من جهاده ومن تكريسه النّفس والمال لخدمة قضيّة دينه وقضيّة أمته، كذلك يستطيع أن يعدّ أَلف اسم لخائنة أو خائن في نفسه وماله أو أمانته لا يسرّه أن يسمع اسم أحمد في مكان يرصده لصيد أو غنيمة أو سرقة كبيرة.

لكن اسم أحمد كان يتكرّر في كلّ مكان؛ لذلك فقد كان له أعداء كذلك في كلّ مكان حتّى في بلده حيث كان يُستقبل في مداخلها بالتّفتيش والتّوقيف

والرّيبة، ولوما اسم والده العسكريّ الكبير المتقاعد لكان أُستقبل كذلك بالسّجن، ولتعفّن بين أسواره الباردة.

كان قادراً على تحمّل ذلك كلّه في سبيل ما يؤمن به، وظلّ وحده يسمع صوت رصاصة دامية تشقّ هدأة صومعته، وتنزلق في زلق هوائها، وتستقر في جسده، وترديه قتيلاً هو وأحلامه وجهاده، وما كان ليبالي بذلك، إذ كان يقن أنْ لا عيش إلا عيش الآخرة، ويتحصّن بقول ابن تيميّة: "جنتي في صدري، وسجني خلوة، ونفي سياحة، وقتلي شهادة، فما يفعل بي أعدائي؟"

صومعتهم

كثيرون هم البشر الذين عاشوا وماتوا أسرى صومعة أنانيتهم، بعد أن تنسّكوا في محراب ذواتهم الفانية، أمّا هو فكانوا هم صومعته، حنانه وكرم نفسه وجود يديه امتدّتْ أغصاناً حانية طوّقتْ دوحة عائلته، كان الملاذ والمعين للأبّ والأمّ والأخ والأخت والأعمام والأخوال ولذراريهم، أغدق عليهم بعنايته وبماله، فأغدقوا عليه بحبّهم وبولائهم اللّذين لا يملكون غيرهما، جعل من حاجاتهم معبده، ومن جسده ووقته قرباناً لهم، ورفع سقف صومعته على أكتاف عظيم حبّهم له، واعتكف في صومعتهم.

(٢)

سِفْر المتعة: النّاسك الجديد

لم تعد الرّياضة قادرة على امتصاص دفق شهوته، وخشي أن تتقوّض أركان صومعته أمام غنج جارته الغانية، وتحت ثقل جسده المحموم بالشّباب وبالرّغبة، بحث بأناة وصبر عن الحلّ الناجع لمعضلته الحمراء، ووجد الحلّ في استقدام ناسك آخر إلى صومعته.

انتصب أمام والده المزيج المدهش من الصّرامة والحنان، وقال له: "لقد قرّرت أنْ أتزوج"، ابتسم الأبّ دون إرادة منه، وندتْ منه نظرة دهشة، وقال بصوتٍ مشحونٍ بالضّحك: "لكنّك ما تزال شاباً يافعاً، ولا يناسبك الزّواج"، استجمع أحمد وافر شجاعته، وقال: "بل إنّ الوقت قد آن"، وصمتَ فصمتَ والده أيضاً، فلمح في صمته استسلاماً لرغبته بالزّواج من تلك الطّفلة المرأة التّي بالكاد بلغتْ، فخطبها من والدها الدّاعية دون أن يراها؛ لما سمع عن خلقها وعن حفظها للقرآن الكريم نزولاً على وصية الرّسول –عليه الصّلاة والسّلام– بالزّواج من ذات الدّين؛ لذلك فقد طلبها للزّواج من والدها دون أن يراها طمعاً في دينها، وإن كان يأمل أن تكون بمثل جمال قسمات والدها، وبمثل بشرته الغضّة المفعمة بحمرة شهيّة وبياض النّور والإيمان والسّماحة.

زفّ إلى عروسته الطّفلة المؤمنة، وسكنتْ شهوته في جسدها الصّغير، فكان عبداً لها، وكانتْ أَمَة صالحة له، إذ عرف المتعة معها، وعرفتْ عالم الرّجل معه، فنعما بعالمهما الجديد، وقرّا عيناً بصومعتهما الصّغيرة التّي تضجّ بالتّقوى والودّ والرّغبة وبأطفال جُبلوا على شاكلة وسامة والدهم، وطهر أمّهم.

(٣)

سِفْر الرّحيل الأكبر: الشّرخ

راهن على صلابة جدران صومعته منذ أن حلّت زوجته الطّفلة ناسكة دائمة فيها، وما كان ليصدّق أنّ جدرانها ستتداعى، وتسقط بسبب ذلك الشّرخ المدمّر الذي قسم تماسك جدرانها، وهوى بسقفها، وعرّى إرادته، وهزم معتقداته ومبادئه أمام أوّل دفقة ضحكات تنزّتْ من صوتها المترع أنوثة وطفولة وشقاوة وبراءة ورغبة وإحجاماً وبلاغة وعِيّاً، عرفها كلمات مخطوطة، قبل أن يعرفها امرأة، قرأ اتّفاقاً خطاباً أرسلته إليه منذ زمن، فأسرته كلماتها، وبحث عنها، فوجدها تنتظره هو بالذّات.

لا يستطيع أن يحدّد بمقدار الزّمن الذي يعرفه البشر مدّة عشقه لها؛ فذلك أمر يحتاج إلى زمن أفلاك ومجرّات ومتع شمسيّة خالدة لا إلى زمن أرضيّ فانٍ، لكنّه متأكد من أنّه بات سعيداً بعريّه بين يديها، فقد كانتْ هي بغيته التّي ما كان يعرف بأنّها يطلبها منذ أنْ خُلق، كانت امرأة بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، كان يكفي أن يلفظ اسمها حتى تتجسّد أمامه امرأة بجسد مغرٍ، وروح متوثّبة إليه، وأنفاس تقطع نياط تحمّله الواهي.

باتَ يراها في عيون النّساء كلّها، ويطاردها في الأماكن والهدايا، متعته الجديدة كانت في التّوقّف في متاجر الزّهور والهدايا، وفي البحث عن هديّة تسعدها بأيّ طريقة، كان يجد في نفسه حناناً عجيباً على امرأته ذات الأطياف السّاحرة التّي تبكي بحرارة مثل طفلة مشاكسة إذا أرسل لها هديّة لم تعجبها، وتضحك باستغراق إذا أسعدته زهرة أهدتها له مع نسائم الصّبّاح.

المرأة الحلم داهمتْ نفسه مثل سيل في وادٍ، فما استطاع لها دفعاً أو منها اعتصاماً، فاستسلم لها طائعاً راضياً، وكادتْ نفسه أن تهلك شوقاً إليها وعشقاً لها لولا تمسّكه بالحياة أملاً في المزيد من إسعادها، وإن كانت امرأة تختلف عن زوجته النّاسكّة التّي تحفظ القرآن، في حين إنّ امرأته المعشوقة متوجّة على عرش الكلمات، لاهية عابثة في ملهى شبابها وجمالها وأمنياتها التّي لا تعرف نهاية، لكنّه يحبّها، وكفى بالحبّ سبباً ونسباً يجعله يلحّ على الاتّصال بها ليل نهار، ويسميها حبيبة، إذا كان يباعد بينهما بحر ووادٍ وصحراء وسوق للعبيد واللّؤلؤ والمرجان.

(٤)

سِفْر القيامة: احتمالات

لا يستطيع أحد مهما عظم مبلغ علمه أن يجزم بمصير عاشق كان يوماً ناسك صومعة، ومصير عاشقة كانت متوّجة على عرش الكلمات؛ فعرش الصّومعة وعرش الكلمات كلاهما وهم، والمتوّج بهما عاري الرّأس، لكن هناك متسع للاحتمالات كلّها في سِفْر القيامة؛ حيث اللاّ محدود هو القانون السّائد.

- الاحتمال الأوّل: لم يستطع أحمد أن يجشّم نفسه مزيداً من اللّوعة والتّنائي والفراق، حزم نفسه، وغادر أطلال صومعته لا يلوي على شيء، وحلّق إليها بعقاب آليّ، فوجدها في المطار في استقباله بحضرة طاقة زهور متوثّبة إلى اللّقاء.

- الاحتمال الثّاني: كانت الحاضر المنتظر مع أوّل زخّات المطر، انتظرها بشوق، ثم وسّدها حضنه، وحملها حيث مخدعها، وأغلق الباب، واختلى بها لألف سنة ضوئيّة، واحترق معها وبها حدّ التّلاشي، حضنها عارية أيّاماً وأيّاماً وأيّاماً، وأروى عطشه، فتوقّفت خيول شهوته البريّة عن الصّهيل الجائع، فخلدا إلى النّوم والرّاحة.

كان منظرها جميلاً وهي نائمة، لكن رفيف طائر الخطيئة حطّ بكآبته على قسماتها النّائمة، شعر بحقّد دفين عليها، وتمنّى لو أنّها لم تكن، ولو أنّ صومعته لم تتحطّم، أمسك بمخدّة كان يتكئ عليها، وأخمد بها أنفاس حبيبته إلى الأبد.

- الاحتمال الثّالث: صمّمت على أن تزور بيته حيث الزّوجة والأبناء، فقد كانت في شوق إلى ضمّ أجزاء حبيبها، لا سيما الأجزاء الحميمة التّي تُسمّى أبناء، كانوا خمستهم في استقبالها، وكانتْ غريمتها الزّوجة مضيفة كريمة إذ هيّأت لها مخدعاً للرّاحة، وأضنتْ نفسها بتحضير ألذ أطباق الطّعام على شرف زيارتها.

جلستْ في حجرة الاستقبال، وجلس حبيبها أحمد قبالتها، في حين تكوّمت زوجته والأبناء حوله، واستقر أصغر أبنائه في حضنه يداعبُ لحيته التّي تحاصر ذقنه منذ زمن طويل.

كانوا جميعاً لوحة فسيفسائيّة دافئة اسمها أسرة هانئة، أمّا هي فكانتْ نغمة نشازاً في مقطوعة عذبة، غزاها خجل عملاق يهمزُ إنسانيتها بشدّة، استعبرتْ رغماً عنها، ادّعتْ المرض، وغادرت البيت دون أن تأكل من طعامه، واختفتْ إلى الأبد.

- الاحتمال الرّابع: رغم الأسوار والحواجز كلّها تزوّج أحمد وجلالة أنوثتها، ونعما بالعيش في صومعة شفّافة لها أطياف قزحيّة، اسمها العشق،

هجرتْ هي الكلمات والدّنيا، وانبرت تتعبّد في صومعة عشقهما، أمّا هو فلم يهجر قيمه ومبادئه التّي آمن بها، واستمرّ يدافع عن دينه وأمته، وينشر أفكار العدل والحرّيّة والشّورى والمساواة والجهاد.

حملتْ ببذرة عشقهما، وفي ليلة صافية تماماً كليلة لقائهما وضعتْ طفلهما الأوّل الذي أسمته حمزة، كما أراد أحمد أن يسمّيه، لكنّه لم يكن موجوداً ليتلقّاه بيديه، إذ تلقّت الأرض جسده الذي أردته رصاصة من يد سوداء مجهولة وهو يتلو أذكار الصّباح خارجاً من صلاة الفجر.

- الاحتمال الخامس: تزوّج أحمد من حبيبته ربّة الكلمات، ودرجا على طريق عُبّد بالكثير من القلوب الكسيرة التّي أحبّته، وبالأمنيات المهجورة التّي تخلّتْ عنها من أجله، ونهلا من زلال العشق، وركنا إلى الأبد إلى صومعة عشقهما، وأغلقا الباب خلفهما، وقذفا بالمفتاح نحو العدم، وأغلقا النّوافذ التّي كان تتنزّى منها أصوات غير واضحة، البعض قال إنّها أصوات التّلاقي والعشق والاتّحاد، في حين أكّد الكثير أنّها أصوات السُّباب واللّعن للحظة التّي جمعتهما معاً.

(٥)

سِفْر الغفران: هواجس الصّومعة

استيقظ أحمد مثل عادته منذ أشهر مفزوعاً من كابوس يلازمه، استعاذ بالله من الشّيطان الرّجيم، اعتدل في فراشه، ووسّد جسده إلى حضن زوجته التّي ضمّته بحنان، ومسحتْ عن جبينه وافر عرقه، فقبّلته وهي تلقمه كأس ماء، لعلّه يفضُّ فزعه عنه، وقالتْ له: "أهو ذلك الكابوس مرّة أخرى". هزّ رأسه قائلاً: "هو ذاته".

صمتتْ، وصمتْ، وحار في تلك المرأة الكابوس التّي تطارد أحلامه، ويكاد يشعر بأنّها حقيقة، فهي تلمس وجدانه، وتهزّ قلبه، وتملؤه عشقاً لها، وتسقط صومعته كسفاً على رأسه.

شكر الله على أنّها كابوس لا حقيقة، وإن عجب أشدّ العجب من تلك القبلة العجيبة التّي تلازم باطن كف يده، وتحمل رائحة عطرها المفضّل.

المجاعة

"يحدث كلّ شيء في زمن المجاعة".

استخدم لاستكمال تمثاله الصّخريّ الشّعر الآدميّ والأظافر البشريّة وبقايا الملابس المهترئة الباقي الوحيد بعد الموت من أولئك الذين سقطوا في قبضة الموت بعد هذه المجاعة الشّرّسة التّي طرقتْ بيوت الفقراء والمعدمين، وعاثتْ تحطيماً في أجسادهم، وقعدتْ بهم دون الهرب أو الاستغاثة أو الثّورة عليها، وأكلتْ من أجسادهم حتى بشمتْ، وظلّوا جائعين بأجساد ذات جلد تهدّل وتقضّب على عظام وهنة بعد أن ذاب دهنهم.

كان نحّاتاً موهوباً في زمن الضّنك والفقر، لكنّه الآن ليس أكثر من حفّار قبور أو حانوتي قاتم يحترف تشيع الموتى، ويُتقن إهالة التّراب على الأجساد التّي اقتاتها الجوع، ويستثمر الباقي القليل ممّا لن يمانع الموتى بسلبهم إيّاه في إكمال تمثاله الصّخريّ الذي قدّه من الصّخر منذ زمن، وأضنى ذهنه تفكيراً وتدبّراً في أيّ الأشكال سينحَتْ منه.

فكرّ في أن ينحته على شكل جواد السّلطان، لكنّه تراجع عن الفكرة؛ إذ إنّ السّلطان يحبّ الخيل البريّة لا الصّخريّة، وفي مرة أخرى فكّر بأن ينحته على شكل حسناء ممشوقة القوام، لكنّ الحرمان الذي تحرّك في داخله أورثه غصّة خنقتْ أنامله، فمنعته من أن ينحته كما يحبّ، وآل قراره إلى أن ينحته على شكل طفل صغير يستجدي المارّة بدموع صخريّة خلاّبة، وخمّن أنّه سيجني الكثير من المال من هذا التّمثال الحزين؛ إذ إنّ الأغبياء يسعدون باقتناء فنون

الحزن، ويكمّلون بها رفيع أثاثهم ونادر ممتلكاتهم، ولا عجب في ذلك؛ فالفقر بالمجّان، والفقراء هم من يبدعون الفنون، في حين إنّ الأغنياء هم من يستمتعون بها.

لكنّ المجاعة المفترسة جعلته يتراجع عن تمثاله الصبيّ المستجدي، وشغلته بالموت وبالموتى، فقد داهمتْ المجاعة المكان على غير غرّة، إذ كان من المتوقّع أن الأمور ستزداد سوءاً ما دام الوالي يضيّق الخناق على المواطنين، ويرهقهم بالضّرائب المضنية، ويشاركهم حتى في سعاداتهم وفي لحظات الجماع اللّذيذة، في حين إنّ السّلطان يمارس رياضاته المفضّلة مثل ركوب جواري الفتنة، ومطاردة الشّهب في المجرّات البعيدة.

أمّا الشّباب من الرّعية فقد كانوا نذوراً وقرابين لحروب يعزّ أن تُحصى لكثرتها تشتعل في بلاد غريبة، ولأسباب لا تعني أمّهاتهم، ولا تستفزّ نخوتهم، وإن كانت أسباباً كافية كي يحتكر التّجّار والمرابون السّلع والأغذية، ويقصرونها على أصحاب الدّراهم الذّهبيّة، ويبقى الهواء الموجود المجّاني الوحيد ملاذاً للبطون الفارغة.

المجاعة كانتْ أقوى من أن تهزمها المدّخرات القليلة والمؤن القديمة والأعمال ذات الأجور المتدنّية والحدود الصّحراويّة التّي تخنق البلاد، وهي أشرس من أن يقطعها الجياع فارين لائذين بالعدم ممّا هم فيه، لذا فقد استكان الجميع أمام الجوع، وتراجعوا أمام الجِرَاب ذات الأنصال اللّامعة إثر تتبعّهم لروائح موائد الأغنياء والمترفين، فأحكم الجوع قبضته المهترئة على الجياع، ومحقهم دون رحمة أو نظرة عطف.

المشهد الرّهيب هو من احتلّ قريحة النّحّات، وأملى على طرقات إزميله الصّغير أن ينحتَ تمثالاً كبيراً على شكل مشهد موت عجيب، إذ إنّ الموت عملاق أسود يلوك أجساداً غضّة، وتتنزّى من بين قبضيته أشلاء وأعضاء شبه مهروسة، وتحت قدميه تجثو غربان سمينة تلتهم بشهوة ما يسقط من بين يديه، لكي يكون التّمثال أكثر صدقاً واستحضاراً لهيئة الموت البغيضة فقد استعان النّحّات الملهم بشعر بعض الموتى وبأظافرهم وبملابسهم، وثبّتها بين يدي التّمثال الموت، فكان التّمثال حقيقة مجسّدة للموت الذي يصهر المستضعفين دون رحمة.

المجاعة والموت الرّهيب وأنّات المنكودين لم تمنع المترفين من أن يستمتعوا بما تجود به قرائح الملهمين الجياع وأيدي الفنّانين الفقراء، ديوان الثّقافة أقام معرضاً تسجيليّاً للمجاعة، شارك به الفنّانون الجائعون من مختلف أصقاع البلاد، وفي قلبه انتصب تمثال المجاعة الموت الذي حصد الكثير من الجوائز والصّور والمقابلات التّلفزيونيّة والصّحفيّة.

اقتربت تلك الإعلاميّة الثّريّة المترفة من النّحّات، وسألته بفضول ضاربة صفحاً عن حذائه المهترئ الذي تتفلّت منه أصابع قميئة متّسخة: "أأنت من صنعتَ هذا التّمثال؟"، ابتسم النّحّات ابتسامة كسيرة ساخرة، وقال لها دون أدنى اهتمام: "بل أنتم".

السّجّان

ولعه الشّديد بحمل المفاتيح، وبإغلاق الأبـواب كـان السّـبب في أن يخسـر عمله الرّشيد الذي سعى إليه طويلاً، وبـذل مـن أجـل الوصـول إليـه النّفـيس والرّخيص. يهصره غيظ عظيم، وتهاجمه تباريح الحسـد والحقـد كلّمـا تـذكّر أنّ ذلك الرّجل المائع ذا الآراء الدّيمقراطيّة وحامل لواء الشّورى يجلس الآن مكانه، ويغور في وافر جلد كرسيه المنجّد الماجد بعد أن ترك الحبل على الغارب، وفتح الأبواب الموصدة، وألقى بمفاتيحه الحبيبة في مكان مظلم مجهول لتصدأ، وتتآكـل ناسية منسيّة.

قيل له إنّ قوى الدّيمقراطيّة وإرادة الشّعب المثقّف الواعي هي من أجـبرتْ دولته على إقصائه عن وظيفته الحبيبة، بحجّة أنّه يقمع الحريّات، ويعامل النّـاس بمنطق الأنعام السّائمة الضّالة التّي لا تجيد الاهتداء إلى طريـق، وعليـه أن يقفـل الباب عليها كي تكنّ في مكان بعينه، وقيل له كذلك إنّ الجميع بات ينعى عليـه عشقه لبابه الأصم ومفاتيحه الخرساء، وما عاد لدولتـه طاقـة بمواجهـة غضـب الشّعب؛ لذا كان عليه أن يفتح الأبواب، ويخفي المفاتيح ولو إلى حين.

لكنّه على الرّغم من ذلك يكاد يجزم بأنّ دولته قد أقصاه عن عمله خوفـاً من سلطانه النّاشئ الوليد الـذي بـات يظلّـه بغمامـة سـوداء، وقضـيّة غضـب الشّعب المثقّف الواعي ما هي إلا حجّة منتقاة وافقتْ هوى دولته.

هو متأكّد كذلك من أنّ قلق دولته من نفسه المظلمة ومن مكائده القائمة هو ما منعه من عزله، وجعله يكتفي بانتدابه لعمل آخر في جهـازه الأمـنيّ السّـابق، كان عملاً أصغر من طموحاته، ودون مقامه، وإنْ كان شـبهه مـن عملـه الأوّل

هو عزاؤه الوحيد فيه؛ فقد عُيّن سجّاناً على ذلك المعارض العتيد لكلّ نظام حازم خيّر، إذ سرعان ما يدعوه بالمستبدّ، ويثوّر النّاس عليه، ومآل معارضته الدّائمة كان هذا السّجن المعتم المنقور في جوف الصّخر، والمأسور للظّلام دون ضوء الشّمس.

أسعده كثيراً أن يربض على صدر ذلك المشاغب اللّئيم، وأن يشهد عمره يصطلي بنار القيد، وكي يمعن في تعذيبه والتّضييق عليه، فقد التزم بعدم الكلام معه لأيّ سبب كان، كذلك عكف نفسه على اتّخاذ مكان ثابت يراقبه منه حتى في لحظة تغوّطه وتبرّزه واحتلامه كي يمنعه من أيّ سعادة بخلوة أو خصوصيّة، ثم قلّص إجازاته حتى علّقها، وأطال ساعات دوامه في المكان، حتّى غدا عمله إقامة دائمة في المكان كي يكون العين الشّرّيرة الرّقيبة عليه، ومنع أيّ زيارة أو مقابلة صحفيّة أو كتاب أو صحيفة أو خبر طائر من هنا وهناك أن يحطّ في زنزانة المشاغب السّجين.

فرح إذ رأى المشاغب يذوي حزناً وقهراً، وبات يصعب عليه أن يجزم إن كان المشاغب ميّتاً أم يعاني من أزمة نفسيّة حادّة تمنعه من الأكل أو الشّرب أو التّبرّز أو الحركة أو حتى الكلام، وما بالى بذلك؛ إذ أسعده أن يُحكم قبضته على عنق المشاغب، وأن يمارس وافر متعته المتمثّلة في إقفال الأبواب، وحمل المفاتيح، وخنق خَلْق الله خلف أبواب روحه المؤصدة التّي منعته من أن يفهم معنى تلك النّظرة الحانية التّي يراها في عيني المشاغب منذ أكثر من عشرين سنة قطعاها معزولين في هذا السّجن الذي نسيه النّسيان، وما كان له أن يعرف أن المشاغب يرثي لحال سجّانه المسجون معه دون أن يدري؛ إذ كان الفارق بينهما أنّ أحدهما مسجون في داخل الزّنزانة، والآخر خارج الزّنزانة، والفاصل بينهما مفتاح حديديّ صدأ يبات منذ عشرين سنة في كفّ السّجّان الذي وهن عظمه، وما وهن لؤمه.

حكاية لكلّ الحكايات ([1])

(١)

الحكاية الأمّ

لا يستطيع الادعاء بأنّه يحبّها، ولذلك سيقتل أيّ رجل يقترب منها، كما فعل أخوه قابيل الذي قتل أخاه هابيل ليخلو له قلب أختهم راحيل، ولن يخدع نفسه، فيقول إنّ أخته جميلة إلى حدّ لا يقاوم، ولن يزعم كذلك أنّه يريد أن يصطفيها لنفسه؛ لأنّها أثيرة أبويه، أو صاحبة مال أو موهبة نادرة، لكنّه يريد أن يحصل عليها كي يكسر أنفها الأفطس الذي يشبه أنفه تماماً، ولا عجب فهي توأمه، لكنّه يمقت أنفها المتعالي الذي كان يزحم عليهما المكان في رحم أمّه حوّاء، وهو الآن معنيّ بذّل كبريائها، ولو كبّده ذلك غضب الرّبّ، وفطر قلبي والديه آدم وحواء من جديد بعد مقتل ابنهما هابيل منذ دهور طويلة.

يتربّص بأخته ذات الأنف المتعالي وعزّة النّفس المقيتة، يحيك بمهارة خيوط المؤامرة، ينقضّ عليها في سكون اللّيل وهي تسعى لقضاء حاجة في الخلاء حيث الخفافيش والعراء واللاّ أحد، يستعدي عليها الأخوة الجاهلين، فيحزّ رقبتها، ويهشّم أنفها الأبيّ بحجر باشتهاء واضح، وينعاها لوالديه، ويطعم جسدها للضّواري والكواسر؛ فهي قد أهدرتْ شرفها وِفْق زعمّه، فاستحقّتْ الموت بعرف طقوس الدّم المتوارثة.

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة الحارّث بن عمير الأزديّ للإبداع في حقل القصّة القصيرة في دورتها السّادسة في العام ٢٠٠٧، بلديّة بصيرا، بصيرا، الأردن.

(٢)

الحكاية النّموذج

١: ١: احتاج إلى مبلغ من المـال، فسـطا للمـرة الألـف بقـوّة الـذّراع ودم الأخوة المزعوم على مالها، وعندما قرّرتْ أن ترفض استنزافه المقيت لها، وقالتْ لا، عاجلها بطعنة سكين بقرتْ بطنها، واخترقتْ أشلاءها، فانزلق جنيها أرضـاً بين قدميها مطعوناً بطعنة أمّه التّي دفعتْ حياتها؛ لأنّها قالتْ لأخيها الظّـالم: "لا"، ولأنّها امرأة وصمتْ العائلة بوصمة العار المزعومة، وأهدرتْ شرفها، كما قـال خاله في محاضـر التّحقيـق الجنـائي، فصـدّقه النّـاس والقـانون، وكـذّبوا الجـنين المطعون.

١: ٢: أراد أن يضمّ إرثها إلى إرثـه، فرفضـتْ بقـوّة وإصـرارٍ، فكسـر لهـا ضلعاً، فنبتْ لها ضلعان، منعها الطّعام، فأصيب هـو بفقـر الـدّم الحـاد، رزمهـا متاعاً، وقرّر أن يبيعها لصديقٍ لا يملك إلا ذراعاً عاتية، وعضواً ذكرياً متحفـزّاً، وعقلاً صغيراً لا يُثقل عليه، فرفضتْ ذلك، وهربـتْ مـع الرّجـل الـذي تحبّـه، وتزوّجتـه، ومـن جديـد طالبـتْ بإرثهـا، فطلبهـا الأخ صـاحب الـدّم الحـارّ والعضلات المفتولة والمروءة المتعلقّة، وعدا علـى بيتهـا، وحـزّ عنقهـا، وتـبجّح قائلاً: إنّه محا عارها الذي لا يُمحى إلا بالدّم الذي غلى في مرجل غضبه باتقـاد متوحش عندما أُسقط في يديه، وعلم أنّ القاتل لا يرث من قتل.

١: ٣: كم حاول أن يقرن كلمة إلى أخرى، لكنّه فشـل في ذلـك المـرّة تلـو الأخرى، في حين كانتْ هي عرّابة الكلمات التّي تغزلها بإتقان ويسر على مغزلها السّحريّ، كتب كثيراً، وكتبتْ أكثر، طار نجمها، وحطّ نجمه من غير علٍ، عرفها

النّاس، وجهلته الحروف، أزبد وأرعد وزمجر، لكن ما طاوعته الكلمات، كتبتْ عن حرمانها، فدبّتْ الحياة في كلماتها، وغدتْ أشباح علاقات محتملة مع رجال قد كانوا، قرأ ما كتبتْ، فوجد مبتغاه فيما قرأ، حاكمها بمنطق الخيال، لا بجرم الحقيقة، ذنّبها بألف حالة عشق، وألقى القبض عليها في حضن ألف رجل، ثم حاكمها على عجل، ونطق بحكمه المنتقم من سعادتها الوهميّة، ومن تفوّقها عليه هو الأخ الرّجل الرّفيع القدر في أسرته وفي قبيلته، وهي الأخت المرأة الأقلّ شأناً.

تسلّل إلى غرفتها، وذبحها، فأطلقتْ ثغاء مخيفاً هزّ المكان، وأيقظ رجالها أبطال قصصها ورواياتها، داسهم جميعاً، ومزّق كلّ ما كتبتْ انتقاماً من تفوّقها عليه، وسخطاً على مَلَكَة الكتابة التّي تملكها، في حين حُرم هو منها، وبالطّبع غسل بذبح أخته النّعجة ثوب شرفه المزعوم التّي لطّخته أخته الآثمة الخاطئة التّي فرّطتْ بشرفها المصان.

١: ٤: امرأة كاملة هي وَفق معايير الذّكورة والمجتمع الأبويّ؛ فهي هادئة ومطيعة، ولا تحتجّ، ولا تبكي، ولا تطلب أيّ شيء، وتجيد فنون الطّبّخ والحياكة، وتعد بأن تقدّم نفسها شهيّة له في كلّ ليلة بعد طبق الحلوى المفضّل عنده، وتوافق على الزّواج به؛ لأنّها دجاجة أو عنزة بيتيّة مطيعة، وتذهب زوجة مع الرّجل الذي يريده والدها وأخوتها.

لكنّ الزّوج رأى في عينيها أشباح فضيحة وابتسامة هازئة تندّتْ من صمتها المخيف، ولمح في غضّ بصرها قرفاً من عجزه الجنسيّ، وتلويحاً بكشف ستره، ومعرفة سبب فشله مع تلك الأجنبيّة الشّقراء التّي طلّقته سريعاً، وأخذتْ شطر ما يملك، وجلّ كرامته.

كان عليه أن يسكتها إلى الأبد، حاول أن يسكتها بالإشباع، فأعياه عجزه، حاول ذلك مراراً ولأيّام كثيرة، لكن دون جدوى، غاظه صمتها، واستفزّ جسدها المثير رجولته الرّاكدة المتخاذلة، فانقضّ عليها في لحظة غضب، وقتلها، ومزّق عذريتها ورقبتها بسكينه؛ لأنّه قرّر أنّها قد وهبتْ نفسها لغيره، ولا أحد يستطيع أن يكذّبه، فهو الزّوج الرّبّ، وإذا قال صُدّق، وما لأهلها إلا أن يأخذوا جسدها المكفّن بالعار، ويدفنوه بعيداً عن الزّوج الفحل الشّهم؛ فالذّنب كلّه كان ذنبها، فهي من اختارتْ زوجاً عاجزاً جنسيّاً بشكل كامل.

١: ٥: اعتاد على أن يروي عطشه عبر تلك اللّحظات المشحونة بالمتعة المسروقة من فيلم إباحيّ أو مجلّة تعرٍ، يستجمع كامل فحولته المزعومة، ويهبها دفعة واحدة لامرأة متخيّلة، فتخمد رغبته المحمومة إلى حين، لكن جسده العاتي أراد أن يبتلع امرأة حقيقة في هذه اللّحظة، لم يجد أمامه إلا ابنة أخيه التّي ودّعتْ الطّفولة للتّو، وانتضتْ ثديين كسيفين، وملامح أنثويّة قادمة، تفرّسها برغبة، وانقضّ عليها، فامتصّ أنوثتها حتى روي، ونسي جريمته، لكن الجنين الذي حملته سفاحاً صرخ في أحشاء أمّه الطّفلة منبّهاً لوجوده.

اجتمعتْ الأسرة، واهتزّتْ الشّوارب الغاضبة، وأُغلقتْ الأبواب والنّوافذ والسّتائر، وحُجبت النّساء، وكانتْ المحكمة؛ ولأنّها الأضعف، فقد كان الحكم ضدّها، إذ ليس من العقل أن يُضحّى بالرّجل الجائر، وتترك المرأة الطّفلة الضّحيّة، فاقتادوها إلى العراء حيث قُتلتْ بدم بارد جزاء على فعلتها الشّائنة، إذ هي -دون شكّ- من أغرتْ عمّها البريء كحمل وديع بالاعتداء عليها، وقد أخذتْ جزاءها وفاقاً، وأراحتْ وارتاحتْ.

١: ٦: طالبتْ أمّها طويلاً بأن تُعالج ابنتها من داء السّير ليلاً، لكنّ أحداً لم يعرها أُذن اهتمام؛ فلا أحد عنده وقت لأخت تسير ليلاً، لكن الجميع يملكون

أيدي موت عندما يتعلّق الأمر بإعدام أخت وُجدتْ نائمة على الأرض بالقرب من غرفة جار أعزب يسكن سطح العمارة المجاورة بعد أن أعياها السّير وهي نائمة.

حزموها بسرعة وبقرف، وألقوا بها من شفا جرف، فخرّت أرضاً ميّتة، فغسلتْ بذلك شرفاً ادّعى الأخوة أنّه تلوّث هدراً، وشفيتْ تماماً من داء السّير ليلاً وهي نائمة.

١ : ٧: جلس إلى مقعده الفاخر على منصّة مرتفعة بعد أن لبس وقاره وحزمه وعدله المزعوم، كان عليه أن ينطق بكلمته الحكم الفيصل في قضيّة أولئك السّادة اللّصوص الذين تاجروا بأعراض المستضعفات والمغلوبات على أمرهنّ من النّساء لا سيما تلك الفتاة الغِرّ التّي هتكوا عرضها عبر مؤامرة قذرة، كذلك كان عليه أن يقول كلمته العادلة في قضيّة ذلك الأخ الهمام الذي انتقم لهدر عرض أخته على يد سبعة رجال عتاة، تكاثروا عليها، فغلبوها على أمرها بأن قتلها، وتركهم يعيثون فساداً وعهراً في الأرض.

تنحنح القاضي بشكل مصطنع، واستجمع جأشه، وشدّ عباءة القضاء على صدره، إذ كان يشعر بالبرد، وحكم ببراءة الأخ الذي انتقم لشرفه، وقتل الأخت الضّحيّة، وترك الذّئاب تسعد بصيدها الثّمين، وتضجع في الشّمس ريّانة شبعانة إلى حين وقعتْ في يد القضاء الذي بدا رحيماً معهم مقارنة بمحكمة الأخ المنتقم لشرفه المهدور على يد ذئاب سبعة من أخته ليلى ذات الرّداء الأحمر والبراءة الشّفافة والحكاية الدّامية.

١ : ٨: في عروق كلّ منهما يجري دم أحمر قانٍ يحمل كبراً وغيرة ورفضاً للخيانة، فإنْ ضجّ في شرايينه سُمّي أخا شرف، وإن ضجّ في سويداء قلبها

سُميّت قاتلة آثمة، وما كانتْ لتبالي بذلك، فقد ألفته في حضن صديقتها المقرّبة، يسافدها الغرام، فقتلتهما في لحظة غضب، وانتصرتْ لنفسها، وانتظرتْ أن ينتصر القضاء لها، إذ كانت تدافع عن شرفها كذلك، إلا أنّ القاضي الرّجل لا يستطيع أن يرى الشّرّف إلا في قطعة لحم بين فخذي امرأة، وخلاف ذلك فهو جريمة؛ لذلك فقد أرسلها سريعاً بتذكرة إعدام مستعجلة إلى العالم الآخر؛ لأنّها قاتلة آثمة.

(٣)

الحكاية المأساة

تتشابه تفاصيل الحكايات المأساة كلّها، إذ تعلّقت بشرف زُعم أنّه هدر على يدي امرأة خاطئة، إذ تقول الحكاية دائماً (١): "... وهكذا خسرتْ شرفها... والشّرّف المهدور لا يعوّضه إلا الدّم المسفوك... فتسلّل ذكَرُ ما اسمه... في ليلة معتمة، وقتلها، فغسل بدمائها شرفه المطلّخ بالعار، وسلّم نفسه للقضاء الذي كان به رحيماً، ولموقفه متفهّماً، فحكم عليه بشهر سجن مع العمل الشّاق، وبغرامة مقدارها قرشٌ لا غير؛ فأرواح المخطئات لا تساوي الكثير فيمنطق الذّكور الأقوياء".

١- التّفاصيل الصّغيرة لا تساوي شيئاً إذا تشابهتْ النّهايات.

يوميّات حروف

الهمزة

إبداعاتها القصصيّة المزعومة لم تحظّ إلا بإعجابها، أحد النّقّاد تجرّأ، وقال لها على مضض وحذر: "عليك أن تبدعي شكلاً قصّصياً جديداً، وأن ترفدي المضمون بالعمق والفكرة".

فكّرت طويلاً بالملاحظة التّي أملتْ أن تكون مفتاح انغلاق ما تكتب على تقبّل القرّاء، وإعجاب النّقّاد، لم تفلح في أن تأتي بجديد في ما يتعلّق بمضمون قصصها، واكتفتْ بأن أقدمتْ على استحداث بدعة طريفة في قصصها، إذ جعلتْ الغلاف في نصف المجموعة القصصيّة التّي تركتْ صفحاتها بيضاء دون أن تخطّ فيها كلمة واحدة، وانتظرتْ أن يُشيد النّقّاد والقرّاء والصّحفيّون بها، فقد خالتْ أنها غدتْ رائدة تحطيم الشّكل القصصيّ، لكن انتظرها طال، واستمرّ...

الباء

بدافع التّوسّع والتّخلّص من الأغراض الزّائدة عن الحاجة التّي تضجّ بها الشّقة الصّغيرة، قام بإخراج سلّة المهمّلات القديمة من البيت، فعنده سلّة مهملات جديدة بغطاء متحرّك ذاتيّ، وبدافع الكسل وضعها على باب شقّته، ولم ينحّها عن بابه، ولم يأمر حارس العمارة بإعدامها في مكان ما.

ظنّ الجيران أنّه قد وضعها على باب بيته طلباً للنّظافة، وحثّاً لهم كي يلقموها قمامتهم، ولا يلقون بها على السّلالم، في ساعاتٍ امتلأتْ السلّة القديمة بالقمامة الفضوليّة، كاد يغضبُ من سلوك جيرانه، وتأمّل بفضول سلّته المطروقة بكثرة هذا النّهار، قدّر أنّها أهم ممّا تخيّل، وأعاد النّظر في موضوع إعدامها، ومنحها عفواً خاصّاً، وأعادها إلى الشّقة، وادّخرها في خزانة الأشياء القديمة.

التّاء

تناجي نفسها ليل نهار عبر مرآتها القديمة، تتأمّل ملامحها الرّقيقة النّبيلة، وتعجب ممن يرونها دميمة، فهي آية مجسّدة للجمال، تسأل مرآتها بثقة مزهوة: "يا مرآتي، من أجمل امرأة في العالم؟" تقهقه المرآة الباردة، وتقول بصفاقة وبرود: "أنتِ الأجمل".

تحاول أن تصدّقها، ثم تغرب في بكاء عميق؛ لأنّها تكره المرايا الكاذبة وعيون الرّجال الفاحصة.

الثّاء

ثواني ويكون اللّقاء المنتظر، هي المرأة التّي انتظر لتعوّضه عن سنين الزّواج المجدّبة، وهو الرّجل الذي حلمت به ليلملم شتات نفسها التّي بعثرها رجل ما في زمن الدّخول في التّجربة، تعارفا عبر الإنترنت، فتجاذبا، واتّفقا على اللّقاء، وضربا له موعداً ما، وها قد أزف الميعاد، وجاء بلهفة، ولمّا يحضرا بعد.

جاء هو أوّلاً متهندماً متعطراً، وانتظرها، وطالع السّاعة عشرات المرّات يستحثّ اللّحظات لتهلّ عليه بأفراحه الموعودة، ولم تأتِ، بل فاجأته طليقته

بزيارة غير متوقّعة، كانتْ هي متهندمة كذلك، تطالع ساعتها بقلق بادٍ، حضورها أربك موعدهما المضروب، غادرا المكان على مضض، وكلّ منهما يعجب من عدم حضور مَنْ يحبّ، ويحثّ الخطى ليذهب إلى البيت، ويجلس إلى الإنترنت، ويرسل إلى الآخر الذي أخلف موعده معه رسالة يقول بها معاتباً: "ما سبب عدم الحضور؟ انتظرتك طويلاً، ثم اضطررتْ لمغادرة المكان بسبب حضور زائر غير متوقّع".

الجيم

جميلة هي جدّاً، ولا يبالغ إن قال إنّها أجمل من نساء المجلّات وفتيات الإعلانات وراقصات الملهى اللّيليّ الذي يزوره من وقت إلى آخر، سكنتْ في العمارة المقابلة مع عائلتها منذ أسابيع قليلة، ما كان يظن أنّه سوف يحظى بنظرات إعجابها واهتمامها، لكنّ تحديقها الدّائم به جعله يجزم بإعجابها به، فلزم شرفته المطلّة تماماً على غرفة نومها، واحترف لعبة التّحدّيق بها، وبنى آمال عريضات مع جلالة عينيها السّاحرتين، وفاته أن يلمح عصاها البيضاء.

الحاء

حملته مسجىً في قبضة يدها الآثمة الملطّخة بآخر أنفاسه المزهقة، كان عصفوراً مغرّداً قبل لحظات، وهاهو الآن يغدو جيفة تغادرها حرارة الحياة بسرعة.

كانتْ تريد أن يغرّد في يدها القابضة عليه، وشدّتْ على ضلوعه الهشّة لتهبه حنانها القاتل، فخنقته، وقتلته من حيث أرادتْ أن تشعره بمقدار حبّها له.

الخاء

خرّ ميّتاً على باب السّلطان يحمل كتاباً يستعطفه به كي يتحمّل عنه نفقات علاجه من مرضه العضال الذي ألمّ به، وهو فقير لا طاقة له بدفع الدّراهم الذّهبيّة. طبيب المشرحة قال إنّ موته لم يكن بسبب مرضه العضال، بل بسبب هدر ماء وجهه على رخام باب السّلطان.

الدّال

دنا منه، وزاحمه بالمنكبين والرّكبتين حتى كاد يخلعه من مكانه من أمام باب ديوان العطايا، نظر إليه نظرة من تحت ظلال عمامته الفارهة، وقال له بتقزّز: "يا هذا، ابتعد من هنا، أهذا مقام السّؤال؟"

رمقه الشحّاذ بنظرة ازدراء لئيمة، وقال له باستخفاف قاتل: "أو هذا مقام العالم؟"

الذّال

ذنبها الوحيد أنّها تريد أن تدافع عن عرضها وعن أعراض بناتها الصّغيرات، لطالما ردّتْ أيدي العابثين بحزم وقوّة، ولزمتْ عملها الحقير في مخزن الغلال، ورضيتْ بالسّتر قسمة، لكنّه ما أراد إلاّ ثمينها المصون، ومدّ إليها يده الآثمة، فتحوّلتْ إلى غول بشع بعين واحدة تمتدّ طوليّاً في وجهها المعلول، وبثدي واحد، وبفم ذي أنياب كاسرة، لاكته حتى حطّمت عظامه، وهرستْ لحمه، وغادرتْ المخزن لا تلوي على شيء.

الرّاء

رام أن يكون في مأمن ممن يبطشون بالعيون التّي ترى، والآذان التّي تسمع، والالسّنة التّي ترفض، فلزم العمى والطّرش والخرس، وانتهى في شقّ صغير، دسّ نفسه فيه، وسعد بمصير البُزّاقة الذي آل إليه.

الزّاي

زحم المكان بآلاف المصنّفات والمراجع ونوادر المخطوطات ونفائس الإبداعات والسّير، أمضى حياته في ترتيبها وتصنيفها وتبويبها، وما تسنّى له يوماً أن يقرأ في إحداها، فقد كان خازن أوراق لا عالم.

السّين

سيّدنا الماء أراد أن يوزّع هباته السّنويّة على رعاياه من أهل البحر والبرِّ، فأحدث زوبعة بحريّة مثيرة خمّن أنّها سوف تمتّع أهل الماء، وكثير دهشة أهل البرّ والسّاحل، فأغرق السّواحل، ودمّر الموانئ، وبعثر أسماك البحر وجواهره على الشّطآن والمرافئ، ولعن رعاياه الجافين والمبلّلين جميعهم إذ سبّوه بأقذع سباب، وتطيّروا من زوبعته المثيرة، وما قدّروه حقّ قدره.

الصّاد

صديقتها هي منذ سنين طويلة، تقاسمتا معاً الذّكريات وأيّام الشّباب وانكسارات الآمال ورأبها، تخاصمتا لسبب تافه لا تفلحان في تذكّره مهما بذلتا

من جهد في سبيل ذلك، كانتْ غاضبة وفي حاجة إلى صـديقتها الأثـيرة للغايـة، وفي حاجة إلى أن تبثّهـا مكنـون نفسـها؛ فقـد كانـتْ صـديقة صـدوق في زمـن الاحتياج والرّحيل.

اتّصلتْ بها، أثخنتها بقصصها وجراحها، قالتْ لها: "أنا مشتاقة إليك كـثيراً"، وسمعتْ حنون كلامها، تنهدتْ بعمق، ثمّ سبّتها، وصـكّت سمّاعـة الهـاتف في مسمعها إخلاصاً لطقوس المشاحنة والعـداء، ونـزولاً علـى نصـائح الشّـيطان، ووسوسات القلب الخدّاج.

الضّاد

ضميرها يؤلمها بقوّة، ويعاني من تضـخّم ورمـيّ عجيـب، إذ يكـاد يجتـاح أحشاءها، ويقتلع قلبها الذي خانهـا، وخـرج علـى سـلطتها الحديديّـة موضـع فخرها، وأحبّ ذلك الرّجل الهادئ مثل غيمة، الصّامت مثل ظلّ، الخامـد مثـل بركان، حاولتْ المستحيل كي لا تعشقه، لكنّ محاولاتهـا المزعومـة كلـها بـاءت بالفشل الذّريع، وهـا هـي تحـطّ إعصـاراً علـى رأس زوجتـه وأولاده، وتهـدّد بتحطيم عرى تماسكهم، ولطيف معشرهم، لكنّهـا تحبّـه، ولا سـلطان لهـا علـى قدرها، تفكّر كثيراً بالهروب منه، والـتّخلّص مـن آلام ضـميرها، وبعـد صـراع نفسيّ طويل تقرّر أن تجري لضميرها عمليّة استئصال؛ إذ إنّـه متـوّرم أكثـر ممّـا يجب.

الطّاء

طُلب منه أن يقدّم كلمة في ذكرى يوم نصرهم المؤزّر قبل مليون عام على مجرّة تاهتْ في الكون، وما عاد لها وجود، كان عليه أن يستعرض تاريخ الحروب، ثم يستأنف الحديث عن حروب النّجوم، وصراع المجرّات، ثم يتوقّف مليّاً عند مفاخر شعبه، وصغائر عدوّه، ولا ضير في أن يذكر أسماء موتى تلك الحرب العادلة، ويعرّج على أماكن سكناهم، قدّر أن الكلمة ستستغرق على الأقلّ خمس ساعات يصدح بها أمام جمهور المحتفلين، ولا تثريب عليه في ذلك، فالمناسبة بالغة الأهميّة، وهو لم يبذل جهداً كبيراً في تحضير كلمته، إذ استوت في خطوط عريضة في خمس دقائق.

لسبب طارئ أُخبر بأنّ وقت الحفل قد أُختزل إلى ثمنه، وأن عليه أن يجعل كلمته في خمس دقائق، فشرع يعدّ كلمته من جديد، واستغرق ذلك منه خمس ساعات كاملة.

الظّاء

"الظّبي صغير جدّاً، لعلّه رضيع أو يبحث عن أمّه"، قالت وهي تداعب وجه الظّبي المسجّى على الشّارع الإسفلتيّ الحارّ، تحثّه بأطراف أناملها الورديّة على أن يتمرّد على الموت الذي هبط عليه قبل دقائق إبّان اجتيازه للشّارع ليصل إلى الجهة الأخرى منه قبل أن تأتي سيارتهم الصّحراويّة مسرعة، وتصدمه بقوّة، وتعفّره بعجاج سرعتها.

كانتْ تتابع عيني السّائق الذي كان قبل أيّام حبيبها عبر مرآته، وترهف السّمع لصمته ولحديث عينيه، وهي تقول لخطيبته التّي تسند رأسها بوله على

كتفه الأيمن، وتستمع باهتمام إلى حكايتها مع ذلك الشّاب المجهول الـذي قالـتْ لها يوماً إنّها واقعةٌ في غرامه: "لقد انتهى كـلّ الشّـيء كـان بيننـا، لقـد هجرنـي، ليتزوّج من ثريّة مترفة".

لكن الانحراف المفاجئ عن جـادة الطّريـق، ودهـس ذلـك الظّـبي الصّـغير منعاها من أن تتابع ذلك التّقبضّ في سكون عينيه، نزلـوا ثلاثـتهم مـن السـيّارة مسرعين، وتحلّقوا حول الظّبي القتيل، كان ميّتاً، وحرارة الرّوح ما تزال تضطرب في ارتعاشات جفنيه، قالتْ الخطيبة لخطيبها بنبرة لومٍ: "تسرّعك كـان السّـبب في قتل هذا الظّبي المسكين".

تنهّدتْ بنفس خافت، وهمستْ في أذن الظّبي الميّت: "وفي موتي أنا أيضاً".

العين

عليه أن يستجمع قوّة خياليّة، وأن يستحضر بلاغة مبينة كي يصوغ لهـم في كلمات وهّاجة حقيقة مشاعره بدقّة نحو تلك الخادمة الأسيوية الشّديدة السّمرة، ذات العينين البليدتين، والخصر النّحيل، والأقـراط الكـثيرة التّـي تغـزو أذنيهـا الصّغيرتين.

هو لا يشتهيها، فقد قعد به العجز دون ذلك، ولا يحتاج إلى خادمة بـالمعنى الدّقيق؛ فزوجته المقعدة المريضة هي مـن تحتـاج إلى خـدمتها؛ لـذلك اسـتقدمها ابنهما البكر، ولا يتوقّع منها أن تمتعه بحديث ممتع عذب، فكلاهما لا يفقـه لغـة الآخر، لكنّه بحاجة إليها؛ ليتذكّر أنّه مـا يـزال رجـلاً علـى قيـد الحيـاة، تنعشـه مداعبات امرأة، ويُسعده تتبّع أثيرها الأنثويّ على أثاث البيت وجدران الغرف،

هو باختصار يريدها كي تتحرّك معها أوتار قلبه، فيتأكّد من أنّه ليس مقعداً مع زوجته في كرسي رماديّ متحرّك منذ سنين طويلة.

الفاء

فهمه للأمور مختلف عن فهم كثير من البشر لها، وهنا يقع الخلاف بينهم، فهم يسمّونه مجنوناً، وهو يسمّي نفسه عبقريّاً، فهو قادر على أن يخلق أسطورته من المستحيل، وقادر على تغير الأمور المحزنة، لتغدو مفرحة مبهجة، وهي قدرة استثنائيّة، يعجز عنها جلّ البشر التّعساء في هذه الأرض.

أعليه أن يقول إنّه لقيط، لا يعرف له أباً ولا أمّاً، وإنّه فقد قدمه في حرب لعينة لا ناقة له فيها ولا جمل، وأنّه ما ضمّ امرأة إلى صدره في يوم في حياته ليكون عاقلاً في عرف البشر عُشّاق النّكد؟

ألا يمكن أن لا يُعدّ مجنوناً على الرّغم من ادّعائه بأنّه ابن إله القمر، وكوكب الزّهرة، وأنّ أمّه أسطوريّة العشق والجمال هي من أرسلته إلى الأرض عبر نيزك متوهج كي ينجو من حروب كونيّة طاحنة، وأنّه خسر قدمه في معركة غير متكافئة مع ديناصور جائع، وأنّ طبيعته السّرّمديّة، وجسده نصف السّماويّ هما من يحولان دون أن يقيم علاقة مع أيّ امرأة من البشر؟

القاف

قامتْ الدّنيا على التّفاصيل الصّغيرة، في حين كانت التّفاصيل الكبيرة قاتمة وعامة وغير خاصّة أو محدّدة، وتخلو من خصوصيّة أو حميميّة، وتمخّضتْ تجربة التّفاصيل الكلّيّة عن مأساة كونيّة خطيرة، إذ عمّ التّشابه الأشياء، وتماثلت الموجودات، وتساوت الأمور، وما عاد هناك فرق بين عين وعين أو قلب ووجه، أو وجه وآخر، أو عشق وهيام، اجتمعت التّفاصيل الكلّيّة، وقرّرت في لحظة مخاطرة أنّ تلد التّفاصيل الصّغيرة، لتتمايز الجزئيّات، وتجمل الحياة، وتختلف الأشياء، فكانت التّفاصيل الصّغيرة التّي اشتعلتْ بسببها هروب الدّنيا جمعاء؛ إذ كان الاتّفاق على تلك التّفاصيل ضرباً من المستحيل.

الكاف

كان من المتوقّع أن يستغرق عزفه ساعات أو حتى أيّام كي يستنفد آلامه وأشجانه كلّها، فلهذه الغاية أهداه أبولو إله الفنّ والموسيقى هذه القيثارة كي ينسى زوجته المسجونة في دنيا الموت الأسود، لكن حزنه كان أعظم من لحظات تُستنفد، وطاقة تفنى، شرع يعزف، ويعزف، ويعزف، فألهى بموسيقاه العذبة البشر عن حروبهم، واستأنس كواسر الوحوش بها، وجمع حوله الحزانى والمنكوبين، ولمّا مات بقيت قيثارته تعزف دون توقّف.

اللاّم

لوّن زهراته الجميلات المأسورات في لوحة زيتيّة بدقّة وعناية، سخر منه الأصدقاء لاهتمامه برسم ماء في إناء الزّهرات، إذ كانتْ جمادات لا حياة فيها،

ولا تحتاج إلى ماء، لكنّه كان مؤمناً بقدرة ريشته على البعث، ومدركاً لطاقة زهراته اللّوحة التّي كبرتْ بمقدار إنشين منذ أسبوع، وتفرّعت منها زهور صغيرة، ونمتْ لها براعم غضّة.

الميم

موهبته الوحيدة كانتْ القدرة على اختلاق الأعذار، وعلى تأجيل الأعمال، والبراعة في الرّثاء للنّفس التّي لا حظّ لها، فهو يملك موهبة يخلص لها، ويتعهّدها بالرّعاية والاهتمام، لكنّها لا ترفعه كما ينبغي له، ولا تحضّ البنان لتشير إليه بالإعجاب والتّقدير، ولا تعلى كعبه سيراً على ديدن المواهب، وكما هو شأنها مع أصحابها، بل هي تحطّ منزلته في نفسه وفي جماعته، وتقعد به دون النّجاح والعمل، وتحرمه من لذة التّحقيق والانتصار.

النّون

نسي أنّه فنّان بل إنسان منذ أن بسم له الحظّ، وصالحته الدّنيا، وانتقل للعيش من غرفة تحت الأرض إلى شقّة فارهة في شارع الوزارات، لكنّ الرّيشة عافته، ولم تبرّ بعهدها له، كذلك هجرته الكلمات غير آسفة على ودّه المنصرم، حاول أن يتأقلم مع حقيقته أنّه ثريّ سعيد، لا رساماً وشاعراً منكوداً، لكنّه أخفق في ذلك، كما أخفق في أن يجد في نفسه دليلاً واحداً على أنّه إنسان يحمل شعوراً ما، ويعرف معنى الألم، وكي يتأكّد من حقيقة ذاته قدح شعلة الفرن، وحشر كفّيه فيه، وانطلق يصرخ، ويصرخ، ويصرخ.

الهاء

هوايتها المفضّلة هي أن تحرق قلوب البشر، ولا وزر عليها في ذلك ما دام قلبها يحترق كذلك، كان الحبّ والعشق والإخلاص هم هوايتها الأولى التي كانت تناسب طبعها الرّقيق، ونفسها التّائقة إلى البذل والنّور والإسعاد.

ثم جاء آكل القلوب، فاشتهى قلبها، وفي سبيل الحصول عليه تفنّن في تقديم عروض بهلوانيّة مثيرة للحبّ، ولأنّها غرّة فقد صدّقته، ووهبته قلبها، فأكله.

من يومها غدتْ آكلة قلوب لا تستسيغ ما تأكل منها إلا إذا كان محترقاً حدّ التفحّم، بعد أن تضنيه على نيران الشّوق والعشق المزعوم.

هي سعيدة بموهبتها التّي تدفعها أحياناً إلى الشّرّه المفرط، ومن ثم إلى التّقيّؤ لساعات طويلة في مكان مظلم، كان اسمه هي.

الواو

وجيلان هو عيدهم الشعبيّ المفضّل، يستغرق يوماً وليلة، تُحضّر فيه العصائر الطّبيعيّة اللّذيذة، وتُعقد فيه الحلوى في أكياس ملوّنة برّاقة، ويُقام على شرفه على شرفه حفل أناشيد وأغاني وأحاجي للأطفال، يُشرف عليه حفنة من المعلّمين والمكلّفين بذلك من الوزارة إلى أن تنتهي اللّيلة الطّفوليّة المرحة.

لكنّ التّوجيهات الوطنيّة الحكيمة لجهة ما اقتضت المزيد من الاهتمام بهذا العيد المهمّ، وتحويله إلى مناسبة وطنيّة بل قومية مقدّسة، وفي سبيل ذلك أُنشئتْ وزارة للقيام على تنظيم شؤونه اسمها وزارة وجيلان، كذلك رُصدتْ له ميزانيّة عملاقة كشفتْ حساب وزارة الحربيّة، فاضطر وزير الدّاخليّة لتسريح نصف

الجيش، ووقف إمدادات الجيوش المحاربة في البقاع المحتلة، وانتهاج سياسة اللّين والإرضاء مع الدول كلّها الطّامعة بدولته الفتيّة في سبيل استمرار وجيلان.

الياء

ينتظرون الأخبار التّي تبثّها وكالات الأنباء من شتّى أصقاع المعمورة، يتحلّقون حول جهاز الحاسوب، ويفرغون ملاحظاتهم في أوراق بيضاء، وينطلقون ليقوموا بواجباتهم المقدّسة، وليضطلعوا بممارسة سلطتهم الرّابعة، فيقولون كلمة الحقّ لا يخشون فيها لومة لائم، ويحملون لواء الصّدق أنّى اتّجهوا، ويفخرون بأنّهم صحفيّون يحرسون أقلامهم الطّاهرة.

- الصّفحة السّياسيّة: الرّاقصة ز. ف. ت. تتولّى منصب المساعي الحميدة في الأمم المتّحدة.
- الصّفحة الدّينيّة: فضيلته يتبّرع لحديقة حيوان تايوانيّة بنصف أموال الأوقاف المسروقة في فترة حكومته الرّشيدة.
- الصّفحة الثّقافيّة: تؤكد الفنّانة ك. ك. أنّ حجم ثدييها طبيعيّ، ولا تنفي احتمال تكبير شفتيها، وتصغير أنفها، وشدّ رقبتها.
- صفحة المنوّعات: صدّق أو لا تصدّق: أكّدت مصادر موثوقة أنّ الشّامة التّي على وجه المغنية المبدعة س. س. كانت قبل عمليّة الشّدّ في منطقة بطنها.
- صفحة التّنمية: قدّمت مؤسّسات وطنيّة قروضاً ميسّرة للأسر المستورة بعد أن عرّاها الفقر وفضح سترها.
- الصّفحة الرّياضيّة: للعام الخامس على التّوالي يخفق فريقنا الوطنيّ في تصفيات الوثب الطّويل بسبب انكسار الأعناق، وقصر بُعد النّظر.

عبوديّة

"العبوديّة ليست أغلالاً وأطواقاً من حديد ونار، بل هي لحظات ضعف وخنوع واشتهاء لا تُصدّ" (١)

(١)
شهبندر التّجار

رصد مئة درهم لأعمال الخير، ومئة درهم لرعاية نشاطات اجتماعيّة مكرورة، ومئة درهم لشراء قلنسوة يمانيّة تناسب مقامه الرّفيع، إذ كان شهبندر التّجّار، وصرّ كفّه بزهو على ألف ألف درهم يدّخرها ليشتري بها جارية ساحرة ما وقعتْ عليها عين بشر، ولا افترعتها شهوة لعضوه العجب المتوثّب دائماً أمام الجمال وغنج الجواري المستجلبات من أرض الصّقيع والبحيرات.

كلّف كهرمانة بالبحث عن جاريته التّي رسمها بألوان شهوته، وكلمات شاعره الخاصّ، وأذكى عيون الدّلالات والقوّادات للبحث عنّها في أسواق النّخاسة ودور عرض الجواري البارعات، وأمّل الجميع بسخي الهبات والصّلات، فاستعرتْ نار البحث عنها، إلى أن وُجدتْ في دار النّخاس اليهوديّ الأعور الذي يقدّر الجمال النّادر، ويجيد المقايضة به.

ما كاد شهبندر التّجار يلمح الجارية طِلْبته حتى هان الذّهب عليه، وزهد بكلّ شيء خلا الجارية الشّمسيّة ذات الشّعر الذّهبيّ والعينين اللاّزورديتين،

١- من حِكَم العبد الآبق المجهول النّسب.

وسرّه أن يخسر وافر المال في صفقة سريعة مع اليهوديّ النّخاس ما دام سيربحها، وكذلك كان.

فرح بجاريته التّي قايض بها حبّاً وكرامة ثـروة طائلـة تكفـي لشـراء سـوق النّخاسة بأكمله، لكنّه عدّ نفسه محظوظاً إذ ملك جارية تساوي ألف ألف درهم، لتسعده، وتملأ دنياه حُبوراً وبهجة، في حين تملأ نفـوس نسـائه وجواريـه حقـداً وغيظاً وكدراً وحسداً، وهنّ يرينها تتمدّد على مضجع من حرير وريـش نعـام، في حين ينكفئ شهبندر التّجار على قدميها يقبّلهما، ويسـتمرئ دلالهـا، ويجهـد نفسه لإرضائها، فهي جاريته التّي عليها أن تبذل النّفيس وقرّة العـين لإرضـائه، إذن لا ضير في إسعادها قليلاً، فهو السيّد الرّحيم وهي الجارية الضّـعيفة، لكـن الويل لها إن فكّرت في أن تبيعه في سوق النّخاسة، إذ غـدا لسـوء حـظّ جواريـه ونسائه مملوكاً لها.

(٢)

المملوك المُستضعف

عليه أن يكون شديداً وصارماً بل وقاسياً على مماليكه كي تسير الأمور على ما يرام، فيحسن إطباق قبضته على نفوسهم التّائقة دائماً إلى التّمرد والعصيان والكسل، فقد تعلّم أنّ نفس المملوك تغلبه بكلّ سهولة، وتقهره على المعاصي والشّهوات، وهو في سبيل ذلك أتقن فن سياطة جلودهم بنيران عذابه، فاعتدلوا، والتزموا الجادّة، وما عاد يلفي عندهم خطأ أو ريبة أو عصياناً.

اضطر إلى أن يجلد مملوكه ياقوت حتى أشرفتْ نفسه على أن تفيض؛ لأنّه عبد آبق لعين، ودفع بمملوكه غفران إلى يدي الوالي ليرجمه حدّ الموت؛ لأنّه وطأ جاريته الحسناء، وقطع يدي مملوكة شهوان ورجليه على التّوالي؛ لأنّه سرق زبيباً من مخدعه، ثم ألقى بجسده الجذع الباقي سرّاً إلى كلاب حراسته.

لكنّه ما ألفى في نفسه ذرّة إشفاق أو ندم على قسوته على مماليكه، إذ يستحقّون كلّ عقاب، وداعبتْ نفسه سعادة سرّيّة عميقة، إذ كان مملوكاً لشهوات جارفة، ورغبات منحطّة، انقاد لها جميعاً، وما وجد يداً تضرب على ضعفه، فهو السيّد، ويدا السيّد لا يُضرب عليهما.

(٣)

جارية ولي العهد

قبضة من ملك الموت، ويصبح خليفة لا ولي عهد، فقد أعدّ العدّة ليملأ عرشه العريض بجسده الهزيل الشّاب، ولُقّن فنّ الغدر والدّسائس، ونال من المبايعات السّرّيّة ما سيجعله ينزلق في عرشه بيسر، ويحتلّ إيوانه المنشود دون أدنى اعتراضات أو ثورات أو انشقاق؛ لذا فقد طاب نفساً، وانقطع على جاريته الحسناء، واستولدها، فولدتْ له عاجلاً لكثرة ما علق رحمها من لذيذ شهوته.

لقد جاءت اللّيلة المنتظرة، السّلطان كان في يدي الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة، والقصر لا ينام ينتظر المبايعة الجديدة، وهو في مخدع جاريته يعكف على تقديس جسدها المثير، ومداعبة طفله الرّضيع، والشّموع المتقدة هي الآية والإمارة على تواتر أنفاس الحياة في صدر السّلطان المحتضر.

قبل الفجر بساعة انطفأت الشّموع، وأُعلن الحداد في البلاد، وحمل ولي العهد لقب خليفة، وزُفّ إلى عروسه المجهولة الملامح والقسمات ذات الحسب الرّفيع، والنّسب المشهور، فعلى الخليفة أن يكون زوجاً لا أسير مخدع جارية، وأُجبر في اللّيلة عينها على إلحاق جاريته وابنهما الذي ما عاد يحسن به أن يذكر اسمه بجناح الجواري والحريم، وغالب بشجاعة منقطعة النّظير رغبة تشيع جاريته الحبيبة بنظرة وداع، وفاته أن يراها كسيرة القلب، تطؤها تباريح العشق التّي تهصر الجارية الحمقاء التّي تقع في حبّ سيّدها، لا سيما إذا كان كلاهما مملوكاً لشيء اسمه المصلحة العامّة وآداب السّلطنة.

(٤)

مماليك السّلطان

احتشد السّوق بآلاف الفضوليين فضلاً عن مئات المشترين الذين جاءوا من شتّى أصقاع البلاد؛ ليشهدوا بيع مماليك السّلطان الذين كانوا في اللّيلة الماضية هم السّلطان والقادة والوزراء والحجّاب وكتّاب الدّواوين وفرسان الجيش والثّغور، وها هم اليوم أشباه عراة يُعرضون في سوق النّخاسة للبيع بإمرة الفقيه الفاضل الذي تبرّأ من طاعتهم وإمرتهم؛ إذ إنّهم ما يزالون مملوكين للسّلطان المُتوفّى، وعليهم أن يُعتقوا حتى يملكوا الأهليّة كي يحكموا البلاد والعباد، فأنّى لمن لا يملك نفسه، أن يحكم غيره؟

لقد نزلوا مكرهين على فتوة الفقيه الشّجاع، وعُرضوا في الأسواق للبيع، على أن تشتريهم الدّولة، وتعتقهم، فيعودوا إلى سالف أماكنهم، وسابق عهدهم بالسّلطة والحكم، وقد وافق الفقيه على ذلك حبّاً وكرامة، وأعدّ العدّة لذلك.

كان عليهم أن يحتملوا هذا اليوم البغيض الذي قرّروا أن يستمتعوا بطرافته بقدر ما يستطيعون حتى تمرّ سحابته السّوداء، استسلموا للعيون الفضوليّة التّي انهالت عليهم من كلّ حدب وصوب تتفرّسهم، وتحفظهم عن ظهر قلب، في حين سمحوا لآذانهم بأن تتسكّع بين الحاضرين، وتسترق كلماتهم، وتحملها إليهم، سمعوا الكثير من سفاسف الكلام، ولم الاستغابات، ووعود اللّقاء والوهب والصّرم، وسخروا من تنهدات الجشع، وزفرات الاشتهاء، وأحلام الكسلى والمنكودين، وما سمعوا أيّ كلام عن التّصدّي لذلك العدوّ الذي يقبع على تخوم الأمصار، ويهدّد بحرب طاحنة لا تُبقي ولا تذر، في حين كانت

عقولهم تضجّ بالخطط والاستعدادات في سبيل التّصدّي للعدوّ الآتي، وما استطاع كبيرهم المسمّى سلطان أن يقاوم فكرة لاحتْ في ذهنه، فخرج عن آداب العرض في سوق النّخاسة، وطلب خريطة جغرافيّة لحدود البلاد، جاءته الخريطة على عجل، وشرع يرسم خطّة دفاع للتّصدّي للعدو، والمماليك القادة من حوله يتابعون خطّته باهتمام، وفاته أن يعرف السّعر الذي دُفع فيه.

(٥)

ثورة العبيد

استجمعوا هممهم الخائرة، وألّفوا صفوفهم الشّتات، واختاروا منهم قائداً ومتحدّثاً باسمهم، وأعلنوا الثّورة في البلاد كلّها، وأسمعوا الدّنيا صوت غضبهم، وأجبروا السّادة على النّزول على رغبتهم، وتحقيق كافة مطالبهم، وتحريرهم من نير الحرّيّة التّي كبّلهم بها لعين سلّطته السّماء عليهم، ليبدّد سعادتهم، ويطيّر راحتهم، ويحمّلهم وِزْر القلق بتأمين أمور المعاش بعد أن كانت مؤمّنة لهم دون عناء.

ذلك اللّعين الذي هدّم سعادتهم ادّعى أنّه جاء ليحرّرهم من عبوديّتهم، وليعتقهم من أغلالها التّي ورثوها كابراً عن كابر، وأطاعوه لحمقهم ولغِرّ تجربتهم، فنزل السّادة على رغبتهم المشتهاة، وحرّروهم، ففقدوا بذلك حمايتهم العريضة، والبيوت والخيرات التّي كانوا يتنعّمون بها وبنيهم، وأصبحوا في ليلة وضحاها مشرّدين في الشّوارع دون معين أو مجير أو حتى قيود عبوديّة ذهبيّة.

فاستقرّ رأيهم على أن يستعيدوا جنّة عبوديّتهم مهما كان الثّمن؛ إذ فيها الرّاحة والأمن والعزّ، أعلنوا ثورتهم، وذبحوا محرّرهم على شرفها، ورفعوا دمه المهدور على أكفّهم الملوّحة بالموت للسّادة إذ لم يعيدوهم إلى حظائر رعايتهم، واعتصموا طويلاً حتى نالوا مرادهم، وانتصرتْ ثورتهم البيضاء العادلة، وعادوا عبيداً في أكناف السّادة، وفي عيون حمايتهم، وقرّتْ عيونهم وقلوبهم بذلك.

عام النّمل [1]

لم تكن مملكة النّمل معنيّة بأيّ تواريخ أو أزمنة أو تسميات؛ إذ كانت مصلحة الجماعة هي ما تعنيها، في حين تضرب صفحاً عمّا هو دون ذلك أو ما فوقه، وإن كانتْ تواريخ محفورة في ألواح التّاريخ بالذّهب أو بالدّم، أمّا الزّمن فهو في عُرفها حالة فراغيّة لا تعرف لها تحديداً مقيتاً مثل الذي يعرفه البشر، وكلّ ما كان يعني مملكة النّمل هو تقويّض ذلك العرش الذّهبيّ الضّخم الذي رُكّز تماماً فوق مخازن الغلال والمؤن، فباتَ يهدّد مملكة النّمل بالجوع وهي مقبلة على فصل الشّتاء، حيث لا متسع لجمع مؤن جديدة أو نقل محتويات المخازن العتيقة المأسورة تحت العرش، وما كانت المملكة لتتخلّى عن مقدّراتها وممتلكاتها، فالتّمسّك بالحقوق هو قانون النّمل المقدّس.

بعثتْ مملكة النّمل رسولاً إلى سلطان عرش البشر تسأله أن يغيّر مكان عرشه، فيخلي بين النّمل ومستودعاته، لكنّ السّلطان ذا العرش الماسيّ سخر من ضعف الرّسول النّملة، وداسه بنعله دون أن يعبأ بدوره المقدّس، فمحقه محقّاً، وجلجل الإيوان بضحكات استهتاره وانتصاره المؤزّر على الرّسول النّملة، إذ ظنّ أنّه قد هدر كرامة مملكة النّمل الوقحة بسحقه لرسولها الأسود الصّغير ذي الأيدي المرتعشة.

صمّمت الملكة النّملة على أن تسترجع المؤن المسلوبة، وعلى أن تمزّق كِبْر السّلطان البشريّ العابث، وأن تهدمّ عرشه المسكون بالتّجبّر وآهات المستعبدين

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة مجلّة ملامح ثقافيّة في حقل المجموعة القصصيّة المخطوطة في العام ٢٠٠٨، مكتبة سلمى الثّقافيّة، تطوان، المغرب.

من شعبه، وأعلنتْ أنّ مهمّة تقويّض عرشه هي واجب مقدّس على كلّ نملة محبّة لأهلها، مؤمنة بقضيّة أرضها وشعبها، وأطلقتْ صفير النّفير الذي لبّى النّمل جميعه نداءَه المقدّس.

كانت المهمّة شبه مستحيلة، لكن كرامة النّمل المطعونة غدت المحرّك والفتيل لأتون العمل والجهاد، في غضون شهور قليلة مزّق النّمل بأفكاكه القويّة بالعزم والعمل الدّؤوب، والواهية أمام الصّلب والخشب عرش السّلطان، فتهالك العرش، وهوى بسلطانه الجائر الذي قضى صريعاً، وما وجد من شعبه من يرثيه إذ كان مكروهاً لا يناسب جوره رثاء أو ترحّم، وكان الشّعب الذي لاك جوره دون أن يزفر زفرة احتجاج أو رفض مشغولاً بتسجيل مآثر عام النّمل وتدوين مفاخره؛ إذ غدا تاريخاً حاسماً تؤرّخ به الأزمان القاتمة والثّورات المقدّسة.

- من تقويّم عام النّمل:

١. في عام (٥٠) من عام النّمل غلب سلطان ذو عرش ذهبيّ على مملكة النّمل.

٢. في العام نفسه أعلن النّمل النّفير المقدّس على السّلطان الجائر، ورهط من المؤرّخين من البشر.

٣. في العام (٥١) من عام النّمل أُلغي التّقويم النّمليّ، وأُعتمد رسميّاً التّقويم السّلطانيّ.

٤. في العام (. . .) من عام النّمل، وبعد ثورة مقدّسة أعلنها النّمل عاد التّقويم النّمليّ، ومن جديد أُرّختْ به الأزمان القاتمة والثّورات المقدّسة.

ولادة متعسّرة

ولادتها كانتْ متعسّرة جدّاً، وبدا أنّ خروج طفلها الذي لبث في رحمها عاماً ونصف أمراً مستحيلاً، وخمّن الأطبّاء أنّ تعسّر ولادتها مردّه إلى حجم الطّفل الكبير الذي لا يكاد جسد امرأة مهما بلغ أن يقدر على أن يدفعه خارجه عبر معبره الطّبيعيّ لذلك، وأجمع الأطبّاء على ضرورة إجراء عمليّة قيصرية لتحرير الطّفل من رحم أمّه.

في ليلة وضحاها أُعدّتْ غرفة العمليّات للعمليّة الاستثنائيّة، وأحيطت الأمّ بشيء من الاهتمام عزّاها عن الانتظار الطّويل لهذه اللّحظة، إذ جاءها المخاض في الماضي على وقته، لكنّ الأطبّاء صمّموا على أن عليها أن تلتزم بالدّور، وأن تحجز مسبقاً على الأقلّ بشهر أو شهرين للولادة في المستشفى الحكوميّ الذي لا تستطيع أن تستغني عن خدماته الضئيلة والمتواضعة بسبب فقرها المدقع، وقد كان الأمر صعباً في السّاعات الأولى من آلام المخاض، وكادتْ تشعر بوليدها ينزلق من بين فخذيها، لكنّها صرّت نَفَسَها بقوّة، وضمّتْ فخذيها بإصرار، ومنعتْ انزلاق جنيتها خارج رحمها خلا ماء الزلال الذي تنزّى من بين فخذيها، وسقط أرضاً، وعقدت النّيّة على أن تستلقي على ظهرها إلى أن يحين موعدها بعد شهرين مع الطّبيب الحكوميّ لتضع مولدها الأوّل.

جاء الموعد المضروب للولادة بشقّ النّفس، وبوافر ضمّ الفخذين، وعميق صرّ الأنفاس، لكن الولادة أُجلّتْ من جديد بسبب ظرف طارئ استدعى أن يأخذ الطّبيب إجازة طارئة بسببه، ثم أُجّل مرّة ثالثة بسبب أعمال التّرميم في المستشفى، كما أجّل مرّة رابعة؛ لأنّها كانتْ متورّطة بحفلة تنظيف وغسيل،

كذلك أجّل مرّة خامسة؛ لأنّها ما عادتْ تبالي بأيّ مواعيد مضروبة، أو بإرهاصات ولادة محتملة.

لكنّها عادتْ من جديد تفكّر بوضع حملها بعد أن أثقل عليها، وأصبح تكوّر بطنها بحجم برميل صغير، ورمقها الرّجال بالرّيبة، واتّهمتها النّساء بالكذب والدّجل، فما وجدت مفرّاً من أن تعود من جديد إلى المستشفى الحكوميّ المكتظّ بالمراجعين، وأن تأخذ موعداً جديد حرصتْ على الالتزام به، ودعت الله بضراعة كي لا يجدّ طارئ، فيؤجّل موعد ولادتها من جديد، وأسلمتْ نفسها لمباضع الأطبّاء ولمشارطهم ليخلّصوها من حملها العجيب، فشقّوا بطنها، ووجدوا جنينها متكوراً في رحمها، حاولوا أن ينزعوه عن مكان هالدّافئ، لكنّهم فشلوا في ذلك مرّة تلو الأخرى، فقد كان الجنين مصمّماً على أن لا يغادر رحم أمّه هذه المرّة إلاّ وفق رغبته، لا وَفْقَ رغبتهم.

ولأنّه كان مطمئناً في عالمه اللّحميّ الصّغير مستمتعاً بوجيب قلب أمّه، فقد قرّر أن لا يغادر رحم أمّه أبداً، وتجاهل بإصرار توسّلات الأطبّاء والممرّضات وبعض المرضى المارّين من المكان ورجال أمن المستشفى والمحاسب وطبّاخ المستشفى وحارس المرآب والمحاسب والمذيعة الشّقراء والمصوّر الوقح ذي العينين المتلصّصتين الذين تضرّعوا له دون جدوى كي يغادر رحم أمّه، لكنّه ضرب عرض رحم أمّه بتوسّلاتهم.

حدث في ليلة ماطرة

كانوا جميعاً في انتظارها، لكن لحظة انفتاح الباب وتّرَتْ دماء قلقه، انتصبتْ قبالتّهم جميعاً، جسدها الصّغير لا يناسبه ذلك العدد الكبير من الأكياس التّي تحملها، لا بدّ أنّها قامتْ بالتّسوق قبل أن يداهمها مطر الشّتاء لأوّل مرّة في هذا العام، فيبلّلها تماماً، ويبعثر شعرها الأسود القصير، ويتسبّب باتّساخ ملابسها القديمة، وينزلق عبر ثغرات حذائها المتهرئ، أدارتْ نظرة وجلى في المكان، بدا عليها القلق والتّوتّر، توقّع أن تسأله عن هويّة أولئك الرّجال الثّلاثة أصحاب البدلات الرّسميّة الباذخة والنّظارات السّوداء والحضور غير المتوقّع، لكنّها لم تفعلْ، تسمّرتْ في مكانها صامتة مرتبكة، ذليلة بشكل لم يصدفه من قبل، ولم يألفه فيها، انزلقت الأكياس من يديها بتؤدة، واستقرّتْ على الأرض، في حين صفعتْ دفقة هواء باردة وجوه الموجودين، وقدّر أنّها تنتظر أن يعرّفها على الضّيوف، أو أن يخبرها عن سبب زيارتهم المفاجئة لبيتهم الصّغير المتواضع.

كاد يتراجع عن قراره القاسي بحقّ هذا الملاك الطّيّب الذي أنفق حياته في خدمته، وفي التّفاني في عونه، وفي تشجيعه ورفده برؤوس الأموال الصّغيرة وَفق قروضه من عمله الطّويل لتمويل مشاريعه الفاشلة على الدّوام، لكنّ العرض كان أكبر من أن يُرفض، أو يُفكّر به، أو يتضاءل أمام حبّ أو عقدة ذنب أو مشاعر امتنان؛ فهذه هي فرصة العمر التّي جاءت لتعوّض خسائر ما كان يظن أنّها ستُعوّض يوماً، والخياران أمامه واضحان ومحدّدان، إمّا أن يختار قلب زوجته التّي كاد شبابها ينشرخ، ويتداعى، أو أن يختار ثراء فاحشاً سيحصل عليه فور قوله للرّجال الضّيوف: "هي لكم، خذوها".

فقلبها هو القلب الوحيد الذي يناسب طبيّاً جسد زوجة حاكم المقاطعة، وهو على استعداد لدفع شطر ثروته مقابل الحصول على ذلك القلب، لكنّه في الوقت نفسه لا يريد أن يحرق قلب زوج على رفيقة دربه؛ لذلك أرسل بعضاً من خاصّة رجاله والمؤتمنين على أسراره ليفاوضوه على ثمن قلب زوجته الذي لم يجد غضاضة في أن يقايضه بثروة هبطتْ عليه من السّماء، ستحوّله في ليلة وضحاها إلى ثريّ يشتري بماله أجمل نساء الأرض، فينسى بهنّ زوجته الحنون التّي باع قلبها؛ ليشتري سعادته.

ألقى نظرة أخيرة على زوجته التّي ترتعد في ممطرها القديم، وأشاح بوجهه عنها بعصبيّة واضحة، وقال للرّجال بحزم: "خذوها، هي لكم". تنحنح الرّجال، وشمّروا عن سواعدهم القويّة، فبرزتْ عضلاتهم المتكوّرة حدّ الانفجار، وانتظروا إيماءة من رأس الزّوجة الحزينة، التّي قالتْ بحزن وبقرفٍ بادٍ وبخيبة أمل مشبعة برغبة الانتقام: "خذوه، هو لكم، وأخبروا زوجة الحاكم أنّني في انتظار المبلغ المُتفق عليه غداً فور إجراء العمليّة لزوجها المريض".

أقاصيص رجل لا ينام

"عندما يُصاب عقل الرّجل بالأرق، يصاب قلب المرأة بالأرق، وشتّان بين الأرقين".

خشي أن ينام، فيسهو لحظة عن معبودته اللّوحة التّي لم تكتمل، إذ كان رسامّاً خانته الألوان في هذه اللّيلة، واستعصتْ عليه الأفكار، وخشيتْ أن تنام، ونومه لم ينم. كان يحتضنُ امرأة في كلّ ليلة، وإن لم يجدها في الألفة رسمها بالظّلال والوحشة، وكانتْ تحتضن طيفه في كلّ ليلة، إن عزّ عليها أن تحتضنه في أرق اللّيالي المضنية، حيث باتتْ تحتضن الحرمان والكلمات.

في معركة صامتة بين الظّلال والكلمات كانت الأقاصيص التّي لا تنام، قطعتْ اللّيالي تقصّ الحكايات عليه، وقطعت النّهارات تكتب الحكايات له، لتقصّها عليه ليلاً، فغضب عليها إله السّهاد، وطردها من مملكته، فأقامتْ على حدود مملكة أمير الألوان.

في كلّ ليلة حكتْ له حكاية، وولدتْ له أسطورة لم يعرفها غيره من البشر، بعد ألف سنة ضوئيّة من قصّها ومن إنصاته لها هتف بها آمراً: "عليك أن تكتبي حكاياتك، وسأنتظرُ أن تسرديها عليّ من جديد"، وانتظر، وانتظر، وطال انتظاره، لكنّها لم تعد لتكمل نذر الحكايات؛ لأنّها وُجدتْ ميّتة من شدّة الإعياء والنّعاس، وفي يدها قرطاس خُط عليه بدموع المآقي وجهد النّعاس: "أقاصيص رجل لا ينام".

حذاء عنترة

اسمه عنترة، وسعادته المؤجّلة رغم أنفه تـتلخّص في حـذاء جديـد، يريـده جلديّاً بنيّاً لامعاً كالذي ينتعله عرفة ابـن الوجيـه حمـدون، يريـده بنعـل ضـخم أسود، يصكّه بالأرض دون أن يخشى عليه من أن يتمـزّق، أو أن تخترقـه قطعـة زجاج أو مسمار قديم أو حصاة مطروحة على الطّريق، مرّة شـمّ رائحـة حـذاء جديد من أحذية عرفة، رائحة الجلد زكمتْ أنفه، وأغرته عيناه المأخوذتان بجمال الجلد الجديد بأن يمسّد عليه، وسمح لنفسه بأن تتمنّى الحصول على حذاء مثلـه على غفلة من عيني أمّ عرفة التّي ساءها أن يدخل عنترة الفقير إلى حديقة منزلها الغنّاء، فقامتْ تصليه بثاقب نظراتها.

ما كان ليستطيع أن يطالب أمّه المتكومّة في غرفة صغيرة في فناء بيـت خالـه الوحيد أن تعده بحذاء مثله، فقد كان متأكّداً من أنّها لو كانت تملك ثمن عشـرة أزواج من الحذاء الذي يحلم بالحصول عليه، لما كانـت تقبـل بـأن تعـيش لحظـة واحدة حياة دجاجة في قنّ خاله حيـث الأولاد الكثـر، والضّـرائر المتنـاحرات، والطّعام القليل، والزّعيق الذي لا ينتهي، ولا يُفسّر في الغالب.

كاد ينسى حلم الحذاء الجلـديّ الجديـد، إلاّ أن رائحتـه المـزيج مـن الجلـد والنّظافة والاستدعاء الخفيّ لـه بقيـت تطـرق تمنّيـه دون كلـل، وتحرّضـه علـى امتلاكه، إلى أن أذعن لتلك الرّائحة العجيبة، وانسربْ يؤمّل نفسه -التّـي لـيس لها من قوّة عنترة المشهور رمـز البطولـة وجـلال عظمتـه إلاّ شـذرات الحرمـان والنّبذ والشّقاء- بأنّ يجود عليها بحذاء جلد في زمن ما.

كان يتمنّى لو كان له قوّة عنترة، إذن لكان استثمرها ليحصل على حذاء جلديّ جديد، لكن ما كان له من عنترة إلاّ الاسم الذي يحمل في طيّاته مفارقة غير مفرحة، إذا كان هزيلاً قميئاً يكاد يزدري طفولته القاحلة، ويحقرّ نفسه لولا إغداق أمّه عليه بوافر القبلات المعطّرة بالأمنيات التّي ما انبرتْ تستنهض في نفسه شيئاً من الزّهو الكسير بنفسه.

قرّر أن عنترة أن يحصل -ولو لمرّة واحدة في عمره- على شيء يريده دون أن تثنيه أمّه الأرملة الكسيرة عنه، أو يتناوشه أولاد خاله الكثر الذين يفوقونه قوّة وحصانة من يديه قهراً وتجبّراً، وانسلّ يوفّر مصروفه غير المنتظم وفقاً لطقس مزاج خاله الدّيك، وانقطع يعمل في طاحونة العمّ عايش، ينظف المكان، ويعدّ أكياس الحبّوب، وينظّم أدوار الطّحن والاستلام، ويداعب ثور الطّاحونة المضني من وقت إلى آخر، وينقل الماء إلى بيت العمّ عايش، وينظّف حديقة بيته مرّة في الأسبوع على الأقلّ.

حققّ عنترة المستحيل، وحصل على حذائين جلديّين بنيين بنعلين سميكين، أحدهما حصل عليه بنقوده التّي ادّخرها بصعوبة من عمله السّرّيّ، والآخر اشترته أمّه له بعد تفكير طويل، فقد ضحّت لأجله بقرطي عرسها، الباقي الوحيد من ذكريات سعادة اسمها زواج هانئ بعد قصّة حبّ هادئة وسرّيّة.

فرح عنترة بحذائيه الجديدين، وإن فكّر على مضض بأن يعرضهما على عرفة ليشتريهما ولو بنصف ثمنهما، فما عاد في حاجة إليهما بعد أن انزلق في حفرة السّاقية، وقُطعت إحدى قدميه، وبقيت الأخرى وحيدة مجذبة، لا تحلم بحذاء جلديّ بنّي جديد.

الموزة اللّغز

جاء المستوطنون أصحاب العيون الزّجاجيّة والأكفّ الدّامية والشّعر المتجعّد إلى هذه الأرض التّي لم تطأها قدم غريب من قبل كي يحصلوا على تلك الثّمار العجيبة المسمّاة موزاً، فقد بشّرهم قادتهم بها، وتفنّنوا بوصفها حتى وقعت في النّفوس، ووقرتْ في الخيال، وما انفكتْ تداعبُ البطون المشتهية دون انقطاع، والأيدي الطّامحة إلى الجني وإلى القطاف.

لم يعرفوا الموز من قبل، لكنّهم قرأوا عنه في رحلة مستكشفهم الأوّل، ولمّا كانوا ممن لا يطيقون صبراً على أن تستحوذ أيديهم على كلّ جديد أو غريب، فقد دشّنوا سفناً جديدة، وأعلنوا النّفير المقدّس في سبيل الحصول على الموزة الكنز، وأسموا هذه الحملة البحريّة التّي ستقطع بحر الموت بحملة "الموزة ١"، وانسربوا يفتكون بالمسافات وبالأمراض البحريّة، ويجالدون البُعاد والنّأي عن الأحبّة من أجل الموزة التّي ذكرها الرّحالة الأوّل، وكثيراً ما انقطعوا يتدارسون، ويستذكرون وصف تلك الموزة في نسخهم الكثيرة والمحرّفة في الغالب عن المخطوطة الأمّ للرّحلة.

ورد ذكر الموزة في أكثر من رواية، وفي متن جلّ المخطوطات التّي تؤّرخ لرحلة مستكشفهم الجريء، لكن الرّاوية الأشهر كانت رواية الخلد، إذ قيل فيها: "الموز نبات أو حيوان شبه استوائيّ، أصفر اللّون، هلاليّ الشّكل، زكيّ الرّائحة، سحريّ الملمس، لذيذ الطّعم، له قدرة خارقة على الشّفاء من أمراض كثيرة، وهو في الوقت ذاته يسبّب التلبّك المعويّ واضطراب الإخراج".

حفظ البحّارة المستوطنون هذا الوصف عن ظهر قلب، وأطلقوا العنان لمخيّلاتهم المتحفّزة الطّموحة، فخالوا الموز نباتاً من نباتات الخلد، أو حيواناً أسطورياً نادر الوجود يستطيعون أن يتغلّبوا على قوته، وأن يأسروا منه جماعات وزرافات، وأن يبعوها في أسواق المعمورة، وقد يكون قويّاً، فيحلّ مكان الخيل التّي أعيتهم تدريباً وترويضاً، وإن كان بحجم نجمة أو قمر صغير ما دام هلالي الشّكل، عندها سيجمعونه، ويثقلون بواخرهم العملاقة به، ويبيعونه ثريّات وقناديل للقصور ولبيوت الأثرياء ولسدنة المال، فطالما أنّه على شكل هلال، فلا بد أنّه يملك قوّة إنارة ذاتيّة شأنه شأن الهلال.

أمّا إن كان كائناً عطريّاً فإنّهم سوف يصنعون منه أغلى أنواع العطور التّي لا تطالها إلا أيادي المتنفّذين وأهل الحلّ والرّبّط، وقد يجمع الحسنيين، فيكون عطري الرّائحة، مخملي الملمس، فيُباع اليسير منه بطائل والمال، والخير كلّه فيه إن جمع المتع الثّلاث، فيكون عطري الرّائحة مخملي الملمس ذا خصائص شفائيّة، عندها سيخيطون منه ملابس سحريّة، تُسمى "ملابس الشّفاء"، ويجعلونها طلبة للمرضى وللمستشفيين، وسيقايضون الصّحة بعظيم الثّمن، وسيتّخذون القليل من المال ليصنعوا من ذلك الموز العجيب سموماً فتّاكة، يدسّونها للأعداء وللشّرفاء المغضوب عليهم من سادتهم الأوغاد.

ضجّت مخيّلات البحّارة بآلاف الفكر والتّصوّرات والأمنيات، حتى ما كاد يتسع عقل لها، أو يبين لسان عنها، ووصلوا إلى الأرض المقصودة بعد أشهر من الإبحار، فمشّطوها تمشيطاً، وذرعوها أرضاً وسماءً وبحراً، فما وجدوا إلا ثماراً صفراء لعينة، طيبة المذاق، زلقة القشور، نفّاثة الرّائحة، وفيها عيب كبير سيحطها في عيون المشترين؛ فهي مقوّسة الشّكل والهيكل، مبعوجة الوسط، واسمها كما قال السكّان المحليون باستهتار بعد أن علموا أن حملتهم تحمل اسمها "الموز".

حتى النّصر

على حين غرّة داهمهم عدوّ أسود أعدّ العدّة لكلّ شيء، حتى أنّه مهدّ طريقاً جبلية وعرة سرّاً كي ينسربوا عبرها إلى رؤوس الجبال وأرض ما وراء البحر كي تخلو له الأرض، إذا كان لا وقت عنده ولا مزاج لجمع الجثث، وحفر القبور الجماعيّة، وإنهاك أجسادهم المدجّنة بالأسلحة والخمر وعرق البغايا بمطاردة السكّان جماعات وآحاداً، واغتصاب النّساء، وبقر بطون الحوامل.

تدفّق الأهالي الذين يحملون ذكرى أرض، ويحتضنون خوفهم بدل أن يتحزّموا بأموالهم وأبنائهم عبر الطّريق الجبليّ الممهّد، يقودهم الذّعر، وتحثهم رغبة النّجاة على حضّ الخطى على التّسارع والاتّساع كي يفرّوا من وجه الموت القادم الذي يحفظون الكثير من قصصه الدّامية.

في ساعات سوداء خلت الأرض من أهلها أولي القسمات الطّيّبة والأيدي التّي حفر فيها العمل المضني في الحقل خطوطاً لا تندمل، وأقفرت البيوت الطّيّبة من أهلها إلا من زهيّة العمياء، فقد بقيتْ في بيتها متحدّية بعينيها المظلمتين منذ أزل وبثوبها ذي الرّقع الكثيرة وبسنينها السّبعين الشّقيّة عدواً مسلحّاً بكلّ شيء إلا بالحقّ.

أصلتْ زهيّة العدوّ كيفما اتّفق بحجارتها مدافعة عن بيتها، رافضة أن يُدنّس بقدمي عدّو محتلّ.

احتلّ العدوّ الأرض كلّها خلا بيت زهيّة المنافحة الوحيدة دون أرضها، وطفقت توطّن النّفس على الصّبر، وتؤمّلها بالثّبات حتى النّصر في انتظار عودة الأبناء الذين اجتمعوا في محفل وطنيّ شعبيّ خلف بلاد البحر، وقرّروا أن يدافعوا عن وطنهم السّليب حتى النّصر، وكانت أوّل بنود خطّتهم النّضاليّة الخمسينيّة أن يغتالوا زهيّة العمياء؛ إذ كان صمودها الأبيّ وصمة عار في تاريخ تخاذلهم.

إذن استثنائيّ خاصّ

بمحض إرادتها الجبّارة التّي جعلتها تحيا ملايين السّنين على هـذا الكوكـب النّيرانيّ المخيف قرّرت في لحظة شجاعة مجنونـة أن تـتخلّص مـن ذلـك الكـائن البغيض الذي اسمه رجل؛ فقد أنهكها خصـاماً وشـجاراً وتكبّـراً ولؤمـاً، ومـا وجدتْ له فائدة سوى التّلقيح للحفـاظ علـى جنسـها ذي الـدّم الأزرق، خـلا لحظات ودّ وانسجام تستطيع أن تعدّها على أصابع اليد الواحـدة لنـدرتها، ولا يضيمها أن تفقد أمثالها إلى الأبد.

حصلتْ على إذن استثنائيّ خاصّ من جهـة مجهولـة لتـذيب هـذا الكـائن الرّجل، ولتصنع من ذائبه كائناً جديداً، يحمل اسم رجل، لكن وَفْـق مـا تتمنّـى وتريد، لا وَفْقَ صفات الرّجل الأوّل الكريه.

لم تجد المرأة صعوبة في اصطياد الرّجل، وهصره في مـاعون تجاربهـا، وذاب الرّجل، وتبدّد، فألفت المرأة في نفسها راحـة عجيبـة شـابها حـزن مـداهم غـير متوقّع، ثم زفرتْ زفرة راحة عميقة، انتزعتْ غلّ قلبها، وأورثتها رغبـة مفاجئـة في البكاء، لكنّها ما أطاعتْ رغبتها، وانبرتْ ترسـم الخطـوط العريضـة للكـائن الرّجل الذي تريد أن تصنعه من ذائب الرّجل الأوّل.

استغرقتْ سـنين لا تكـاد تُحصـى لكثرتهـا، وهـي تنجـز رجلـها الحلـم، وأعادتْ صناعته مئات المرّات، إذ كان فيه خللاً خَلْقيّاً أو خُلقيّاً خطـيراً في كـلْ

مرة، ثم استقرّ إبداعها على الصّيغة النّهائيّة للرّجل الأخير، وعجبتْ من أنّه كان صورة طبق الأصل قلباً وقالباً من الرّجل الأوّل المذاب، لكنّها ما بالتْ كثيراً بهذا التّشابه العجيبُ بين الرّجل المخلوع والرّجل الحلم، إذ ما كان في عمرها من سنوات متبقّية لا يكفي لتجربة صنع أخرى، وكان بين جنباتها اشتياق وحزن عظيمان، لا يناسبهما إلا أشواق رجل طال انتظاره.

زوجة الحذّاء

حياتها تتلخّص في كلمة جحيم، وقلبها هو مـن قادهـا دون فخـر إلى هـذا الاحتراق الدّائم، فهو قلب مشاكس مولع بحبّ من لا يحبّونه، تفتنه الأشياء التّي لا يستطيع أن يحصل عليها، فيتقّد رغبة بامتلاك البعيد، وعندما يفشـل في ذلـك يسقط في أحزان لا تعرف نهاية، فلا يستطيع أن يسعد بها، أو أن يحبّ مَنْ يحبّه، فيهب القلوب المحبّة له ألماً مجانيّاً، لا يعرف رأفة بأصحابها، فيورثها ذلـك المزيـد من النّكد والضّنك والضّيق.

ليستْ فاتنة الجمال، وذلك يقطّعها حزناً، وهي عاقر؛ لذلك تحقد على كلّ رحم حمل طفلاً، وتمقتْ أطفال الدّنيا أجمعين، لم يخطبها إلاّ حذّاء الحـيّ القـديم، فرفضته، ولّما لوّحتْ لها العنوسة بكفّها الخشـنة وبجدأئلـها البيضـاء وبسـحنتها الشّمطاء قبلتْ بالزّواج بالحذّاء على مضض، لكنّها مـا عدّتـه يومـاً زوجـاً بـل خادماً بغيضاً تضطر من وقـت إلى آخـر إلى أن تعاشـره، وإلى أن تلقمـه شـفتيها نكداً وكدراً، وأن تشتمّ فيه رائحة الأحذيـة القديمـة المهترئـة التّـي يصـلحها، أو تلك التّي يصنعها، ولو كان قد اسـتحمّ للتّـو، فتمقـتْ لحظـة ارتوائـه، ويـزداد رثاؤها لنفسها، فالجمال والغنى والأبناء الذين تحبّهم لم تحصل علـيهم، والحـذّاء الذي يحبّها لا تطيقه، فأيّ نكد تعيش فيـه؟ وأيّ ذنـب اقترفـتْ لتُبتلـي بقسـمة كهذه، وبقلب يصعب إرضاؤه كقلبهـا؟ ليـت السّـماء تسـتردّ قلبهـا أو حياتهـا القاسية عليها.

ذلك الأسمر الفاتن ذو القسمات البارزة وعظـام الفكّـين الحـادّة والشّـعر الأملس الزّاخر بسواد مُعطى له بسخاء هو الإنسان الوحيد الذي تحبّه، وتبادلـه

حبّاً بحبّ، وقد دبّرت خطّة كي تهجر زوجها، وتهرب مع ذلك الأسمر الوسيم الذي لها زهد عندما لوّحتْ له جارتها الشّابة بثديين كبيرين وساقين بيضاوين يضجّان بحمرة شهيّة واكتناز غضّ، فعادتْ كسيرة إلى زوجها الحذّاء الطّيّب الذي رثى لحزن زوجته المطلّاب الغضوب غير القنوع، وسهر ليلة كاملة يصنع لها حذاء مخمليّلاً رائعاً، لعلّه يسعدها، ويغيّر شيئاً من تعكّر مزاجها الذي لا يعرف له سبباً، ولا يشمّ فيه رائحة الأسمر الفاتن ذا القسمات.

قلّبتْ الزّوجة الحذاء، وهي ترقبُ بنظرة خفيّة متسلّلة يدي زوجها اللّتين أصيبتا بأكثر من جرح بسبب إبرة أو مسلّة؛ لأنّه صمّم على أن يصنع لها حذاء على ضوء مشغله، وهو ضوء خافت لا يناسب نظره الضّعيف، أو ثقب إبرة، أو جنوح مسلّة، ندتْ منها لحظة رضا لم تألفها في نفسها، ضغطتْ بامتنان دافئ على يدي زوجها، وطبعتْ عليهما قبلة ناعمة، تحسّستْ على مهل أديمه الخشن المضني، فاهتزّ قلب الحذّاء طرباً وعشقاً، وكادتْ تطير من عينيه دمعتا فرح غامر هزّ أركانه، وانحنى على قدميها الصّغيرتين، وشمّر عنهما، ودسّ فردتي الحذاء فيهما ولهان يتخبّط انفعالاً وتوتراً، حدّقتْ الزّوجة طويلاً بزوجها المنتشي بقبلتها مثل سنبلة تستقبل رذاذ مطر، وقالتْ له: "هذا الحذاء جميل كثيراً"، ثم عادتْ إلى صمت عميق تعجب فيه من نفسها التّي ما أعارتْ اهتماماً من قبل لذلك الأمير الوسيم الذي يجثو عند قدميها، واسمه زوجها.

شكرت الله بعمق على أنّ زوجها ليس مولعاً بالأثداء المتغوّلة أو بالأقدام الأنثويّة المكتنزة، إذن لكان اليوم بين يدي جارتها الشّابة الجميلة، وما كان الآن يجثو عند قدميها ليتلقّط نزير رضاها، ونادر امتنانها، وقالتْ من جديد، وهي تهزّ رأسها الصّغير: "نعم، هذا حذاء جميل بحقّ".

لم يحرْ الحذّاء جواباً، ولا عرف سرّ صمت زوجته، لكنّه عقد النّيّة على أن يهدي زوجته حذاء في كلّ ليلة؛ إذ أيقن أنّ الأحذية الجميلة هي مفتاح قلب زوجته، أمّا هي فقد طفقتْ تستمتع بحياتها، وتفخر بأنّها زوجة حذّاء يهيم بها عشقاً، بعد أن انتصرتْ على قلبها العنيد، ولقّنته فنون الإطاعة وحبّ من يحبوّنه، وكذلك كان.

(١٠)

المجموعة قصصيّة "قافلة العطش" [١]

١- صدرت المجموعة القصصيّة "قافلة العطش" في طبعتها الأولى عن مؤسّسة الورّاق للنّشر والتّوزيع، بدعم من أمانة عمّان الكبرى، عمّان، الأردن، ٢٠٠٦

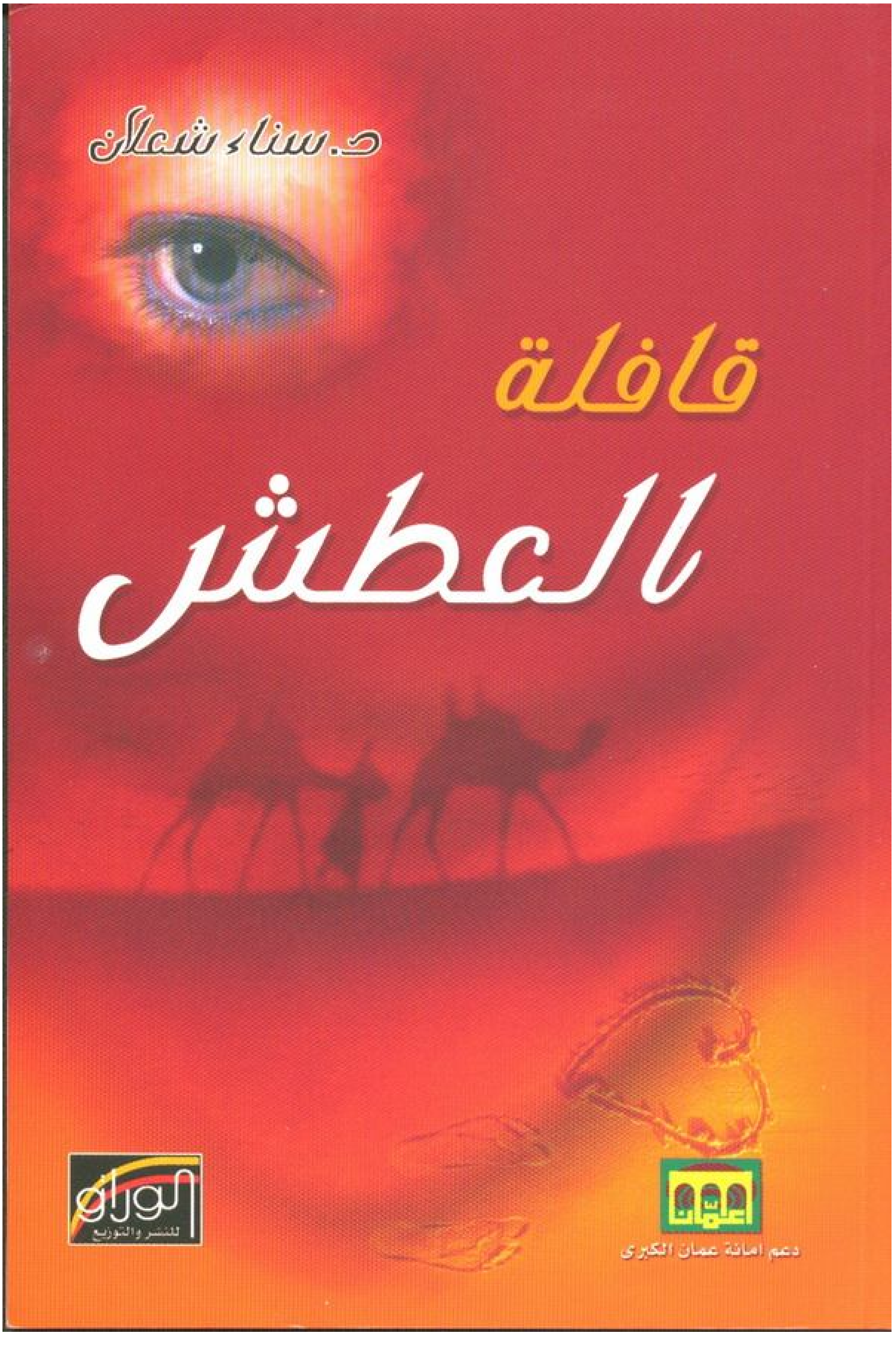
د. سناء شعلان
قافلة
العطش
الوراق
للنشر والتوزيع
دعم امانة عمان الكبرى

قافلة العطش

كانوا قافلة قد لوّحتها الشّمس، وأضنتها المهمّة، واستفزّها العطش، جاءوا يدثّرون الرّمال وحكاياتها التّي لا تنتهي بعباءات سوداء تشبه أحقادهم وغضبهم وشكوكهم.

تقدّم كبيرهم، كان طليعتهم بالسّن وبالكلمة وبالغضب، عيناه كانتا النّاجي الوحيد من لثامه، حملتا كلماته إلى البدوي الأسمر المترع بشبابه الأخّاذ، قال بنبرة بها مزيج غريب من الرّجاء والأنفة: "لقد جئنا بالمال".

غارتْ الكلمات في محجري الشّاب الذي اختنق بشكوكه، وقال: "أيّ مال؟"

قال العجوز الملثّم بالخزي: "جئنا نفتدي بمالنا نساءنا اللّواتي أسرتموهنّ في غارتكم على مضاربنا".

تنهّد البدوي الأسمر، وتمطّى في مكانه، وقال بانكسار مهزوم لا يليق بصنديد قبيلة قهرتْ الصّحراء، وفتكتْ بالذّراري، وسبتْ النّساء، وحملتْ رمال الصّحراء صورته وصوته وصولته: "أليس هناك بدّ من ذلك؟"

شعر العجوز الملثّم بأنّ كرامته قد أُهدرتْ من جديد، قال له بصوت صدئ متقزّز: "أيعقل أن يكون هناك بدّ من صون الأعراض، وجمع الشّتات، وفكّ الأسيرات؟"

أومأ البدوي الأسمر برأسه، كأنّه يصادق بصمته على ما يسمع، لكنّه كان حقيقة يختنق بعطش غريب يسلق حلقه المأزوم بكلماته التّي تأبى أن تعبّر عن

مكنون عواطفه، في لحظة واحدة ثارتْ في عينيه رمال الصّحراء، ملأتْ الأرض ظلاماً أصفر، وجثمتْ بوطأتها على قلبه الصّحراويّ الغارق في العطش.

كان عظيم قومه، ونسيب المناذرة، وسليل الأشراف عندما أغار على قبيلتها، واقتادها أسيرة فيمن اقتاد، كانت جميلة، أجمل من القهوة، لها صهيل مثير، غضبها وحنقها أجمل ما فيها، من يعشق الخيل العربيّة الأصيلة لا يملك إلا أن يعشقها، لم تكن أسيرة السّلاسل التّي كُبّلت بها، بل كانت السّلاسل أسيرة جموحها ورفضها، أرادها منذ أن رآها، كان عليه أن يفتضّ جمال الواحات، وأن يدرك أرض السرّاب قبل أن يفترشها؛ لذلك أحبّها، أحبّها خيلاً بريّة لا تُدرك.

"ها قد جاء والدها ليفتديها مع نساء قومها، أيستبدل بها المال؟ أهو موعد الفراق؟ وفراق الصّحراء فراق جافّ عقيم لا لقاء بعده، يا للصّحراء كم ابتلعت من حكايات! لكن أنّى لها أن تبتلع من يحبّ مقابل حفنة من المال، إن أرادتْ أن تصهل من جديد فلها ذلك، قد يكون في إطلاق العنان لها عزاء لي"، حدّث البدوي الشّاب نفسه المثقلة بمخاوفها.

لقد أكرم قومها لأجلها، أمر بأن يقدّم الماء والغذاء للقافلة التّي جاءت تستردّ مهره القمريّ، رفض المال، ورفض الفداء، بل أنعم على النّساء كلّهنّ بالحرّيّة، وخيّرهنّ بين البقاء أو الرّحيل مع أبناء عشيرتهنّ، فاخترن كلهنّ الرّحيل.

سمع خيار كلّ واحدة من فمها إلاّ من أسرته، فإنّها صمتت طويلاً، استدارتْ الابتسامة على فمها القرمزيّ ثم اختفت بمرارة، وجفلتْ مثل مهر مكلوم، وانطلقت نحو رحال قومها، كانت القافلة تنتظرها لتحزمها مع ما حزمتْ، ولتقفل راجعة إلى المجهول، تأمّل جسدها السّابح في ثيابها الفضفاضة،

اضطربتْ أصابع يديه عندما تخيّلها تسرح في شعرها الـذي تداعبـه الـرّيح دون خجل، صوت خلخالها وخرزها الصّدفيّ الذي تتزيّن به أحـدث بعزفـه الحـزين زلزالاً في نفسه التّي امتدّت لتحتضن الصّحراء كلّها لتحضنها هي بالذّات.

في لحظة اختفتْ من عينيه القافلة والصّحاري والرّجال ونساء الدّنيا، وبقي هو وإيّاها وصهيلها وآلاف الواحات، سمع لها حمحمة مهرة تُكبّـل بعـد حرّيّـة، اقترب منها، نظر في واحات عينيها، قال لها بانكسار بركان وبخجل طفل: "وأنتِ من ستختارين؟"

كانت على وشك أن تعتلي هودجها، بقبضته القويّة منعهـا مـن إكمـال صعودها، وقال بمزيد من الانكسار: "من ستختارين؟"

نظرت في عينيه: "أنـا عطشـى، عطشـى كمـا لم أعطـش في حيـاتي". اقـترب البدويّ الأسمر خطوة أخرى منها، كاد يسمع صهيلها الأنثويّ، وقال: "عطشـى إلى ماذا؟"

قالت بصوت متهدّج: "عطشى إليك".

صمتَ، وصمتتْ، ما أجمل الظّمأ في بحيرة العشق! ارتفعتْ سيوف القبيلة مهدّدة سيوف الضّيوف التّي هـدّدت الأسـيرة العاشـقة بـالموت، صـرخ الأبّ: "خائنة، ساقطة، اقتلوها، لقد جلبتِ العار لنا. كيف تختارين آسرك على أهلك؟! لقد جئتِ ببدعة ما سمعتْ بها العرب من قبل، كيف تقبـل حـرّة أن تكـون في ظلّ آسرها؟"

قالت بتعب مهرٍ ركض حتى آخر الدّنيا: "أنا عطشى".

رحلـتْ قافلـة العطـش، كانـت قافلـة عطشـى إلى الحـبّ، ومطعونـة في كرامتها على يدي مهرتها الجميلة، هذه المرّة لم تدفن الرّمال حكايتهـا في جوفهـا

الجافّ، بل أذاعتها في الصّحراء كلّها، شعرتْ القافلة بأنّها محمّلة دون إرادتها بالعطش، العطش إلى الحبّ والعشق، لكنّ أحداً لم يجرؤ على أن يصرّح بعطشه، عند أوّل واحة سرابيّة ذبح الرّجال الكثير من نسائهم اللّواتي رأوا في عيونهنّ واحات عطشى، وعندما وصلوا إلى مضاربهم، وأدوا طفلاتهم الصّغيرات؛ خوفاً من أن يضعفن يوماً أمام عطشهنّ، وفي المساء شهد رجال القبيلة بكائيّة حزينة،؛ فقد كانوا هم الآخرون عطشى.

العطش إلى الحبّ أورث الصّحراء طقساً قاسياً من طقوسها الدّامية، أورثها طقس وأد البنات، البعض قال إنّهم يئدون بناتهم خوفاً من العار، البعض الآخر قال إنّهم يفعلون ذلك خوفاً من الفقر، لكنّ الرّمال كانت تعرف أنّها مجبرة على ابتلاع ضحاياها النّاعمة خوفاً من أن ترتوي يوماً، كان مسموحاً للقوافل أن تعطش وتعطش، ولها أن تموت إن أرادتْ، لكن الويل لمن يرتوي في سِفْر العطش الأكبر.

النّافذة العاشقة

بيت جديد، ديون متراكمة، سنوات عجفاء من الادّخـار، وهـا هـي تحـطّ أخيراً في المنزل الجديد، لم يكن متّسعاً كما تمنّتْ، ولا ذا حديقة غنّاء ليلـهو فيهـا أطفالها الثّلاثة الذي كاد كبيرهم يدلف إلى سنّ الشّباب، لكنّه على الأقـلّ كـان منزلاً في حيّ راقٍ، تملك صكّ ملكيّته، بعبارة أدقّ يملك زوجها صكّ ملكيته.

الآن غدا عندها بيت وزوج وأولاد، هم جميعاً قد يكونون آمال امرأة عاديّة مثلها، لم تكن تريد أكثر من ذلك، لم تكن تأبه بجسدها الذي ترهّـل دون مبـالاة بأعين الرّقباء، ولا بملابسها ذات الموضة القديمة المنسيّة، ولا بخضرة عينيها اللّتين غرقت فيهما الأحلام منذ زمن طويل، بالتّحديد منذ أن تزوّجت رجلاً لا يعرف من طقوس الرّجولة إلاّ لحظات الفراش التّي تمـرّ مثـل التقـاء غـريبين في مرفـأ عتيق، ثم سريعاً يلوّحان لبعضهما بالوداع دون أدنى مشاعر.

شعرها الخيليّ القصير المسترسل مثل رضا طفل نائم هو آخر ما تملك مـن أنوثتها التّي طال فراقها لها، ونسيتها أو كادت، تلك النّافـذة المتصـديّة بشـجاعة لحديقة الجيران، هي نافذتها الوحيدة على أنوثتها المنسيّة، هي نافذة المطبخ الذي تسكنه ساعات طويلة من نهارها، كانت نافذة زجاجيّة عاديّة، قد قتلتهـا تنظيفـاً وتلميعـاً، ثـم كسـتها بالقمـاش الشّـفاف ذي التخريمـات الزّخرفيـة، وطوّقـت الجنبات المتدليّة من هذا القماش بشرائط السـيتان الحمـراء، ذلـك كلّـه كـان في البداية.

ثم فتحتْ هذه النّافذة طاقة صغيرة علـى أنوثتهـا، وولّـدت عنـدها رغبـة الانتظار، وأشواق اللّقاء، لم تكن قد خبرتْ من قبل معنى لذّة الانتظار، ولم يكن

انتظارها يطول للشّاب الأسمر ذي الهدبين السّرّمديين، والقامة الممتدّة بسخاء، إذ سرعان ما يُطلّ ليفي بنذره اليوميّ بين يديها، كان من الواضح أنّه يصغرها بعقد من الزّمن، ويكبرها بعقود من الحيويّة والسّعادة والأمنيات والطّيش.

في البداية كرهت نظراته الفضوليّة، وانزراعه في كرسيّ بلاستيكيّ بليد في حديقته لساعات يراقبها دون أن يفوّت لحظة، أغلقت النّافذة في وجهه المبتسم مثل طفل مئات المرّات، سبّته في داخلها لعشرات المرّات، تعرّفت على والدته؛ فقط كي تمرّر له معلومة مفادها أنّها متزوّجة، وأمّ لأطفال ثلاثة، وأسيرة لشيء اسمه زوج، حدّثت بعض الصّديقات عنه باستحياء، ثم حدّثت عنه الصّديقات كلّهنّ بفضول وشكوى تستلذهما.

شكته لعينيه النّاعستين، ولسنين طويلة قاحلة، وكان الجواب: "إنّها نافذة عاشقة، والنّوافذ تعشق الانتظار"، فكّرت طويلاً في أن تغلق هذه النّافذة إلى الأبد، وأن تئد الانتظار، وتأمر المارد الذي تتحسّس حركاته في داخلها ليبقى نائماً إلى الأبد، لكنّها لم تستطع ذلك، بل لقد حوّلت ما أمكنها من أعمالها اليوميّة إلى المطبخ، حتّى الكيّ، واستقبال الصّديقات المقرّبات، وإجراء المكالمات الهاتفيّة، وتصليح دفاتر الطّلبة الذين تحرق بتدريسهم أجمل ساعات شبابها من أجل دنانير حقيرة وقليلة، قد حوّلته إلى المطبخ.

غدتْ من جديد المرأة التّي افتقدتها منذ زمن طويل، وكانت تُسمّى ذاتها، عادت تسمع صوت لهاث رجل مُثار في أذنيها، عاد جسدها يستردّ بعضاً من رشاقته، عادت تسمع إيقاعاً للزّمن وللحظات، اشترت بعضاً من الملابس الأنيقة ذات الألوان الزّاهية، تعطّرت، اهتمّتْ من جديد بتسريحة شعرها، وبأصباغ أظافرها، وبرونق عينيها، وبنداوة بشرتها، عادت نفسها، في كلّ ظهيرة شربت عن بعد قهوتها مع فتى النّافذة، كم تمنّت لو أنّ اللّحظات تتقارب!

والأرض تتجاور حدّ الالتصاق؛ لتقطع الأمتار القريبة التّي تفصلها عن حديقة جارها الوسيم؛ لتحدّثه بآلاف الحكايات والأمنيات والانكسارات، لكن كان دون ذلك خوفها وزوجها وأولادها وأهلها والعالم كلّه وسنوات من الحرمان.

لأشهر عذبة كانت نذراً للنّافذة، وللأسمر الذي سكنها، كثيراً ما جالستْ زوجها لتناول إفطار أو غداء أو عشاء في المطبخ، حركة شفتيه اللّتين تنفرجان عن حركة مضغيّة كبيرة كانتا تدلان على أنّه يتحدّث معها بكلام ما، لكنّها كانت دائماً غارقة في عطر الأسمر الذي يسكن نافذتها.

حتّى عندما ملّ الأسمر الانتظار، وهجر الحديقة، واختفى، وقيل إنّه تزوّج على مضض، وسافر للعمل في دولة ما، بقيت تشتمّ أريجه الذي تحمله الرّيح من النّافذة، كانتْ تسمع كلماته التّي لم يقلها، تستمتع بمخاصرته لها في رقصة لم تحدث، تخجل من قُبله الحارّة التّي لم تذقها.

كانت سعيدة، سعيدة، سعيدة جدّاً، هكذا كانت تصف نفسها لنفسها التّي كانت تعجب منها عندما تتكوّم دون حيلة على بلاط المطبخ إلى أسفل نافذتها العاشقة، وتنتحب بحرقة.

رسالة إلى الإله

قليل هم من يجرؤون على السّخط على الإله، لكنّها سخطتْ عليه ، نعم هي ساخطة على "زيوس" الإله الأكبر الذي ينصرف إلى المتعة والشّهوة والحبّ والسّعادة، وينسى أنّ له رعيّة شقيّة، فينساها هي بالذّات، لقد تضرّعت إليه طويلاً، وإلى ابنته إلهة الجمال "إفروديتي" وإلى إله الحبّ "كيوبيد"، كي يهبوها حبّاً واحداً فقط، لكنّ الآلهة صمّت آذانها دون اشتياقها وآلامها ورجاءاتها، لماذا هي مسجونة في هذا الجسد الأنثويّ البغيض؟ تريد أن تتحرّر، تتمنّى لحظة حبّ واحدة، أهذا كثير على إله السّماء؟! أكثيرٌ أن تتمنّى رجلاً يحبّها دون نساء الأرض؟ هي تشتهي محاصرة تستمرّ حتّى آخر العمر، لقد كفرت بإله السّماء الأصمّ الذي لا يسمع شكواها.

أمسكتْ بدواة وقرطاس، وجلستْ إلى طاولتها الخشبيّة، وكتبتْ بغضب وتحدٍ يناسبان يأسها، وإن لم يناسبا طبعها واستكانتها: "رسالة إلى "زيوس"، أنا وحيدة، اللّعنة عليك كيف تتركني أعاني هذه المعاناة كلّها؟ أريد حبّاً واحداً يملأ ذاتي، يهصر أشواقي، يسكن ما بيني وبين جسدي، أريد حبّاً يقتلعني من أحزان جسدي، ووحدة ساعاتي، أريده حبّاً قويّاً جبّاراً لا يعرف الألم، أريده حبّاً يمسك بتلابيب روحي، ويخلق حشرجات دامية في نفسي، اللّعنة عليك، استجب لي ولو لمرّة واحدة".

انتظرتْ دقائق ليجفّ القرطاس، ثمّ قدّمته لإحدى صواعق "زيوس" التّي اختلسته سريعاً، ووضعته بين يدي سيّدها حيث يجلس على عرشه الماسيّ في أعلى نقطة من جبل الأولمب.

كان "زيوس" يتربّع على عرشه بجسده الضّخم وبلحيته الفضّيّة التّي تمتدّ حتّى ركبتيه، وبشعره الأجعد الذي ينغرس فيه تاج لازورديّ لامع كبير، وعلى يمينه وقفتْ خادمته إلهة النّصر، وعلى يساره وقف "جنميد" حامل كأسه، وبين يديه امتثلتْ إلهة الحظّ، وإلهة الشّهرة "فاما".

قرأ "زيوس" الرّسالة التّي وصلته مرّة وثلاث وعشر على ذاته، وبحضور حاشيته، خمّن الكلّ أنّه سيغضب من وقاحة رعيّته، وتوقّعوا أن يصبّ جامّ صواعقه على رؤوس سكّان الأرض عقاباً لهم، وامتعاظاً من وقاحة بعضهم، لكنّه عاد من جديد، وقرأ الرّسالة مرّة أخرى، وشعر بحزن شديد على تلك الآدميّة التّي تتحرّق للحبّ، ولم تذقه يوماً.

فكّر طويلاً في شكل الحبيب والحبّ اللّذين تطلبهما، أَعْمَل فكره وإبداعه في خلقهما، وأخيراً خلق "هاديس" إله الموت، كان صادقاً جدّاً، وقويّاً كما طلبت، كان قادراً على اختراق الأجساد، والسّكن في ما بينها وبين الرّوح، أرسله سريعاً إليها، كانت قانطة تنتظر غضب "زيوس"، لكنّ "هاديس" خيّب توقّعاتها، جاء مسرعاً وعطشان وراغباً ومصمّماً على أخذها دون باقي نساء الأرض، امتدّت يده السّوداء القويّة إلى تلابيب روحها، سكن ما بينها وبين جسدها، ملأ ذاتها العطشى، اقتلع وجودها من جذوره، أنقذها من سجنها الجسديّ، أحكم وثاقه على تلابيب روحها، وانتزعها دون رحمة، كانت حشرجات الموت رائعة لذيذة، خلا جسدها من كلّ شيء إلاّ من حبّها العارم، شعرت بسعادة العشق، وقبل أن ترحل مع "هاديس" إلى مملكة العطش، أرسلت زفرة شكر للإله "زيوس"، وغابتْ في الموت.

حملتْ الصّواعق زفرات الرّضا العاشقة إلى "زيوس" الذي كان يرقب ما يجري باهتمام، غار في عرشه بارتياح، أمر بصرف جميع من حوله، حتّى إلهة النّصر المفضّلة عنده أمر بصرفها.

من جديد قرأ الرّسالة الغاضبة التّي كانت قد وصلته من أيّام، قرأها بصمت في أوّل مرّة، في ما بعد جهر بكلّ كلمة فيها، في لحظة نسي أنّه الإله الأكبر، وتمنّى لو أنّه يحظى بلحظة عشق حميمة مثل اللّحظة التّي طلبتها الآدميّة ساكنة الأرض.

في لحظات قدّرها البشر بآلاف السّنين من صمت الإله "زيوس"، واحتجابه دونهم، تذكّر كلّ من عشق من نساء وإلاهات، كانت سلسلة طويلة من العشق والعشيقات، عشق "هيرا"، و"يوربا"، و"لاتوفا"، و"إنتيوبي"، و"ديون"، و"مايا"، و"تيمس"، و"يورنيوم"، و"منيموزين"، و"أورينوما"، و"سيميلي" الجميلة، و"الكمينة"، و"داناي"، و"ليدا"، والكثير الكثير من اللّواتي نسي أسماءهن.

ذاق آلاف النّساء، عرف آهات وانكسارات العشق كلّها، لكنّه ما زال يتمنّى العشق، ما زال يحلم بلحظة حبّ، تمنّى لو كان له هو الآخر إله؛ ليرسل إليه رسالة يتضرّع فيها كي يذيقه العشق الحقيقيّ، ولو لمرّة واحدة في الحياة.

تنهّد طويلاً، فأحرقت تنهّداته وزفراته الكثير من بقاع الأرض، وضجّ البشر بالشّكوى، عندها تذكّر أنّه إله، وأن ليس من حقّه أن يتمنّى ولو حتّى في لحظة ضعف، طوى الرّسالة التّي يحملها، وجعلها في خزائن أوراقه، اتّكأ على حشيّة في مضجعه، وطلب حضور ساقيه، شرب كثيراً، وفي آخر اللّيل أصدر مرسوماً إلهيّاً يمنع وصول رسائل العشّاق إليه؛ لأنّ لا وقت عنده لوجع قلبه فضلاً عن قلوب البشر، وغرق في سبات طويل.(1)

١- تعديل على المرسوم: الإله "زيوس" لم يكن معنيّاً بالحبّ.

تعديل على المرسوم الثّاني: هذه أسطورة لم تحدث.

تعديل أخير: "زيوس" لم ينم في اللّيلة التّي سكر فيها، بل أمضى ليله باكياً، وكتب رسالة إلى مجهول يطلب منه أن يهبه حبّاً عظيماً.

الفزّاعة

ملابسه رثّة، قبّعته قديمة، فيها خـرق كـبير، قـدماه خشـبيّات، عينـاه زرّان مختلفا اللّون، وفمهُ مخاط على عجل، ولا أذنين له، وقلبه مـن القـشّ، وخصـره نحيل، وجسده مصلوب ليل نهار، لكنّه يحبّهـا، لا يحبّهـا فقـط؛ لأنّهـا هـي مـن خاطته، وزرعته في هذا المكان، لكنّه يحبّها؛ لأنّها رقيقة ولطيفة، ويعشق صـوتها ذا الرّنين العذب كلّما غنّت.

صنعته بيديها الصّغيرتين النّاعمتين منذ أشهر طويلة، وزرعته في هذا المكان من حقل الفراولة كي يفزع الطّيور والعصافير، ويمنعها من مداهمة الحقل وأكل الثّمار، وقد قام بعمله على أتمّ وجه يُرتجى، أوّلاً؛ لأنّه فزّاعة وقـد خُلـق ليفـزع الطّيور، ثانياً؛ لأنّه يحبّها، ويريد أن يحافظ لها على محصولها المتواضع الـذي مـن الواضح أنّها تعتاش منه.

لا يتذكّر كيف بدأ قلبه القشّيّ بالعزف، لكنّ صوتها كـان أوّل مـن حـرّك الحياة في ذاته، كان كسير الرّقبة، متدلّي الرّأس، متراخي الأعضاء منذ أن نُصـب في مكانه، لكنّ قلبه أخذ بالخفقان عندما سمع صـوتها الشّـجيّ، كانـت حافيـة القدمين، رنين خلخالها ودفق لهاثه هو كلّ مـا يسـمع وهـي غارقـة في الاعتنـاء بأشتال الفراولة، إلى أن انتصـفت الشّـمس في كبـد السّـماء، وبـدأت خيوطهـا بمداعبة شعرها العسليّ الغجريّ الهائج، وجادت قريحتها وقتئذ بدنـدنات عذبـة محمّلة بصوتها الشّجيّ، كانت أغنية حزينة كسيرة تناسب وحـدتها ومشـقّتها في الأرض، لحظتها شعر بـأنّ قلبـه ينـبض، وأنّ الحيـاة تـدبّ في أوصـاله الخـائرة

فتصلبها، وفي جسده الكسير فترفعه، وفي قلبه الميّت فتحيه، وتهبه وجيباً لا ينضب، ومنذ تلك اللّحظة غدا أسير صوتها العذب.

كان يراقبها ليل نهار دون أن يكلّ، أو أن يتعب، في عصر يوم ما تعبت من العمل في الحقل، فأسندتْ ظهرها إلى ركيزته الخشبيّة لترتاح، كم كان سعيداً بجسدها اللّين وهو يركن إليه! ابتسمتْ له، وقالتْ بعد أن ألقت نظرة عجلى على الثّوب الذي يلبسه: "يا له من ثوب قديم! لا تحزن يا عزيزي، غداً أصنع لك ثوباً آخر يليق بك، وبجهودك التّي تبذلها"، وعادت من جديد إلى إسناد ظهرها عليه، وهي تأكل شيئاً من الفراولة المزروعة بالقرب منهما بشهيّة مثيرة.

تمنّى لحظتئذ لو أنّه يملك الجرأة الكافية ليردّ عليها، وليشكرها على لطفها، وليرجوها أن تُسمعه أغنية يحبّ أن يسمعها منها دون كلل أو ملل، لكنّه خشي أن يفزعها هي الأخرى، ولعلّه خشي أكثر أن ترفضه، وأن تقشعرّ من منظره، فينكسر قلبه القشّيّ دون رحمة.

وصدقت وعدها، وفي اليوم الثّاني كسته ثوباً جديداً، من رائحته أدرك أنّها قد خاطته من ثوب قديم لها، شعر بسعادة عظمى وهو يغرق في كساء يحمل رائحة جسدها الزّاهد بكثير من العرق، شعر بأنّه يملك سعادة الدّنيا، فأذناه تسمعان صوتها الخلاّب، وأنفه يشمّ أريجها العذب، وجسده يحتضن ثوبها، وعيناه تراقبانها بفضول أينما ذهبت.

لا يعلم شيئاً عنها ولا عن تاريخها، إلاّ بمقدار الأشهر القليلة التّي عاشها مصلوباً في أرضها، أرضها صغيرة، مسيّجة بسياج خشبيّ قديم، لا يعلم ماذا يكون وراءه، ولا يعرف في أيّ البلاد تقع هذه المزرعة، وهي تعيش في كوخ كبير قديم، ومن الواضح أنّها تعيش فيه وحدها، فهو لم يلمح عندها أحداً من أشهر،

ومن مكانه هذا يستطيع أن يرى غرفة المعيشة وغرفة نومها التّي تقضـي الكـثير من الوقت فيها، يرى الكثير من الصّور المسجونة في براويز فضّيّة وخشبيّة علـى طول سطح مدفأة غرفة المعيشـة، لكنّـه لا يسـتطيع أن يـرى، أو أن يخمّـن لمـن تكون.

قليلاً ما تغادر البيت والمزرعـة، لتعـود سـريعاً محمّلـة بالفاكهـة والخضـار واللّحوم وبعض مستلزمات الأرض، فيقدّر أنّها كانت في السّوق.

يسعده مرآها وهي قادمة نحوه من البعيد، متدثّرة بشالها المخمليّ القـديم، وهي تدندن بأغانيها الشّجيّة، يكاد يطير للقائها، وليحمل الأكياس التّـي تتكبّـد حملها مسافة تبدو طويلة من لهاثها ومن احمرار وجنتيها.

هذا اليوم من بدايته بدا استثنائيّاً، ويـومئُ إلى اسـتقبال ضـيف مـا، هـي لم تعمل كثيراً في الحقل، وأمضتْ يومها في كوخها الصّغير، من نافذتي غرفة النّوم والمعيشة اللّتين تواجهانه راقب حركاتها، كان مـن الواضـح أنّهـا معنيّـة بتهيئـة المنزل والطّعام، مع الغروب بدأت بتجميل نفسها، لبستْ ثوبـاً قرمزيّـاً سـاحراً يظهر أديمها الأسمر، ومشّطتْ شـعرها العسـليّ، وأرختـه أنهـاراً هائجـة علـى كتفيها، قدّر أنّها مثارة وسعيدة، وحار مَنْ أو ماذا لعلّها تنتظر اللّيلة؟

أخذت بعزف البيانو الذي قلّما تعزف عليه، وأخذتْ تصدح بأغنية شجيّة، كانت مستغرقة في غنائها الملائكيّ، وكان يذوب في مسك كلماتها، إلى أن دخـل ذلك الوسيم الذي أقلّته درّاجة هوائيّة قبل دقائق، كان يحمل باقـة صـغيرة مـن زهور الفلّ البلديّ، قبّلها، وطوّق خصرها بيديه، واندسّ إلى جانبها على البيانو يعزف معها، كان عزفهما على أوتار قلبه الذي أدرك معنى الحزن والغيرة لأوّل مرّة، لكنّه كان سعيداً لأجلها على الرّغم من حزنه، وتمنّى من كـلّ قلبـه الـذي

يملك أمنيات صغيرة صادقة لو أنّه يهجر مكانه، ويقرع باب بيتها، وينضمّ إليهما، لكنّه كان يعرف تماماً أن لا مكان له هناك بين العاشقين.

راقبهما طويلاً من مكانه، تناولا من طعام العشاء، وعزفا معاً من جديد، ثمّ راقصها على أنغام موسيقى المسجّل، سارتْ الأمور على نحو يستطيع أن يصفه بالانسجام وبالحبّ، لكن ما لم يستطع أن يفهمه هو التّغيير الذي حدث بعد ذلك، فقد تعالى صراخهما، وبدا أنّ ناراً تشتعل بينهما، ثمّ غادر المكان غاضباً، وصكّ الباب بقوّة كادتْ تخلعه، ارتمت حبيبته على أريكة قريبة من الباب، وانخرطت في البكاء، كان صوت بكائها لا يقلّ جمالاً وتأثيراً في نفسه عن صوت غنائها، قدّر أنها حزينة جدّاً، وفي حاجة إلى قلب يحبّها بشدّة، لقلبه مثلاً، كاد يناديها من مكانه ليسألها عن سبب حزنها، لكنّه تذكّر أنّه لا يعرف اسمها، فهو لم يسمع أحداً يناديها باسمها من قبل حتّى يعرفه، فكّر قليلاً، ثمّ استجاب إلى وجيب قلبه، ترجّل عن مكانه، وقطع الحقل الصّغير، داس دون أن يقصد بعض حبّات الفراولة الحمراء، لم يقرع الباب، فتحه دون انتظار، ودخل إلى الكوخ.

سبيل الحوريّات

يختلس أوّل فرصة لينزل إلى الأسواق القديمة التّي تحتضن عشـرات الآثـار القديمة، يحبّ الهندسة المعماريّة التّي يدرسها من سنين، وما زال عالقاً فيهـا مـع أنّ أترابه قد تخرّجوا من كلّيتها منـذ زمـن، لكنّـه فنّـان يحـبّ أن يرسـم الآثـار القديمة، ويحبّ أن يملك سِفْراً عظيماً فيه صور الأماكن الأثريّة الجميلة كلّها، ولا يعنيه تصميم المباني، كما لا تثيره هندسة عمارة الأسواق.

يعرف كلّ شبر من الآثار في هذه المدينة القديمة؛ فقـد رسـم وتعلّـم فيهـا، رسمها بنظرة المهندس، فغدتْ لوحاتـه كأنّهـا صـور فوتوغرافيّـة عمرهـا آلاف السّنوات، يرسم لوحة واحدة لكلّ مكان أثريّ يستهويه، ولا يزيـد، لكنّـه منـذ أيّام طويلة عالق أمام سبيل الحوريّات، يرسمه من قريب، ومن بعيد، مـن أكثـر من زاوية، يضـفي عليـه أرواحـاً وأجسـاداً وضـحكات، تغيـب منـه أجـزاء في اللّوحة، وتحضر أخرى، لكنّ وجهها هي بالذّات عنصر ثابت في لوحاته كلّها.

يقول لأصدقائه الـذين عجبـوا مـن لزومـه للمكـان نفسـه الـذي يرسمـه لساعات طويلة يوميّاً دون ملل: "أنا مفتون بسبيل الحوريّات، هو حمّـام رومـانيّ قديم، تهدّم معظمه بفعل الزّلازل الأرضيّة، لكنّ فناءه الدّاخليّ، وغرف تبـديل الملابس، وأحواض الاستحمام ما تزال بكامل وجودها، هو تحفة فنّيّة حقيقيّة".

يحدّث أصدقاءه أنّه يتخيّل أنّ في سبيل الحوريّات عشرات النّساء العاريات مثل أقمـار في ليلـة صـيف، وإنّـه ينـاجيهنّ، ويسـتمتع بـرؤيتهنّ وبمـداعبتهنّ، فيضحك الجميع من تخيّلاته، ويبتسـم مزهـوّاً، لكنّـه يعلـم تمامـاً أنّ شـيئاً آخـر

يستهويه في هذا المكان، شيئاً لا يقلّ غرابة عن هوايته الفريدو، وإن فاقها جنوناً وتطرّفاً.

تستهويه هاجر، نعم تستهويه بكلّ ما فيها، بملابسها القذرة الممزّقة، بأطرافها المتُسخة، بأظافرها القذرة، بشعرها الأشقر المتطاير بفوضى مسحتْ أيّ أثر لتمشيط حدث في الزّمن الغابر، بدموعها التّي تذرفها وهي تستجدي المارّة، بحالات الجنون التّي تنتابها، فتجعلها تتعرّى من ملابسها، وتنصّب نفسها إلهة مجنونة ترقص عارية في سبيل الحوريّات، والصّغار يتصايحون، والرّجال يحوقلون، وبعض النّساء تتبرّع ببعض ملابسها لسترها.

هي مجنونة، اسمها هاجر المجنونة، لا أحد يعرف عنها أكثر من ذلك، نهاراتها تقطعها بين آثار سبيل الحوريّات، وفي اللّيل تتكوّر في ركن منه، وتنام ملء شواردها، لأكثر من مرّة حاولت شرطة المدينة أن تبعدها عن هذا المكان؛ لأنها تسيء إلى السّياح الذين يقصدونه، لكنّها كانت تعود في كلّ مرّة، كانت تفرح عندما تلمع في عينيها أنوار كاميرات السّوّاح، وفي النّهاية أصبحت جزءاً من سبيل الحوريّات، ولم يعد أحدٌ معنياً بإبعادها، حتّى الشّرطة نسيت هذا الأمر، وتقبّلت وجودها في المكان.

قابلها لأوّل مرّة وهي في نوبة من نوبات جنونها، كانت تصرخ والأطفال يزعجونها بمكائهم وتصديتهم، وقفت على حوض من أحواض السّبيل القديمة، وأخذت تتعرّى، في لحظة كانت عارية تماماً، حافية القدمين، متطايرة الشّعر، كانت قذرة الأعضاء، غير مهذّبة الشّعر، لكنّها كانت جميلة، بجسدٍ بلّوري صافٍ، وأعضاء متناسقة منسابة، لحظتها شعر بأنّها إلهة مسحورة، ينفكّ سحرها في ماء مقدّس، كانت في قمّة غضبها وخروجها عن عقلها، لكنّها أسرته على الرّغم من ذلك، شيء فيها جعله يتوقّف عندها، ويتأمّلها طويلاً، لم يكن جسداً

يتأمّل جسداً عارياً، ولم يكن رجلاً تجذبه امرأة، كان نفساً تتذوّق نفساً، وإن كانت في قمّة جنونها، وهروبها من العقل.

تمنّى أن تطول موجة جنونها، لكنّها سريعاً ما تلاشت، وبقيت هاجر عارية في المكان والعيون والحناجر تنهشها، اقترب منها، تناول ثوبها الرّث من الأرض، في حين خشي الجميع من الاقتراب، خوفاً من أن تصيبهم هاجر بحجر دامٍ كعادتها، دسّ الثّوب سريعاً في رأسها، مطّه عليها؛ ليغطّي جسدها كلّه، وربتْ على كتفها بهدوء، ورفع بعض عقارب شعرها، فرأى في عينيها ما حجبته خصلات الشّعر طويلاً، رأى عينين هادئتين، رأى امرأة مكسورة حزينة، رأى امرأة لم يتّسعها العقل، فهربتْ إلى الجنون.

منذ ذلك اليوم لم يرها في أيّ حالة جنون، وإن بقيت هاجر المجنونة التّي تستجدي المارّة، وتفرح بصور السّوّاح، رسمها لعشرات المرّات، كانت تعتدل أمام صوره، وتلزم مكاناً واحداً، كان متأكّداً من أنّها تفهم ماذا يفعل، كان في عينيها حديث طويل، عندما كان يتمنّها كان يبتسم، وكان يدهش عندما يرى ابتسامة مماثلة ترتسم في عينيها في اللّحظة نفسها، كان متأكّداً من أنّها غير مجنونة، لكنّها مكسورة بشدّة.

مرّة أهداها مشبكين للشّعر، كانا ذهبيّين بلون شعرها، عندما اقترب منها، وطوّق بهما خصلة من شعرها، ابتسمتْ بعمق، ثمّ ولّت هاربة نحو البعيد.

في اليوم التّالي كان من الظّاهر أنّها بذلت محاولة جادّة لتمشيط شعرها، كان المشبكان الذّهبيّان يزهوان بشعرها الأشقر، وبوجهها النّظيف، وبحركاتها الهادئة.

اقترب الشّتاء، ومع أوّل قطرات مطر منه فسدتْ اللّوحة التّي يرسمها، كانت أيضاً لسبيل الحوريّات، وفي خلفيتها وجه هاجر الباسم ونظراتها البريّة

المتوحّشة بلذّة، تأفّف بشدّة عندما تداخلت الألوان، وأبدى أسفه لذلك، لحظتها كان معنيّاً باللّوحة، ولم ينتبه إلى هاجر التّي اقتربت من اللّوحة، وتناولتها من يديه، وحدّقت فيها قائلة بنبرة واثقة وإن كانت الحروف مضطربة: "يا... يا... يا خسارة، فَسُدَتْ اللّوحة".

حدّق فيها طويلاً بدهشة، وشعر بأنّ سيّدته البرّيّة التّي يراها كلّ يوم في أحلامه هي هاجر، جعل اللّوحة تحت إبطه، وجمع أدوات الرّسم، وعلّق حاملة اللّوحات الخشبيّة على كتفه الأيسر، وفتح كفّ يده اليمنى التّي استقبلت برضا كفّ هاجر المجنونة، واتّجه إلى شقّته الصّغيرة التّي يستأجرها في الحيّ الأرمنيّ القديم منذ أن وطأ هذه المدينة للدّراسة منذ سنوات طويلة.

دخلت هاجر إلى الشّقة بكلّ رضا وسعادة، ولم تخرج منها أبداً، واختفتْ هاجر، وافتقدها سبيل الحوريّات، وإن لم يفتقدها أحد آخر؛ لأنّ المجانين لا يفتقدهم النّاس، كذلك اختفى الفنّان الذي ظهر من جديد في مدينة أخرى، حيث لم يعرف أحد أنّه يحترف الرّسم، لكنّ الكلّ كان يعرف أنّه مهندس معماريّ بارع، ناجح في عمله، وله زوجة رائعة، حلوة المعشر، هادئة النّفس، وإن كان زوجها الوحيد الذي يعرف أنّه يملك زوجة ساحرة عيبها الوحيد أنّها تتعرّى عندما تغضب، وتشرع في البكاء.

تيتا

هذه المرّة كان مصمّماً على أن يضع حدّاً لتجاوزاتها كلّها، لقد أفسدت عليه سكّان البلدة كلّهم، لقد أضاعتْ جهد سنوات، وكانت الطّامة عندما وجد بعض مواطنيه يلجؤون أيضاً إلى أعشابها اللّعينة.

ليعترف أنّه لا يغار منها، ولا يكره أن تقدّم المساعدة للمرضى مقابل الزّهيد من المال أو حتّى الفواكه والبقول والقمح، لكنّها تتحدّاه بنظراتها العميقة، يرى جبروت الدّنيا في بريق عينيها، عندما تتركه محتجّاً، وتستدير قافلة إلى مضارب قومها يشعر بأنّ ردفيها الجميلين الصّغيرين يتحدّيانه، ويخمّن أنّها تدلّي لسانها ساخرة منه كلّما رأته يحدّق فيها، وتغادر وصوت حليتها المرصّعة بالجمان والأصداف البيضاء ما تزال تصدح في أذنيه.

يكره أنّها لطيفة وذات ابتسامة عريضة تظهر أسنانها اللّامعة، يكره بشرتها السّوداء كما القهوة البرازيليّة، يكره كلّ شيء فيها، ويكره أنّ عليه أن يبذل جهداً جبّاراً كي يحافظ على كرهه المزعوم، ولولا ذلك لكان يحمل الآن شعوراً مختلفاً لا يجرؤ على أن يحدّث نفسه به، كرهه لها أو أيّاً كان اسمه قد ملأ عليه حياته الرّتيبة في هذا المكان، فمنذ أن جاء مع الصّليب الأحمر، واستقرّ في جنوب نيجيريا في هذه البلدة منذ سنوات طويلة، وهو يقطع الأيّام في الوحدة الصّحيّة الخيريّة التّي يرأسها، إلى أن جاء موسم هجرة قبائل "البورورو" إلى مناطق الكلأ في بداية موسم الأمطار، وجاءت مع قومها البدو الرّحل المتمرّدين على أبسط قواعد التّحضّر والمدنيّة التّي يتقزّزون منها، ويسمّون أهلها "أكلة الحبّوب".

هي من قبيلة "وداببه"، وتعني المنعزلين، هم منعزلون عن كـلّ شـيء، لكـنّهم ملتحمـون بطبيعـتهم؛ لـذلك يفهمـون طقـوس نباتاتهـا، ويعرفـون أسـرارها، ويشتهرون بمنتجاتهم الصّيدلانيّة، يستطيع أن يعترف بأنّها كثيراً ما تفيد مرضـاه بأدويتها الطّبيعيّة أكثر ممّا تفعل أدويته الكيميائيّـة التّـي يقـدّمها مجّانـاً للمرضـى بدعم من جهات خيريّة عالميّة.

لكنّ شيئاً فيها يستفزّه، أشدّ ما يستفزّه أنّهـا تـولّي هاربـة كلّمـا دعاهـا إلى ضيافته، يتمنّى لو أنّها تجالسه كما تجالسه مـع نسـاء ورجـال البلـدة، يتمنّـى أن تقبّله كما تفعل مع الأطفال شبه العُراة الذين يلعبون في طريقها، تلـك الألـوان الصّفراء التّي تزيّن وجهها تشغله طويلاً مع أنّه ألفها على وجوه نساء "البورورو" الرّحل، لكنّ تلك الألوان على وجهها الباسم بصفاء تصنع لها جمالاً خاصّاً.

مرّة رآها ترقص في احتفال شعبيّ في سوق البلدة، كانت تحمـل كيسـاً مـن القماش، تعلّقه على كتفها الأيمـن، فيمتـدّ حتّـى ركبتيهـا، تضـع فيـه أعشـابها ومراهمها، وضعته جانباً، وكادت الأقدام أن تدوسه، لكنّها لم تبالِ، فرفعـه عـن الأرض، وحمله لها، وراقبها طـويلاً، كانـت تلـبس ثوبـاً قطنيّـاً خشـناً مزركشـاً وموشّىً بالأصداف والرّيش والمرصّعات، ومفتوحـاً مـن الجـانبين حتّـى أعلـى الفخذين اللّذين يظهرهان أسمرين ممشـوقين، كمـا يظهـر مـن الأعلـى ثـدياها الكبيران الممتدّان دون قيود حمّالة الصّدر التّي لا تستعملها أبداً، بل تترك ثـدييها متحرّرين مثل زرياب شادٍ.

رقصـتْ طـويلاً، ودارتْ الأرض بـه أينمـا دارتْ، كـان الكـلّ يشـجّعها، ويهتف لها مشجّعاً باسم "تيتا"، أحد الشّبّان اقترب منها، وراقصها برشاقة، أزعجه ذلك، لكنّه لم يسمح لذلك أن يحرمه من متعة مراقبة "تيتا" الجميلة، عنـدما أنهـت رقصتّها الشّعبيّة، اقترب منها، وناولها حقيبتها القماشيّة قائلاً: "هذه حقيبتك".

غادرت "تيتا" المكان، لكنّ الأرض بقيت تدور به طويلاً، ولم يتوقّف الدّوران إلى أن رآها بعد أيّام، كانت في بيت امرأة تضع مولودها الأوّل، وكانت الـولادة متعسّرة إلى درجة الموت، عندها أدركت "تيتا" أنّها والمرأة التّي تضـع مولودهـا في حاجة إلى مساعدة الطّبيب الأوروبيّ الأشقر، جاء سريعاً، ليقدّم يد العـون لمـن يطلبها، لكنّ الأرض عادت إلى الدّوران عندما رأى "تيتا" التّي اشتمّ طـويلاً عبـق جسدها العنبريّ المغري.

بعد ساعات طويلة جاء الطّفل قطعة رخوة باكية بعد رحلة ولادة شاقّة، أسماه الأب على اسم الطّبيب الذي ساعده، وقدّم الشّكر العميق لـ "تيتا"، ليلتها عرف أنّها تلقّب بالكاهنة، فهي في نظر قومها الـذين لا يـدينون بـأيّ ديـن مـن أديان الدّنيا، وإنّما يدينون لطقوس غريبة كاهنة مقدّسة، وهي بنظرهم سـاحرة، يلجؤون إليها لتقرأ لهم الطّـالع، ولتبحـث لهـم عمّـا فقـدوه، ولترشـدهم عـبر الصّحراء إلى الطّريق الصّحيح لقوافلهم.

تساءل في نفسه، أتراها قد سحرتني؟ عاد مـن جديـد، وسـخر مـن هـذه الفكرة السّاذجة التّي سيطرت على ذهنـه، فهـو لا يـؤمن أصـلاً بالسّـحر، ولا بالسّحرة كذلك، لكنّ "تيتا" سحرته، نعم، لقد فعلت ذلك.

اقترب منها، وقدّم كفّ يده اليمنى لها، وقال بابتسامة واسعة: "اقرئي لي طالعي". نظرت في وجهه الأبيض الذي لوّحته الشّمس، فكسته حمرّة مثيرة، وهي تقفل كفّه، وتحتضنها بين يديها الصّغيرتين: "أنا متعبة الآن، تعال مساء إلى قبيلتي، وسأقرأ لكَ طالعك، ومجّاناً أيضاً".

قال في نفسه: "لن أذهب أبداً إلى تلك القبيلة، لـن اسـتجيب لشـعوذة هـذه السّاحرة اللّعينة، نعم لن أذهب إليها، من تظن نفسها؟"

مع حلول قمر المساء كان قَهْرَ أنفه في الطّريق إلى قبيلتهـا، استعان بأحـد صبيّة البلدة ليوصله إلى هناك، المكان يضجّ بأصـوات الغنـاء، وصـوت الطّبـول والموسيقى المحليّة يزحم المكـان الـذي يزخـر بالرّجـال والنّسـاء، كـان الرّجـال يصطفّون في صفّ طويل يرقصـون، ويصـدحون بأغنيـة يكرّرونهـا دون ملـل، ويصبغون وجوههم بمسحوق صلصاليّ أصفر اللّون، ويكحّلون شـفاههم بمـادّة سوداء لامعة، ويضفّرون شعر رؤوسهم بالأصداف والرّيش، أمّـا النّسـاء فكـنّ يلبسن على ما يبدو أزهى ما عندهنّ من ملابس.

لم يعرف سبب هذه الظاهرة، وقدّر أنّه حفل زفاف، لكنّه عرف من الصبيّ أنّ هذا الحفل هو حفل سنويّ موسميّ اسمه مهرجـان "غـيروال"، أو عيـد جمـال الأجساد، حيث يتزيّن الشّباب، ويعرضون أنفسـهم للفتيـات؛ لـيخترن أجملـهم جسداً، ليطلقوا عليه في ما بعد لقب "توغو"، هذا المهرجان هـو مهرجـان الجمـال والحبّ والجسد، ففي هذه اللّيلة يُباح لكلّ فتاة أن تهرب مع من تعشق، حتّى لو كانت متزوّجة، فهي تستطيع أن تهجر زوجهـا في هـذه اللّيلـة، وأن تهـرب مـع رجل تعبد جماله.

المكان يعجّ بالحياة، بحث عنهـا بعينيـه إلى أن وجـدها، كانـت تجلـس أمـام خيمتها بكامل زينتها وجمالها، كانت تضاحك الفتيات، سريعاً ما أمسكتْ عيناها عينيه متلبّستين بمغازلتها، هربت من المكان، وانزوت في داخـل خيمتهـا، اجتـاز سريعاً جموع الرّجال المصطفّين في رقصتهم التّقليديّة الصّاخبة، وتجـاوز الفتيـات المتناوبات على الدّلال، ودخل إلى خيمتها، كان طويـل القامـة، ممتلـئ الجسـد، بعينين خضراوين، وشفتين عذبتين مثارتين، لم يكـن بجسـد متجـانس الأطـراف ونحيف البنية، وأنف مستقيم، وعينين سوداوين، وأسنان ناصعة بيضاء، وشفتين مطليّتين بالسّواد كما هو حال وسيمي قبيلتهـا الـذين يحملـون صـفات الجمـال

التّقليديّة عند قبائل "البورورو"، لكنّها كانت تحبّه، نعم، هي تحبّه كما لم تحبّ يوماً، لم تنفع أدويتها، ولم ينفع سحرها في تجاوز هذا المرض اللّذيذ.

خطا خطوتين إلى داخل خيمتها، كان يتفرّس في قسماتها بنظرات جائعة، قالتْ له بتلعثم وبشجاعة مزعومة: "ها قد جئت إذن، هل أقرأ لك كفّك؟" قال: "بل جئتُ لأخطفك يا ساحرتي الجميلة".

اقترب منها بجسده القويّ، وانحنى قليلاً، وحملها، وألقى بها على كتفه، فانزلق نصفها الأعلى على ظهره، بينما بقي حاضناً فخذيها، وولّى بها هاربا، يقطع شيئاً من رمال الصّحراء، وهو يحمل ساحرته السّوداء، تنهّد شوقاً ورغبة، كان مجنوناً مسحوراً، وخمّن أنّه لن يُشفى أبداً.

الرَّصَدْ

جاء من آخر تخوم البحر، هدفه رجل واحد، قرأ عنه في طلاسم العهد الغابر، ووجد اسمه وزمنه مكتوبين في كتاب السّحر الأكبر، يعلم تماماً أنّ في هذه القرية النّائية المكتوبة في النّسيان كنز عظيم، وأنّ هذا الكنز تحرسه جنيّة أفعى منذ آلاف السّنوات، وأنّ هذا الكنز مرصود على اسم رجل بسيط اسمه عزّوز الأعور.

منذ سنوات يترقّب هذه السّنة وهذه اللّيلة، حيث السّنة كبيسة، والمذنّب الأعظم يخترق مجال كوكب الزّهرة منذ ألف عام، ستُفتح بوّابة كهف الرّصد في منتصف هذه اللّيلة تماماً، لا قبل ولا بعد، وهناك سينتظره الكنز الذي لم تجد الأيدي حيلة إليه.

وصل السّاحر اليهوديّ الأكبر إلى القرية مع أوّل خيوط الصّباح، ضرب الرّمل بحجارته السّحريّة، فعرف من خطوط الرّمل ومساقط الحجارة الطّريق إلى رجله المنشود، قصده على عجل، كان بيته الطّينيّ الحقير في آخر القرية إلى جانب سفح الجبل، عرفه منذ رأى الدّهشة في عينه اليتيمة، أمّا عينه المظلمة فرأى فيها كنزه، وطلاسم الرّصَد.

أخبره أنّه طِلْبَتُه، وقال له إنّ اسمه موجود في سِفْر السّحر الأكبر، وإنّ على يديه يُفكّ الرّصد، عندها سيتقاسمان الكنز، فيعود الأوّل إلى موطنه في آخر الدّنيا، ويرى الثّاني بعينه اليتيمة ما لم يره رجل من قبل بعينيه الاثنتين من غنىً وجاه.

لطالما سمع عزّوز عن الكنز المرصود في أعلى جبل القرية، سمع الجدّات تتغنّى به، وتروي قصص الذين هلكوا دونه، وسمع راوي ديوان المختار يُسيّل لعاب الرّجال بقصص الكنز وبجمال الجنيّة الأفعى التّي تحميه، لكنّه لم يكن يعلم أنّ اسمه هو الرّجل الضّئيل الحقير الذي تزدريه الأعين، وتتحاشاه الأقدام لقذارته مكتوب على طلاسم هذا الكنز.

القرية أنهتْ يومها مبكّرة مع أفول الشّمس، أمّا السّاحر وعزّوز فكانا على موعد مع الظّلام، أشواك الطّريق أدمت أقدامهم في الظّلام، عباءة اليهوديّ الطّويلة احتوت الكثير من غبار ورمال الطّريق، قلب عزّوز كان يخفق بقوّة دون توقّف، تخيّل أنّ وجيب قلبه لقوّته يفزع هوام اللّيل، أمّا أذناه فكانتا مشنّفتين تردّدان وصايا اليهوديّ، لعشرات المرّات ذكّره اليهوديّ أنّ هلاكهما في أيّ كلمة يقولها عزّوز، قال له بحزم: "أنا سأقرأ الطّلاسم، وأنتَ عليك الصّمت، إيّاك أن تتفوّه بأيّ كلمة، مهما رأيت الزم الصّمت، إن تفوّهت بكلمة واحدة سنهلك كلانا، وسيغلق الكهف على الرّصد لألف سنة أخرى".

وصلا أخيراً إلى الكهف، كان المذنّب الألفيّ يجري في السّماء أعلى الجبل، انفتحت بوابة الكهف بصرير حجريّ قويّ، كانت البوّابة صخرة عظيمة ملساء بيضاويّة، أشعّة القمر أنارتْ أرض الكهف، كانت جماجم المغامرين الذين وصلوا إلى هذا المكان تملؤه، ابتلع عزّوز ريقه بصعوبة، انتشر الوجل في عينه، نظر اليهوديّ في عمق عينه، وقال: "إيّاك أن تتفوّه بأيّ الكلمات"، أومأ عزّوز برأسه بالإطاعة.

بدأ اليهوديّ بترديد طلاسمه السّحريّة، واشتعل المكان نوراً، كانت ترانيم اليهوديّ باعثة للجنيّة الأفعى، استيقظت من سباتها الطّويل، رفعت رأسها الغارق بين الجوهر والذّهب والتّحف النّفيسة المتكدّسة في الصّناديق

الحديديّة الصّدئة، وفي لحظات تفتّق جلدها عن فتاة بجمال أردية القمر، كانت فتاة تستدعي بجمالها سنوات حرمانه، رأى في عينيها اشتهاء له لم ترَ عينه اليتيمة مثله طوال حياته؛ فعيون الجميلات لا تلمح الرّجال البسطاء الفقراء.

كانت متدثّرة بملابس شفّافة، سرعان ما أخذت تلك الملابس تتطاير مع كلّ ترنيمة من ترنيمات اليهوديّ، كان في عينيها خوف ورعب جارف، وهي تصرخ: "يا عمّ، استرْ عليّ، اللّه يستر عليك، يا عمّ، كلماتك تعرّيني من ملابسي، استرْ عليّ، اللّه يستر عليك".

صوت رجائها المخضوب بدموعها كان يملأ الكهف دون أن يصيب اهتماماً أو مبالاة عند اليهوديّ الذي كان مستمرّاً في ترقيص رأسه على ترانيمه وطلاسمه السّحريّة، أمّا عزّوز فكانت عينه تراقب بخجل وعطف الفتاة الجنيّة التّي تصرخ عارية طالبة للسّتر، كاد يرجو اليهوديّ ليكفّ عن طلاسمه، لكنّه كان يعلم أنّ في كلماته الموت.

استمرّت الملحمة؛ اليهوديّ يحرق بترنيماته وطلاسمه الفتاة، والكنز يقترب منهما، وعزّوز يحترق شوقاً لإنقاذ الجنيّة التّي بدأت بالتّوسّل إليه قائلةً: "أنقذني يا عزّوز، استرْ عليّ، اللّه يستر عليك".

لكنّ عزّوز صمّ أذنيه عن رجاءاتها ودموعها، وإن كان قلبه يتفطّر لذلك إلى أن قالت الفتاة، وهي تكتوي بالسّحر الذي تسمعه: "عزّوز، أنا أحبّك، انتظرتك منذ ألف عام، استرْ عليّ، اللّه يستر عليك".

لأوّل مرّة يسمع امرأة تقول له أحبّك، طوال تاريخ حياته المجدبة لم تحنّ امرأة عليه، وأيّ امرأة؟ امرأة الرّصَدْ.

نظر عزّوز باضطراب إلى اليهوديّ المستغرق في ما يقول، وقال له بانفعال: "كفاك، استر عليها، أنا أحبّها"، التفت إليه اليهوديّ بسرعة مرعوباً من كلماته

التّي خالف بها وصيّته، وهو لا يفغر فاهـه غـير مصـدّق أنّ عـزّوز قـد خـالف وصيّته، ونطلق بكلمات مدمّرة له، في لحظـات كـان اليهـوديّ رمـاداً منثـوراً في المكان.

كادت لعنة الرّصد تحيل عزّوز إلى رماد أيضاً، لكنّ الجنيّة الأفعـى عشـقت في عين عزّوز شيئاً لم تره مـن قبـل في عـين إنسـيّ، مـدّت يـدها العاجيّـة إليـه، واختطفته بعيداً حيث مملكة الجانّ، ومن جديد أقُفل باب الكهف على الرّصد.

امرأة استثنائيّة

"أنا امرأة تملك موهبة نادرة، اقتربوا لأخبركم عن موهبتي، اقتربوا أكثر، لا، هذا أكثر ممّا يجب، تراجعوا خطوة إلى الوراء، نعم، هذا مناسب، ألم أقل لكم أنّي موهوبة، ها أنتم قد أدركتم موهبتي قبل أن أفصح لكم عنها، أنا امرأة قادرة على أن تحرّر المأسورين من أسرهم، قادرة على أن تبعث الحياة في القلوب الميّتة، قادرة على أن ترسم الارتعاش على الشّفاه الميّتة، رجاء تراجعوا جميعاً، وابقَ أنت بالذّات، قل لي ماذا تحبّ أن أسميك؟ تعال، اقترب أكثر".

يقترب التّمثال الصّخريّ الذي قُدّ لتوه من جداريّة صخريّة كبيرة، تضمّ تماثيل كثيرة لشباب رومان صغار السّن مطوّقين بالغار، نظر إليها بعينيه اللّتين عرفتا الحياة لتوّهما، فقد تحوّل بلحظات من تمثال صخريّ في جداريّة صخريّة ثلاثيّة الأبعاد، تسكن وسط المدينة القديمة من آلاف السّنوات إلى شابّ من لحم ودم، وربما من قلب أيضاً، من يدري؟

لم يستطع أن يقدّر أنّه محظوظ دون التّماثيل الأخرى بهذه الهبة، ولم يفكر كذلك أنّى لهذا التّحوّل أن يحدث، ولم يعنه أن يبحث عن تفاصيل ذلك التّحوّل وعن طريقته، لكنّه كان يشعر بالسّعادة؛ لأنه تحرّر من سجنه الصّخريّ الذي كرهه، ليغدو شاباً عصريّاً يطوّف في الشّوارع بملابسه القديمة.

من جديد اقتربت منه المرأة ذات القامة القصيرة حدّ التقزّم، والملامح الشّوهاء والعينين اللّامعتين، وقالت له: "كلّما نظرت إلى شيء جميل، دبّت فيه الحياة، ألم أقل لك أنّي أملك موهبة استثنائيّة".

ابتسم التّمثال الرّجل المطوّق بالغار، وطبع على جبينها الضيّق الأشوه قُبلة دافئة، ومدّ يده، وحضن كفّ يدها، وانطلقا يجوبان المدينة، حدّثها طويلاً عن المدينة، لكن بذكريات عمرها آلاف السّنوات، راقصها في المعبد القديم الذي يتربّع على أعلى تلال المدينة، صرخ بأعلى صوته في المدرّج الأثريّ القديم: "أنا أحبّك"، فردّدت ردهات المدرّج كلماته، ابتسم السّوّاح الذين يزورون المكان، وظنّوه يلبس ملابس تقليديّة من باب التّندر، أو أنّه من موظّفي المكان، التقطوا له عشرات الصّور التّذكاريّة.

أما هي، فكانت في غاية السّعادة، كان فمها الأشوه الصّغير يندي بسعادة غريبة لم تألفها في حياتها المعيشة، كانت استثنائيّة في كلّ شيء، استثنائيّة في جسدها القزم، في ملامحها المتجمدّة على ابتسامة مهرّج، في تجاعيدها المخيفة، في قدرتها على الرّسم، في موهبتها على تحرير المساجين كلّهم من سجنهم، لكنّها كانت على الرّغم من ذلك عاجزة عن أن تتحرّر من جسدها المخيف، حتّى عندما أشعلت النّار فيه لتهرب منه، لم تستطع أن تنقذ روحها منه، وبقيت حبيسة داخله، فضلاً عن اكتسابها جلداً محروقاً مجعّداً مثل جلد وزغة في مستنقع.

لم تجد عالمها في أيّ مكان؛ لذا خلقته من بنات أفكارها، اعتادت على أن تغادر بيتها في كلّ صباح، ثم تغيب عنه ما استطاعت ذلك، ما دام غيابها يسعد كلّ من فيه، فلا أحد يرغب في المرأة القصيرة ذات الجلد المجعّد.

في البداية كانت تشعر بوحدة قاتمة، كانت تتنحّى في الزّقاق المظلمة، والشّوارع غير المطروقة، لكن عندما اكتشفت موهبتها العجيبة، عادت الحياة إليها، أو عادت هي إلى الحياة، كلّ ما عليها أن تفعله هو أن تنظر إلى أيّ رجل أكان صورة على غلاف، أم تمثالاً في شارع، أم صوتاً في الأذن، أم حتّى صورة

في الذّهن، فيتجسّد أمامها حيّاً، ينبض بالحياة، رجلاً لا يعنيه شكلها الحزين، ولا جلدها المقيت، بل تعنيه عيناها الدّافئتان وقلبها الطّيّب، تعيش معه أحلى اللّحظات، تقبّله في الشّوارع، تطارحه الغرام في الجبال، تأكل معه في الحوانيت الشّعبيّة، تراقصه على ضوء الشّموع في مقصورة بلوريّة في القمر.

مرّة أخرى ردّد الرّجل التّمثال: "أحبّك"، فردّد المدرّج كلمته، أنشد أغنية رومانيّة قديمة، لم تفهمها، لكنّها قدّرت بقلبها أنّها أغنية صاغها عاشق لحبيبة في لحظة ما، انحنى عند قدميها كمن يركع لها، وتناول جسدها الصّغير بين يديه، ودار بها بسعادة، وأخذ بتقبيلها، السّوّاح كانوا حائرين، أيصورون الوسيم العاشق؟ أم المعشوقة المسخ؟ في النّهاية قرّروا أن يصوروا كليهما، وإن كان من المتعذّر على كاميراتهم أن تلتقط العاشقين لسرعة حركتيهما.

تحت ضوء القمر، وبعد عشاء تقليديّ في حانوت شعبيّ، عاد الرّجل التّمثال ليأخذ مكانه في الجداريّة الصّخريّة، في لحظات عاد إلى حياته الصّخريّة، ودّعته بحزن، كانتْ تعرف طقوس الألم تماماً؛ لأنها اعتادتها، للدّقة لم تعتد غيرها، ومن جديد عادت إلى الوحدة، لكنّ غداً قريب، وفي انتظار غد آخر اندسّت مثل دودة مستنقع رخوة في فراش حقير أعدّته عائلتها لها، بعد أن ضاقت ذرعاً بمظهرها القبيح.

في الصّباح كانت تتأمّل في صورة لفتى وسيم، كانت قد علّقت على لوحة قديمة في آخر الموقف المهجور، تمنّت أن يكون حقيقة، اقتربت من صورته، وهمست بدفء وبحبّ الدّنيا كلّها قائلة: "أنا امرأة قادرة على تحرير المأسورين من أسرهم، قادرة على أن ترسم الارتعاش على الشّفاه الميّتة، قادرة على أن تبعث الحياة في القلوب الميّتة، أنا امرأة استثنائيّة، اقترب مني".

من جديد دبّت الحياة في الفتى الصّورة، ومرّة أخـرى عاشـت قصّـة حـبّ رائعة ليوم طويل مع شابّ فاتن، تجاوز جسدها وتجاعيدها.

وفي مكان ما في المدينة كان سائح ما يصرخ مذعوراً؛ لأنـه حمّـض صـورة التقطها البارحة لشابّ وسيم وامرأة شوهاء في مدرج أثريّ، ليجد أنّه قد حمّـض صورة لامرأة شوهاء وفضاء فارغ لا وجود لشابّ فيه، لكنّه لم يعـرف أبـداً أنـه التقط صورة لامرأة استثنائيّة.

قطار منتصف الليّل

"بقيت نصف ساعة، ويقبل قطار منتصف اللّيل"، عزّت نفسها قائلة، كانت اللّيلة باردة أكثر ممّا تحتمل، وهي لم تأخذ الاحتياطات لذلك، فلم تلبس مثلاً معطفاً دافئاً؛ لأنّها لم تكن تتوقع أنّ أحداث اليوم السّاخنة ستسوقها لتجد نفسها وحيدة، تجلس في أحد مقاعد المحطّة القديمة، تنتظر رجلاً لتمنع كارثة، كيف سيبدو الرّجل؟ لا تعرف. ماذا يلبس؟ لا تعرف. كلُّ ما تعرفه أنّه سيحمل باقة زهور حمراء في يديه حسب الاتّفاق.

من جديد شعرت بالبرد يهاجم جسدها الورديّ الصّغير، غارتْ في سترتها القطنيّة ذات الأكمام القصيرة، راقبتْ بطنها الغائر، تحرّكت أمعاؤها بتململ، فتذكّرت أنّها لم تذق لقمة طعام منذ الصّباح، ومن يستطيع أن يأكل، وهو يشعر بهذا الارتباك كلّه؟ ويحار في الطّريقة التّي يمكن أن يعالج بها الأمور دون ألم؟

لكنّ ذلك القادم في قطار منتصف اللّيل، ما ذنبه فيما يجري؟ ماذا ستقول له؟ لعلّ من الأفضل أن تقطع تذكرة له ليعود من حيث أتى، وهكذا لن يكون له مبرّر للبقاء؟ أعادت النّظر في قرارها الأخير، فوجدته سخيفاً، فهو في النّهاية إنسان له قراره وشعوره وشخصيّته، ولعلّه سيستاء ممّا يحدث؟ ابتسمت بسخرية، وحوقلت قائلة: "بالتّأكيد سيستاء إن كان في داخله ذرّة إحساس".

فكّت يدها اليمنى عن اليسرى التّي تضمّها إلى صدرها، لعلّها تشعر بشيء من الدّفء، نظرت إلى ساعتها، كانت الشّعرات الشّقراء النّحيلة القليلة التّي تتوزّع على أديم يدها تنتصب مستنفرة من شدّة البرد، بقيت ربع ساعة فقط، ويكون القادم قبالتها تماماً، من مكانها هذا تستطيع أن تتفرّس في وجه كلّ قادم

ينزل إلى المحطّة، ارتعدتْ عندما سمعتْ صوت نباح في البعيد، تذكّرت أنّ منزل المغتربات الذي تسكنه قد أقفل أبوابه منذ ساعتين، وهكذا لن يكون أمامها إلاّ أن تبحث عن فندق قريب تقضي فيه ليلتها، ألا يكفيها أنّها تسكن بلدة بعيدة عن أهلها سفر ساعات طويلة من أجل لقمة العيش لتنزل أيضاً في فندق؟

من أمامها مرّ أحد حرّاس المحطّة بمشيته العسكريّة المنتظمة، كان ينظر في ساعته القديمة المربوطة بسلسلة فضيّة تمتد حتّى جيبه، بقيت عشر دقائق، ويأتي القطار، شعرت باضطراب شديد، فجأة تذكّرت أمّها، لطالما نعتتها بالطّيّبة الغبيّة، التّي تتسرّع وتتدخّل في ما لا يعنيها، ضربت صفحاً عن صورة أمّها التّي ارتسمت في ذهنها، وعادت ترتّب من جديد الكلمات التّي عليها أن تقولها للرّجل القادم في القطار.

شعرت بأنّ الكلمات انصهرت في حجرات دماغها، وأنّها تملك قصصاً كثيرة ذائبة باضطراب، حاولت أن ترتّب قصصها وكلماتها من جديد، لكنّها وجدت نفسها تتنفّس بصعوبة أمام دفق الكلمات والقصص.

ما عليها أن تقول؟ هل تستقبله ثمّ تدعوه إلى مقهى المحطّة لتخبره بما يحدث؟ أم تلقي الكلمات في وجهه دون انتظار؟ أم لعلّ من الواجب أن تعرّفه على نفسها ابتداء؟ وتذكر له سبب وجودها في انتظاره دون حضور حبيبته التي جاء لرؤيتها.

ارتاحت أكثر إلى فكرة أن تعرّفه على نفسها، فمن المناسب أن يعرف سبب وجودها في هذا المكان، ومن تكون؟ وأين الفتاة التّي من الواجب أن تكون في انتظاره. ستخبره بكلّ صراحة بأنّ فتاته لن تحضر للقائه؛ لأنّها مراهقة صغيرة ادّعت أنّها طالبة جامعيّة؛ لتلهو معه، ومن ثمّ وجدت نفسها متورّطة في قصّة

حبّ مع رجل ما، ستقول له إنّ فتاته لا تحبّه، بل كانت تريد أن تلهو وحسب، وهي الآن نادمة، وترجو أن يقبل اعتذارها، وإن كان قد جاء مُتأخّراً.

ماذا ستقول له أيضاً؟ نعم، ستقول له إنّها معلّمة تلك المراهقة الشّقيّة، وإنّها اطّلعت على الموضوع بحكم علاقتها الطّيّبة مع تلميذاتها كلّهنّ في المدرسة الثّانويّة، اللّواتي تحبّهنّ بشدّة، ويفضين إليها بأسرارهنّ، وإنّها اطّلعت اليوم فقط على تفاصيل هذه اللّعبة السّخيفة التّي مارستها طالبتها عبر علاقة طّويلة على الإنترنت، وأنّها قد شعرت بالخطر عندما عرفت أنّ الرّجل الذي يحبّها، ويتصوّرها امرأة ناضجة، قادم ليقابلها، ستقول له إنّ المراهقة خائفة جدّاً، وتخشى غضب والديها إذا ما عرفا أكاذيبها، كما تخشى من أن تُحرم إلى الأبد من استخدام "الإنترنت" الذي تمضي ساعات طويلة تراسل عبره الكثير من الأشخاص في أصقاع مختلفة في الدّنيا.

نعم ستقف أمامه، وتمدّ يدها مصافحة له، ومعتذرة بشدّة وخجل عن سلوك طالبتها الطّائشة، وترجوه أن يقبل الاعتذار، وماذا عليها تفعل بعد ذلك؟ هي لا تدري ماذا عليها أن تفعل بعد ذلك.

من جديد طالعت السّاعة، بقيت خمس دقائق ثمّ يكون لزاماً عليها أن تنتصب لتستقبل رجلاً تشعر بالخجل منه قبل أن تراه، وتحاول أن تصطنع ابتسامة تبتدره بها، لكنّها تفشل في ذلك.

وصل القطار، جلبته وصفيره الجريئان يشقّان اللّيل، حرارته تصكّ وجهها الذي كاد يتجمّد من البرد، تفكّر بالانتصاب، لكنّ التّوتّر يمنعها من ذلك، تبحث في حقيبتها باضطّراب عن لا شيء، تفكّ قدماً عن أخرى، تعتدل في

جِلستها، يزداد وجيب قلبها، تتمنّى لو أنّها الآن في انتظار رجل يخصّها هي، كم حياتها ضيّقة دون رجل تحبّه ويحبّها!

كان مخطّط طفولتها يقتضي أن تقابل رجلاً يعشقها وتعشقه دون توقّف، لكنّها وجدت نفسها بدل ذلك تُطعم شبابها للسّنين كي تزوّد عائلتها المتواضعة بما تحتاج إليه بعد أن أصبحت ذخيرتهم الوحيدة في هذه الدّنيا، هي لا تراهم كثيراً بحكم عملها البعيد، لكنّها تحبّهم جدّاً، لكنّها ما تزال صغيرة وشابّة جميلة، ومن حقّها أن تعيش سعادة قلبها، لكنّها في الوقت نفسه قليلة الجرأة، تحتاج إلى رجل يخطفها خطفاً دون إرادتها أو موافقتها، ثم يقيّدها في قلعة ما، ويجبرها على حبّه؛ فهي تخشى الحبّ، وإن كانت تتمنّاه.

يبدأ الرّكاب القلّة الذين يستقلّون القطار بمغادرته بتؤدة، الكثير منهم تبدو عليه إمارات النّعاس والكسل، تراقبهم جميعاً، وتبحث عن باقة الزّهور الحمراء التّي اتّفقت طالبتها دلال والرّجل على أن تكون وسيلتهما للتّعارف، يكاد سيل القادمين ينقطع، والباقة والرّجل لم يطلاّ بعد، أتراه لم يأتِ؟ لعلّه هو الآخر كاذب، ولن يأتي أبداً، تتمنّى أن يصدُق تخمينها، ويزداد انفعالها، وبتمتمة هادئة ترجو اللّه أن يتحقّق تخمينها هذا.

لكنّ باقة الزّهور الحمراء تطلّ أخيراً، وهي تمتطي صهوة أشواق رجل في منتصف الثّلاثينيات يلبس معطفاً عسليّاً، يُظهر من تحته بذلة أنيقة وجسداً شبه ممشوق، على وجهه ابتسامة رائعة وهادئة تشبه هدوء اللّيل الذي جاء يشقّه، تنتصب بصعوبة، تخطو خطوة في اتّجاهه، لكنّ خطواته تسبقها، دون وعي تجد نفسها تعدّل هندامها، تضطرب أكثر وأكثر، يقترب منها، يصافحها، ويقول لها: "ألم أقل لكِ إنّي سأعرفك؟ دلال هذه الزّهور لك."

تمتدّ يداها بارتعاش، تحتضنان الزّهـور، تشـفقان علـى جمالهـا وعلـى رقّـة صاحبها، تكاد تقول له إنّهـا ليسـت دلال، لكنّهـا تسـتعذب النّظـرات التّـي في عينيه، وتجد صعوبة في أن تقتل هذه اللّحظات السّاحرة، هي تحتاجه، وهو جـاء يبحث عن الحبّ، ولم يشترط المرأة، وطالبتهـا المراهقـة لا تريـده، إذن فالمعادلـة سهلة، لِمَ لا يكون لها؟ لعلّ القدر هو من ساقها إلى هذا المكان دون سائر أماكن الدّنيا، لتجده وليجدها.

تبتسم، وتقول له: "أنتَ تماماً كما تخيّلتك"، يقول بإثارة ذكوريّة ساحرة، وهو ينحني نحوها: "وأنتِ أجمل ممّا تخيّلت"، تشتمّ رائحة الزّهور، يمدّ يده ليداعب خدّها البارد، يقول كأنّه يألفها منذ أن كانا صـغيرين: "أنـا جـائع، ومـاذا عنـك؟"، "تهـزّ رأسها بدلال، وتقول: "وأنا أيضاً جائعة، لم آكل بعـد، كنـتُ في انتظـارك لنأكـل معاً".

يطوّقها وباقتها بذراعه القويّ، ويجذبها نحو جسده، وينطلقـان سـيراً علـى الأقدام إلى أقرب مطعم في المدينة، وهدوء اللّيل يردّد ضحكاتهما، تقول له: "لقد كذبتُ عليك، اسمي منى، وليس دلال"، فيضحك بهسـتيريّة، ويقـول لهـا: "وأنـا كذبتُ عليكِ كذلك؛ فاسمي رشاد، وليس علي"، من جديد تتعالى ضـحكاتهما، وإن طغى عليها صوت قطار منتصف اللّيل الذي غادر المحطّة في رحلة جديدة.

تحقيق صحفيّ

هي تكره الصّحراء؛ لأنّها تشبه قسوة حياتها، وتكره أنّها مضطرّة إلى أن تتجشّم رحلة طويلة في صحراء لا تعرف نهاية، وتبتلع الآهات والبشر والرّغبات؛ لتجري تحقيقاً صحفيّاً عن بدو الطّوارق في ديارهم، عزاؤها الوحيد أنّ هذا التّحقيق سيّدرّ عليها مبلغاً جيّداً من المال؛ إذ إنّه سينشر في مجلّة فرنسيّة مشهورة تراسلها منذ سنوات، وهي الآن في أشدّ الحاجة إلى المال لتسديد فواتير المحامي الموكّل بقضيّتها.

وصلت إلى أرض تيغمار في الصّحراء العربيّة متأخّرة عن الموعد المحدّد لذلك، بسبب مشاكلها المؤجّلة مع زوجها في العاصمة، وبذلك لم يعد أمامها إلاّ أيّام أربعة فقط لتجري تحقيقها هذا، وبخلاف ذلك ستكون في وضع حرج جدّاً، وستضع المجلّة في أزمة بعد أن خصّصت مكاناً كبيراً لتحقيقها المنتظر في عددها المقبل.

"شاليفه" كانت المرأة الأولى التّي قابلتها من الطّوارق، بعد أن وصلت إلى قلب الصّحراء بسيّارة قديمة من الواضح أنّها اعتادت على أن تخترق الرّمال بأريحيّة، قيل لها إنّ الزّعيم الدّينيّ المحليّ المُسمّى بسيدي الطّالب رجب هو من أمر بأن تُستضاف عندهم، وأن تنزل في الفندق الوحيد المتواضع الموجود بالقرب من مضارب عشيرته في الواحة، فهو لم يتوقّع بأيّ حال من الأحوال أن تُسعدها الإقامة الدّائمة في خيم الطّوارق؛ لذا أمر أن يُحتفى بها في المبنى القديم ذي الطّابق الواحد، والغرف السّتّ.

عندما وصلت إلى الفندق كان جسدها دبقاً محمّلاً بالعرق والرّمـال، تمنّـت أن تنزلق في بحيرة باردة، وإن كان يرضيها الآن حمام بارد، لكن حتّى ذلـك كـان متعذّراً، فقد كانت المياه مقطوعة عن المكان، ولم تُقدّم لها إلاّ بضـعة لـترات مـن الماء لتقضي حاجتها كلّها بها.

بدت متبرّمة فضـوليّة، وهـي تسـأل "شـاليفه" عـن حياتهـا، وعـن الصّـورة الاجتماعيّة لامرأة الطّوارق، وإن كانت معنيّة بالانتهاء مـن التّحقيـق الصّـحفيّ لتقفل راجعة إلى العاصمة أكثر من الوقوف طويلاً عند حياة أفراد تظنّ أنّهـم في مفازة كهذه قد يقدّمون حياة ناقة جرباء على حياة امرأة منكودة.

لم تكن تجيد غير العربيّة والفرنسيّة، وكان الوسيط المقرّر وجوده معهـا قـد تبخّر بعد أن تأخّرت عن موعدها معه في مطار العاصمة، كانت تخشـى أن تقـع فريسة للمهـاجرين النّيجـريين الـذين يـدعون أنّهـم مـن الطّـوارق، ويقـدّمون معلومات مضلّلة لكلّ من يشتريها من السّوّاح والفضوليّين، "شاليفه" أخبرتهـا أنّ سيدي الطّالب رجب يجيد العربيّـة الفصـحى شـأنه في ذلـك شـأن المـثقّفين أو المتعلّمين من الطّوارق، خروجاً علـى غالبيّـة الطّـوارق الـذين لا يجيـدون غـير لهجتهم المحليّة.

ارتحلت على جمل أورق مع جماعة من الطّوارق صوب قـوم "شـاليفه"، كـان سيدي الطّالب رجب هو مقصدها، وفي طريق مقصدها لم تنسَ أن تستمتع بحُداء رجال الطّوارق الذين يتغنّون بصحرائهم، كانت أعينهم السّـفير الوحيـد بيـنهم وبين نسائهم الممشوقات القوام، السّمر البشرة، الجميلات العيون، عرفـت كـلّ واحد منهم من عينيه؛ إذ إنّ أحدهم لا يميط لثامه أبداً، في حين تسفر النّساء عن وجوههنّ المشرّبة بحُمرة شمس الواحات.

أخيراً وصلت جماعتها إلى واحة "تيغمار"، كانت النّظرات الفضوليّة في انتظارها، وكان الشّاي الذي يصنعه سيدي الطّالب رجب الذي تفوح منه رائحة نبتة بريّة مشهورة في الواحات هو أوّل من استقبلها، مالت "شاليفه" باتّجاهها، وهمستْ في أُذنها قائلة: "عمل الشّاي ونصب البيوت والقيام بالأعمال المنزليّة الصّعبة ونقل الماء هو من وظائف رجال الطّوارق".

همستْ متسائلة بفضول: "ماذا عن النّساء؟ ماذا يفعلن؟"

قالت "شاليفه" بدلال ذي مغزى: "يُعشقن بقوّة".

بعينيها بحثت عن سيدي الطّالب رجب، تفرّستْ في تلك العيون ذات الأجفان المتهدّلة والحواجب الكثيفة والتّجاعيد المرتسمة على امتداد أسفل العيون التّي تبزّ من فوق اللّثام، لكنّها لم توفّق في معرفته، وتساءلت أيّ الرّجال هو؟

كانت تشرب الشّاي ذا الرّائحة النّفاثة الذي قدّمته لها إحدى فتيات الطّوارق الصّغيرات، عندما تقدّم رجل منها، وأماط لثامه، مبرزاً وجهه ذا القسمات الحادّة والفكّ البارز والعينين اللّامعتين مثل عيني صقر، كان جسده رفيعاً مثل خيزران نامٍ على ماء جارٍ، وخصره نحيل، وصدره مندفع إلى الأمام، كان من السّهل أن ترى بروز ترقوتيه، عندما دنا منها لتحيّتها حجب بقامته الممتدّة ذبالة المصباح الذي يضيء وجهها، فغرق وجهها في ظلام قمريّ، لم يكن من الصّعب أن يرى فيه قسماتها الوادعة السّاحرة.

لم يكلّمها كثيراً مع أنّه أبدى احتفاء بوجودها، ولكن يبدو أنّ مسؤوليّاته كانت غير محدودة، رافقته ليومين كاملين، في البداية كان مرافقوهما كثيرو العدد، ثمّ تقلّص عددهم، لتصبح جماعتها هي وإيّاه فقط والكاميرا، أخذت

صوراً لكلّ مكان حتّى لخيمته المتواضعة التّي انتقلت إليها بعد أن هجرت الفندق الذي نزلت به في بداية الزّيارة بحجّة أنّه بعيد عن الواحة، وأصبحت في أقرب نقطة من سيدي الطّالب رجب، تحديداً في خيمته التّي سرعان ما شعرت بأنّها تسكن هي الأخرى مع صاحبها في قلبها الذي كان يقرع بشدّة ودون إرادة لذلك البدويّ الأسمر الذي يعيش لأجل الآخرين، ويحبّ الآخرين، فيردوّن حبّه حبّاً.

كانت تخشى أنفاسه في اللّيل مع أنّه كان ينام خارج الخيمة احتراماً لوجودها، ليس لأنّها كانت تخشى أن تمتدّ يده إليها، فهي تعرف أنّ الاغتصاب لا وجود له عند الطّوارق، بل لأنّها كانت تتمنّى أن ينّدسّ في فراشها، يتعبها بعده عنها مع أنّ أمتاراً قليلة تفصلها عنه.

كانت حفلة التّنّدي هي أوّل حفلة حضرتها، استعارت لباساً تقليديّاً من "شاليفه"، ولبسته، فكانت أجمل النّساء في تلك الحفلة في عيني سيدي الطّالب رجب، وقد كرّمتها النّساء بأن جعلنها أوّل من تضع المكياج، وتقلّد الحليّ الفضّيّة للفتاة اليافعة التّي أقيمت حفلة التّنّدي للإعلان عن أنّها قد وصلت مرحلة الطّمث، وأصبحت في عداد النّساء لا الطّفلات، وأنّ من حقها أن تحبّ، وأنّ تتزوّج مرّة وثلاث ومئة ما دامت تحبّ من تتزوّجه.

تمنّت لو أنّ حفلة ما تقام لها لتعلن عن أنوثتها لسيدي الطّالب رجب. في طريق العودة أبدت رغبتها بقضاء حاجة، انحرفت هي وسيدي الطّالب رجب كثيراً عن الطّريق لاتّخاذ مكان قصيّ لقضاء حاجتها، غابتْ برهات ثمّ عادتْ، كان في انتظارها مع أنّه كان يبدي انشغاله بمزماره الخشبيّ، اقتربت منه، وقالت: "سيّدي الطّالب أليسَ لكَ حبيبة؟"

ابتسم، وقال لها مثل من يتذكّر فراشة ذهبيّة: "كان لي زوجة حبيبة".

قالت باهتمام: "ماذا حدث لها؟"

قال دون مبالاة: "رحلتْ مع رجل آخر بعد أن طلّقتني".

قالت بدهشة: "هل تطلّق امرأة الطّوارق زوجها، وترحل مع آخر؟"

ردّ عليها كأنّه يقرأ من كتاب يحفظ كلّ ما خطّ فيه: "الطّوارق يدينون لقانون القلب، عندما يتوقّف الحبّ لا يعود هناك مبرّر للاستمرار، يطلّقوا من لا يحبّون، ويتزوّجون ممّن يحبّون، دون تثريب، ويستمرّون في حياتهم على خير وجه".

قالت بأسى: "وماذا عنك؟"

أجاب: "أنا على ما يرام، أنا ربيب أُناس يؤمنون بالحبّ، وأرى أنّ توقّف حبّها لي سبب كافٍ لأن ترحل عنّي".

سألته بفضول تحاول أن تخفيه: "وإلى أين رحلت؟ هل اختفت في الصّحراء؟"

قهقه سيدي الطّالب رجب، وقال: "بل رحلت إلى الخيمة التّي إلى جوار خيمتي، أحبّت جاراً لي، فطلّقتني، وتزوّجته".

من جديد سألته بدهاء تحاول أن تخفيه: "وأنتَ؟ ماذا عنك؟"

قال بارتياح وعذوبة: "أنا ما أزال أنا، أتفرّغ لشؤون القبيلة، أطلّق هذا من هذه، أزوّج ذلك من تلك، أنا قاضي الغرام في هذه الصّحراء، وحكمي دائماً لصالح القلوب العاشقة".

كلمة الحكم ذكّرتها بآلامٍ لا تبارحها، تذكّرتْ ذلك الزّوج الذي يسنّ أسنانه، ويخلع بذلته ذات الماركة العالميّة الشّهيرة ليتصدّى لها ببدن وحش، يأكل

جسدها، ويسرق شهوتها، ثمّ يوسعها ضرباً وإهانة، تخيّلت وجهه في كلّ مكان، أخذ قلبها بالخفقان، وتمنّتْ لو أنّ القضاء يهبها حكم شنقه بدلاً من حكم الطّلاق منه الذي تناضل لأجله منذ سنوات.

غارتْ أنوثتها في جسدها البضّ، وخالتْ القيء يمتدّ حتّى أعلى حلقومها، بدا التّعرّق واضحاً أسفل عينيها، كانت قبالة القمر الذي ارتسم ضياؤه على صفحة وجهها المتعكّر بذكرياته، اقترب سيدي الطّالب رجب منها، وقال بتوجّس: "هل أنتِ على ما يرام؟"

أجابت بضيق: "أنا لستُ على ما يرام، أنا متعبة، دعنا نستريح قليلاً".

قال سيدي الطّالب رجب باستنكار: "هنا؟ لا هذا غير ممكن، في اللّيالي الصّحراويّة لا تُؤمن الأفاعي والعقارب السّامة".

قالت بتوسّل: "أنا متعبة، أرجوك".

قال سيدي الطّالب رجب: "أمّا هذه، فحلّها سهل".

استراحت، ليس على حجر في الصّحراء، بل على كاهل سيدي الطّالب الصّحراويّ الذي حملها مثل طفلة مدلّلة، وقطع بها طريقاً طويلة، وهي غارقة في حلمها الورديّ، عندما اقترب من خيمته، وهمّ في الدّخول إليها لمحته عيون نسائيّة كثيرة، وهمست بسعادة: "سيدي الطّالب رجب -دون شكّ- واقع في الغرام".

مضى أسبوع والتّحقيق الصّحفيّ لم يُكتب بعد، بل إنّ الأوراق والأقلّام قد اختفت كذلك، ولم تعد الصّحفيّة تعرف مكاناً لها، وما كانت لتبالي بذلك؛ فقد أضاعت أوراقاً لتجد نفسها، وصلتها برقيّة على جناح السّرّعة تنقل احتجاج المجلّة وغضب رئيس تحريرها بسبب تأخّر التّحقيق، وتأمر بسرعة

الإجابة، لكنّها شعرت بأنّ البرقيّة ليست موجّهة إليها، بل لصحفيّة مشهورة تُضرب ليلاً من زوجٍ همجيّ، تلك الصّحفيّة اختفت منذ أن دخلت إلى "تيغمار"، أمّا هي فتشعر بأنّها امرأة بدويّة من الطّوارق تنعم بالحبّ والحرّيّة والاحترام.

كادت تفكّر بالرّد على رئيس تحرير المجلّة بالاعتذار، ولتستميحه عذراً بالمزيد من الوقت إلى حين انتهاء عملها، لكنّها كانت مشغولة بحفلة طلاق تقيمها ثلاث أخوات في الواحة.

جرياً على عادة الطّوارق أُقيمت الولائم المتواضعة، واجتمعت النّساء والرّجال على ضوء النّار الموقدة، كانت النّساء اللّواتي ينوين الطّلاق في أبهى ملابسهنّ، إذ سيُطلّقن اللّيلة، وستُقدم لهنّ الهدايا التّي ستوزّع جميعها على فقراء الواحة الذين جاؤوا يطلبون الصّدقات والبهجة، كما احتشد الكثير من الرّجال في المكان، فحفلة كهذه تعني أنّ المطلّقة قد تبرّأت قانونيّاً وشرعيّاً من زوجها، وأنّها على استعداد للارتباط بغيره بمجرّد أن تنتهي عدّتها الشّرعيّة؟

سيدي الطّالب رجب من أهمّ أركان حفلات الطّلاق؛ فهو الزّعيم الدّينيّ المحلّي الموكّل بقضايا الزّواج والطّلاق والإرث، كلّ واحدة من الأخوات تقدّمت منه جاثية على ركبتيها، وأعلنت رغبتها بالطّلاق من زوجها، فوهبها رغبتها، وأبلغ زوجها بذلك وسط زغاريد الفرح التّي تطلقها قريبات المطلّقة وصديقاتها.

انتهى الحفل، وثابتْ إلى فراشها في خيمة الزّعيم الذي كان من الواضح أنّه قلق لسبب ما، يساهر ناره في الخارج، ويلاعب جمراتها بعصا يمسكها بيده اليمنى، لبست ثوباً تقليديّاً من أثواب الطّوارق، ووضعت مكياج نساء الطّوارق، واتّجهت إلى خارج الخيمة حيث يتوسّد سيدي الطّالب رجب حجراً

أملسَ صغيراً، جثت على ركبتيها بين يديـه، وقالـت لـه بنـبرة كسـيرة صـادقة: "سيدي الطّالب رجب، أنا أحبّك، وأكره زوجي، طلّقني منه، وزوّجني منك".

نظر الطّالب رجب إليها نظرة المغشيّ عليه، شعرت من انفعال نظراتـه، ومن توهّج ناره فيهما بإنّه لا يملك قوّة ليجيبها علـى طلبهـا، وبعـد إعيـاء قـال بمشقّة: "لكن..."

غرقتْ في هائج عينيه، وقالت: "سيدي الطّالب أنـا أحبّـك، وأخطبـك هـل توافق على الزّواج بي؟"

هزّ سيدي الطّالب رجب رأسه ودمعة قاهرة تتوهّج في عشق عينيه، وقـال: "أوافق".

فيما بعد وصلت أكثر من برقيّة مـن المجلّـة، ثـمّ انقطعـت البرقيّـات، كمـا أصدرت محكمة ما في العاصمة حكم طلاق لصـحفيّة مـا مـن زوجهـا بعـد أن ذكرتْ الصّحف اليوميّة أنّها ضاعتْ في الصّحراء، ولم يعنِ أحد نفسـه بالبحـث عن امرأة عاشقة قد اختفتْ في الصّحراء في مهمّة صحفيّة.

قلب لكلّ الأجساد

توبة للمرة العشرين، أو الثّلاثين، أو الخمسين، ومن يبالي بذلك؟ حتّى ذلك الفارس اللّيلكيّ المسحور لا يبالي بذلك.

لقد أحبّته قبل ساعات أو سنوات أو قرون، لا تعرف بالتّحديد متى أحبّته، لكنّ حبّها له يصلح أن يسمّى حقبة العشق في تاريخ البشريّة، عندها كانت طفلة في إهاب المراهقة، وكان شيطاناً في إهاب رجل، وهبته نفسها دون أدنى تفكير، فهي هبته من الله، هي ملكه، هي هو، ليلتها عجب وقد أطفأ بها صهيل خيوله البريّة أنّى لفتاة متديّنة جدّاً أن تُقبل على شيء اسمه خطيئة، عندها ضحكتْ بشدّة، وبكتْ بحزن؛ لأنّه لم يفهم حبّها له.

غاب الفارس، وغاب اللّقاء، وغابتْ الفتاة المتديّنة، وبقيتْ الخطيئة، وشيء ليلكيّ مسحور اسمه الحبّ، كم تمنّتْ أن تملك الشّجاعة لتقول له من جديد، وبعد قطيعة طويلة: "أنا ما أزال أحبّك!"كم تمنّت أن تهزم كبرياءها! وتعود إلى دنياه الغريبة التّي تتشابه فيها الموجودات كلّها، حتّى القلوب تتشابه فيها، لكنّ كبرياءها هزمها، وخطيئتها سكنتها.

فالقلوب الكسيرة تستكين بسهولة للانهزامات وللأحزان، لقد ملأ عليها حياتها في الماضي، لقد أحرقت ذاتها كي ترضيه، خرجت من جلدها لتدخل في جلده، كانت المرأة التّي يريدها، اندسّت في فراشه لترضيه، فهو لا يؤمن بالعذريّة، ولا يفصل الحبّ عن الجسد، آمنتْ به، وكفرتْ بنفسها، وفي النّهاية هرب نحو فراش أُخرى، لم يستطيع أن يفصل الحبّ عن الجسد معها هي الأخرى.

في النّهار كانت تبحث عنه في الموجودات كلّها والأشـخاص جميعهم، بـل وبين الكلمات، وفي اللّيل كانت تبحث عن جسده ولهاثـه بـين الأجسـاد، كـان يفصلها عنه ساعات من السّفر وكبرياؤها وقسوته وغدره.

في البداية تسللّتْ إلى فراش كلّ رجل ترك لها بـاب غرفتـه مفتوحـاً، علّهـا تجده في جسد رجل آخر، لكنّ لعـابهم كـان بنكهـة تختلـف عـن نكهـة لعابـه، شفاههم لا تملك ذات حرارة شفتيه، أنفاسهم ولهاثهم تختلـف عمـا هـو عنـده، عضلاتهم رغباتهم، رجاءاتهم، سكناتهم، خلجـاتهم، آهـاتهم، جميعهـا تختلـف تماماً عمّا عنده، لم تحلّق أبداً وهي عارية في حضن أحدهم كما كانت تحلّق معـه وبه، لم تشعر مع أحدهم بأنّهـا ترتقـي إلى السّـماوات العـلا، بـل كانـت تشـعر بالخطيئة، وتنتهي اللّيلة على هذا الشّعور القاتل المقزّز.

في الصّباح تستحم، وتبكي كثيراً، ترمق الجسـد الرّجـوليّ العـاري بتقـزّز، وتغادر المكان دون رجعة، ولا تذكر سوى الخطيئة، وحفنة من ألم خـرافيّ اسمـه غياب الفارس اللّيلكي؛ ترفع يديها إلى السّماء ترجـو المغفـرة؛ فهـي تعـرف أنّ الإله وحده من يرفق بالقلوب المحترقة.

تأتيها الهدايا والنّقود والدّعوات من الـذين تُسـعد ليـاليهم، غـالبيتهم مـن صفوة المجتمع، تتقزّز من عطاياهم، تقذفها جميعـاً في سـلّة المهمّـلات، وتتفـرّس ملامحها في مرآتها، لعلّها تجد بصمة رجل ما على وجهها تشـبه بصـمة فارسـها الرّاحل، وفي البعيد تبحث عمّن أحبّت، كيف يمكنها أن تخبر الدّنيا بأنّها تبحـث عن رجلها الذي لفظها منذ زمن طويل في حضن غيره من الرّجال؟

في المساء، ومن جديـد، تـدلف إلى فـراش آخـر، تـرك صـاحبه البـاب مفتوحاً لها، يصفها الرّجال بالتّفاعل والاستكانة اللّذيذة والشّهوة العارمـة؛ لـذا يتعشّقونها، أمّا هي فتجد مـن تحـبّ في جسـد كـلّ رجـل تسـتلقي في حضـنه،

تغمض عينيها، ترهف حواسها، فتحلّق في سماء لامعة، ثم تسقط ليتلقّفها حضن من أحبتْ يوماً باشتهاء، عندما تفتح عينيها، تجد رجلاً غريباً، تبتعد عنه، بعد أن يقضي شهوته، وشهوتها أبداً لم تعرف القضاء، وبحثها لم يعرف نهاية.

من جديد تستغفر الله، وتسبّ الحبّ والخطيئة، كم أصبحتْ بعيدة عن ذاتها! كم أصبحت بعيدة عن التّوبة! بينها وبينهما الخطيئة ومئات الرّجال والأجساد وقلبها.

كانت تستعدّ لليلة جديدة، تلبس ملابسها بانكسار، تضع قناعاً ذكيّاً يغطي أحزانها يسمى مكيّاج، عطرها الفرنسيّ الباهض الثّمن يخفي رائحة جسدها التّي لم يحفظها أيّ رجل، تكاد تغادر بيتها عندما يقرع جرس الهاتف، ترفعه دون مبالاة، تتوقع صوت أيّ رجل يشتهي جسدها، لكنّ ملايين التوقّعات تذهب سدىً عندما يتدفّق صوت رجل تبحث عنه في كلّ مكان منذ زمن ، يأتي صوت فارسها اللّيلكي، يقول لها بصوت متهدّج: "أحبّك، لنبدأ من جديد، هل أنتظرك هذه اللّيلة؟"

تقول له بنبرة مزدرية لم تعرف أنّها تملكها: "كم ستدفع؟"

يقول فارسها بصدمة من أضاع أقمار السّماء في مقامرة سخيفة: "ماذا؟"

تقول له مرّة أخرى دون مبالاة: "كم ستدفع؟"

لا تسمع الإجابة، تضحك بهستيريّة، تقفل الهاتف، تدرك أنّها أضاعت الطّريق تماماً، لا تلقي نظرة كعادتها على المرآة التّي في الرّدهة قبل الخروج من البيت؛ لأنّها تعلم أنّها منذ اللّيلة شبح لا جسد له، قلب يصلح للأجساد كلّها، في الطّريق بحثت عن نفسها في كلّ مكان، لكنّها لم تجدها.

في تلك اللّيلة، كانت متفاعلة ومستكينة وشهوانيّة لكنّ دون أن تبحث في جسد من معها عمّن أحبّت في يوم ما، وضاعتْ، وضاع الطّريق.

احكِ لي حكاية [1]

"قلبكِ لن يحتمل المزيد، لقد أصبحتِ يا سيّدتي عجوزاً في العقد الثّلاثين من العمر" هذه جملة طبيب المؤسّسة التّي أعمل فيها، جملة ألقاها على عجالة مثل إلقاء حجر في بركة، ألقاها، وهو يبدو أنّه يتأمّل ذكرى جمال في عينين قد غرب مبكّراً عند الضّحى تماماً، تفرّس للحظات في قسماتي، بدا كأنّه يقرأ رسالة هيروغليفيّة، ثم ربت على كتفي، وقد سئم اللاّ تعبير على قسمات وجهي، وقال بنبرة السّاخط بهدوء: "ارتدي ملابسك".

تقلّبتْ كثيراً في الفراش، ابتسمتْ بسخط دون معنى، وهي ترقب عقارب ساعة المنبّه تقترب من الثّامنة صباحاً، لأوّل مرّة تشعر بأنّ هذه العقارب تربطها دون رحمة بدولاب زمنيّ جهنّميّ، لا يفتأ يغمسها كلّ لحظة في مرجل من العذاب والسّخط والذّكريات.

أهي خائفة من الموت؟ أهي خائفة من أن يتوقّف قلبها عن القرع إلى الأبد؟ أهي تخشى من أن تتخيّل شبح أمّها الطّيّبة العجوز يتجوّل في البيت وحيداً بائساً باكياً؟! لا، بل هي خائفة من أن تموت، فتفارقه هو بالذّات، خائفة من أن تموت وفي النّفس حاجات.

عادتْ، وابتسمتْ بسخرية من جملة "وفي النّفس حاجات"، واستطاعت بصعوبة أنّ تتذكّر باقي البيت، لكنّها لم تتذكّر قائل البيت، برمتْ شفتيها،

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة الدّكتورة سعاد الصّباح في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٥، دار سعاد الصّباح للنّشر والتّوزيع، الكويت، كما حازت على جائزة أدباء المستقبل في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠١، أسرة أدباء المستقبل، عمّان، الأردن.

وانقلبتْ على الجهة الأخرى من الفراش، قالت بصوت مرتفع كأنّها تخاطب شخصاً أمامها: "اللّعنة على ذلك الشّاعر، ما اسمه؟ واللّعنة عليكَ أنتَ بالذّات يا من أحببتُ".

أغمضتْ عينيها، وشعرتْ بأنّها تسقط في أحضان القمر، أسدلتْ شرائط ورديّة على نوافذ الماضي الحاضر، ودون قصد منها وجدتْ نفسها تتحسّس جسدها، تداعبه بذكريات الماضي، تلعق عن ثغره الصّغير عسل الذّكريات والحبّ والعشق.

قفزت برشاقة نحو المرآة ذات الجوانب الذّهبيّة، تأمّلتْ بعمق كتفيها الصّغيريْن اللّذين يبرزان على استحياء من تحت الثّوب القرمزيّ، استعرضتْ بوحشة تلك الخطوط السّوداء تحت عينيها، شعرت بامتعاض، ثمّ قفزت بسرعة في بركة عينيها الرماديّتين اللّتين تعكسهما المرآة، وفي صخرة بعيدة فيهما رأته يجلس هناك، يحدّق فيها بنظرات تشبه الماضي، اقترب منها، قبّلها، ضمّها، هذه القُبلة وهذه الضّمة وهذه الشّهوة، هي ما انتظرتْ، وتأمّلتْ، وتخيّلتْ.

هذا الجسد ينتظرك منذ تسعة أعوام، حتّى ذلك الزّوج لم يستطيع احتلال هذا الجسد أو احتلال هذا الحبّ، لقد كان قدراً ساخراً لمدّة تسعة أعوام، لقد كان زوجاً في فراشي، لكن ليس في روحي، لقد كنتُ في كلّ ليلة لكَ ومعك، كلّ ليلة تركتُ الباب مفتوحاً؛ ليدخل طيفك السّاحر، وليضمّني بجنون.

الآن أنا امرأة حرّة طليقة، تنتظر، تنتظركَ أنتَ بالذّات، اللّعنة، أنتَ لا تعرف شكّ وحيرة وشوق وصبر امرأة تنتظر رجلاً منذ ألف عام، رجلاً يندسّ في فراشها ليضمّها، ليزرع طفلاً في أحشائها، طفلاً يشبه رجلها بالذّات، طفلاً يعزّ عليها أن تدفعه خارج رحمها عند الولادة؛ لأنّه جزء ممّن تحبّ، وستحبّ دائماً.

أنتَ يا من رفضتني، يا من قصفتَ زهرة شبابي، كنـتَ حكيمـاً في عاصـفة من الجنون، خفتَ أن تـرتبط مـع حبيبتـك الشّـابة، خفـتَ أن تضـمّها بيـدَيْك العاجيّتين اللّتين تفوح منهما رائحة رجولة غامرة عمرها أربعون عاماً، خفتَ أن تظلم شبابي بسنِّك الكبير وبشعرك الفضّـيّ وبنظـرات النّـاس الرّافضـة، كنـتَ حكيماً في معبد الجنون، وأنا وإيّاكَ كنّا ضحايا المذبح، لقد حطّمتني بحكمتك، ما أزال أنتظركَ، تصوّر أنّني ما أزال أنتظركَ، وأنتَ لم تقل لـي سـوى إنّـكَ ذاهـب دون رجعة.

قطع جرس الهاتف المجنون ذلـك الـدّفق مـن الـذّكريات، رفعـت سمّاعـة الهاتف، وقالتْ بنزق غريب عن طبعها: "لا، لن أحضر اليوم، بل قـد لا أحضـر غداً، حتّى أنّني قـد لا أحضـر أبـداً"، وأنهـت المكالمـة دون أيّ إضـافة، أصـيبتْ للحظات بوجوم بسبب ما تفوّهت به، لماذا فعلت هذا الفعل؟! شعرتْ بغضـب شديد يشبه ذلك الغضب الذي شعرت به عندما قـال لهـا قبـل تسـع سـنوات: "اتركيني يا صغيرتي، وطيري، وارقصي رقصة الحياة بعيداً عنّي مع شابّ مثلـك، اتركيني ها هنا أذوي في هذا المكتب؛ أنتِ تأخّرتِ سبعاً وعشرين سنة، جناحاي مكسوران، ولا أستطيع الطّيران معكِ".

تزوّجتُ، وكسرتُ جناحايَ بدلاً من أن أرقـص رقصـة الحيـاة. أيّ حيـاة ستكون دونك؟ وتطلّقتُ من زوجي وسـام ذلـك الرّجـل الطّيّـب الـذي ضـمّ جثماني تسعة أعوام كاملة، ثمّ يأس منّي، وغادرني دون رجعة لي.

شعرتْ بوخزة قويّة في قلبها، امتقع لون وجهها، شعرتْ بجسـدها يتراخـى بعجز على مقعد أمامها، "هل سأموت؟ لا لـيس الآن، لـيس قبـل الوصـول إلى حضنك".

ازدادت تلك الوخزة شدّة، شعرتْ بقلبها يكاد يهفو إلى التّوقّف، أسدلتْ عينيها، غمرها دفء الشّمس المتدفّق من النّافذة، شعرتْ بدفء قلبه وحبّه، شعرتْ به يحضنها، ويقول لها بصوته الملائكيّ العميق القادم من البعيد: "اصمدي، نامي على صدري، سأحكي لكِ يا صغيرتي حكاية، حكاية "عقلة الإصبع".

"نعم، أريد تسع وردات حمراوات لو سمحت"، وردّد صوت بأسىً في داخلها: "بقدر سنين الشّوق والبعاد"، وأضافت موجّهة كلامها لبائع الزّهور: "هل أستطيع استخدام الهاتف؟"

أومأ البائع بالموافقة، أدارتْ قرص الهاتف بتؤدة لم تعهدها في نفسها، فجاء صوته الدّافئ، صوت قادم من مراقص الجنّة، صوت عاشتْ على أمل سماعه سنوات طويلة، "إذن هو موجود في مكتبه"، قالتْ في نفسها.

ضمّت باقته الجميلة التّي تتضوّع برائحة الياسمين والزّهور الجوّريّة، تأمّلتْ الياسمين، ثمّ حضنتْ الباقة بشوق، شعرت بوهج أنفاسه يملأ أركان روحها، باتتْ زفراته قريبة كأنّه ها هنا، سخرتْ في أعماقها من بيتين من الشّعر كان قد ودّعها بهما قائلاً:

"حكاية حبّنا خُتمتْ   فما أقسى وما أشجى!
جميلٌ منكِ أن تعفي   وأجمل منه أن أنسى" [1]

الرّدهة المؤدّية إلى مكتبه بدت طويلة، طويلة بقدر طول سنين الفراق، أخذت تركض مثل طفلة تركض نحو حضن والدها، دلفتْ إلى مكتبه ترتعش، وهي تستشعر دقّات قلبها الذي يقرع بجنون، كأنّه يطالبها بأن يقفز شوقاً عند

١- أشعار عمر ابو ريشة .

أقدام ذلك الرّجل الذي يتأمّلها بنظرات غريبـة، بنظـرات رجـل وجـد كنـزاً في مكان راهن عليه.

نظرتْ إليه، تأمّلته، اقتربتْ منـه، وقفـتْ قُبالتـه، حـدّق فيهـا بشـوق مـن انتظرها ألف سنة، وسّد رأسها إلى صدره، وهو صامت مثل صمت من حطّمته الرّحلة الطّويلة، تشبّثْت به معلنة نيّتها بعدم فراقه وملازمته إلى الأبد، سبَحتْ في بحر عينيه، وهي تغالب الدّموع، وقالت له: "احكِ لي حكاية".

بئر الأرواح

لم تكن تعلم أنّ اللّيل مخيف في هذه البئر إلى هذا الحدّ، عندما كانا صغيرين اعتادت على أن تأتي وإيّاه ليلعبا حولها حيث صوت البحر يتنزّى من بين جدرانها، ثمّ أخذا يقصدانها ليتبادلا الغرام عندها عندما أصبحا يافعين، لكن أبداً لم يدخلا فيها؛ بسبب شهرتها المخيفة التّي مفادها أنّها مؤول أزليّ للأرواح لا سيما تلك الهائمة أو التّي لا ترغب في مفارقة الأرض حيث دنيا الأرواح.

لم تكن بئراً بالمعنى المعتاد، لكنّها كانت تجويفاً دائريّاً كبيراً، يتوسّطه درج متعرّج صخريّ منحوت بعشوائيّة دون نظام، يؤدّي مباشرة إلى أسفل البئر حيث يبرز لسان بحريّ يحجب ضوء الشّمس، ويمنع الرّؤية، وفي أسفل البئر يرتفع الماء فقط لمسافة نصف متر تمتدّ عبر قناة ضخمة مؤديّة إلى البحر القريب منه، سمعت أحدهم يقول في الماضي" إنّ ماء البحر يرتفع إلى حدّ الفيضان في بعض ليالي المدّ الشّتويّة، حتّى أنّ الأرواح تضطر عندئذ إلى أن تغادره هروباً من البلل الذي تكرهه".

لم تظنّ أبداً أنّها ستدخل البئر وحيدة خائفة في ليلة مثل هذه، بصعوبة نزلت الدّرجات الصّخريّة، جلست على آخر درجة، الماء يغمر قدميها حتّى الرّكب، البرد يخترق عظمها، لكنّها لا تبالي بذلك، تسند المصباح الزّيتيّ القديم الذي تحمله إلى الحائط الصّخريّ، وتكوّم كيس الخيش الذي تحمله في حضنها، تتحسّسه بمزيج غريب من الخوف والحبّ والرجاء، تجيل نظرة متفحّصة بريبة في المكان، تتساءل في أيّ الأماكن تسكن الأرواح يا ترى؟

تشعر بأنّها ترزخ تحت صخرة عظيمة تكاد تسحقها، موج البحر يضرب قدميها، أصوات اللّيل الخفيّة تتغوّل في المكان، وتلفحها بالقلق من جديد.

استجمعت شجاعتها المغمدّة بأحزانها، وقالت: "يا بئر، أريد روح زوجي. أريد روحه يا بئر، أتسمعينني؟ أنا أحبّه".

ردّد المكان صدى الصّوت: "أريد روح زوجي، أريد روحه يا بئر، أتسمعينني؟ أنا أحبّه... بّه... بّه".

ساد الصّمت في البئر من جديد، انكمشتْ على نفسها أكثر، لكنّ الكيس الذي تحمله بين يديها استحثّ شجاعتها من جديد، صدرتْ عنها حركة غير مقصودة، اصطدم حذاؤها البلاستيكيّ القديم بقعر البئر، سمعت خشخشة معدن، خمّنت أنّها قطعة معدنيّة من تلك النّقود التّي يلقيها النّاس في البئر عندما يرسلون أمنياتهم خلفها، أيّ تلك القطع المعدنيّة هي من القطع التّي ألقتها هي ومن تحبّ في الماضي في هذا المكان؟ كانت أمنياتهم تدور حول البقاء معاً طوال العمر، لم تكن تعرف أنّ الموت سيكون في المرصاد لأمنيتهم الوحيدة الملحّة.

أخرجت من صدرها إحدى القطع المعدنيّة من أكبر الفئات، قبّلتها كما اعتادت أن تفعل في الماضي، تمنّت أن تستجيب البئر لنداءاتها، وألقت القطعة في الماء، فوقعتْ قريباً منها، تأمّلتْ تلك الدّوائر الصّغيرة التّي ارتسمتْ على صفحة الماء، وهي تبتلع القطعة المعدنيّة الغارقة.

عادتْ، وقالتْ بنبرة أكثر إصراراً: "يا بئر، أريد روح زوجي، أريد روحه يا بئر".

ردّد الصّدى: "يا بئر... بئر... بئر... ئر".

أجابتْ البئر بصوت لا يقلّ صخريّة وقسوة عن جدرانه: "روح زوجك محبوسة في هذا المكان، ولا تستطيع الخروج منه".

قالتْ برجاء كبير: "أرجوك، أنا لا أستطيع أن أعيش من دونـه، أنـا أحبّـه، وها قد أحضرتُ جسده معي".

مدّتْ إليها بالكيس الذي تحمله، كانت قدماها تهتزّان تحت وطأة جسـدها المُروَّع القلق، حضنتْ الكيس، وردّدتْ: "ها قد أحضرت جسده معي".

ساد الصّمت في المكان من جديد، استذكرت أيّ خوف تجرّعتـه لتحصـل على هذا الكيس، أمضت صدر هذه اللّيلة في المقبرة عنـد قـبر زوجهـا لتنـبش رفاته، أخرجت ذلك الباقي اليسير من جسده، ضمّتْ بعضه إلى بعض، افتقدتْ الكثير منه، أين اليد اليسرى؟ أين العين اليسـرى؟ أيـن عظـام الرّقبـة؟ أيـن... أين... ؟ ما أبقاه الحيوان المفترس منه كـان نزيـراً، لقـد ازدرد جسـداً عشـقته، وعشقها، وأذابها سعادة وحبّاً.

منذ ليالٍ غادر، ولم يعد، في ما بعـد أعـاده الصّـيّادون أشـلاء، وقـالوا: "إنّ وحشاً من وحوش البريّة قـد افـترس جسـده"، دفنـوه دون أن تـراه، وقـالوا إنّ رؤيتها للباقي من جسده سيضـاعف آلامهـا، ويعمّـق وجـدها، عنـدما جمعـت الأشلاء من القبر، قبّلت كلّ جزء منها، حتّى تلك القطع اللّحميّة التّي لم تعرف ما تكون، قبلّتها بالشّوق والاشتهاء ذاتهما الذي كانت تقبّله به أيّان كـان رجـلاً كامل الجسد والحيويّة والحياة.

"يا بئر، أعيديه إليّ"، اهتزّت البئر من جديد بصوت العاشقة، انزلقـت علـى حين غرّة في الماء، انتفضت خوفاً وبرداً، أسندتْ جسـدها إلى الجـدار الصّـخريّ المبتلّ الذي تكسوه الطّحالب، وانتصبتْ في الماء من جديـد، عـلا صـوت البئـر التّي قالتْ بعمق ورتابة ولا مبالاة: "لا يمكن أن أهبك روحه دون جسده، اذهبي وعودي بجسد، فأعيد روح زوجك إلى ذلك الجسد".

تبرّمت المرأة المتقعة بحزنها، وقالتْ بصوت متقطّع قلق، بعد أن فتحت الكيس البنيّ الذي أطلّت منه الأشلاء التّي سارع التّعفن إلى بعضها، وقالت: "لكنّ جسده هنا معي"، ردّت البئر: "هذا ليس جسداً بل أشلاءً، أريد جسداً كاملاً"، سألت المرأة بعجز وانكسار: "من أين آتي بذلك الجسد؟"

قالت البئر: "لا أعرف".

غاب صوت البئر، حضنت المرأة كيسها الحزين، عانقته، أحسّ جسدها ببرودة وتيبّس تلك الأشلاء التّي يحتويها، غالبت دموعها وقهرها، فغلباها، تنشّقت دموعها ومُخاطها، أحسّت بالعجز، بل بالعجز كلّه، وقالتْ بصوت خفيض كأنّها تخاطب الكيس لا البئر: "لكنّ هذه الأشلاء هي حبيبي"، حملتْ كيسها، وغادرتْ البئر مكسورة مخذولة، وقرّرتْ أنّ تستعيد روح زوجها بأيّ شكل.

في الصّباح كان الموج يغسل أسفل البئر، يغسل صخوره دون ملل، وهو يغسل قدميها، وهي تحمل كيسها، وقفتْ وهي تحتضنه كأنّه وليدها الضّائع، داعب نسيم الصّباح شعرها الكستنائيّ، وطيّر شيئاً من دموعها، مرّت أحداث ليلة أمس عشرات المرّات في ذاكرتها المشروخة بصديد الألم والفقدان، لقد حاولتْ ثمّ حاولتْ أن تعود بالجسد المطلوب، لكن دون جدوى، الأجساد كلّها التّي طوّفت عليها سرّاً في اللّيلة السّابقة كانتْ أجساداً تملك أرواحاً يعشقها آخرون، لم تستطع أن تكسر سعادتهم، لم تجرؤ على سرقة أجسادهم، حال حبّها لزوجها بينها وبين إزهاق أرواحهم؛ فمن ذاق طعم الحبّ، لا يستطيع أن يفجع محبّاً في حبّه، فتركتْ الأجساد لمن يحبّونها، وعادت تحمل الكيس وأمنياتها وعجزها.

صاحتْ برجاء من جديد: "يا بئر، أريد روح زوجي".

أجابتْ البئر عليها برتابتها الأزليّة: "أريد جسداً؛ كي أردّ روحه".

تنفّستْ صوتها، غرقتْ خياشيمها في صدى كلامها، فتحتْ كيسها، ومن مكانها في أعلى البئر، قبّلتْ ديدانه وعفونته، وألقته في ماء البئر حيث تجرفه الأمواج، شعرت بأنّ جسد زوجها سيكون أسعد ما يكون بين طيّات اليمّ الذي لطالما أحبّه، وحدّثها عن غرامه له الذي لا يعرف نهاية أو حدوداً، مزّقت أعلى ثوبها، انكشف معظم جسدها الأعلى، ألقت بغطاء رأسها الأسود بعيداً، خلعت حذاءها البلاستيكيّ، وخطتْ بضع خطوات، فأصبحتْ في مواجهة البئر تماماً، وإزاء صخورها الصّلدة، نظرتْ إلى قاعها نظرة تحدٍ، ابتسمت برضا، وقالت: "أيّتها الرّوح، يا روح زوجي الحبيب، لكِ جسدي موئلاً، ادخلي فيه، يا روح أنا في انتظارك، جسدي سيكون موئلاً مقدّساً لخلجاتك، جسد واحد يكفي لروحين عاشقتين، يا روح حبيبي اعصي هذه البئر الغاشمة، واستجيبي لصوت من يحّبك".

اضطّربتْ البئر بشدّة، تهدمّتْ بعض أسوارها، غارتْ مياهها، غادرتها الكثير من الأرواح، اضطّربتْ روح زوجها، أطبقتْ على ترقوتها، واخترقتْ جسدها بعنف كأنّها تغزوه، ارتعدتْ، ثمّ فاض جسدها سعادة بالرّوح الجديدة، وامتزجت الرّوحان، كانتْ مساحة الفرح كبيرة، لكنّ جسداً عاشقاً واحداً يكفيها تماماً، لفحها برد الصّباح، الشّمس داعبتْ هدبيها، وعادت أدراجها شبه عارية من ملابسها، تحمل روحين عاشقتين كلتيهما قد قهرتا جبروت البئر الغاشمة.

قطّته العاشقة

"كنتُ أعرف أنّها قادمة، لنقل أنّني كنتُ متأكداً من ذلك، وإن أردتَ الصّدق كنتُ أتمنّى أن تأتي، أتعشّق لحظة انعتاقها في دنياي، وجريانها دماً وجسداً في ذاتي، لحظات الانتظار كانت ملاذي السّرّيّ في دنيا بات من المستحيل أن نجد فيها وقتاً للحلم، لكنّني كنتُ لصّاً خطيراً إذ استطعتُ أن أغافل الوقت، وأسرق منه ريشة أرسمها بها، بل أنّني خطّطتُ لرسمها في تاريخ ذكريات الزّمن القادم معها، وانتظرتْ..."

" تخيّلتها امرأة تعشقني حدّ الجنون، أشبهت نساء الأرض كلّهنّ، وفارقت نساء الأرض كلّهنّ، وفي وجداني هي تمثّل لي نساء الأرض كلّهنّ معاً، بيضاء أو سمراء أو صفراء، طويلة أو قصيرة، حنونة أو حقودة، بحثتُ عنها في النّساء كلّهنّ اللّواتي عرفتُ، واللّواتي لم أعرف، عشقتُ آلاف المرّات، لكنّني خبّأتُ العشق لها حتّى تأتي".

- "هل أتتْ؟"

- "نعم، أتتْ، لكن على غير ما أشتهي".

سأل الشّاب بحماس افتقده في نفسه منذ زمن: "كيف؟".

ابتسم الرّجل الذي داعب الشّيب ذوائبه، واكتسح الصّلع مقدّمة رأسه، وقال بهدوء من سيروي قصّة قدسيّة؛ ليتعبّد بها أمام النّار: "جاءت قطّة؟"

- "تعني أنّها جاءت بمثل مشاكسة قطّة، أليس كذلك؟"

- "أبداً".

- "أتعني أنّك أحببتَ القطط بدل البشر؟"

ربت الرّجل على فخذ الشّاب بحنان، وقال لـه: "دعـني أعـدّ لـكَ الشّـاي"، انتصب الرّجل على قدميه، كان يبدو أطول ممّا توقّع، بجسد ممشوق، وجلد مثـل أديم الأرض، وعينين يغمرهما البحث والشكّ، سريعاً ما غابت خطواته المديدة في داخل الكوخ، حدّق الشّاب في المكان الذي حوله، استنشق أقصى ما استطاع من هواء الغابة النّقي، أسدل عينيه لدقيقة، انزلق في مقعده الخيزرانيّ، ثـمّ فـتح عينيه، وأخذ يصافح بهما بودّ عميق وألفة نادرة كلّ جزء في الطّبيعة، عجب من نفسه كيف أنّه أسوةً بمعظم البشر يمرّ بالأشياء كلّ يوم، ولا تستوقفه، لعلّ النّعم تُنْسِي الشّكر، أمّا الآن فقد بات يعلم قيمة كلّ لحظة من لحظات التّوقّـف أمـام جماليّات وفلسفيّات البديهيّات والمعتادات التّي نمرّ بها كلّ يوم دون أن تستوقف عجلة يومنا ولو للحظات.

لا بدّ أنّ اقتراب انتهاء العرض المجّانيّ للإبصار عنده هو السّبب في توقّفـه الاستثنائيّ أمام مفردات حياته، في صباح هذا اليوم قال له طبيبـه الخـاصّ بعـد معركة طويلة مع الفحوصات والأدويـة والعمليّـات إنّـه مهـدّد بـالعمى الـذي سيأتي سريعاً وحازماً في القريب العاجل، أراد أن يغلـق الأبـواب دون الحيـاة، لكن للحظة شعر بأنّ العمى المقيت سيحرمه من فرصة التّوقّـف، لم يشـعر مـن قبل بحاجة أكثر إلحاحاً على نفسه من حاجة التّحدّيق في الأشياء والوجـوه؛ لـذا قرّر أن يتوقّف أمام كلّ شيء.

كان السيّد فرح صاحب هذا الكوخ هو أوّل مـن توقّـف أمامـه، هـو مـن رتابة يومه المعتاد، يقابله كثيراً في شوارع البلدة، وهو يرتـدي ملابسـه الرّياضـيّة وحذاءه المطاطيّ وحيداً كما أَلِف أن يراه، يسير بكبرياء، ومخايل الصّفاء والذّكاء في قسماته، قلّما يبتسم، يشتري احتياجاته سريعاً، يحزمها برشـاقة، ويضـعها في

سيّارته القديمة، ويغيب بين زحام الأشجار في الغابة التّي تقع على التّخوم الشّرّقيّة للبلدة، حيث يعيش وحيداً مع قططه التّي يعجّ المكان بها، ليختليَ معها بأسراره وماضيه الذي بات يثير القليل من الفضول حوله في البلدة.

عندما كان صغيراً، كان يخشى رجل الغابة كما كان يسمّيه صبيّة المدرسة، كانتْ جدّته تتحدّث عنه بحياديّة يمقتها، البعض قال إنّه يختبئ من جريمة اقترفها، آخرون قالوا إنّه يعشق الرّسم في الغابة، أبوه كان يلعنه كلّما ذُكر اسمه دون سبب، وينعته بالكافر، جارنا اللّحام أكّد أنّه لا يشتري اللّحم منه، وزعم أنّ رجل الغابة يربّي القطط ليقتات من لحمها الذي يحبّه بشكل خاصّ، يصلّبها إلى الأشجار، ويسلخ جلدها وهي حيّة تموء، وتستعر بجدّ مديته.

المكان يعجّ بالقطط، راقب إحداها، وهي تشاكس فراشة ملوّنة، وتساءل هل في داخل الكوخ أكوام من فراء القطط المغتالة؟ فكّر في أن يطلب من رجل القطط كما ألف أن يسمّيه أن يدعوه إلى جولة في داخل الكوخ الصّغير، ولم يستبعد أن يقبل؛ فهو رجلٌ دمّث هادئ يمور بجاذبيّة خاصّة وذوق رفيع لا سيما أنّه قد زاره بشكل مفاجئ ودون معرفة مسبقة، فاستقبله بحفاوة كبيرة، دفعته إلى أن يحدّثه عن مأساته المتوقّعة التّي ينتظرها انتظار غير وامق.

داعب إحدى القطط ذات الفراء الأحمر، "هل تحبّ القطط؟" سأل الرّجل، وهو يُقبل عليه حاملاً كوبين من الشّاي الذي تفوح منه رائحة النّعناع البريّ.

حدّق به الشّاب قليلاً، ثمّ ساعده في وضع الكوبين على جذع شجرة مقطوعة يتخذّه الرّجل طاولة غير مشذّبة: "نعم أحبّها، وأنت؟"

- "أحببتها دائماً".

قال الشّاب بنبرة ذات مغزى: "هل أحبّتك؟"

صمت الرّجل، ثمّ رشف شيئاً من الشّاي، وقال: "لماذا اخترتَ أنّ تزورني الآن بالذّات؟" قال الشّاب بنبرة بدت صادقة: "لا أعرف، صدّقني لا أعرف".

"إذن اعلمْ أنّني أرغب في أن أحدّثك بأمر لم أحدّث أحداً به من قبل، لطالما خشيتُ أن تظنّ بي الظّنون، وأن أجد نفسي في مستشفى المجانين إن بحت بشكواي.

لي فراسة خاصّة في الأمور، فراستي تقول لي أنّني لن أراك بعد الآن، وإنّك لن تعود إلى هذا المكان، ونحن البشر يريحنا أن نبوح بشكوانا لمن نثق من أنّنا لن نلقاهم فيما بعد وهم محمّلون بأسرارنا وخصوصيّاتنا".

أومأ الشّاب برأسه باهتمام، كأنّه يدعوه إلى الاستمرار في الحديث، واقترب لا شعوريّاً من مقعد الرّجل الذي عقد رجلاً على رجل، وأبرق بعينيه نحو البعيد الذي يبدو قريباً من نفسه، وقال: "إنّ لي قصّة مع القطط".

سارعه الشّاب بالقول بفضول نزق: "هل تأكلها؟".

حدّق الرّجل في وجه الشّاب بدهشة، ثمّ انفجر ضاحكاً، لأوّل مرّة يرى ابتسامته العذبة التّي تتدفّق مثل جريان نهر صغير على حجارة ملساء رقراقة: "بالطّبع أنا لا آكلها، من أسرّ لك بهذه السّخافات؟"

شعر الشّاب بخجل خاصّ من سؤاله المتسرّع، من جديد ربت الرّجل على فخذه، وقال: "لك أن تصدّق ما أقوله أو أن لا تفعل؟ لكن تأكّد من أنّني أعلمكَ بالحقيقة، ولا شيء غيرها. قبل سنوات اقتنيتُ قطّة صغيرة، كنتُ قد وجدتها على وشك أن تنفق على أيدي أطفال عابثين، خطفتها من أيديهم، وأصبغت عليها رعايتي وحبّي، حتّى أنّني بتُّ أمّاً لها، أرضعها الحليب من زجاجة اصطناعيّة، كانت شقراء بعيون لازورديّة، لم أرَ عيوناً تحمل مشاعر حبّ مثل

عينيها اللّتين تفضيان حبّاً، أصبحتْ أثيرتي، لا تفارقني لا ليلاً ولا نهاراً، ولسبب أجهله باتت مِزقة من نفسي، لهوها كان يسعدني، وانشغالي عنها يجعلها تشتاط غضباً، ولا تمانع في خرمشتي، ألم أقل لك أنّها كانت أثيرتي.

استمرّ الحال على ما هو عليه إلى أن تعرّفتُ إلى إحدى الفتيات، وقرّرت أن أتزوّجها، كان أوّل قرار لها هو أن أتخلّص من تلك القطّة، لقد كرهتها، وادّعت أنّها تخشى القطط، لكنّني في عينيها رأيت حقداً دفيناً على قطّتي، وقرّرتُ أن أتخلّى عن قطّتي التّي كانت تتحوّل إلى حيوان مفترس كلّما زارتني خطيبتي في الشّقة، ولا أعرف لماذا شعرتُ بأنّ التّخلّص من القطّة يعني إلقاء مِزقة منّي في العدم.

وكانت ليلة الزّفاف، لم أكن أشعر ليلتها بالسّعادة، بل شعرت بأنّ الدّنيا سترحل مع قطّتي التّي سيأتي أحد أقاربي ليضمّها إلى قططه حيث يعيش في إحدى الضّواحي البعيدة، كنت أتهيّأ لارتداء بذلتي عندما تسللتْ القطّة إلى غرفتي، حاولتُ أن أداعبها، لكنّني شعرتُ بنفورها منّي بشكل لم آلفه، حضنتها رغماً عنها بين يدي، في عينيها رأيتُ دموعاً، وفجأة انهمرت دموعها، اختلطت الأمور عليّ، أنّى لقطّة أنّ تبكي مثل البشر؟! وكانت تلك الدّموع بوابتها إلى البشريّة، فقد انسلخ جسدها، وتفتّق عن فتاة وديعة، قبلّتني، وضمّتني بشدّة، دنتْ منّي، كان منظراً مروِّعاً لي، فقد حسبتها شيطاناً أو روحاً شريرة، وهربتُ صارخاً خارج البيت، وأغلقتُ دون امرأتي القطّة الأبواب.

وكان الزّفاف، واختفيتُ مع زوجتي في أحد فنادق العاصمة التّي زرناها، كنتُ أخشى العودة إلى الشّقة، تساءلتُ هل ستكون تلك المرأة القطّة في انتظاري؟ كم خشيتُ أن أجدها، وكم خشيتُ أن لا أجدها، طوال أيّام الخلوة مع زوجتي لم يفارق طيفها الآدميّ ناظري، اللّعنة، كيف هربتُ من عشقها؟ لقد

وهبها العشق الحياة، فما يمكن أن أهب لها؟ بتّ أشعر أنّها امرأتي الخرافيّة التّي أفنيتُ الانتظار وأنا انتظرها".

صمتْ الرّجل، وقد بدتْ علامات المرارة على قسماته التّي تعكّر صفوها، قال الشّاب باهتمام: "أرجوك، اكمل القصّة، ماذا حدث بعد ذلك؟"، ابتسم الرّجل ابتسامة مقتولة، وقال: "عدتُ إلى الشّقة مع زوجتي".

سأل الشّاب، وهو يكاد يقفز من مكانه مثاراً: "هل وجدتَ القطّة المرأة في انتظاركَ؟"

قال الرّجل بيأس من ذوّب كنزاً في الحامض: "بل وجدتُ قطّتي ميّتة، وقد تعفّنت، من بعدها لم أطق زوجتي، لازمنيّ شعور الذّنب في كلّ لحظة من لحظاتي، شعرتُ بأنّها تآمرتْ على قطّتي العاشقة، ثم هجرتُها غير آسف عليها، وهجرت البلدة، في ما بعد ربّيت مئات القطط، وطوال سنوات طويلة انتظرتُ أن تُبعث روحها في أحد تلك القطط، يا لله كم أحتاج إلى أن أخبرها ولو لمرّة واحدة بمبلغ عشقي لها! ما أبشع أن يرحل من قطعنا العمر في انتظارهم دون أن نقول لهم إنّنا نحبّهم".

من جديد صمت الرّجل، كان يبدو أنّه لن يقول المزيد، لكنّه قال دون مبالاة: "أنتَ لا تصدّقني، أليس كذلك؟ أنتَ معذور في ذلك، لكن صدّقني نحن نقابلهم مرّة واحدة في الحياة".

- "من هم؟"

- "الّذين يمكلون أن ينيروا حياتنا سعادة".

خيّم الصّمت، شعر الشّاب بأنّه يرثي لهذا الرّجل التّعس الذي صدّق كلّ حرف من قصّته العجيبة، لمَ لا؟ والحبّ نبي المعجزات.

انسلّ الشّاب من مكانه دون أن يلوي على شيء، ودون أن ينبس ببنت شفة، في الطّريق توقّف لعشرات المرّات، حدّق في الوجوه والمناظر كلّها، وأدرك أنّ من نبحث عنهم هم دائماً أمامنا، وأنّ الحياة يصبح لها طعم آخر عندما نتوقّف قليلاً عند جزئيّاتها، ولو كان ذلك التّوقّف عند مواء قطّة.

زاجر المطر

يصمّ عينيه، يرهف حواسه التّي صقلتها الدُربة، يغمس سبابته في لعاب فمه، ثم ينصبه في وجه الهواء الذي يحدّد اتّجاهه ومساره بملامسته الرّقيقة، يراقب الأفق الغربيّ، ثم يقول: "إنّ المطر سينزل بعد ساعة أو يوم أو لحظات"، فيصدق قوله، ويوافي المطر ميقاته الذي ذكره زاجر المطر، أو يهزّ رأسه يمنة ويسرة بإيماءة استعراضيّة هادئة، ويقول دون مبالاة: "لا أمطار في الوقت الحاضر"، ويولّي دون أن ينتظر هبة أو هديّة بشارة، فهو يعرف أنّ لا فلاح يرغب في مهاداته بعد أن أقنطه من نزول المطر في القريب، وإن كان لا يبالي أصلاً في هدايا الفلاحين التّي لا تعدو أن تكون بضع بيضات بلديّة، أو صندوق خضار أو فواكه، أو بضعة قروش يصرّونها بحذر واهتمام، وهو في الوقت نفسه لا يبالي بهدايا الأقارب والمعارف والأصدقاء التّي غالباً لا تفضل عدمها؛ فهي هدايا تعبّر عن ابتهاج وانبهار بموهبته الاستثنائيّة، أكثر ممّا تعبّر عن ابتهاج أو عن اغتمام بقدوم المطر أو بانحباسه، فهم حَضَر لا يعنيهم المطر بشكل مباشر، ولا يتجاوز اهتمامهم به تدبّر لباس الصّباح، أو توقيت مواعيد الدّعوات، ورحلات نهاية الأسبوع، لذا بات يكتفي بإعجاب الحاضرين وثناء الحسنوات على موهبته، هبة التّنبؤات المطريّة، وسرعان ما غدا ممارساً لهواية زجر المطر لإسعاد نفسه، ولبعثها على الاعتقاد بقدارته التّي تمخّضت، وتقلّصت، وتمدّدت لتتلخّص في القدرة على التّنبؤ بقرب سقوط المطر.

يرفض أن يُسمى بزاجر المطر كما كان يسمّي أهل أصقاع الخصب في أقصى جنوب الجزيرة من يملك موهبته التّي تُحصّل بالتّمرس وباستعداد فطريّ

خـاصّ لإرهـاف الحـواس، وحـذق الإصـغاء لهمـس الطّبيعـة ولإرهاصـاتها وتحولاتها وتبدّلاتها، فهو يعلم أنّ زّجر المطر ليس بمعنـى أو بـآخر قـدرة علـى إنزال المطر، لكنّه موهبة فريـدة في توقّـع نزولـه، وإن كـان يستسـلم مبتهجـاً في معظم الأوقات، مغيضاً في بعض الأوقات للقب زاجر المطر؛ فهذا اللّقب يورثه حنقاً وسخرية عندما تضيق الأحوال، ويمد يديه في جيبه فيجدها لا تحوي -ولو في أحسن الأحوال- قرشاً واحداً.

لا يتذكّر بالتّحدّيد إن كان جاء من بلاد الخضرة والماء يبحث من عمل، أم أنّه آبَ عائداً مخذولاً من بلاد الخضرة والماء بعد أن هاجر إليها بحثاً عن العمـل، لكنّه متأكّد تماماً من أمرين، الأوّل أنّه لم يوفّق أبداً في تحصيل لقمة عيشه بطريقة كريمة ودائمة، والثّاني أنّه أعظم زاجر مطر في الدّنيا بشهادة معلّميه وأهـل بـلاد الخضرة والماء، وإن قصّر لقبـه المجيـد وموهبتـه العبقريـة دون أن يشـبعا معدتـه الجائعة، أو دون أن يؤّمنا لقمه يومه.

يسـتطيع أن يـدّعي أنّـه لا يبـالي بفاقتـه، ولا بحاجتـه، ولا بسـوء طالعـه، ويستطيع أن يجد من يصدّق ادعّائه، ولو بتحفظّ، للدّقة يسـتطيع أن يـدّعي أنّـه أسعد خلق الله، لكن ادعاءاته كلّها لن تحول دون تقلّصات أمعائه جوعـاً، ولـن تمنع معدته من أن تعضّ على نفسها طلباً للطّعام، وتمرّداً على الجـوع؛ لـذا مـن الحكمة أن يقنّن في ادعاءاته، وأن يستمرّ في رحلـة مطـاردة لقمـة العـيش التّـي أضنت قدميه، وأقلقت حياته.

تمنّى لو أنّ أستاذه العجوز الذي علّمه موهبة التّنبؤ بالمطر كان قـادراً علـى تعليمه أيّ موهبة أخرى، تفتح عليه أبواب الرّزق مثـل أن يزجـر الحـظّ، فيـأتي إليه منقاداً بعـد خصـام طويـل، أو أن يزجـر المـوت، فيبتلـع جـارتهم نعمـات اللّعوب التّي ما تفتأ تخون زوجها العجوز على مرأى من عجزه وقلّة حيلتـه، أو

أن يزجر الحياة فترتدّ سحراً في رُفات أبيه، فتـيقظ الحيـاة فيـه؛ ليكتنفـه بعطفـه، وليرحمه وأخوته من أن يصبحوا إرثـاً يتقاسمـه الأعمـام والعمّـات علـى هـون وكره، بعد أن رحلت أمّه الأرملة، لتندسّ في حضن زوج أرمل صـمّم بخلافهـا على أن يحتفظ بأولاده في بيته، وأن يشتري لهـم خادمـة ليـل نهـار بعقـد زواج أبديّ.

يحلم أن يزجر الحبّ والرّحمة، فينصبّان في قلوب أهـل سـهام ذات العيـنين العسجدتين التّي حُرم منها فقط لأنّه فقير، وأُرغم على أن يودّعها، وهي ترحل إلى حضن رجل ميزته الوحيدة أنّه صاحب دراهم وأموال، أو أن يزجر التّجـارة الحلال فيكفّ أبو وسيم المرابـي عـن امتصـاص عظـام المسـتدينين فضـلاً عـن دمائهم، نظير أمواله التّي يقدّمهم لهم ليستردها أضعافاً مضاعفة، مستغلّاً حاجـة المحتاجين وضائقة الغارمين، أو أن يزجر الأحلام فتأتي حقيقة تتلوّى واقعاً أمـام عينيه، وتهبه السّعادة المؤجلة والأمنيات الملغاة.

لكن في النّهاية عليه أن يستغني عن أحلامه وتمنياته، وأن يسلّم لحقيقة أنّـه زاجر مطر لا غير، يجيد هذه المهنة في حين يعجز عنها معظـم البشـر، وإن كـان للأسف لا يجيد معظم ما يجيده جلّ النّاس.

الظّروف مسؤولة عن غالب خرقه وقلّة حيلته وفساد حظّه ويأسه وقنوطه، وهو مسؤول عن الجزء الأخير والأقلّ من مآل حاله، باستثناء انتصار قسـمته في التحصيل الدّراسيّ، فقد كان الأوّل في صفّه منذ أن بعث بـه عمّـه إلى المدرسـة متجاوزاً عن رغبته في استخلاصه لمهنته، وضارباً عرض الحـائط برغبـة زوجتـه التّي أرادت أن تجعله خادماً بالسّخرة لبنيها وبناتها، في السّـنة المدرسـيّة النّهائيّـة حصّل معدل ٨٥ ٪، وعُدّ فريد عصره، وخريدة أوانه في أعين الأقـارب وأبنـاء العمومة، لكن فقره وقف من جديد أمام طموحه، وأسبغت عليه زوجة العمّ –

التّي ضُرب مراراً ليدعوها بأمّي- لقب أجود الهبيلة نكاية به، فلصق اللّقب بـه، في حين بقي غيظ الأمّ المزعومة يحرق جنباتها دون أن يُفنيها، ودون أن يفلح مرة في الانتقام منها، وفي ردّ لقبها السّخيف إلى نحرهـا الغلـيظ، إلاّ في مـرة واحـدة كانت الإرهاصة الأولى لموهبته.

أنفه عندها كان يعبق برائحة المطر، كان متأكداً من أنّ عاصفة ماطرة تلـوح في القريب على الرّغم من صفاء الجوّ، كاد يخبر الكلّ باقتراب نزول المطر، لكنّه سَرّ ذلك في نفسه لكي يضيّع على زوجة عمّه فرصة جمع البقول والخضار التّـي أفنت الصّيف في زراعتها، وفي تقليبها تحت الشّمس تمهيداً لتخزينها، وجاء المطر شآبيب ضخمة، وفسدت بقولها وخضارها كاملة، واغتاظت زوج عمّه إلى درجة التّجديف والبكاء، في حين انخرط في رقصة ابتهـاج مهلّـلاً، غـير مبـالٍ ببصـقها عليه، ولا بتشديدها على اتّهمها له بالهبل.

عاد من أرض الخضرة لا يحمل إلا الفقر وزجر المطر، على الرّغم من أنّـه بحث طويلاً عن عمل هنـاك دون أن يحظـى بـذلك، إلاّ أن صـدفه العجـوز ذو العينين الصّقريتين، توقف بمحاذاته، تأمّل سكونه، ثم قال: "يا هـذا، مـاذا جئـت تطلب في هذه الأرض؟"

- "جئت أطلب عملاً، أأجد عملاً عندك؟"

- "لستُ في حاجة إلى عمّال، لكن أستطيع أن أؤمّن لـك المأكـل والمشـرب والمبيت مقابل أن تتعلّم مني".

- "ماذا تريديني أن أتعلّم منك؟"

- "الآن تعرف ماذا أريد أن تتعلّم منّي إن قبلت بهذا العرض".

- "لكن..."

- "اقبلْ بعرضي دون تردّد".

وافق يومها على أن يتعلّم علم العجوز، لا رغبة في علمه، لكن رغبة عن الجوع وعن المبيت على الأرصفة.

في أشهر قليلة من التّعلّم الذي وافق مواهبه واستعداده الفطريّ غدا زاجر المطر، ما كان يعلم في أيّ المجالات يمكن أن يسوّق قدراته، وإن كان حسبه أن يخرج بعلم فريد غريب، قد يستعمله مثلاً في الشّعوذة أو في السّحر الذي يرفض أستاذه أن يكون طريقاً للكسب والاعتياش، وحذّره من مغبة اتباعه؛ لأنّه سيكون سبباً في قطيعة لا وصل بعدها بينه وبين زاجر المطر، فأسقط في يدي زاجر المطر، وقبل بالإياب إلى موطنه غنيمة بعد هذا الجهد الموصول.

ولأنّ لا أحد في المدن معنيّ بانتظار المطر فضلاً عن التّوقّف والتّحدّيق في زرقة السّماء، فإنّه لم يجد له أيّ عمل يليق بقدراته الخارقة، قدّر أن بعض الدّعاية ستفيده، أنفق ثمن قلادة المطر التّي قدّمها معلّمه هديّة له على بعض الإعلانات التّي بثّها في المجلّات والصّحف، يتنبأ فيها بقرب هطول المطر، أو ببُعد ذلك.

لكن أحداً لم يبال به، علّق برقبته بطاقة تعريفيّة مكتوب عليها "زاجر المطر" بخط أنيق وواضح، واندسّ في جموع الكثير من الأنديّة الطّلّابيّة، والمؤتمرات الحزبيّة، والتّكتلات الوطنيّة، حتى أنّه انّدس في منظّمة الرّفق بالحيوان، وجمعيّة إعمار مدينة كلكتا، ودائرة مناهضة الإرهاب الجنسيّ، ومنظمة "لا لضرب الزّوجات"، ومؤتمر العقم الدّوليّ، ورابطة القلم الحرّ، واستديو التّصوير الحرفيّ.

أمضى السّاعات في متابعة برامجهم، قدّم أوراق عمل متعدّدة تبرز قيمة المطر، وأهميّة التّنبؤ به في دعم برامجهم الخيريّة، أفنى السّاعات في مساجلات طويلة حول أهميّة دوره الرّياديّ المفترض في أيّ مؤسّسة ستتبنّاه، لكن دون

جدوى؛ فلا مكان في الدّنيا يرغب في زاجر مطر حزين، يملك أنفاً سحريّاً يشتمّ رائحة الماء من على بعد سنين ضوئيّة.

بتوصية هاتفيّة متواضعة من إحدى الرّئيسات المسنّات في منظمـة المشـاريع الصّغيرة التّي أبدت إعجاباً خالصاً بتكوّر فخديـه، وباتّسـاق أعضـائه السّـفلى، حصل على وظيفة موزّع صحف يوميّـة، وبتوصـية منهـا كـذلك حصـل علـى درّاجة هوائيّة قديمة، يذرع بها الشّوارع الفخمة وعمارات الشّـقق الفارهـة بـين الدّارات الكبيرة والقصور المشيدة، والمتاجر ذات البضاعة الثّمنية التّـي لا يحلـم يوماً باقتناء واحدة من معروضاتها الثّمينة، يدسّ الصّحف في الصّناديق المعدنيّـة المخصّصة لها بالقرب من أبواب حدائق الـدّارات والقصـور وعمـارات الشّـقق الفارهة، ثم يولّي لا يلوي على شيء.

كان الأجر قليلاً، وإن أدّى حاجاته الرّئيسة، وحـال دونـه ودون قرصـات معدته وركلاتها جوعاً، وفي ضوء هذا التّقدّم الكبير الذي أحرزه لصالح معدته، فقد سمح لنفسه بأن يؤّملها بالحصول على سيّارة نقل قديمة ينقل بها الصّحف، بدل التقوّس خلف مقبضي الدرّاجة الهوائيّة التّي قصفت صدره، وأضنت قدميه في عذاب يوميّ متجدّد لا ينتهي، مع أنّه كان يعلم أن أمنيتـه الصّـغيرة تـبرق في البعيد دون وابل مطر، فهو صبيّ الجرائد، وسـيبقى صـبيّ الجرائـد بعـد أن كـاد ينسى لقب زاجـر المطـر؛ فـلا أحـد يرغـب في الفقـراء المستضـعفين، لا سـيما أصحاب الوجوه الكالحة، والقسمات الشّاحبة، والبنيات الضّعيفة، حتى النّسـاء الجميلات المترفات في ضواحي المدينة التّي يذرعها ذهاباً وإياباً في فـترات عملـه كانت تزدريه، وتضنّ عليه حتـى بابتسـامة يتيمـة أو نظـرة ازدراء إزاء كلمـات إعجابه ومغازلته التّي يمطرهّن بها، فينزلق خجلاً في ثيابه إثر تجاهلهنّ له، محتقراً نفسه، ضارباً صفحاً عن التّجاهل الذي مُنيت رجولته به، إلاّ من لحظة انتعـاش

صادفها في عيني فتاة العرض التّي نُصبت في واجهة متجر الثّياب النّسائيّة الـذي أُفتتح منذ أيّام، وحضر افتتاحه وزير إحـدى الـوزارات والكـثير مـن أصـحاب السّحن المطوطة الذين يطالع صورهم في صفحات الصّحف التّـي يوزّعهـا في كلّ صباح.

كان متجر الثّياب ذا واجهات زجاجيّة، وأرضية رخاميّة، وباب دوّار كبير، على عتبته حوضا رخام كبيران، زُرعت فيهما زهوراً ملوّنـة لم يعـرف مثلـها في حيّه الفقير، حسبه أن يميّز بين زهور الجوري وزهور الياسمين، أمّا هـي فكانـت مصنوعة من اللّدائن الصّافية، مسكوبة في قالب غاية في الدّقّة، يـداها وقـدماها تتمثّلان اللّيونة المتناسقة، خصرها الأهيف يكـاد يُهصـر لدقّتـه تحـت الأحزمـة الملوّنة التّي تتناوب على لبسها مع كلّ ثوب من أثـواب الموضـة التّـي تعرضـها بتتابع يوافق آخر صرعاتها، وأحدث تجديداتها، شعرها أسود متمـوّج، وأحيانـاً يكون أشقر مسترسل أو مهفهف، يعتمد لونه على الشّعر المستعار الـذي تغـيره الموظّفة المعنيّة بذلك وَفْقَ ما تعرضه من ثياب على فتاته البلاستيكيّة التّـي تلـزم مكانها في واجهة المتجر الزّجاجيّة، لا تفارقه أبـداً، إلاّ إذا حُملـت بعيـداً لكـي تبدّل ملابسها وشعرها المستعار، ثم تعود إلى مكانها ملكة ساحرة متوّجة فيه؛ إذ إنّه لا يبالي بطبيعة الشّعر أو بلونه، إنّما يبالي بعينيها الجميلتين؛ فهي تملك أجمل عينين زجاجتين رآهما في حياته، فيهما حبّ وعطف ورحمة لم يرها يوماً في عيني امرأة من بني البشر؛ لذلك عشقها، عشق جسدها البلاستيكيّ ذا الأديم العسليّ، عشق عينيها السّاحرتين، وعشق قلبها الذي يدقّ بحبّه.

اعتاد على أن يراقبها كلّما مرّ أمامها صباحاً أو مساء في نوبات عملـه، ثـم استنّ سنّة لزمها طوال الأيّام؛ فما يكاد ينتهي عمله حتـى ينطلـق إليهـا، يـركن دراجته بالقرب من المتجر، ثم يجلس في مقعد خشبيّ مواجه تماماً للواجهة التّـي

تنصب فيها محدّقة في البعيد، يأكل شطيرته الأولى بعد يوم عمل مضنٍ، وهو يراقبها، ثم يتفرّغ لحديث طويل معها، يحدّثها عن كلّ شيء، عن فقره عن عجزه، عن زجر الأمطار.

تحدثه عن عالمها البلاستكي اللّدن، تُسرّ له بأحلامها وأمنياتها، يهشّ إليها، فتحنو عليه، يتمنّاها، فتحلم به، تحدّثه عن عالمها، فيعشقه، ويتمنّى الولوج فيه، يحدّثها عن عالمه، فتكرهه، وتتمنّى أن تنتشله منه، ينتظمان عشقهما وأمنياتهما في قرار زواج، الخلافات كلّها مسوّية، الأمور جميعها مُتفق عليها، لكن تبقى معضلة صغيرة، توقّفا عندها مجبرين، فمن منهما سوف ينتقل إلى عالم آخر؟ بُهتا مفكّرين في إجابة، طال صمتهما لأيّام، أرسل إليها باقة زهور لعلّها تسعفها بقرار حكيم، لكن موظّفي المتجر يرفضون إيصالها إلى المرأة البلاستيكيّة التّي يعشقها، ويتهمونه بالجنون، فأنّى لرجل أن يعشق امرأة تمثال؟!

يصمّم على أن تصل الزّهور إلى حبيبة قلبه، لكنّه يُطرد من المتجر مثل فأر صغير، بعد أن يُهدد باستدعاء الشّرطة له، فيكتفي بأن يسجّي باقة الزّهور خارج المتجر إلى جانب الواجهة الزّجاجيّة التّي تفصله عمن يحبّ.

ابتسامة امرأته ونظرة عينيها الحانيتين اللّتين توجّهما نحوه على ما في ذلك من خرق لجمود عالمها ولصمته تخفّفان من حزنه، ومن إشفاقه على زهوره التّي داستها أقدام زبائن المتجر الذين لا يبالون بزهور تُسحق تحت أقدامهم في غمرة متابعتهم لأحدث ثياب الموضة المعروضة في الواجهة الزّجاجبة.

أحد الزّبائن يحدّق أكثر ممّا يجب في جسد امرأته البلاستيكيّة، غيرة مجنونة تجتاح كيانه؛ فليس من العدل أن يقاسمه أحد رجال الدّنيا في امرأته البلاستيكيّة، الوحيدة التّي عشقته، في حين هجر نساء الدّنيا كلّهنّ.

يغادر الرّجل المكان، ونار الغيرة ما تـزال متأجّجـة في روح زاجـر المطـر، تهمس الحبيبة لـه ببشـرى، وتؤمّلـه بقـرب الفـرج، فقـد وجـدت حـلاً نهائيّـاً لمشكلتهما؛ إذ قرّرت أن تدعوه بعد تفكير طويل إلى الدّخول إلى عالمهـا، حيـث الحبّ والسّعادة ولا آلام أو حرمان، فكرّ قليلاً، ووجد لقبه مانعـاً دون الموافقـة على اقتراحها، لكنّها قالت بصوت رقيق محّمل بليونة البلاستيك: "ومـا المشـكلة في ذلك؟ فهناك أيضاً ستكون زاجر المطر، بل إنّـك سـتجد هنـاك مـن التّقـدير والاحترام ما لم تجده في عالمك الرّاهن".

" لكنّني زاجر المطر" ردّ قائلاً، ابتسـمتْ، وقالـتْ بعـد أن خطـتْ خطـوة إلى الأمام، وألصقتْ فمهـا بالواجهـة الزّجاجيّـة، وطبعـت لـه قبلـة علـى الحـائط الزّجاجيّ الذي يفصلهما: "ليكن، فأنا أحبّك، لقاؤنا غداً"، ثم ارتدّتْ إلى مكانهـا على عجل.

إحدى المسنّات ترقب حركتها غير مصدّقة لما ترى، مشكّكة في عقلها، ثـم سرعان ما تخلع نظارتهـا، وتطالعهـا، لعـلّ خلـلاً فيهـا قـد خيّـل لهـا إنّ امـرأة بلاستكيّة قادرة على الحركة وعلى الكلام وعلى التّقبيل.

لم يمرّ بها صباحاً كعادته، أجّل ذلك إلى حين يصفّي مسائل عالقـة في هـذا العالم، وما أقلها من مسائل! تلخّصت في توديع أخوته وأخواتـه هاتفيّـاً، وسـبّ زوجة عمّه في رسالة تهكم طويلة أرسلها إليهـا مـع فتـى الفـرن الـذي يسـكن بجوارهم، ثم حرق كتبه القديمة كلّها؛ إذ إنّه لا يعرف أحداً قد يرغب في قراءتها، ثم تسليم الدرّاجة الهوائيّة للمؤسّسة الصّحفيّة التّي يعمل فيهـا، دون أن يسـوّي معهم أمر راتبه، فالشّهر على أبواب نهايته، وهو على كلّ حـال لـن يحتـاج إلى المال في العالم الجديد الذي هو في صدد الدّخول إليـه، فضـلاً عـن إنّـه يريـد أن يغادر هذا العالم الذي أضناه حرماناً، وهو يملك فيه ولو راتباً حقيراً لم يقبضه.

لبس أفضل ما عنده، للدّقة لبس كلّ ما عنـده للمناسـبات السّـعيدة، ومـا أقلّها من مناسبات سعيدة في حياته! كان لباساً قد ورثه عن أستاذه الفاضل، هو لباس أقرب ما يكون إلى لباس مهرّج يريـد أن يبـدو شـريراً في حفـل تنكـريّ، لباس له ياقة لامعة، وقبعة زرقاء.

وقف أمام أمرأته التّي بدا القلق والشّحوب على وجنتيهـا البلاسـتكيتين، ابتسم لها، فردّتْ ابتسامته بابتسامة عريضة متفائاة، قال لها: "اشتقتُ إليكِ".

– "أنا أكثر اشتياقاً لك. هل أنت مستعدّ للدّخول إلى عالمي؟"

– "مستعدّ لذلك تماماً، لكن ليس قبل أن أهبك مهراً لم تحصل امـرأة علـى مثله من قبل".

سألت بتحمّس: "ما هو؟"

أجاب بفخر وثقة: "سأهديك المطر".

ضرب بعصاه الأرض، صمّ عينيه، قرأ ترنيمة عجيبـة، فعجّـت السّـماء في لحظات بسحب سوداء، ثم تكاثفت إلى حدّ أنّها حجبت نور الشّمس، وأغرقـت المكان في ظلام دامس، ثـم أرعـدتْ وأبرقـتْ، بـدأتْ شـآبيب المطـر في تفريـغ حمولتها المائيّة الضّخمة، المطر المفاجئ داهـم الكـلّ، وشـلّ حـركتهم، في غمـرة الانشغال في إيجاد ملجأ يقي من الأمطار، نظر زاجر المطر يمنة ويسرة، عدّل مـن وضع ربطة عنقه، ضـغط بيديـه علـى قبعتـه كـي لا يفقـدها في رحلـة العبـور المستحيلة، ثم انطلق مسـرعاً نحـو الواجهـة الزّجاجيّـة، اخترقهـا بجسـده، كـان الاختراق مؤلماً جدّاً، لكنّها كانت هناك في انتظاره، طيـف مـن الألـوان التّـي لم يعرف مثيلاً لها في عالمه تراقص في عينيه، شعر بتراخٍ يدعوه للانسياح في حضـن

امرأته، كان سعيداً؛ لأنّه زاجر مطر محظوظ بحبّه المستحيل، وقادر على التّنقّل بين العوالم.

في المساء كانت المدينة غارقة في أمطار عجيبة اجتاحتها في غير موسمها، فأفسدت كلّ شيء، وأعاقت الحركة، ومنعتْ الجميع إلا قلّة من حضور جنازة زاجر المطر الذي مات إثر حالة جنون مفاجئة دفعته وَفْقَ تقرير الطّبيب الشّرعيّ إلى اختراق جدار زجاجيّ.

كان على شفتيه ابتسامة غريبة، لم يعنّ أحدُ المشيعين نفسه في فكّ سرّها؛ فلا أحد يبالي بابتسامة زاجر مطر مسكين مات في نوبة جنون مفاجئة!

الجسد

أقسم ألف مرّة في نفسه على أنّه لن يحنّ إلى أيّ جسد، ولن يتمنّى مخاصرة أيّ جسد، ولن يتحرّق شوقاً على دفء أيّ جسد، وهذا ما كان، على الأقلّ هذا ما يذكر أنّه قد كان.

لكنّه منذ زمن ليس بالهين ولا الرّحيم يتلمّس دبيباً خاصّاً في خيوطه، يدعوه دون رحمة لاكتتاف جسد ما، ينبض به بعزيف الوحدة، يغريه بدفء الألفة، منذ أن خاض غمار قراره المشهود وهو يحترف الحرمان، لكنّ خيوطه وأزراره باتت تلّح عليه بالنّسيان، وتحرّضه على تجاوز قراره المشهود، وتؤنّبه بجرم الهجران والتّجنّي على حقوقها.

كان بنطالاً كتانيّاً عتيداً، خاض الكثيرمن المواقف الحاسمة في حياته حتى أنّه كان قد شارك قي الحملات الانتخابيّة التّي خاضها حزبه ضدّ حزب القبّعات، لايذكر الآن اسم ذلك الحزب الذي كان ينتمي إليه، لكنّه متأكّد من أنّ مقر الحزب يقع في عمارة تطلّ على موقع سياحيّ وترفيهيّ مهّم اسمه نادي الدّفء اللّيليّ، آلاف الامتحانات خاض في حياته، لم يعرف التّنازل، أتقن لغة الجسد، هو بنطال خاض المعركة تلو المعركة، وعاد مهزوماً المرّة أثر المرّة، ورضي كما يقولون بالإياب غنيمة، لكنّه يعتقد أحياناً أنّه لم يؤب بالغنيمة التّي يطيب له أن يظن أنّه آب بها، بل بقي عاشقاً مخضرماً للغة الأجساد التّي أرهقته، وأضنته، وما استطاع للغزها فكّاً، ولا لعمقها سبراً.

منذ أنّ أحبّ ذلك الجسد الذي هجره شعر بأنّ جنباته قد تفتّقتْ، وأنّ لونه قد أصبح كالحاً، أزراره تدلّت، ولم تعد مشدودة موثقة في مكانها كما

كانت، عروته العليا اهترأت، وخصره بات متهدّلاً مرتخياً، ونسي الشّموخ بشكل كامل، وبات يعيش على ذكرى ذلك الخصر الأهيف الذي لطالما حاصره بكبرياء وإثارة.

كان ذلك من سنوات طويلة، لكنّه حتى الآن ما زال يتعشّق رائحة عرق الجسد الذي لطالما حضنه حدّ الالتصاق، ورافقه في كلّ مكان، كان كلّما فارقه ليلاً؛ ليستلقي قريباً منه، يقطع ليله في الانتظار والشّهوة.

قدّم له كلّ شيء حتى عندما أبلغه الجسد برغبته في أن يجدّد نفسه، لم يبخل عليه بذلك، وقام بصبغ نفسه، وتقصير طوله ليبدو أكثر عصريّة، وأكثر قدرة على تتبّع آخر صرعات الموضة التّي يمقتها.

لكن كلّ ذلك تمخضّ عن لا شيء، وفي النّهاية هجره الجسد إلى بنطال آخر، يومها أقسم على أنّه لن يعشق أيّ جسد، ولن يعطف على أيّ عارٍ، وسيحبس نفسه وفضوله على نفسه ولا غير، لكنّ روحه تتوسّل إليه في سبيل الحصول على جسد، تبحث عن وعاء يحتويها وتكونه.

قررّ أن يطفيء بعضاً من أشواقه فقط بالتّبرّد دون الشّرب، خرج من بيته مسكوراً بمطلبه، كان الجوّ قائضاً، قصد سوق المدينة حيث تحتشد واجهات المحلّات بالأجساد المعروضة للبيع، الملابس الصّغيرة والكبيرة تملأ الشّوارع، عجب كيف تسمح الملابس لأبنائها الصّغار باللّعب في الشّارع في مثل هذا الجوّ؟ أحد القمصان الصّغيرة كادت إحدى الحافلات المسرعة أنّ تجعّده تحت عجلاتها الكبيرة.

سريعاً وصل إلى السّوق، أسرع ممّا توقع، وقف حائراً أمام واجهة المتجر الأوّل، كانت الأجساد المعروضة متعرّقة، وتكاد تتقدّد من الحرّ، لم تغريه أبداً

بالنّظر إليها، كاد يشفق عليها، لكنّه منع نفسه من أيّ بادرة شفقة، وذكّر نفسه بأنّه لم يأتِ إلى السّوق كي يوزّع مشاعر مجانيّة، ألحّ عليه المعطف صاحب المتجر كي يدخل إلى صالة العرض، لكنّه نظر إليه بتقزّز، وضرب صفحاً عن دعوته المشبوهة.

كثير من المتاجر تعلن عن خصومات موسميّة كبيرة على الأجساد لا سيما الكبيرة منها، تساءل أيّ موسم يقصدون؟ أيقصدون موسم رخص الأجساد؟ أم موسم التّزاوج؟ أم موسم الحرّ ؟ هو لا يدري، هزّ جيبه الأعلى، وقال بصوت غير مبالٍ قدّر أنّ بعض المارة قد سمعوه: "ومن يبالي؟"

على الأرصفة انتشرت بسطات العرض، كانت الأجساد متناثرة عليها دون نظام، أجساد ملوّنة، أجساد موشومة، أجساد مشعوعرة، أخرى حلساء ملساء، أجساد بالأحجام كلّها، نخب أول، وثانٍ وثالث، وبعضها معيب بحرق أو كسر أو خلع؛ لذا يُعلن عن تخفيضات إضافيّة عليه.

بحث طويلاً عن جسد كي يطفيء احتراقه، جسد يشعر بأنّه انتظره آلاف السّنين، جسد لا يُعرض، ولا يُزاود عليه، لا تتلّمسه الملابس كلّها، تزدريه بعضها، ويزاود عليه بعضها الآخر، أرعبته النّخاسة التّي يراها في كلّ مكان.

حمد الله؛ لأنه خُلق بنطالاً ذا احترام وتقدٍي، ولم يُخلق جسداً يُباع، ويشتري، وينزل سوق النّخاسة في أيّ لحظة، ولا يجد أحداً يرثي لمصيره المشؤوم.

كم تمنّى أن تحظّى الأجساد الملعونة بنفسها بشيء من الاحترام! وأنّ تُصان كينونتها، ويُعلى من شأن وجودها، فكّر في أنّ ثورة جادة ستردّ للأجساد احترامها المهدور، وقد ترتقي بها إلى مصافي الملابس المحترمة، عندها قد تعود

ثقته الضّائعة بالأجساد، ويفتح خيوطه من جديد لاستقبال جسد ما، أمّا الآن، فهو لا يعرف شيئاً عن الآن سوى أنّه يحمل في جنباته شعوراً يتمزّق بين القرف والرّثاء.

يبتعد عن سوق الأجساد، يمّم نحو إحدى الأزقة التّي تدلف إلى الغابة التّي تحيط بالمدينة، أحد القمصان يلّح عليه لشراء أحد الأجساد التّي يحملها، يقيس إحداها على البنطال المأخوذ بآلامه، يؤكّد القميص أنّ الجسد يناسب مقاس البنطال، يعرض عليه أن يشتري جسدين بسعر جسد واحد، بل يستطيع أن يحصل على ثلاثة منها بسعر واحد.

يشعر البنطال بأنّ قرفه قد تضاعف، يشيح بنظراته عن القميص الذي ما زال يثرثر، يبتعد ليحلم بجسد لا يشتريه من سوق النّخاسة، ولا يأخذه بضربة حظّ، بل غاية أمنياته الحصول على جسد يخلو من الدّنس، ولم يعرض في الأسواق، ولم تبتذله الأيدي، ولم تشبع النّظرات منه، جسد يخلص، ويخلص، ويطوّقه بسعادة إلى الأبد بعيداً عن سوق الأجساد.

وحتى ذلك الوقت سيعيش في حنين موصول إلى الجسد الذي لم يقابله بعد، ومن جديد عاد يحترف الانتظار.

(١١)

المجموعة القصصيّة "الهروب إلى آخر الدّنيا" [١]

١- صدرت المجموعة القصصيّة "الهروب إلى آخر الدّنيا" في طبعتها الأولى عن نادي الجسرة الثقافيّ والاجتماعيّ، الدّوحة، قطر، ٢٠٠٦

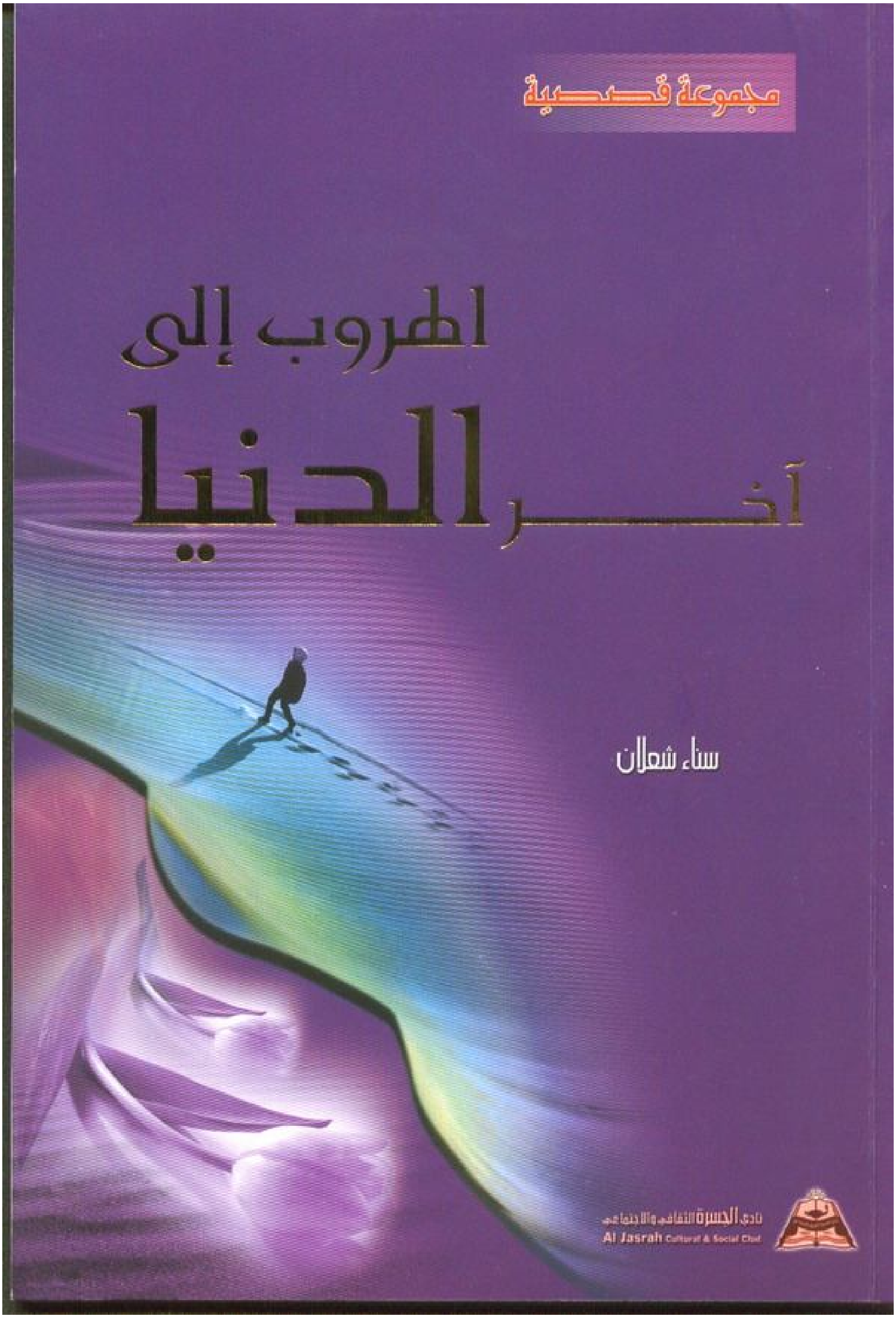
مجموعة قصصية
الهروب إلى
آخر الدنيا
سناء شعلان
نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

لحظة عشق

"اللّه هو الحبّ" سمع جدّته تردّد هذه الجملة كثيراً، "الحبّ هو اللّه"، قال رجل الطّائفة الدّينيّة التّي ينتمي إليها، برم شفتيه، ثمّ ابتسم باستخفاف؛ فهو لم يكن يؤمن لا باللّه ولا بالحبّ، كفر بهما؛ لأنّه لا يؤمن إلاّ بما يُلمس، ويُشمّ، ويُذاق، أمّا ما وراء ذلك فهو بالتّصديّق به ضنين؛ فهو مؤمن فقط بالملموسات والحقائق والنّظريّات العلميّة؛ لذا قليلاً ما بالى بالمشاعر والأحاسيس واللّحظات الجيّاشة، وكتب في أوّل كتبه في الإلحاد، وهو كتاب لاقى ضجّة عالميّة كبيرة "أين هما: اللّه والحبّ؟"

حتّى عندما زحف المرض إلى قرنيّتي عينيه، والتّهمهما دون رحمة، تابع القضيّة على أنّها قضيّة علميّة بحتة، قرأ التّقارير، وراجع الأطبّاء، وبدأ يهيّئ التّرتيبات الجديدة لحياته المظلمة القادمة، وجاء العمى، جاء بارداً رتيباً، لا مبالياً بعجزه وتأوّهاته وبغضبه، وساد الظّلام، أحسّ لأوّل مرّة بأنّه وحيد، تمنّى أن تمتدّ له يد من الظّلام، يد دافئة تذيب صقيع العمى، أرادها يداً سماويّة جبّارة، كاد يتضرّع لقوّة عظمى اسمها اللّه، لكن من جديد تبدّدت هذه القوّة في نفسه، ولم تستطع مداركه المغلقة دونها أن تمتصّها، وأن تذيبها في كيانه.

غدت الحياة رتيبة مظلمة ليس فيها إلاّ أصوات لا تمتّ إلى ذاته بشيء، حاول جاهداً أن يقهر نفسه لتتعامل مع العمى على أنّه حالة خاصّة تحتاج لتدبيرات قاسية، لكنّه كان على خجل واستحياء وحيطة يتّصل بطبيبه ليسأل عن العمليّة التّي يترقّبها، فيجيب الطّبيب الإجابة التّي ألفها، وبات يأمل في كلّ مرّة أن لا يسمعها، يقول بصوت وجلٍ هادئ: "لم يظهر مُتبرّع بعد؟"

وجاءت اللّحظة، جاءت حارّة مثيرة بألوان زاهية، لكنّها في طبق أسود مجلّل بالموت؛ فقد انتحرت شابّة صغيرة، وتركت في رسالة انتحارها أنّها تتبرّع بقرنيتيّها للمستشفى الذي يقبع اسمه على رأس قائمة انتظاره للتّبرع.

بعد عمليّة مألوفة وطويلة، عاد النّور إلى عينيه، وهما تحتضنان قرنيّتي شابّة أسرها الموت منذ أيّام، عادت الأشياء بألوانها وبريقها، وحملتْ بعودتها صورة لا تفارق ذهنه، صورة لفتاة سمراء صغيرة الجسد، كسيفة الوجه، هادئة الملامح، كانت صورتها تلحّ على مخيّلته دون رحمة، وتظهر أمام عينيه في الأماكن كلّها، وفي كثير من الأوقات، دون أن تسعفه الذّاكرة ليتذكّر أين رآها، في البداية كان ينزعج من هذه الصّورة التّي تغشي عينيه، راجع طبيبه، الذي قال له إنّ لا سبباً طبّياً يُفسّر ما يرى، وإنّ عليه مراجعة طبيب نفسيّ لعرض حالته الغريبة عليه، لكنّه ضرب صفحاً عن نصيحة طبيبه، وبات دون أن يقصد يألف السّمراء التّي تنزل في نور عينيه.

أشعّة الشّمس داعبت سمراء عينيه عندما دلفت سكرتيرته إلى مكتبه الفاره، وقالت له: "لا تنسَ يا أستاذ حكيم موعد اليوم".

تنبّه إلى جملة السّكرتيرة دون مبالاة، وقال: "أيّ موعد تقصدين بكلامك هذا؟"

ردّت السّكرتيرة عليه، وهي تراجع أجندة المواعيد: "اليوم السّاعة الرّابعة مساءً قد حدّدت لكَ موعداً حسب طلبك لزيارة والدة الشّابة التّي تبرّعت لك بقرنيّتيها".

قال دون تحمّس: "نعم، تذكّرت ذلك، هل جهّزت الزّهور التّي طلبتها لهذه الزّيارة".

- "نعم، سيّدي، والسّائق في انتظارك كذلك".

أرادها زيارة قصيرة وسريعة، لكنّه شعر بروح غريبة تستحوذ على إرادته وحواسّه، وهو يجلس في غرفة الشّابة المنتحرة، كانت غرفة هادئة، يغلب اللّون الورديّ على محتوياتها، جلس على كرسيّ مكتبها، كانت رسالة انتحارها ما تزال على المكتب، جلست والدتها المكسورة بأحزانها على طرف سريرها المرتّب إلى جانب طاقة الزّهور التّي جاءت مع الضّيف الملحد، قالت الأمّ كاسفة دامعة: "كانت رقيقة مثل بسمة، كلّها حياة وحبّ وتفاؤل، كانت مصدر سعادتي واعتزازي، لا أعرف لِمَ انتحرت، كنت أنتظر منها الكثير من السّعادة والعطاء".

حار فيما عليه أن يقول في هذه اللّحظة، أيشكرها؛ لأنّها وهبته قرنيّتي ابنتها؟ أم يغادر دون أن يلوي على شيء؟ صوت الأمّ قطع عليه تفكيره عندما قالت: "لقد وُلدتْ بقلب مريض، كانت تعرف أنّها ستموت في لحظة ما، سيتوقّف قلبها في أيّ لحظة؛ لأنّه أضعف من أن يستمرّ في القرعّ، لكن لماذا استعجلت هذه اللّحظة؟ لماذا؟"

استغرقت الأمّ في انتحابها، انتقل حكيم من مكانه إلى جانبها على السّرير، وأخذ يكفكف دموعها، من جديد عادت صورة السّمراء في عينيه، جحظّت عيناه، وتسمّر مكانه، كانت عيناه مسلّطتين على صورة فوتوغرافيّة إلى جانب سرير المنتحرة، تناول الصّورة، وبيدين متعرّقتين ومرتعشتين وقال: "من هذه السّمراء؟"

قالت الأمّ، وهي تضمّد بمندلها الورقيّ سيل مخاطها المختلط بالدّموع: "هذه هبة، ابنتي المنتحرة"، لقد كانت هي، نعم، كانت هي السّمراء ذاتها التّي لا تفارق صورتها عينيه.

صمتْ بعمق، غادرت الأمّ الغرفة التّي بقي فيها بعد أن استأذن بـذلك، تعرّف على محتوياتها كلّها، كـان في درج مكتبهـا الكـثير مـن الرّسـائل المعنونـة بعنوانه التّي لم تُبعث إليه أبداً، قرأها مرّة، وثلاث، وعشر، كان فيها حـبّ كـبير له، عرف من أوراقها ومن دفتر مذكّراتها أنّها عملت معه لعـام كامـل في نفـس المؤسّسة الصّحفيّة التّي يعمل فيها، دون أن تكلّمـه، لكـنّ كتبـه ومقالاتـه كلّهـا كانت في مكتبها، عرف أنّها أحبّته، وعرف أنّها صمتت بقلبها المـريض الـذي لا يتحمّل الانكسار، وتأكّد من ملفّاتها أنّهـا كانـت تتـابع حالتـه الصّـحيّة، وأنّهـا تعرف أنّ أنسجتها تناسب أنسجته من التّحاليل المرافقة بوثيقة حالتـه الصّـحيّة، وأنّها كانت تعرف أنّ الدّور له على لائحة الانتظار لأخذ القـرنيّتين، وفي اللّيلـة المناسبة انتحرت.

قرأ رسالة انتحارها، استطاع أن يفكّ طلاسمها كلّها، وعرف تماماً من تعني بجملة كتبتها في آخر رسالتها، قالت فيها: "عندما تنعم عيناك بـالنّور، تأكّـد أنّـك نعمت دائماً بحبّي، أنا متأكّدة من أنّك ستقرأ هذه الرّسالة يومـاً مـا، وسـتعرف كم أحببتك".

على مكتبها رأى نسخة مـن كتابـه المشـهور، فـتح الصّـفحة الأولى، كـان مكتوباً تحت العنوان تماماً، وبخطّ نسائيّ رقيق: "اللّـه هنـا في قلـبي"، تنـاول قلمـه الفاخر، وكتب في الصّفحة ذاتهـا أعلـى الكلمـات التّـي قـرأ "إلى حبيـبتي هبـة، عاشقك إلى الأبد: حكيم".

أقفل الكتاب، وأسند ظهره إلى الكرسي الخشبيّ الذي يجلس عليـه، دفـن رأسه الأشيب ذا الشّعر المتموّج بين يديه، وشـعر لأوّل مـرّة بـأنّ اللّـه والحـبّ يسكنان قلبه، قاوم رغبة جارفة في البكاء، ثمّ استسـلم لهـا دون خجـل، وضـمّ صورة هبة إلى قلبه الذي بدأ يدقّ بانفعال وقوّة.

سعادة الرّوائيّة

لم يكن يصدّق أنّه يقرأ كلمات مسطورة أمامه، كـان يقلّـب الصّـفحة تلـو الأخرى بسعادة أسطوريّة، مع كلّ صفحة كانت دقّات قلبه تتعالى، شـعر بيديـه تتعرّقان، وظمأ غريب يلفح حلقه، كانت سنونه الأربعون في مهبّ لحظات مـن الإثارة، لم يصدّق أنّه يرى نفسه بجزيئاتها وتفاصيلها وعوالمهـا كلّهـا في كلمـات امرأة لم يعرفها، ولم يقابلها في حياته، كم تمنّى أن ينعم ولو للحظات بحـبّ مثـل ذلك الحبّ الذي يقرأ عنه في هذه الرّاوية، وبالتّحدّيد تمنّـى أن يمسـك بصـاحبة هذه الكلمات، أغلق الرّاوية، أسند ظهره إلى أريكته الوثيرة، وتنهّد عميقاً، طالع اسم الرّوائيّة التّي لم يسمع بها من قبل، وخمّن أنّه يستطيع أن يجدها في لحظـات، فدار النّشر التّي أصدرت الرّاوية موجـودة في مدينتـه، ويبـدو أنّهـا مـن سكّان العاصمة، كان بين مفترق طرق غريب، إمّا أن يحافظ على صورته، وعلى عالمه، وعلى اتّزانه، وإمّا أن يهرع إلى الجنون، ويبحث عن صاحبة الرّاوية.

صمتتْ الحيرة برهة في دماغه المشحون بخلجات قلبه، وسريعاً ما توجه إلى الهاتف؛ ليطلب دار النّشر التّي أصدرت تلك الرّاوية؛ فقد أخـذ قـراراً حاسمـاً لصالح قلبه الذي أدركه جنون مفاجئ.

كان ينتظر صوتها بعد أن حصل على رقم هاتف بيتها، تخيّله صـوتاً رقيقـاً يفيض حياة وشقاوة ورقّة، بل تمنّاه أن يكون كذلك؛ ليطابق صورة البطلة التّـي قرأ عنها في الرّاوية، وأصابت غفلة الأمنيّة لحظة التّحقيق، فجـاء صـوتها رقيقـاً عذباً، لا يملك من يسمعه إلا أن يركض خلفه لاهثاً متمنّياً مأخوذاً بالرّوح التّي تسكن صاحبته، حدَّث صاحبته طويلاً عن إعجابه بروايتها، وعن تأثّره بأحداثها وشخوصها لا سيما عن تأثّره ببطلتها، وكاد يقول لها أنّه يعشقها هـي بالـذّات،

وبعيداً عن قوانين الزّمان والمكان ونواميس الأمور، فهو يريدها هي بالذّات، ويريد عشقها دون أيّ عشق آخر، لكنّه قال لها: "إنّه يخال نفسه قد قابلها طويلاً، وعاش معها أجمل قصّة حبّ".

كانت كلماته بها شيء من الصّدق، ولاقت هوىً في نفس الرّوائيّة التّي كتبت طويلاً عن الحبّ والعشق، لكنّها لم تصدفه وجهاً لوجه، ولو لمرّة واحدة، مع أنّها كانت على أتمّ الاستعداد لمقايضة كلماتها السّحريّة كلّها بلحظة حبّ صادقة.

سريعاً ما طلب لقاءها، كان يتوق إلى ذلك، بمقدار توق طفل صغير إلى نجمة سماويّة بعيدة، قال لها: "إنّه عشقها قبل أن يلقاها، وإنّ روحه ألفت روحها، وإنّه سيعرفها بمجرّد رؤيته لها".

ضحكت طويلاً؛ لأنّها كانت قد رأته أيضاً بقلبها، واتّفقا على أن يكون اللّقاء في حانوت جبليّ على قارعة طريق قديم، حيث يلتقي المتحابّون بعيداً عن أعين الفضوليّين، وحيث خطّت معظم فصول روايتها.

وكان اللّقاء، جاءت مبكّرة، جلست إلى طاولتها المعتادة، ابتسمتْ؛ لأنّها تعيش وجل مراهقة، وتقتات قلقها، وكأنّها شابّة صغيرة في العشرين، لحظات انتظارها وشوقها أنستها سنينها الخمسين، وجسدها المضنى، وقسماتها المأسورة لتجاعيد الزّمن، لكنّها لم تنسها أن تلبس أفضل ما عندها من ملابس، وأن تنتعل حذاء نسائيّاً كلاسيكيّاً أنيقاً، وإن كانت قد هجرت لبس أمثاله منذ أن أصابها داء المفاصل منذ سنوات.

أخيراً دلف المنتظر إلى المكان، لقد عرفته قبل أن تلمح بين يديه روايتها العتيدة، كان بطول الرّجل نفسه الذي كتبت عنه في روايتها، وبسحره ونظراته عينها، كادت تطير إليه، أليس هو الرّجل السّحريّ الذي اصطادته كلماتها؟!

كان في عينيه شوق غريب، استعذبت نظراته، وأمهلته حتّى يجلس إلى طاولة أمامها تماماً، كان موزّع النّظرات بين من حوله، وبين ساعته التّي يرقب عقاربها، وبين قراءة بعض الصّفحات من الرّاوية.

انتصبت الرّوائيّة، واتّجهت نحو رجلها الورقيّ، وقفتْ قبالته تماماً، وأرادتْ أن تمازحه، فقالت: "عفواً أنت قد جلست مكاني".

حدّق الرّجل في وجهها، قدّرت أنّه عرفها، وكادت ابتسامة ارتسمت على وجهها أن تتّسع، لكنّها تبدّدت سريعاً، عندما جمع الرّجل أوراقه وروايته ونفسه، وانحنى معتذراً، وابتعد متّخذاً كرسيّاً آخر له، في انتظار سعادة الرّوائيّة.

أدركتْ الرّوائيّة أنّه لم يعرفها، وأنه لم يكن ينتظرها هي، بل كان ينتظر فتاة الرّاوية، لم ينتظر سيّدة في الخمسين من عمرها تحلم بالحبّ، بل كان ينتظر فتاة صغيرة، وهبتها الطّبيعة من الجمال والرّقة والأنوثة ما لم تهبه لأحد، جلست حيث كان الرّجل جالساً، وحدّقت في الأرض طويلاً، عندما رفعت رأسها بعد ساعة أو ساعتين كان المكان قد خلا من الرّجل الذي أنهكه الانتظار لسعادة الرّوائيّة.

قررتْ أن تعود إلى البيت سيراً على الأقدام، سبقتها دموعها، وعندما خلت بنفسها في أحد البساتين، أجالت نظرة عجلى في المكان ثم صرخت بحنق، وقالت: "لماذا؟ لماذا؟"

في المساء كان صوتها كسيراً، وهي تتلقّى مكالمة غاضبة من الرّجل الذي عاتبها بمرارة قائلاً: "لماذا لم تأت إلى موعدنا يا سعادة الرّوائيّة؟ أنت بدون قلب"، حاولت الرّوائيّة أن تبتسم، لكنّها لم تفلح في ذلك هذه المرّة، وقالت له، وهي تعرف أنّ كلماتها دون جدوى: "أتصدّق أن سعادة الرّوائيّة جاءت، لكنّك أنتَ من لم تحضر.الوداع".

باميلا الصّغيرة

"باميلا الصّغيرة، حبيبتي الصّغيرة، ساحميني، هل ستسامحني يا عزّت؟ آه، لا يمكن أن تموت حبيبتي الصّغيرة، عزّت"، وانتحبت من جديد في حضن زوجها الذي ضمّها إلى صدره، الذي كان موت "باميلا" ضربة نجلاء في سويدائه، تمنّى لو أنّ هذه المقبرة تتّسع، وتتباعد أرضها؛ ليخلو له وجه "باميلا" الغارق في الجسد المسجّى بسلام في التّابوت إلى جانب شابّ حليق، كانا يشكّلان لوحة فسيفسائيّة جنائزيّة بيضاء، كانا عاشقين صغيرين في الحياة، وها هما يتقاسمان التّابوت معاً، كانت "باميلا" الصّغيرة شاحبةً جدّاً بالأبيض، تأمّلها المحامي عزّت طويلاً، كانت هادئةً كما لم يألفها في الحياة، تأمّل يديها الصّغيرتين طويلاً، شعر بأنّ قلبه يُشدّ إلى مسامير حديديّة تمزّقه دون رحمة وتابوتها يُنزل إلى قاع الحفرة المعدّة له، ومن ثمّ بدأ الحفّارون بإهالة التّراب عليه، أمّا هو فقد ودّعه بوردة حمراء من الحديقة الخلفيّة التّي لطالما اعتنت "باميلا" بها، ولطالما ساعدها فيها، وهو يرقبها تنمو، وتتفتّح، ويتضوّع أريجها شأنها شأن زهور الحديقة.

كانت طفلته المفضّلة، هو من لقّبها بلقب "باميلا"، وهو اسم بطلة فلم رومانسيّ مشهور، كانت تملك مثل ابتسامة "باميلا"، كانت "باميلا" التي اسمها في الحقيقة بيان طفلة صغيرة عندما تزوّج أمّها، بعد أن اختفى والدها في البحر، أحبّها كما لم يحبّ أحداً من قبل؛ فقد كانت رقيقة، يكفي القول إنّ حياتها كانت عبارة عن زهور تزرعها في كلّ مكان، كانت هادئة ومطيعة إلى أن دخلت المدرسة الثّانويّة، وتعرّفت على ذلك الشّاب المراوغ الذي يكبرها بعامين فقط، ويعمل ميكانيكيّاً.

لقد هامت بفتاها حبّاً، ومنذئذ غدت "باميلا" المشاكسة، حاول أن يساعد والدتها في إبعادها عن ذلك الشّاب الشرّير، لكن دون جدوى، بل إنّه حرّض زوجته على تقديم شكوى ضدّ ذلك الشّاب اللّعين على اعتبار أنّه يتعرّض لقاصر، ولم يَسمح له بأن يخرج من السّجن إلاّ بعد أن تعهّد بترك زهرته الصّغيرة وشأنها.

لكنّ الأمور عادتْ، وساءتْ من جديد عندما أعلنت "باميلا" عن رغبتها في الزّواج من عاشقها الصّغير، وتفجّرت مواجهات رهيبة بين الشّابين وبين عائلتيهما، وانتهت المواجهات بانتحار الشّابين الصّغيرين احتجاجاً على موقف عائلتيهما، بعد أن تركت "باميلا" رسالة تقول فيها إنّها لن تستطيع أن تعيش بعيداً عمّن تحبّ.

عيون الحاضرين وهم يشيعون بأسى التّابوت الذي كاد يغمره التّراب تمنّت لو أنّها أسعدت الشّابين، وتركت لهما فرصة للحياة وفق ما يشتهيان، ولم تخنق قلبيهما، ولم تهديهما للموت، كان يبدو من نظرات المحامي عزّت ومن دموعه أنّه كان أشدّ من يتمنّى هذه الأمنيّة الضّائعة والمتأخّرة، وفي البعيد حيث الغروب لاحت ابتسامتها البريئة في الأفق، فتقطّعت نياط قلبه التّي علّقت له مشنقة دامية تتدلّى من السّماء.

ابتلعت المقبرة ضيفيها الصّغيرين، وحلّ المساء ساكناً رهيباً، إلاّ من صوت نعلَيْ عزّت الذي عاد مكسوراً يحمل فأساً كبيرة، كان مصمّماً على أن يخترق التّراب، لينتزع "باميلا" من حضن حبيبها الصّغير، ويضمّها إلى صدره كما اعتاد دائماً، كان يكره فكرة أنّها في حضن رجل غيره، بعبارة أدقّ كان يغار عليها حتّى من الموت.

صحيح أنّها كانت طفلته لزمن طويل، لكنّها منذ عامين وقهر أنفه غدت امرأة أحلامه، نعم، غدت صبيّة صعبة المنال، كان يحترق حسرات في ذهابها وإيابها، ولولا أنّه يقيم معها في بيت واحد بحكم أنّه زوج أمّها لكان جُنّ شوقاً إليها، كان يريدها إلى جانبه، ولا يريد شيئاً أكثر من ذلك، مع أنّه حاول أن يقرّب شكواه ووجده منها، لكنّ الكلمات كانت تستعصي عليه، كان يخشى أن يخسرها، وأن يخسر أمّها إلى الأبد، مع أنّه لم يكن يبالِ بخسارة أمّها إلاّ لأنّ ذلك يعني خسارتها هي بالذّات.

كان يتوق إلى أن يسمعها تقول له حبيبي، مرّة قالتها على سبيل تودّد الابنة لأبيها، لكنّه شعر بأنّها كلمة حبّ طبيعيّة، تخرج من فم امرأة لرجل يحبّها، وتمنّى أن يأتي اليوم الذي تقولها له، وهي تعنيها بكلّ ما فيها من معنى، لكنّ ذلك اليوم لم يأتِ بسبب ظهور ذلك الشّاب الغبيّ الذي اغتال أحلامه، لقد سرق قلب "باميلا"، وعقاباً له سرق عمره وعمرها، لقد دبّر كلّ شيء لتبدو حادثة انتحار، وبدت كذلك، لكنّه الوحيد الذي كان يعلم أنّها جريمة حبّ بشعة، عندما كانت "باميلا" تنزف أنفاسها الأخيرة، ندم كثيراً، وفكّر في أن يطلب المساعدة لها، لكنّ الوقت كان قد تأخّر، حاول أن يطبع قبلة وداع على شفتيها الكرزيّتين، لكنّها أشاحت بوجهها المضنى، توسّل إليها في لحظاتها الأخيرة أن تقول له كلمة حبيبي، لكنّها ضنّت عليه بهذه الكلمة حتّى في آخر لحظاتها، وماتت دون أن تدرك كم أحبّها.

"باميلا، أيّتها الصّغيرة المشاكسة، أنا أحبّك، اللّعنة عليك، أكان يجب أن أقتلك كي تدركي كم أحببتك؟ باميلا، أحبّكِ، أحبّكِ، لا، هذا مستحيل، لا ترحلي، وتتركيني وحيداً".

ردّدت المقبرة كلمات المحامي التّعس الذي انكفأ يحفر بفأسه تارة، وبيديه تارة أخرى، في لهفة عارمة تشبه لهفة هائم على جيفة، ويشقّ صدر اللّيل المظلم ببكائه المتفجّع وكلماته المتحرّقة.

في الصّباح كانت المقبرة هادئة مثل عادتها، وإن تعكّر صفو هدوئها بسبب جلبة حدثت بعد اكتشاف جثّة المحامي عزّت إلى جانب قبر "باميلا" في اللّيلة الماضية، الطّبيب الشّرعيّ قال إثر تشريح الجثّة إنّه مات ليلاً بسبب ذبحة صدريّة شديدة.

في ظهيرة ذلك اليوم دُفن عزّت إلى جانب قبر باميلا، فقد كان الأب المفجوع الذي مات حزناً على ابنته التّي انتحرت منذ يومين، هكذا اعتقد النّاس، وقف الكثيرون على قبره، وحزنوا للمأساة التّي حلّت بالأسرة الهادئة الطّيّبة التّي لطالما أحبّوها، وتمنّوا لو أنّ مكروها لم يحدث لها، كذلك تمنّت الزّوجة المفجوعة بابنتها وزوجها لو أنّها أطلقت العنان لقلب ابنتها، لعلّها لو فعلت لما كانت تقف الآن بين القبور لتودّع أحبّتها، تنهّدت بندم يكوي قلبها؛ لأنّها تعلم أنّ لا حيلة للأمنيات حيال الموت.

غادرت المقبرة التّي صكّ الهواء بابها القديم، فأطلقت صريراً حزيناً، طوّق القبور، ومن جديد ابتلعت المقبرة سرّاً جديداً، ومزيداً من الأحزان والخطايا.

عروس النّيل

تفوق بجمالها جمال "حتحور" إلهة الجمال والحبّ المصريّة التّي تحمل اسمها، في عميق تجويف عينيها ترى ليلاً نيليّاً صافياً، تتهادى فيه جنادل ونجوم، وتطفو على أحلامه ودموعه أزهار النّيل الجميلة التّي تُراقص صفحات النّيل التّي يضطرب ماؤها مطالباً بعروسه السّنويّة.

في المعبد ركعت عند قدمي تمثال الإله "رع"، وتوسّلت إليه ليقبل بها عروساً لنيله الغاضب الذي يجدّد غضبه كلّ عام مطالباً بابتلاع جمال أنثويّ مصريّ جاء على هيئة عذراء حسناء، تضرّعت لـ"رع" كي يهدي عذريّتها للنّهر العظيم، كان جسدها يشتهي أن يحتويه الجسد المائيّ الأعظم؛ لتحتوي ذلك المجهول، بكت، فغسلت دموعها قدمي تمثال "رع"، ولامست أطراف شعرها الشّوكيّ المستعصي بلاط المعبد، جسدها كابٍ على الأرض بركوع يشبه ركوع ظبية جريحة، ركوعها كان فاتناً، ثوبها البرتقاليّ مثل قرص شمس تتأهّب لمخاض لم ينجح في أن يطوّق أعضاءها البضّة المنفلتة منه بكبرياء، فخذاها اللّامعان وثدياها النّاهدان كبرديّة سحريّة لفتا نظر الكاهن الأعظم الذي تمنّى أن يحظى بجمالها الأسمر الأخّاذ، وحلم بارتشافة منه، عرض عليها أن تكون من نساء المعبد، لكنّها أبت، وقبّلت يديه طالبة أن يختارها عروساً للنّيل، كان غضب النّيل يعني الكثير عنده، لكنّ اشتهاء دمه لها كان أشدّ من خوفه من غضب الإله "رع" نفسه، لكنّها أبت إلاّ أن تهب عذريتها للنّيل الغاضب الذي يهدّد باجتياح الأراضي وإغراق المزروعات والمصريين.

استجاب لطلبها ولهفة في نفسه لم تقضَ، كان موكباً عظيماً ذلك الذي احتواها في طريقها إلى عريسها المائيّ الغاضب، كانت غارقة في ثوبها القطنيّ

الأبيض الموشّى بخيوط الذّهب، ومحلاّة بالماس واللّؤلؤ، شعرها الشّوكيّ مزيّن بالأصداف ونفيس الجواهر، وعيناها غارقتان في الكحلة السّوداء التّي تزيد من اتساعهما السّاحر، وتظهر أحزانهما، كما تظهر فيهما دمعة لا يُعرف لها معنىً، كانت محمولة على محفّة ذهبيّة مكللّة بالزّهور، ترتقي أعناق العبيد المشاة العراة، وأمامها طائفة من الكهنة والسّدنة على رأسهم "تي" كبير الكهنة، ومن حولها الجواري والحسناوات، ومن ثمّ باقي أهالي البرّ الذين خرجوا ليشهدوا ابتلاع النّيل لعروسه الحسناء.

في صفحة عينيها الهادئتين اللّتين تعكسان زرقة النّيل الهائج المسوّر بجموع الأهالي الذين جاؤوا من أصقاع بعيدة ليشهدوا هذا اليوم السّنويّ، لمحت أمّها وأباها وأختيها الصّغيرتين، كان في وجوههم حزن واضح واستسلام لمشيئة الإله "رع" الذي اختار ابنتهم لتكون عروساً لنيله المقدّس، مع أنّهم لم يكونوا ليُفلحوا في إخفاء فخرهم بأن تكون ابنتهم سليلة العائلة البسيطة العاملة في صناعة الأواني القشّيّة صاحبة الحظّ السّعيد في اختيار "رع" لها لتكون عروسه لهذا العام.

خواتمها الذّهبيّة التّي دُسّت صباحاً في يديها من قبل الماشطات اللّواتي تصدّين طويلاً لتجميلها وتطييبها لتليق بليلتها المشهودة، كانت تثقل يديها الصّغيرتين اللّتين اعتادتا على مداعبة القشّ، وثنيه لصنع السّلال.

ما أجمل صنع السّلال! إذا كان في ذلك فرحة بلقاء الذي تهوى وتعشق، عرفته منذ سنين، كان مهاجراً من النّوبة، أغرق النّيل في بعض صولات غضبه قريته، واختطف أبوَيْه، ليلفظهما بعد أيّام جيفتَيْن متحلّلتين، قدم حافياً شبه عارٍ، جسده القويّ وعضلاته المفتولة جعلت والدها يطمع في استئجاره؛ ليعمل معه في دكّانه، لعلّه يكون ابناً له عوضاً عن الابن الذي فشلت تعاويذ السّحرة والكهنة ووصفات الأطبّاء في استيلاده من أمّها التّي أجدبت مبكّراً دون سبب

معلوم، رحّب النّوبي الأسمر بعرض المصريّ؛ لأنّه كان في أمس الحاجة إلى مكان يأويه، واهتمام يشمله، وبدأت القصّة، كانت قصّة مثل قصص العشق كلّها.

ربط الحبّ بين قلبها وقلبه، وتاقت نفساهما إلى الالتحام، وكاد يكون ذلك، فقد رحّب والدها بالعريس الأسمر الذي سيغدو ولداً دائماً له، لا ولداً مأجوراً بالمال، ورحّبت الأمّ بالصّهر الذي سيبدد صحراء ابنتها، لكنّ النّيل الآثم لم يرحّب بسعادتهما.

لقد كان حبيبها في رحلة بحريّة إلى بلاده ليدعوا من بقي من أعمام وأخوال إلى زفافه على المصريّة السّمراء عندما هاج النّيل، وقلب قاربه الصّغير، وقدمه طعاماً ليّناً شهيّاً لتماسيحه المتوحشّة التّي يستفزّها القرم، شبعت التّماسيح ليلتها، وغاب من أحبّتْ.

لم تكن سعيدة بعريسها النّيليّ المنتظر بعد انتهاء مراسيم تقديمها له، بل كانت تكرهه، لكنّها أرادت أن تطعم نفسها لتماسيحه التّي ازدرت حبيبها، لعلّ أشلاءها ومزق لحمها تلقى مزق جسده، وتهنأ بجواره ولو لمرّة واحدة، لم يكن للحياة طعم من دونه، بل لم يكن لها مبرّر، لم تكن تعدّ نفسها عروساً للنّيل الأعظم الذي لم يرفق بقلبها، بل كانت عروساً لحبيبها المتلاشي، أرادت أن تلقاه بحفلة لها أبّهة وجلال مثل الحفلة التّي كان يحلم بها في الماضي، ويقصّر فقره دون أن يحظى بمثلها، جاءت تلبس الأبيض، وتتهادى على محفّة ذهبيّة، تسبقها التّرانيم المقدّسة، وتتبعها الموسيقات الفرحة والرّقصات المثيرة.

اعتلتْ المنصّة التّي كانت معدّة لها كي تهوي منها إلى حضن عريسها النّيل، كانت منصّة ممتدة في لسان صخريّ إلى وسط النّيل، تعالت التّرنيمات،

وجحظّت العيون، ووقف الجميع ينتظـرون حركتهـا الأخـيرة لتهـوي إلى المـاء، ألقت نظرة وداع على والدتها وأبيها وأختيْها، ومـن دون قصـد التقـت عيناهـا بعيني كبير الكهنة الذي كان يذوب حسرات لضياع الجميلـة الفاتنـة مـن يديـه، ارتدّت عيناها إلى نحرها حيث علقت فيه ورقة بُـردي قديمـة، فضّـتها مـن دون عجل، والعيون ترقبها بفضول، كان مكتوب عليها بخطّ فتاها النّوبيّ: "حتحـور، أنا أحبّك، ماذا عنكِ؟"

طـوت رسـالتها الخطـيرة، ضـمّتها إلى صـدرها، وقالـت بصـوت لـيس بالخفيض، وإن لم يجد النّيل صعوبةً في ابتلاعه قبل أن يسمعه أيّ شخص قريـب من المنصّة: "وأنا أحبّك يا حبيبي، انتظرني، أنا عروسكَ، أنا قادمة إليك".

قفزت في الماء، تعالت التّرانيم والموسيقات، واختفت الحلقات المائيّة حيـث انزلقت حتحور، وهدأ النّيل بعد أن نال عروسه الحسناء.

دعوة زفاف

لأوّل مرّة يلتقيان دون خوف، دون أن يخشى من عين فضوليّة تشي لزوجها بعلاقتها مع أستاذها العتيد، ودون أن يخشى من أن تفضحه الألسن، وتلوك قصته الأفواه، ودون أن يرى شكّاً في عيني زوجته، إنّها المرّة الأولى التّي يلتقيان فيها في هذا المكان، مع أنّهما التقيا فيه من قبل في المكان نفسه، وعلى الطّاولة ذاتها مئات المرّات، لكن لهذه المرّة طعم خاصّ.

مثل العادة كانت جالسة إلى طاولتهما التّي اعتادا أن يطلبا من نادل المقهى الوحيد أن يخرجها، ويضعها لهما في حديقة المقهى قرابة شجرة جوريّ الورديّة الزّهور، تجلس قبالة الباب تماماً لتراه حين يطلّ على المكان؛ فهي تعشق رؤيته ينسرب نحوها مشحوناً بهاجس الحديث معها، يقترب منها مثل عادته، وينكفئ على جسدها برويّة تستعجلها الأشواق، ويطبع قبلة على يدها، في لحظات تشعر بأنّها أميرة من عصر غابر، وهو فارسها المستعدّ دائماً لمحاربة الدّنيا من أجلها.

تلبس الأبيض الذي تحبّه، ويحبّه، وإن كان زوجها يبدي تبرّماً به، تغرز كوعها الصّغير في زجاج الطّاولة التّي أمامها، وتقرأ له طالع يومه في فنجان القهوة الذي تطلبه له قبل أن يأتي، وفي النّهاية يكون في انتظاره، بعد تحديق في قعر الفنجان الموشّى بليل القهوة، تقول له بابتسامتها الحارّة: "كالعادة في طريقك واحدة تلبس أبيض، تحبّك حدّ اللاّ حدّ، وهي أمامك الآن تنظر في عينيك".

لم يسرقا اليوم نفسيهما كالعادة من عالميهما، بل جاء كلّ منهما، وقد أعلن للعالم كلّه أنّه سيكون مع من يحبّ، ولن يفترق عنه أبداً؛ لأنّه لم يعدْ يخشى أيّ قوّة في الأرض، لا يخشى إلاّ البعاد.

عرفا أحدهما الآخر قبل أشرٍ طويلة، قابلها كما يُقابل الغرباء، كانت تجلس في الصّف الأوّل في القاعة التّي سيلقي فيها محاضرته اليوميّة، لمدّة فصل كامل كان هو من سيلعب دور الأستاذ الجامعيّ في لعبة غريبة على مسرح الحياة، لكنّ كلاهما كان يشعر بأنّ له دوراً مميّزاً مع الآخر، وصدقت الرّؤيا، وكانا توأماً روحيّاً لا يعرف الانفصام.

جاء إلى عالمها، فنسف زوجها من قلبها، ولم يُبقِ منه إلاّ الاسم والجسد، وجاءت إلى عالمه، فأصبحت زوجته وبناته الثّلاث خيالات تجوس في دنيا نورها الذي يغشاه.

عاشا ملحمة طويلة ومرهقة من التّخفّي والهروب، لكنّ السّرّ انكشف في النّهاية، طالبت زوجته بالطّلاق، فطلّقها معتذراً لها، وإن كان يعلم أنّ الاعتذار لن يعيد لها السّنوات الضّائعة، ولن يعوّضها عن زوجها الذي هجر بيته، وانزلق في حضن أخرى، كان حزيناً، وموزّعاً، لكن متأكّداً من أنّه ولأوّل مرّة يَختار، ولا يُختار له.

أمّا هي فقد وُصفت بالخيانة والغدر والتّردّي، طلبت الطّلاق، فرفض زوجها المكلوم بكرامته وشرفه أن يفعل ذلك نكاية بها، لكنّها أصرّت على الطّلاق على الرّغم من تنكّر عائلتها لها، وتوجّهت إلى المحكمة الشّرعيّة، تطلب حكماً يرأف بقلب امرأة خانت أعراف المجتمع، لكنّها وفت لمشاعرها ولحبّها.

ونالا الحرّيّة، كان أوّل لقاء ليديهما بحريّة أمام المحكمة الشّرعيّة التي حرّرته وحرّرتها من قيود الحياة الزّوجيّة، ارتقيا سيّارته، وهما يشبكان يديهما اللّتين تحملان حكم طلاقها، لقد تنازلت عن حقوقها الماليّة كاملة مقابل هذه الورقة، لكنّها سعيدة، اشترت حرّيّتها بأوراق ماليّة كثيرة، قرّرا أن يكون مقهاهما

السّرّيّ أوّل قِبلة لهما، جلسا إلى طاولتهما، أخبرا رامز نادل المقهى الـذي لطالما شهد دموعهما ورجاءاتهما أنّهما أخيراً حرّان، وكان أوّل مـن دعيـاه إلى حفلـة زفافهما.

طلبا منه ورقة بل أوراقاً ليدرجا فيها أسماء الذين يريـدان دعـوتهم إلى حفل زفافهما، وطالت القائمة حتّى استغرقت أوراقاً، فكّرا في أن يكـون البحـر مكان الحفل، ليدعوا سكّان الدّنيا كلّهم، لكنّهما سيحتاجان إلى ملايين الدّعوات والدّعوات، في ورقة أخرى رسما نموذجاً لشكل دعوات الزّفـاف، أنفقـا اليـوم بطوله يخطّطان لحياتهمـا، ويرسمـان أدقّ تفاصـيلها وجزيئاتهـا، خطّطـا لبيـت المستقبل، ولمكان شهر العسل، وللـون غرفـة النّـوم، ولعـدد الأبنـاء المنتظـرين، ولأسمائهم.

تذكّرا أنّهما لم يأكلا طوال اليـوم، تقلاّصـات معـدة كـلّ منهمـا ذكّرتهمـا بإلحاح بالجوع، اختـارا أطباقـاً لم يأكلاهـا مـن قبـل، أرادا أن يدشّـنا بهـا حيـاة جديدة، دقائق وكانت الأطباق تتهـادى أمـامهم، اللُّقيمـات الأولى لهمـا كانـت سريعة، ومتبادلة، كلّ يطعم الآخر، لكنّهمـا تـذكّرا أن لا داعـيَ للعجلـة؛ فقـد ذهب زمن الخوف، وما عادا يسـرقان الـزّمن مـن أحـد، أمامهمـا وقـت حتّـى الصّباح لإنهاء العشاء، أسعدتهما الفكرة، وأخذا يقهقهان فرحاً بها.

رنين جهازه المحمول قطع عشاءهما، تقلّص في مكانه عنـدما طـالع اسـم المتّصل، فتح الخطّ، وأجاب بإجابات مقتضبة، عندما أغلق الهـاتف كانـت هـي الأخرى تطالع ساعتها، قال لها: "يجب أن أغادر، لقد نسيتُ أنّني وعدتُ زوجـتي والبنات بعشاء في المطعم الصّينيّ".

أومأت بحاجبيها أنّها تفهم، وقالت: "وأنا أيضاً تأخّرت عـن موعـد عـودتي إلى البيت".

قال لها: "هل أوصلك إلى بيتك؟"

قال بقلق: "لا، أخشى أن يكون زوجي بالقرب من البيت، فيلمحني".

قال على استعجال، وهو يضع نقود العشاء في أحد الأطباق الفارغة: "إذن نلتقي غداً".

قال بنبرة حالمة: "نعم، نلتقي غداً".

قال وهو يغادر: "غداً سنتخيّل أنّك في مخاض الولادة تضعين مولودنا الأوّل".

ابتسمت، وقالت، وهي تتحسّس بطنها: "لكن يجب أن نختار مكاناً بعيداً ومعزولاً كي أصرخ، وألد على راحتي".

الهروب إلى آخر الدّنيا

خلعت الخاتم الذّهبيّ الذي يخصّه، وألقت به من نافذة سيّارة الأجرّة التي استقلّتها في طريقها إلى المطار، أخيراً تخلّصت منه، سنوات طويلة وهي أسيرة خاتمه، كرهته زوجاً، كلّما رأته، وحدّقت في جسده المسجّى إلى جانبها، تذكّرت أنّه بديل مسخ لمن أحبّت، كان بملامح غير مغرية، وجسده ليس بالغضّ ولا بالمترع.

يفهم الزّواج على أنّه عطاء وعطاء وتلبية حاجات ورغبات، وماذا عن الحبّ؟ لقد رحل مع ذلك الفتى الّذي أحبّته لسنين طويلة، ثم رحل ليبحث عن فرصة ما دون أن تعرف إلى أين كانت وجهته، وطال الغياب، وفقدتْ الأمل في أن يعود، ومرّتْ السّنون بها لتلقي بها في حضن رجل متكوّر البطن ذي شهادة عليا، وحياة كريمة، وأخلاق هادئة.

كانت حياتها معه رتيبة كثيراً، وهادئة إلى حدّ قاتل، لقد خانته عشرات المرّات؛ فقط لأنّها حاقدة على بلادته وعلى هدوئه وعلى رضاه عن كلّ شيء، لم يبال إن كانت سمينة أم نحيفة، لم يبالِ إن حملت منه أم لا؟ لا يشتهيها دون أن تشتهيه، لا يمنعها من زيارة، لا يتدخّل في حياتها، لا يحتجّ على سلوكيّاتها، هو موجود فقط لدعمّها وتوفير الحماية لها، اللّعنة عليه، فهو لا يعرف معنى الاحتجاج.

لم يغضب يوماً منها، لم ترتعد لحظة خوفاً من أن تفقده، لم تضبطه لحظة يتسلّل بنظراته إلى امرأة ما، لم يجعلها ليلة تنام باكية، لم تعرف معه غِيْلة شكّ،

ولا نظرة ريبة، كان يراها ملاكاً، ويفاخر الأصدقاء بها، حتّى طهوها الذي تعلم تماماً أنّه فاشل كان يستلذّ به، ويشيد بميزاته المزعومة.

أمام النّاس والأقارب والصّديقات اللّواتي فاتهنّ قطار الزّواج كانت تفاخر به، وتدّعي الوفاء والإخلاص له، وتجيد تمثيل دور الزّوجة المحبّة، لكنّها تكرهه، تكره جسده، تكره أنّه قد وُهب هذا الحظّ كلّه في الحياة ليمتلكها هي، في حين حُرِمَ من أحبّت من أيّ حظّ، فسافر إلى البعيد، ولم يعد.

كانت راضية؛ لأنّها لا تملك غير الرّضا، إلى أن تلقّت مكالمة قلبت حياتها كاملة، كانت مكالمة من الذي هجرها من سنوات، كانت مكالمة تحمل مشاعر متناقضة متضاربة في آن؛ الحبّ، والكره، والحقد، والغضب، والرّجاء، والتّسامح، والعشق، والرّغبة، كانت تحمل حتّى تلك المشاعر البشريّة التّي لا يعرف البشر اسماً محدداً لها، لكنّها تأتي متدفّقة متناقضة، فتسعد، وتتعس في لحظة واحدة.

انتهت المكالمة بلقاء، واللّقاء بآخر، والآخر بفراش، وعادت الأشواق، لم تكن حزينة بخيانتها بقدر ما كانت تخشى أن تُفضح، لكنّ شعوراً يحمل رثاء لزوجها الطّيّب كان يقفز من لحظة إلى أخرى إلى سويداء قلبها المسكون بالقادم من البعيد.

كان حبيبها بشباب وجمال الماضي، لكنّه الآن أكثر ثراء وأوسع خبرة وَفْق ما يزعم، وإن لم يدفع الحساب ولا مرّة واحدة في أيّ مكان ذهبا إليه، وبقي الوضع شأنه في ذلك شأنه في الماضي، يأكلان، ويشربان، وتحاسب هي، لم تبالِ بذلك، فقد كانت سعادتها به أكبر من الأموال والجوهر، وإن كانت صورة مقارنة عجيبة بينه وبين زوجها بقيت تلحّ على ذهنها.

كان زوجها مستغرقاً بمتابعة برنامج أفلام كرتون للأطفال عندما قرّرت أن تهجره، كانت قد حضّرت حقائبها، وحزمت أوراقها الرّسميّة والثّبوتيّة، وتأكّدت من جمع قطع مجوهراتها التّي أهداها زوجها إيّاها في مناسبات مختلفة، انتصبت قبالته، وقالت له ببرود: "طلّقني، أنا مسافرة إلى آخر الدّنيا، لم أعد أطيق المزيد، أريد أن أكون في أبعد نقطة عنك".

خفّض الرّجل صوت التّلفاز بالمتحكّم الإلكترونيّ الذي يحمله، وقال، كأنّه كان يتوقّع هذه اللّحظة من قرون: "هل ستسافرين وحدك؟"

أجابت بنبرة حادّة على خلاف تلك النّبرة الهادئة التّي اعتادها النّاس منها، وجذبت الكثير من الرّجال إليها: "لا، بل مع رجل أحبّه".

صمتَ زوجها، ووزّع النّظرات بينها وبين حقائبها: "لم تكوني قي حاجة إلى الهرب حتّى آخر الدّنيا حتّى تهربي منّي، كان يكفيك أن تخبريني برغبتك حتّى أُحققّها لكِ".

لم تعر كلماته أيّ اهتمام، واستدارت بعد أن انحنت، وحملت بيديها الاثنتين حقيبتين كبيرتين، وخطت خطوتين باتّجاه الباب الذي يفضي إلى الحديقة الخارجيّة، صرخ فيها قائلاً: "انتظري، هناك شيء يجب أن تأخذيه معك".

وقفت في مكانها دون أن تستدير، وقدّرت من صوت خطواته أنّه قد دخل إلى غرفة المكتب، وغاب لحظات، ثمّ عاد يحمل ورقة دسّها في حقيبة يدها، وقال بحزن لم تدرِ أنّه يملك مثله: "ستحتاجين إلى هذا".

رمقته بنظرة أخيرة، وقالت ببرود وقسوة: "سأنتظر ورقة طلاقي، ابعث بها إلى بيت أمّي".

صمتت، ولم تعد تسمع أيّ صوت له، لكنّها لم تبالِ، وكان صوت الباب الذي صكّته خلفها أخر عهدها ببيتها المهدوم الذي تحلم أن تحيي على طلله حبّاً مشروخاً ما زالت الذّاكرة تحلم به.

وصلت إلى المطار، جلست في مقصورة المغادرين تنتظر موعد طائرتها التّي أزف موعد إقلاعها، كانت تتفقّد أوراقها الثّبوتيّة عندما لمحت تلك الورقة التّي دسّها زوجها في حقيبتها قبل أن تغادر، بدافع الفضول التقطّتها من قعر الحقيبة لتعرف ما فيها، كان ورقها مألوفاً لها، فتحتها باستهتار، وعندها سقطت السّماء على الأرض على رأسها، لقد كانت شيك ماليّ بقيمة خياليّة تكفيها حتّى آخر العمر، لقد كان الشّيك بقيمة كلّ ما يملك زوجها، فهي تعرف تماماً مقدار ما يملك بحكم أنّ رصيدهما مشترك، وإن كان دورها في الإنفاق من هذا الرّصيد يختلف عن دور الزّوج في تمويله ورفده بالمال.

شعرت بأنّها تكاد تختنق، وبأنّ غشاوة على عينيها قد غادرتها، أحسّت بالدّنيا تدور، والمطار والنّاس يختفون، وهي تحلّق بمقعدها في السّماء، كانت تائهة وسعيدة في لحظة واحدة، قلبت الشّيك الماليّ، كان مكتوباً عليه بخطّ صغير مرتجف: "مع حبّي".

شدّت بقبضتها على الشّيك، فتجعّد في يدها التّي فقدت منذ زمن قليل خاتمها الذّهبيّ، افتقدت ذلك الخاتم بشدّة، "يا لي من حمقاء!"، قالت بحزن وندم، كانت تحدّث نفسها، وكان المكان فارغاً خلا منها ومن أنفاس زوجها التّي خيّمت على روحها،"ما أشدّ حمقي! لقد كان الرّجل الذي يجب أن أعشقه بين يدي لأعوام، ولم أعلم بذلك، كنت أعيش حالة حبّ، ولم أعرف بذلك، لماذا؟ لأنّني حمقاء، لا تعرف النّكهة الحقيقيّة للأشياء، أنا زائفة، ولا أعرف غير الزّيف".

صمتت عن محادثة نفسها بعينين زائغتين، ثمّ أجهشت بالبكـاء في قاعـة المغادرين، من جديد علا صوتها قائلة: "أنا أحبّ، أحبّ بشدّة، أحبّ زوجي".

كانت تحاول أن تكتم تأثّرها وانفعالها، وطفقـت تكفكـف دموعهـا، وهـي تدسّ قطعة معدنيّة في حصّالة الهاتف العموميّ؛ لتجري مكالمتها التّاريخيّة، لأكثر من مرّة كرّرت طلب الرّقم دون مجيب، وأخيراً ردّ صوت رجل باتت لا تعرفه، اسمه حبيبها السّابق، قالت له بعجل من سيُعدم: "أنا لن أحضر، أنـا لا أحبّـك، أنا عاشقة بجنون لكن ليس لك".

- "ماذا؟ ماذا حدث؟ أجيبي".

لكنّها لم تجب، وبقي صـوته معلّقـاً في الهـاتف الـذي تركتـه دون أن تغلـق سمّاعته المعلّقة بسلكها في الهواء، واستقلّت أقرب سيّارة أجرّة لتعـود إلى بيتهـا، كانت مشتاقة لزوجها، وملهوفـة علـى أن تعـيش حبّهـا الـذي انتظرتـه طـوال عمرها، تذكّرت كلمة صديقة سويديّة عرفتها مـن سـنوات، لقـد قالـت لهـا في معرض حديث ما لم تعد تذكره الآن: "إنّ الحبّ هـو العنايـة والاحـترام، ولـيس لحظة جسد وعناق وكلمات تتبخّر في أرض الواقع، الحبّ هو العطاء، ثقي تماماً أنّ من يحبّك دون مقابل هو من يحبّك بصدق".

هزّت رأسها يمنة ويسرة دلالة على ندمها، وعضّـت علـى شـفتها السّـفلى التّي لطالما قدّمتها شهوة سائغة للحبيب، وقـدّمتها كـدراً وغمّـاً للـزّوج، كانـت الدّقائق طويلة لتصل إلى بيتها، شعرت بأنّها قرون، فكّرت بأن تنزل من السيّارة لتسبق بركضها أزمان الدّنيا، فتحت باب السيّارة الـتي تسـتقلّها بعـد أن أمـرت السّائق بأن يتوقّف، وأكملت الطّريق إلى بيتها راكضة باكية ملهوفة، بعد نصـف ساعة من الرّكض الملهوف المحرق للرّوح والبدن وصلت إلى الحـيّ الـذي يقبـع

منزلها الفاخر فيه، كانت تلفظ أنفاسها المتقطّعة، وتحلم بلحظة سترتمي فيها في حضن زوجها، وترجوه الإياب، وتبدأ معه ملحمة من ملاحم الحبّ، ووصلت، ووجدت البيت كما وجدت الحبّ الذي عادت تحمله مكلّلاً بالخيانة والغدر، لكن زوجها لم يكن في انتظارها؛ لأنّه كان في طريقه إلى المشرحة بعد أن توقّف قلبه إثر نوبة قلبيّة حادّة.

لم تذهب إلى المستشفى، لم تردّ على أيّ مكالمات بعد المكالمة التّي عرفت منها أنّ زوجها غدا جثّة هامدة عليها أن تستلمها في تابوت، أغلقت الباب، وتزيّنت كما لم تفعل من قبل، ودخلت لتهيّأ طعام العشاء، بالتّحديد هيّأت الطّبّق المفضّل عند زوجها الذي كانت تسميه باسمه تقزّزاً، أوقدت ثلاث شمعات في الشّمعدان الفضّيّ القديم، ووسّطتها بين أطباق طعام العشاء، وركنت إلى أقرب أريكة من باب البيت، تنتظر أوبة زوجها من عمله لأوّل مرّة في حياتها، وطال انتظارها، وفكّرت من جديد بالهرب إلى آخر الدّنيا.

دعوة إلى الحبّ والحياة

غائب هو من سنوات، لكنّه ما زال حاضراً بتفاصيل وجوده وتجلّياته كاملة، كلّ صباح تشرب القهوة مع طيفه في شرفة منزلهما التّي تتّسع فقط لكرسيين وطاولة صغيرة، الكرسيان أحدهما لها والآخر له، هو يحبّ الجهة اليمنى؛ ليطلّ منها على حديقة الجيران المجللّة بالزّهور اليافعة، وهي تحبّ المقعد اليسار؛ لأنّه يطلّ على صفحة وجهه الصّبوح، أمّا القهوة فهي سكّر زيادة كما اعتادا على شربها.

في غرفة النّوم منامة النّوم خاصّته ما تزال معلّقة على المشجب حيث اعتاد على أن يعلّقها في كلّ ليلة، بضعاً من شعرات رأسه الذي كان يربّيه ليسترسل حتّى أعلى ظهره ما تزال عالقة في مشطه بعد آخر مرّة مشّط بها قبل أن يسقط شعره الذي أحبّه، وهو يستسلم بانكسار إلى العلاج الكيميائيّ والنّوويّ الذي تعرّض له طويلاً أملاً في صدّ طغيان السّرطان، لكن دون فائدة، فما لجم العلاج السّرطان، ولا نمى الشّعر من جديد، ولا نجا الزّوج الحبيب ذو الشّعر الطّويل المسترسل من الموت.

ما زالت بعد سنوات طويلة وحيدة في بلّورة زجاجيّة اسمها هو، لم تخرج منها أبداً، ولم تعد تريد أن تخرج منها، الكلّ تركوها لتعيش الحياة الذي اختارتها، وها هي تعيش في زمن انتهى، ولا تبارحه أبداً، تعيش مع من أحبّت رغم أنف الموت، لا تخرج من بلّورتها أبداً، في الشّارع في العمل في البيت هو معها، وهي معه، بالطّقوس ذاتها، وعلى وقع الأوقات ذاتها.

لا تسمح أبداً لأحد بأن ينزلق في بلّورتها، حتّى أولئك الذين أتعبهم الوقوف على أعتاب عالمها، دون أن تعنّي نفسها بالنّظر إليهم، أفلوا دون رجعة، إلاّ ذلك الوسيم الأسمر الذي يرأس القسم الذي تعمل فيه من أشهر، فهو مصمّم على الوقوف على أعتاب عالمها الذي تعيش فيه، بل ومصمّم على الولوج فيه، هو يريدها زوجة له، ومصمّم على ذلك، ولا يقبل بفكرة الانهزام أمام رجل ميّت تعيش المرأة التي يحبّها مسجونة معه في الأوهام والزّمن الماضي.

لكنّها لن تبالي، يكفيها أن تشترّ لحظات سعادتها مع الحبيب الرّاحل حتّى تشعر بالسّعادة ذاتها، وإن كانت تتملّكها لحظات من الأسى تشعرها بالفراغ والوحدة، وتدفعها إلى حالة هستيريّة من البكاء والأكل إلى أن غدت امرأة مكسوّة بالهموم والدُّهن المتراكم في طبقات قبيحة منفّرة.

فكّرت كثيراً بالانتحار، بل وأقدمت عليه مرّة، لكنّ قوّة ما أنقذتها من الموت، أو لنقل حرمتها منه، وهي من ترى في الموت الطّريق الوحيدة للوصول إلى من تحبّ، في ما بعد عدلت عن فكرة الانتحار للأبد؛ لأنّها في ما بين سكرات الموت وغياهب الغيبوبة رأت زوجها لاوي الوجه، معاتب الصّوت، أمرها بصوته الأجشّ أن تعود إلى الحياة، وأن تهجر الموت الذي تسعى إليه؛ لأنّه رهيب، عندها استيقظت من غيبوبتها، وتماثلت للشّفاء، وعادت إلى الحياة، مع أنّها لم تعد أبداً.

اليوم مثل كلّ يوم تناولت الغداء مع طيف الغائب، وشربت معه الشّاي قبل القيلولة، ثمّ تناولت الصّحيفة التّي اشترتها صباحاً، وبدأت بمطالعتها، لا سيما عمود "لحظة جديدة" الذي يكتبه صحفيّ مشهور ومخضرم.

لقد اعتادت على أن تقرأ هذا العمود مع زوجها منذ أن كانا في فترة الخطبة، لقد أحبّا هذا العمود؛ لأنّه يملأ الدّنيا حبّاً ورغبة بالحياة والاستمرار.

وبقيت على نذر قراءته يوميّاً، مع أنّ الحياة توقّفت عندها، وانحلّت في خيالات رجل لم يستطع الموت أن يكسر حبّها له؛ فلا غرو أن ترفض الاستمرار في طقوس الحياة من دونه.

اعتادت على أن تقرأ العامود اليوميّ دون تعليق، كأنّها عابد يمرُّ للصّلاة في معبده، ثمّ ينطلق لا يلوي على شيء، لكنّ عامود اليوم استفزّها إلى درجة الجنون، جرح صمتها، وتحدّى أحزانها، فثارتْ، وغضبتْ، ومزّقت الصّحيفة، وانخرطتْ في نوبة من البكاء، تلتها نوبتها المعتادة من الشّراهة، ثمّ سمحت لنفسها بأن تخرج من بلّورتها قليلاً، لتبحث في دليل الهاتف عن رقم هاتف ذلك الصّحفيّ، وتطلب منه موعداً مستعجلاً، بل وتلحّ على ذلك، لكنّ طلبها رُفض، وأُخبرت أنّ الصّحفيّ لا يقابل أحداً، لكنّها احتالت في السّؤال حتّى عرفت عنوان منزله، وقرّرت أن تداهم عالم ذلك الصّحفيّ شاء أم أبى، لتقول له إنّ مقالته السّخيفة المعنونة باسم "دعوة إلى الحبّ والحياة" سخيفة كثيراً، ولا تعرف شيئاً عن الأحزان والانكسارات، فأنّى للإنسان أن يهجر الماضي، ويتجاوز الأحزان، ويبدأ من جديد؟ وماذا عمّن قُطعت بهم السّبل، وخرجوا مجبرين من رحلة الحياة؟ أننساهم؟ ونتخيّل أننا لم نلقاهم، ولم نعرفهم، ولم نعشقهم؟

كانت نفسها تردّد كلماتها وحيرتها، وهي تنتظر أن يُسمح لها بمقابلة الصّحفيّ بعد أن داهمت بيته، ورفضت أن تخرج منه دون مقابلته، عرضت الخادمة عليها أن تترك ملاحظة مكتوبة بما تريد، لكنّها رفضت ذلك بإصرار وعاند، وصمّمت على اللّقاء بالصّحفيّ، ومن الدّاخل سمعت صوت رجل

يطلب من الخادمة أن تسمح لها بالدّخول عليه، بعد أن حمل صوتها المنفعل طلبها إليه.

توقّعت أن تدخل إلى غرفة المكتب، لكنّها تفاجأت عندما وجدت الخادمة تقودها إلى غرفة النّوم، وتستأذن بالخروج من المكان، وأصبحت قبالته تماماً، صحفيّ في آخر الأربعينات، أشيب الشّعر، وهادئ النّظرات، تساءلت في نفسها: "أهو مريض؟" وتبخّرت الكلمات التّي حضّرتها من قبل من رأسها المملوء بالاضطراب، بادرها بالقول بصوت هادئ حنون: "سمعتُ أنّك محتجّة على مقالتي الأخيرة"، شعرت بأنّ كلماته قد داهمتها، وتلعثمت، وهي تقول: "الحقيقة، أنا عندي بعض الاحتجاج عليها".

ابتسم لها ابتسامة عريضة، وقال: "احتجاج على المقالة أم على الدّعوة للحبّ والحياة؟"

قالت بمرارة: "احتجاج على الموت، وعلى الدّعوة لنسيان من أحببنا، والاستمرار في الحياة، كأنّ شيئاً لم يكن".

صمت الصّحفيّ المسجّى في فراشه لبرهة كأنّه يتأمّل في فراغ، ثمّ ابتسم بمرارة، وقال لها: "أشعر بالحرّ، هل يمكنك أن تساعديني بإزاحة هذا الغطاء عن جسدي؟" لم تكن تتوقّع أن ينحرف الحديث إلى طلب خدمة غريبة كهذه، لكنّها وجدت نفسها ملزمة بالاستجابة لطلبه، أزاحت الغطاء دون مبالاة، فبرز جسد الصّحفيّ، جذع صغير منكمش دون أطراف بل برأس يتوسّطه فمٌ لا تفارقه ابتسامة سلامٍ وحبّ.

جزعتْ ممّا رأتْ أيّما جزع، وأفلتت منها صرخة لم تستطع أن تكتمها، جحظّت عيناها، وقالت كمن يطارد كابوساً: "مستحيل، ما هذا الذي أراه؟"

اتّسعت ابتسامة الصّحفيّ، وقال وفي عينيه حنان يكفي ليُنبت له يدين، وليحتوي خوفها وحزنها وإشفاقها: "كنت في رحلة شهر العسل مع المرأة التّي اخترتها دون نساء الأرض زوجة لي، تعرّضت لحادث رهيب، فقدتُ أطرافي فيه، أصبحتُ عالة عليها وعلى حبّنا، لم أعد قادراً على إسعاد أيّ امرأة، بتُّ في حاجة فقط إلى ممرّضة، طلّقتها، ووهبتها شطر ما أملك، تمنّيتُ لها السّعادة من كلّ قلبي، وارتحتُ عندما وجدتها مع غيري تعيش حياتها بسعادة، ومع ذلك ما أزال أدعو إلى الحبّ والحياة، ألستُ جديراً بحمل لواء هذه الدّعوة؟ أنا لا أعرف أيّ الأحزان تأسرك، لكنّني متأكّد من أنّ هناك ما يستحقّ الحياة، وأنّ في القلوب الطّيّبة قدرة دائمة ومتجدّدة على الحبّ والعطاء، تمرّدي على الضّعف، وابدئي من جديد، عندها فقط ستعرفين أنّي كنت محقّاً في دعوتي للحبّ والحياة، والبداية الجديدة لا تعني أنّنا قد سلونا من أحببنا في الماضي، بل تعني أنّنا صنعنا من حبّهم حبّاً جديداً".

أرادت أن تشكره، أو أن تواسيه، أو حتّى أن تكبّ على جبينه، وأن تطبع قبلة إكبار واحترام ومواساة له، لكنّها عجزت عن ذلك كلّه، وولّت هاربة من المكان وهي تختنق بدموعها السّخيّة السّخينة.

في الطّريق إلى البيت شعرت بأنّها تستحقّ فرصة جديدة للحياة، لم تسمح لطيف زوجها بأن يرافقها في رحلة العودة، انتحبت طويلاً، واشتاقت للخروج من السّجن الذي أسمته الوفاء والذّكريات، اجتاح نفسها رضا دافئ، وهي تقف على أطلال الماضي باحترام، وتودّعها بعد سنوات من التّوقّف على دارسها.

وصلت إلى البيت متأخّرة ومتعبة، لم تمارس طقوس دخول المنزل التّي اعتادتها مع زوجها الرّاحل؛ لأنّها أيقنت أنّه قد رحل دون عودة، وقد آن أوان

توديعه، وقدّرت أنّها في حاجة إلى تغيير تسريحة شعرها، وتغيير لونه، كذلك هي في حاجة إلى تغيير أثاث المنزل الكسير الغارق في الحزن الـذي طالعـت صـورته منعكسة في المرآة.

فتحت دليل الهاتف، وأدارت قرص الهاتف، وانتظرت لحظـات، ثـمّ جـاء صوت مديرها الوسيم الأسمر، قالت له: "أنا لن أحضر غداً إلى العمل".

قال باهتمام: "خير إن شاء اللّه".

قالت بابتسامة ودلال: "أحتاج لبعض الوقت كي أُهيّئ نفسي لحفل الزّفاف".

قال بوجوم: "زفاف من؟"

قالت بمشاكسة وضحكة رنّانة مدلاع: "حفل زفافنا".

أنامل ذهبيّة

جمعهما شيء واحد، وهو الغربة، ثمّ وُلد بينهما شعور حميم اسمه الألفة، كلاهما كان غريباً في أرض غريبة، هو جاء من قلب صحراء الفقر؛ ليبحث عن عمل يكسبه الرّزق بكرامة، لم يملك شهادة أو خبرة مميّزة، لكنّه كان يملك قلباً من حديد، وإرادة صقلها الحرمان، هي جاءت من أقصى أرض الجليد والحرمان لتبحث عن عمل ينقذها من الفقر والفاقة، كانت مهاراتها محصورة، ومواهبها محدودة مثل جمالها الفاتح اللّون، المطعّم بنمش زهريّ صغير.

التقيا في مؤسّسة صناعيّة كبيرة في إحدى الأقاليم النّائية، حيث لا أحباب ولا ألفة أو حتّى لا كلمات يفقهانها، أو لغة يتدبّران بها معاً.

في البداية كان يقضي ساعة الغداء وحيداً في ركن بعيد من مطعم المصنع، يحادث نفسه بلغته التّي لا يعرف غيرها ليحادث بها أيّ إنسان هناك، ثمّ يهرع إلى الآلة التّي يعمل عليها طويلاً دون حاجة إلى كلام بلغة لا يعرفها، ثمّ ظهرت هي في أفقه، كانت بمثل انكساره ووحدته، بينها وبين الآخرين لغة تجهلها هي الأخرى، وبينه وبينها لغتها التّي يجهلها.

رحّبت به بابتسامة عريضة ومتلهّفة عندما جلس إلى طاولتها، وبدأ الحديث، وطال، واستطال، وتشعّب، لم يكن حديث الكلمات التّي لا يفكّان طلاسمها حاشا قليل منها، لكنّهما تفاهما بأناملهما الذّهبيّة، خلقا لغة إشاراتٍ بأناملهما المتلهّفة على الألفة.

عرف الكثير عنها من حركة أناملها الذّهبيّة البيضاء مثل الشّمع، الممشوقة مثل سبائك الذّهب، وعرفت الكثير عنه من حركات أنامله التّمريّة اللّون التّي لا تخفي آثاراً واضحة لحياة صعبة وشاقّة عانى فيها طويلاً.

أناملها الذّهبيّة وحركتها السّحريّة خلقت آلاف المواضيع، وفتحت آلاف الحكايات، الشّيء الوحيد الذي عرفاه بالكلمات كان اسميهما، كلّ منهما أخبر الآخر باسمه بلغته وبلكنته وبصوته.

التقيا كثيراً، زارا معاً الأماكن الرّتيبة في المقاطعة النّائية، تحدّثا عن حياتهما وآمالهما، ناقشا معاً الأفلام التّي حضراها، زارا المحميّات الطّبيعيّة الخلاّبة في المقاطعة، خيّما معاً، وسبحا معاً، حدّثته عن أرض الثّلج وطنها، فحدّثها عن أرض الشّمس وطنه، أرته صور أفراد عائلتها، فأراها صور أفراد عائلته، بنيا أملاً مشتركاً في هذه الأرض الجديدة، وتزوّجا.

بنيا مستقبلهما، وأنجبا طفلين رائعين، وتحسّنت أوضاعهما، وتقدّم السّن بهما، وبقيت أناملهما الذّهبيّة متخاصرة متعانقة وعاشقة، إلى أن وقع الخلاف بينهما، كانت الكلمات أقسى ممّا يحتملان، اتقنا لغة مشتركة جديدة، ليست لغته الأم، وليست لغتها الأم، بل لغة المكان الذي استوطنا فيه، جرح أنوثتها وصمودها الطّويل، وجرحت حبّه ومشقّته الطّويلة، وكاد ينهار المكان، هدّدت بالعودة إلى وطنها الثّلج، وهدّد باختطاف الطّفلين، والعودة بهما إلى وطنه الصّحراء.

كان القضاء بينهما، كان غاضباً منها، وهي كذلك كانت غاضبة مهنه، لكنّ شبح الفراق أشدّ ما كان يؤلمهما، منعه محاميه من أن يكلّمها، ومنعها محاميها من أن تكلّمه، لكنّ نظراتهما لم تطعِ أيّ كلام أو أوامر، وتعانقت في لحظة صمت.

كانت شاحبة مثل الثّلج، كان مشتعلاً غضباً مثل الشّمس، اقترب منها، وجلس إليها، عجز عن أن يصنع أيّ كلمة مناسبة للحديث، فامتدّت أنامله في

الفضاء، تحدّثت بأبلغ لغة، وتكلّمت أناملها، ومن جديد صنعت الأنامـل بلغـة الإشارة أجمل صلح، وخرجا من المحكمة بأنامل متعانقة، وأجساد متلاصـقة، ولم يسمعا كلمة القضاء في أمر نزاعهما المقيت.

عينا خَضِر [1]

آهٍ من عيني خَضِر، ومن لا يعرف عيني خَضِر، فلينظر في عيني، ليرى عيني خَضِر على امتداد أحلامهما وما بين الرّمشة والأخرى، تينك العينين اللّتين تنزرعان في أديم وجهه الحنطيّ، وتُشرقان مثل نخيل أخضر ببريق شمسيّ باهر في بيداء أشواقي، تلك الأشواق التّي وُلدت منذ أن كنّا طفلين، وعندما كبرنا، قلتُ له بحزم يغلّفه دلالي الرّيفيّ على استحياء الصّفصاف: "تزوّجني يا خَضِر، وإلاّ سوف أقتل نفسي، وتكون خطيّتي في رقبتك إلى يوم الدّين".

لكزني عندها برفق على غير استحياء، وقال لي وآلاف البيّارات تشرق في عزم عينيه: "الله يلعن الذين خلّفوكِ، لا أستطيع العيش بدونك، والله سوف أتزوّجك بعد موسم الحصاد".

وصدّقتُ عينا خَضِر، وتزوّجنا، وبِتّ في كلّ ليلة أتعبّد في محراب عينيه؛ لأغفوَ على رموشهما، ووزاد عشقي لعيني خضر اللّتين تحملان من العزم والحبّ ما لا يعرفه الكثير من البشر.

لقد أهدى حبّه لأرضه التّي كان يحدّثني عن حبّه لها في كلّ ليلة، كما يحدّثني عن حلمه في أن يعيش فيها في سلام، في منأى عن كوابيس الصّهيونيّة وجبروت الموت والدّمار، وانا أهديته حبّاً آخر على شكل حركة قدسيّة تسكن في أحشائي، وتمور بعشقي، وتغرسني في دنيا من السّعادة، وأنا انتظر شجيرة آدميّة

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة الكاتب الشّاب في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٦، مؤسّسة عبد المحسن قطّان، رام الله، فلسطين، كما حازت على جائزة رابطة الأدب الإسلاميّ في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٤، رابطة الأدب الإسلاميّ، عمّان، الأردن.

زرعها خضر في داخلي تُسمى طفلنا، وأحلم بأن تُشق عينا غرستنا على مثال عيني خَضِر.

في كلّ ليلة تحسّس خَضِر بطني؛ ليطمئنّ على غرسته، ثم يغفو وهو يحلم بطفل يُولد في أرض محرّرة، يغفو على الحرّيّة، ويستيقظ على مداعبة النّفوس العاشقة لأرضه المعطاءة، وعلى صوت مآذن القدس، وأخيراً تفتّق جسدي العاشق عن غرسنا الجميل، كانتْ العيون كلّها حولي، إلاّ عينكَ يا خَضِر، آهٍ من القهر والموت، العيون كلّها تجتلي طفلكَ، وتقبّله، إلاّ عينيك يا خَضِر، فهما تستحمّان في غياهب الموت، وتقدّمان محجريهما للدّود والعفونة، كما قدّمتَ مكرهاً نورهما لعدوّ غاصب لئيم.

في البدء سرقوا أرضك، سرقوا جنّتك القدسيّة كما كان يحلو لك أن تسمّي أرضنا الواقعة في شمال القدس، ثمّ أطمعوا شبابك وكبرياءك لسجونهم المتعفّنة، وكبّلوا ثورتك وغضبك بأغلالهم الحديديّة، فصادروا صرخاتكَ ورفضكَ.

ماذا بقي بعد ذلك ليسرقوه؟ لقد اغتالوا نور عينيك، وقدّموه لصهيونيّ يعاني من مشكلة في قرنيّتيه، أخذوا قرنيّتيكَ، سرقوا عينيكَ يا خَضِر، وحرموك من متعة استقبال منظر الفجر في أفق المسجد الأقصى، ومن اجتلاء بريق قبّة الصّخرة في سويداء الأفق، وأودعوك التّراب دون عينين، بل دون أن تودّعك عيناي، وتجلّلكَ بزهو عشقي، وآس حسرتي.

يا خَضِر، حسرتي عليكَ شوكة في القلب، وآهٍ من أشواك القلب، ننزعها من القلب، وعلى الرّغم من ذلك تستمرّ في نخزه دون رحمة، كانتْ ليلة دافئة في حضنك، لا، بل كانت ليلة باردة برحيلك، عندما انتزعوكَ من حضني، قبضوا

عليكَ ليلاً، اقتادوك بملابس النّوم، قلتَ لي ليلتها آخر كلماتكَ: "خذي بالك من الولد والزّيتون يا زوجتي الحنون"، وغبتَ في الظّلام المخيف.

ماذا كانت تهمتكَ؟ كانت تهمتك هي حبّ القدس أليس كذلك؟ في اليوم الثّاني جاء الجنود وجرّفوا الأرض، واغتصبوا زيتوناتها الواحدة تلو الأخرى، وألقوا بها بعيداً وهي تنزف، لم أستطع أن أحميها يا خَضِر، ولم يسمحوا لي بزيارتك.

بعد شهر قالوا لي وللجميع إنّكَ قد مِتّ في السّجن، لم يسمحوا لنا بأن نراك، بل أسلموا جسدكَ ليلاً لأبيك وإخوتك؛ لتدفن في جوف اللّيل، وهمس الجميع بحسرةٍ مطحونة: "جثّة خَضِر دون عينين".

أقسمتُ على أن أعيد عينيكَ لك، ليلاً ونهاراً بحثتُ عن سرّ اختفاء عينيك، عندما كنتُ أنام كنتُ استظلّ بنورهما، دفعتُ كلّ ما أملك لمعرفة سرّ اختفائهما، دفعتُ القلادة الذّهبيّة التّي دفعتها مهراً لي، وبلكنته العبريّة اللّعينة باح لي ذلك المجنّد الصّهيونيّ الخائن بكلّ شيء: "لقد قتلوكَ كي يحصلوا على قرنيّتيكَ من أجل صهيونيّ مهدّد بالعمى، يمتّ بصلة قرابة إلى جنرال المعتقل"، ذلك الجنرال البغيض الذي يسكن في آخر الحيّ القديم، حيث استولى المستوطنون على بيت جدّي علي قبل سنوات، وضمّوه إلى ممتلكات اليهود.

عندما قلتُ لأهل البلد أنّ عيني خَضِر لا ترضيان بأن تنيرا درب صهيونيّ غاصب، ولا أن تسكنا في جسده إلى الأبد، بكى بعضهم من كلامي، وأمّا الأكثريّة فقالوا: "أرملة خَضِر راح عقلها، قد جُنّتْ منذ موت زوجها في المعتقل".

آخٍ يا وجع قلبي، لا أحد يفسّر كلمات عيني خَضِر كما أفعل، لا يمكن أن تشعرا بالسّعادة طالما هما تسكنان مجبرتين في جمجمة عدوّ آثم، لا بدّ أنّهما تشعران بالأسى والقهر في سجنهما الآدميّ البغيض هذا.

سأحرّرهما من سجنهما الآثم، سأعيدهما إلى جسد خَضِر، سأعيدهما إلى رحم أرضنا فلسطين، وليصفني النّاس بالجنون، فما هذا بعصر العقلاء.

طوال أسابيع ناجتني عينا خضر اللّتان تسكنان جمجمة ذاك المستوطن الصّهيونيّ الذيّ احترفتُ مراقبته وتأمّل عيني خَضِر في مقدّمة جمجمته اللّعينة، لا بدّ أنّهما عرفتاني، وتطلبان عوني، ابتسمتُ طويلاً لعيني خَضِر في وجه الصّهيونيّ الذي سرق حياة خَضِر ليسرقهما، زففتُ إليهما بشرى ولادة طفلنا "عودة"، بحتُ لهما بأشواقي، راقبته كلّ يوم، وسرتُ بالقرب منه في طريقه إلى المستوطنة التّي بنيت بالقرب من أرضنا المغتصبة.

عينا خَضِر تملكان يدين تحضناني بدفء، تكفّنان أحزاني، تدعواني إلى احتراق الفنّيق، تدعواني إلى ضمّهما، وإلى إطعامهما لدود الأرض التّي يعشقها، ترفضان جمجمة الصّهيونيّ.

أخيراً اقترب أوان الاحتضان، ما عادت عينا خَضِر تطيقان الغربة، وآن زمان اللّقاء، اقتربتُ من المستوطن، لم أرقب قسماته وانفعالاته، بل راقبتُ باهتمام عيني خَضِر اللّتين تسكنان برفض في مقدّمة وجهه، عانقت نظراتي وحدتهما وغربتهما، مددتُ يدي إليهما بشوق، ثوانٍ بسرعة الجنون مرّت، الصّراخ يتعالى، المستوطن يتمرّغ في دمه مثل الثّور الجريح، صرخاته تهزّ المستوطنة، عدد من الرّصاصات الباردة تعاجل جسدي لتسكن فيه باشتهاء آثم، لا بدّ أنّها رصاصات المستوطنين الصّهاينة، ليكن، أنا لا أبالي برصاص الجبناء.

الدّم يغادر جسدي سريعاً كأنّه يشتهي ذلك منذ زمن، الجلبة تملأ المكان، مآذن الأقصى آخر ما تلمح عيناي، جسدي يترنّح، ويكاد يلقي بنفسه في كفّ شبح الموت الذي يمدّ يديه لالتقاطي بفضول خاصّ، اتّفقد يدي بفضول وإعياء

شديدين، أظافري الطّويلة التّي حرصتُ على حددتها وطولها من أجل هذا اليوم تسكن بينها وبين اللّحم شراذم من لحم وأنسجة ودماء عين المستوطن، وفي الكفّين يا لهفي ترتاح عينا خَضِر اللّتين انتزعتهما بأظافري من جمجمة الصّهيونيّ، تتمدّدان في كفي بلزوجة الدّم وحرارة الرّوح، ينزلق ماؤهما بين أصابعي التّي شرع الموت يخلع عزمها، أشدّ عليهما بقوّة، ما أجمل هذه الغنيمة!

عينا خضر لن تسكنا جسد الصّهيونيّ بعد الآن، الموت يأكل جسدي بإصرار، رصاصات أخرى تستقرّ فيه، يسفّ فمي شيئاً من تراب الأرض، وتذيب الدّماء آخر أنفاسي، أسلم روحي لبارئها طائعة راضية، وفي كفي تستلقي عينا خَضِر اللّتان تنتظران طائر الفنيق، وتقبّلان الأرض المقدّسة التي طال شوقهما إليها.

كرنفال الأحزان [1]

تستهويني الكرنفالات، تستفزّني نزوة الهدايا وهمس الكلمات ولهاث القبل، تشعرني بقرع جنونيّ يمزّق أشلاء أفراحي، فتتراقص أحزاني بولع وتيهٍ بين جموع الرّاقصين، تستقبل ببرود قطرات الصّراخ ودفعات الأجساد المسكون بحمى الرّقص والفرح، وبين آلاف الأجساد الرّبيعيّة والأحلام السّرمديّة تتراقص أحزاني عارية تماماً؛ ففي الكرنفال لا تُلبس إلاّ الأفراح، أمّا الأحزان فتلبس أجسادنا.

حتّى أجسادنا تعرف معنى نشوة الكرنفال، في الصّباح نصحبها برضا إلى السّاحات تشارك وجداننا في سعادته، فتّتشح بالزّاهي من الألوان معلنة أفراح الزّمن. لكن أين جسدي هذا الصّباح لأصحبه إلى الكرنفال؟

بدا كلُّ شيء غريباً عليّ؛ فأنا لا أجد جسدي، مرعب أن تستيقظ فلا تجد جسدك، بحثتُ عنه في أنحاء الغرفة فلم أجده، لكنّني وجدتُ منامتي على السّرير الذي تسكنه الفوضى، في الحمام سمعتُ صوتي يتأوّه تحت شآبيب الماء السّاخنة، لفحتني رائحة صابون النّعناع الذي استحمّ به كلّ يوم، بل أقسم على أنّي سمعت صوت مياه الصّنبور تهشّم جلبة مضمضتي بالماء والصّابون.

إذن جسدي في الحمّام يغتسل، وأنا كما الطّفل المعاقب أخشى أن أقطع بضع خطوات لأتأكّد من وجوده، لكن ماذا لو كان الغريب الذي في الحمام ليس جسدي؟ إذا لم يكن جسدي فمن تراه يكون؟

١- حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة قسم اللّغة العربيّة في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٤، قسم اللّغة العربيّة، الجامعة الأردنيّة، عمّان، الأردن.

لا، لا، هو جسدي دون شكّ، فمن سيستحمّ في حمّامي غير جسدي؟ سأختلس بضع نظرات لأتأكّد من أنّ جسدي في الدّاخل. لكن ماذا لو كان عارياً؟ بالتّأكيد سأسبّب الإحراج له، هل سيُصدّق أنّه جسدي؟ يجب أن يصدّق أنّه جسدي؛ أنا لا أكذب، وهو يعلم ذلك. لكن إن كان الغريب الذي في الدّاخل هو جسدي فمن أكون أنا الواقفة هنا.

للحظات شعرتُ بعيني تزوغان بوجل بحثاً عن إجابة تخشيان أن تجداها، شعرتُ بأنفاسي تتقطّع، وبطيفٍ من الجفاف يلفح حلقي، صمتُ بحذر وترقّب، ثمّ انهمكتُ في فيض من الضّحكات؛ فمن المضحك أن أخشى أن ألقي نظرة على جسد غريب يُسمّى جسدي، وساخر أن تستيقظ فلا أجده بعد ملازمته الطّويلة لي.

أسندتُ ظهري إلى حائط الغرفة بتعب من حطّمه الانتظار، وبانزلاق يشبه خلجات غريق يستسلم للموت تكوّمتُ على الأرض، خشيتُ أن أُحدِثَ أيّ صوت، فيسمعني جسدي.

بيني وبينه بضع خطوات تساوي آلاف المسافات، تساوي السّنتمترات التّي فصلتني عنكَ في أوّل لقاء، وخلتها مثل سنين ضوئيّة، كنتَ حينها تتكلّم بهدوء عجيب تحترق بوهجه آلاف الكلمات، وتُولد في رحمه آلاف الهمسات والأمنيات، نظراتكَ كانت تركض سريعاً، تتفحّص الوجوه، تحثّها برفق على السّماع، ثمّ تركض بنزق؛ لتسبح في بحيرة من المجهول.

أنهكتني نظراتكَ، وأنا أركض خلفها، أحاول أن أدعوها لتصافح نظرات عيني لتراقصها ولو لدقائق، لتحضنني وتحرقني بقدسيّة كما يحترق البخور، لطالما خشيتُ من صوت لهاث نظراتي التّي تطير لتقبّل الأرض عند قدميكَ، أيكون الكلّ قد سمعه إلاّ أنت؟ عيونك كنز أعشق سرقته، ولا أخشى لعنته، بل أطوّقه

بذاتي، كم مرّة شعرتَ بأنوثتي تطوّقك؟ كم مرّة رأيتني عارية استحمّ في طهر عشقك؟ لا تجبني؛ دعني أتمنّى الإجابات.

جسدي ما زال في الدّاخل يستحّم، صوت الماء يضجّ المكان به، يغسل الجسد، ويقلعني ليرميني في عالم الأحزان.

أتستحمّ الأجساد صبيحة الكرنفال لأجله؟ أم لتقابله دون عرق الألم ورائحة العشق ورذاذ الأمنيات والشّهوات؟

لماذا أتذكّرك الآن بالذّات؟ أتصوّرك تسير في الرّدهات بكبرياء، تصطنع سيراً يجسّد الإغراء والكبرياء، سيراً لم يُخلق ألاّ من أجلك، تشرئبّ بنظرك إلى الأمام، قلّما تنظر حولك! نظراتكَ لا تخصّ أحداً بالذّات، لكنّها تغمر الكلّ بالاهتمام، خطواتكَ ترسم زهواً خاصّاً لا يليق إلاّ برجل يملك مثل جسدك الغضّ وقامتك الممتدّة

ورجولتك اللاّفحةـ تمرّ مثل الطّيف تنير المكان في عيني، ترحل إلى البعيد، وأبعث خلفك أطيافاً من الأمنيات.

جسدي ما زال في الدّاخل يحدث جلبة عالية مسموعة، كأنّه يستفزّني، اسمعه يراقص الماء، المكان يعبق برائحة الصّابون، وجسدي يدندن بأغنية تحفظها روحي، أغنية غنّيتها لي قبل سنوات طويلة، أتذكّر ذلك المقطع الذي لم تحفظه أبداً، وكنتُ أذكّرك به، أتراكَ حفظته الآن؟ أشعر بأنّي أذوب كلّما استحضرَتْ روحي تلك الكلمات، أخالك تلمس جسدي، تلفحني أنفاسك الغارقة برائحة النّعناع التّي تضمّخ رجولتك الصّاخبة.

لقد مضت ساعات وجسدي ما زال يغتسل، أتراه يحتاج إلى بحار كاملة لتغسله من درن أحزانه وآلامه، تلك الآلام التّي أصبح عمرها الآن ثمانية

أعوام، أتراه يحتاج إلى قرون في قاع المحيط لكي ينسى عالماً من الحبّ والأمنيات واللاّ معقول الذي زرعتني فيه.

المطر يشتدّ في الخارج، يغسل الطّرقات، أترى المطر يعرف الأمنيات مثل البشر؟ أتراه يرى في تلك الطّرقات فتاة صغيرة تسير كلّ ليلة وحيدة تحت المطر تنتظر رجلاً وعدها بأنّه سيلقاها تحت المطر؟ تشعر بالبرد والخوف، لكنّ أمل لقائها بمن تحبّ يبقيها سنوات تحت المطر، وتمرّ السّنون، ولا يأتي الحبيب، وينزل المطر، وفي آخر الطّرقات فتاة ما زالت تنتظر رجلها المنتظر.

لم أعد أسمع صوت الجسد المشاغب في الدّاخل، دفق الماء مستمرّ والجسد صامت، لابدّ أنّه غرق في الماء، أو لعلّه غرق في أحزانه، لكن كيف يمكن أن يغرق من دون أن يذكر اسمك؟

لقد غرق هذا الجسد منذ سنوات عندها استنجد باسمك، لم يذكر الله، لم يتمنّ النّجاة، لم ينتظر المساعدة، لم يخشَ أرتال الماء تغرقه، وتذيبه بها، تذكّر فقط وجهك الطّيّب، وأنفاسك الدّافئة، ونادى باسمك، ليس لأنّه يطلب النّجاة؛ بل لأنّه يريد أن يكون اسمك آخر ما يلفظ في الحياة، وآخر ما يُودّع فيها.

لماذا تمنّى وقتها أن يموت؟ أتراه كان يتمنّى أن يموت، وهو في قمّة العشق، أم تراه أحبّ الموت وهو يحمل اسمك، ويرسم قسماتك السّماويّة، لعلّه أراد أن يلقاك في دنيا أوسع من هذه الدّنيا حيث تجلس في علياء عرشك العاجيّ، لتتربّع على عرش من العشق والمستحيل، وتتوّجه إلى جانب شمسك المنيرة قمراً صغيراً، يستقي النّور من وجهك، ويتراقص في كلّ ليلة حتّى الثّمالة، ويسقط عاشقاً في حضنك وأنت تسمعه آلاف الحكايات عن إلهٍ إغريقيّ تعشقه طفلة من الأرض، ويعشق عشقها له.

الهدوء بات يغمر المكان، والجسد ما يزال يزرع نفسه في المجهول، أتراه مات؟ أيموت قبل أن يحضر الكرنفال؟ من سنوات هو يتهيّؤ لهذا الكرنفال، في كلّ عيد ينزل إلى الأسواق، يبحث عن وجهكَ بين الوجوه، يتأمّلكَ في كلّ زهرة، يتخيّل وجهكَ في الوجوه كلّها، ويترك الباب لكَ في كلّ مساء لتدخل، ولتحضنه، ولتزرع شيئاً من البهجة في داخله.

ذلك الجسد الصّامت في الدّاخل كان بين يديكَ طفلاً وديعاً، عندما ضممته إلى صدرك أحسّ أنّه في مراقص الجنّة، حفظ صوت وجيب قلبك من دون الأصوات كلّها، ومن دون الرّوائح جميعها استعذب رائحة جسدك، أمّا جسدي فقد تمنّاك دائماً، عندما رحلتَ عنه عاش في غربة عن نفسه، أتراه سخط على نفسه، فرحل عنها بعد رحيلك؟

الوقت يسير ببطء لئيم يقصد أن يسحق تحمّلي الهشّ، بدأتُ أشعر بالتّعب الشّديد، وأحنّ إلى ذلك الجسد الصّامت في الدّاخل، أتراه سيعرفني؟ سأعجب إن عرفني؛ فأنا لا أعرف نفسي، بين ذاتي وجسدي حرب ضروس تحرق ذاتها لتقدّمها قرباناً في مذبح النّسيان، أأنا نسيان أم خلقني النّسيان؟ أأنا أحزان أم جسد؟ أم كلاهما معاً؟ لعلّي لم أكن أيّاً منهما.

بعد ساعات سينتهي الكرنفال، لم أعد أذكر ما اسم هذا الكرنفال، من يهتمّ بمعرفة اسمه؟ ليعرف اسمه من يحضره مع حبيبه، أمّا أنا فقسمتي دائماً النّسيان، وحفنة من الآلام، الكرنفال الذي حفظتُ اسمه هو يوم معرفتي بك، أمّا غيره من الأيّام فسواء منذ رحيلك المشؤوم.

في تلك الخزانة مئات الرّسائل والبطاقات التّي كتبتها، ولم أرسلها، أتعرف لماذا لم أرسلها؟ لأنّني رحلت عن نفسي بعدما كتبتها، ما زلت أذكر ما كتبتُ لك، كتبتُ لك بأشواق امرأة عاشقة:

"أريد أن أركب معك

ولو لمرّة واحدة

قطاراً ينسى أرصفته وقضبانه وأسماء مسافريه

أريد أن تلبس

ولو لمرّة واحدة

معطف المطر

وتقابلني في محطّة الجنون" (١)

انتظرتكَ لسنوات طويلة، انتظرتُ أن نسير، ونسير لساعات وساعات تحت المطر، أن نسبح في ماء الورد، أن نجلس في مكان صغير على قارعة الطّريق، أن نتوقف عند كلّ محل لتهديني وردة صغيرة، أن نحتفل بكلّ لحظة، أن ندخل عشرات السّينمات، ونخرج قبل انتهاء عروضها؛ لأنّ كلاً منّا قد اشتاق لرؤية عيني الآخر، أن تفرح بجنوني، بل أن تجنّ بجنوني، أن نتسلّل ليلاً إلى الحدائق العامّة، وأن نتأرجح مثل الأطفال، وعندما يطردنا الحرّاس نخرج ضاحكين بعد أن نعطيهم بعضاً من أزهارنا، أن نأكل ونلبس ونمشي بذوق بعضنا البعض، أن ندخل محلّات الهدايا جميعها، ونراقب المحبّين، وهم يتسوّقون سويّاً، ونرسل لهم باقات ورود مجهولة المرسِل، أن نحبّ أعمارنا وحياتنا بل وأعياد ميلادنا؛ لأنّها هبتنا لمن تحبّ، أن تخبر الجميع بأنّنا عاشقان حتّى الثّمالة، أن نرفض أن نحمل أيّ هويّات؛ لأنّ وجودنا معاً هو هويّتنا، أن نأخذ إجازة من كوكب الأرض، ونرحل إلى عنوان مجهول لا يعرفه بشر، ونقيم في غرفة ليس بها

١- من أشعار نزار قبّاني.

إلا أرجوحة مطّلة على آلاف الغابات والينابيع، أن تضمّني في كلّ ليلة، وتحكي لي حكاية، وعندما يأتي الموت نموت سويّاً في متحاضنين.

ما ذاك الهدوء الذي يخيّم على المكان؟ بدأتُ أشكّ في أنّ الجسد الذي في الدّاخل هو صدىً لجسد عاشق كان هنا ورحل منذ أعوام، أظنّ أنّ جسدي متكوّم هنا، يغلّف أحزاني أمام حائط غرفتي الإسمنتيّ البارد، أمّا روحي فقد رحلتُ منذ سنوات، منذ رحيلك لم تعد تزورني إلاّ لترقص معي رقصة الألم في كرنفال الأحزان، ثم تعود إلى الرّحيل؛ ففي الكرنفال لا تُلبس إلاّ الأفراح، أمّا الأحزان فتلبس أجسادنا، وتسكنها إلى الأبد.

الملاك الأزرق

في السّماء النّاعمة الملمس القطنيّة الانتشار اللاّزوردية اللّمعان كلّ شيء كان أزرق، حتّى الأزرق كان أزرق، ولحظة انشطار السّماء كانت زرقاء، ومن هناك خرج اثنان، رجل وامرأة يحملان الأشواق، يغدّان الخطى نحو الأرض، ليزرعا فيها أشواقاً للأزرق الذي طردا منه، الرّجل اسمه آدم، والمرأة اسمها حوّاء، من بعدهما التأم الأزرق، أزرق السّماء، وأُغلقت السّماوات دونهما، لكنّهما سرقا ملاكاً جميلاً من السّماء، أزرق العينين، وأسمياه إله البحر؛ لأنّ صفاء عينيه هيّج غيرة البحار، وأقلق رتابة قيعانها، وجعل كائناتها تشرئبّ لرؤيته.

آدم كان فخوراً بملاكه الصّغير، حوّاء الفاتنة أبرمت معي صفقة حول هذا المستحيل الذي تحمله بين يديها، وانزلقا كلاهما هاربين بغنيمتيهما الثّمينة، وغنائم السّماء لا تردّ لا سيما الزّرقاء منها.

أمّا أنا، فأنزلق بكآبة عبر ملايين السّنين الورديّة في مقعدي البليد في صالة المغادرين في المطار، انتظر أن تدلفَ إلى القاعة تمتشق دماثة روحك، وتصافحني مصافحة البحر للأمواج، تتأخّر، انزلق أكثر بحركة انهزاميّة مستكينة في المقعد حتّى أكاد أتكوّم على ذاتي، يقترب ذقني بانكسار من تلك القلادة الفضّيّة ذات البلّورة الزّرقاء التّي طوّقتني بها، كما تطوّق أسراب السّنونو لجّة من لجج بحرك، أتابع من الواجهة الزّجاجيّة التّي تقابل مقعدي أسراب الحمام في السّماء الأزرق.

ما أجملك من لون يطاردني حتّى في السّماء! سريعاً أبحث عن قلم لأكتب به شيئاً من الكلمات لك، لا أجد القلم، لكن تطالعني السّماء بذكرى كلماتك، وأنت تهتف بي: "أنتِ امرأة في عيني المحيط، أينما تكوني اعلمي أنّني قريب منكِ".

سريعاً أنزلق في الماضي، وأتسربل الأحلام، أقفز في حلم طالما راودني، أرى نفسي في بحيرة صافية التّردّدات، بحركة انسيابيّة يتمطّى جسدي في مائها، يحاكيه بلغة لا يفهمها إلا الجسد، أيّم نحو أقصى طرف البركة، الشّمس تُخمد فضول عيني ونهمهما في رؤيتك، وتحدّ من مداهما، أقترب نشوى من جسد رجل ينتظرني هناك، ينحني الجسد لي، لا أكاد ألمح إلاّ زرقة عينيه ولا شيء آخر، الملامح كلّها مختفية في دثار الشّمس، يقترب منّي، أمدّ جسدي خارج البركة نحوه، تكاد شفتاي تلامسان شفتيه بشوق محموم، يشتدّ توهّج الشّمس في عيني، تقترب الشّفاه، وينقطع خيط الحلم السّرّمديّ، و يختفي الحلم، ليتكرّر في ليلة أخرى وليالٍ أخر.

في زمن ما، يسمّونه بلغة أهل الأرض قبل ثلاثة أشهر، ألقاكَ في أحد الأماكن برفقة أصدقاء، ابتسم لك، أعرف في عينيك شيئاً يسمّونه الانتظار، واللّقاء المفترض، أعرف أنّك ملاك رقيق هارب من السّماء، أسأل الأصدقاء بلهجة كاذبة مدّعية، وهم لا يعرفون أنّني قد التقيتك قبل مليون سنة بزمن البحر الأزرق: "من هذا القمر؟"، تبتسم، وتقول لي: "اسمي... ، ومعناه إله البحر باللّغة..."

أقول لكَ بنبرة من تكلّم حبيبها الصّغير الذي لطالما لهت معه في طفولتها، وجمعت معه الأصداف، وبنت له بيوت الرّمل على الشّاطىء: "وأنا من أكون؟"

تبتسم لي، وتغمرني بآلاف الحكايات، وتغرقني في أريج الذّكريات، وتقول: "أنت أينما تكوني فأنتِ في عيني المحيط".

تمرّ الشّهور الثّلاثة بسرعة، وتُختزل الآف الذّكريات في ذاكرة المكان الصّغيرة، ونزرع ملايين الحكايات حيث لن يجدها أحد، إلاّ عندما تكبر، ويتفيّأ شبابنا بها، تقول لي: "أزرق"، فانظر في زرقة عينيك حيث البحر.

مرّة أخرى يطاردني حلم القبلة في المنام، هنا في قاعة الانتظار تطارد عيناي الوجوه بحثاً عنك، على الواجهة الزّجاجيّة أمامي تتدلّى بعض قطرات النّدى، سريعاً ما تركض نحو الأسفل، أتساءل: "ما طعمها؟"، بحركة خاطفة نشوى امتصّ بعضها، مسكينة لا طعم لها، تذكّرني بأسطورة قديمة تقول: "إنّ إله الشّمس عشق النّدى، وأراد أن يصارحها بحبّه، لكنّه كلّما اقترب منها بأشواقه الحارّة وأنفاسه الملتهبة، تبخّرت في أثير أشواقه وانتظاره".

مرّة أخرى انتظرك، أردّد في ذاتي كلمة قلتها لك في الماضي: "إن اختفيت من حياتي سأموت، صدّقني هذا ما سيحدث لي".

تطلّ الكلمات بأعناقها الملكيّة وياقاتها الزّرقاء، تخور قدماي، ومرّة أخرى أجد نفسي أنزلق مثل سمكة ذهبيّة صغيرة في بحيرة أحلامي، لا أجدك في انتظاري، أسائل بتلات اللّوتس عنك، تتثاءب بكسل ودون مبالاة، ثم تنكر رؤيتك، ما زالت أشعة الشّمس حارقة.

فجأة، ومن دون توقّع ينسلخ صوتي عني، يردّد في جنبات البحيرة "إن اختفيت من حياتي سأموت، صدّقني، هذا ما سيجري لي، ألم أقل لك أنّني أحبّك، لا تسلمني للموت".

يجلجل الصّوت في أركان البحيرة، تضجّ كائناتها بوعيد الموت، لجّة غاضبة تتجه نحوي، تغمرني بعميق مائها، ابتعد هاربة، يرتفع وجيب قلبي، يتحوّل

المكان إلى قلب وجيبه من أمشاج ذكرياتنا ووعودنا، يرعبني الصّوت، أرى الموت يحاصر روحي، أصارع قوّة غريبة تشدّني نحو قاع البحيرة، حيث أزرق الموت والاختناق، أقاوم، أرفض الاستسلام، أتلوّى مثل سمكة تصارع الاختناق، أزعجُ سكون البحيرة، واستيقظ من حلم يقظتي فزعى.

أعدّل جلستي، أتّفقد أنفاسي، ما أزال حيّة، تبّاً للأحلام، أحسّن من وضع هندامي، من بعيد أراك تقترب بمشيتك التّي تجمع بطرافة عذبة بين حماس الرّجولة ونشاطها ونزق الطّفولة وبين تهلّل الصّحة والرّشاقة، حقائبك معك، تطالع القلادة التّي تحاصر عنقي، تلمسها كأنّك تريد أن تتأكّد من وقعها على نفسي، وتقول بابتسامتك الشّقيّة ولكنتك المتعثّرة في دثار العربيّة: "إذاً، ستكونين في وداعي، ظننتُ أنّ رحيل البحر سيّدفع الأسماك الجميلة إلى الانتحار".

أتأمّل عينيك، ما أجمل الأزرق وما أقساه! الأزرق بحر، الأزرق سماء، الأزرق ملاك هو أنت، الأزرق دثار دافئ يحتضن طفلاً الآن أدرك الوجود، أو لعلّ الوجود أدركه، تضمّه الأيدي، وتسمّيه: "حبيبي الصّغير".

أكاد أقبّلك، أبحث عن الشّمس التّي تطاردني في دنيا بحيرتي الشّمسيّة، أزرقك هو أزرق أحلامي، أكاد أخبرك بحكاية حلمي المائيّ، لكنّ شيئاً ما يمنعني، لا أريد أن ترحل الأحلام هي الأخرى معك، ابقِ لي شيئاً من دنياي المسافرة معك، حسبك أنّ جزءاً من قلبي قد حزمته في حقائبك دون أن تدري، أحلامي حبستها في مكان ذكرياتنا، ستسافر، وتبتعد، وتتركني إلى الأبد طفلة لاهية تبني البيوت الرّملية، وتنتظرك على شاطئ الطّفولة، وهامش الذّكريات المصادرة، تتنشّق دموعها وبكاءها، ترفض أن تتوقّف عن البكاء حتّى تأتي سيراً على سابق عادتك، وتتسلّل يداك حيث يداها، تمسح دموعها، وتقبّل يديها، وتقول لها: "هيّا نجمع الأصداف".

أحضن يدك كما اعتدنا أن نفعل في اللّيالي الماطرة، أداعب باطنها الدّافىء، تقول لي بعناد طفوليّ هو أجمل ما في أزرقك: "أنا مصممّ على أنّ خطوط باطن يدك تشبه خطوط باطن يدي، "أداعب خطوطك، وأومئ بالنّفي، أخطّ في باطن كفّك بعض الحروف بتؤدة مقتولة، تقول لي: "ماذا كتبتِ؟"

ابتسم بصعوبة، وأقول: "أنا لن انتحر حتّى ولو رحل البحر، ذكراه تكفيني، أنا سأكون دائماً في وداع النّوارس".

تمدّ كفكَ لتمسح دموعاً غلبتني لتكون في وداع النّوارس، تسألني بخبثكَ الطّفوليّ الذي أتعشّقه: "أتبكين لفراقي؟"

أجيبك: "بل أبكي لأنّني سوف لن أجد صديق طفولتي الأسطوريّة ليمسح دموع طفولتي، دائماً اعتدت على أن تمسح دموعي، الآن لن تفعل ذلك مهما بكيتُ".

نحو السّماء الزّرقاء يحلّق ملاكي الأزرق، أراقب الطّائرة التّي حُزم فيها شيء من قلبي، ابتسم ملء اتسّاع السّماء الزّرقاء، لا أعاود البكاء؛ لأنّك غير موجود لتمسح الدّموع، سأبقى دائماً تلك الطّفلة التّي خاصمتها على شاطئ البحر، ورحلت دون أن تعرف كم أحبّتك.

سريعاً أقفز في بحيرتي الخياليّة، أتمطّى فيها من جديد، وأراك في البعيد، اقترب منك، أقبّلك، ووهج الشّمس يخفي ملامحك إلاّ عينيك الزّرقاوين.

الغرفة الخلفيّة[1]

أسندت ظهرها إلى الخلف، فغارتْ في أريكتها، أخذت شهيقاً طويلاً، ثم زفرت باضطراب وقلق، مسحت العرق الذي يتنزّى من جبينها الذي يعتلي عينين تزوغان بوجل، حدّقت في تلك الأشجار العالية التي تطلّ بفضول مخيف من نافذة غرفتها، كلّما نامت شعرت بتعب مضاعف، في كلّ صباح تحتاج إلى نصف ساعة على الأقلّ بعد الاستيقاظ لتستجمع شتات نفسها التي تتآكل يوماً يوم في دنيا كوابيسها التي باتت أسيرة في رعبها، ما أبشع كوابيسها التي تضجّ بالتّوحش والقسوة والموت.

لكن قسمات وجهها هي أقبح ما ترى في ذلك العالم، وجهها مخيف يفيض وحشيّة وغضباً، تقتات بفمها ذي الأنياب الذّئبيّة أجساد الآخرين وذنوبهم وخطاياهم، تهصر بيديها القويّتين جسد فرائسها الآدميّة، وبتثاقل وئيد تنسحب مخلّفة زئيراً جهنميّاً، وأجساداً مسلوبة التّماسك والحياة.

هذه الكوابيس المزعجة تعذّبها ليلاً، وتطاردها نهاراً، بدأت هذه الكوابيس منذ أن رحلت أمّها إلى العالم الآخر، بالتّحديد منذ أن بدأت في العمل في ذلك المجمّع التّجاريّ، عند ذلك التّاجر الشّاب الوسيم الذي يفيض شباباً ونهماً الذي تشعر بأنّه سيلتهمها بعينيه الخلاسيتين.

كم تتمنى لو أنّ أمّها لم ترحل، وبقيت في دنياها، كانت تشعر بأنّ وجودها في الدّنيا يهبها سلاماً ودفئاً، فبمجرّد أن تدخل البيت، وتشتم رائحة أمّها، تنسى

---

١ – حازت هذه القصّة القصيرة على جائزة ساقية الصّاوي في حقل القصّة القصيرة في العام ٢٠٠٦، مؤسّسة ساقية الصّاوي، القاهرة، مصر.

العالم الذي في الخارج، أمّا الآن فذلك العالم الذي كانت تملك قدرة جبّارة قادرة على إغلاق الأبواب دونه، بات يتجرّأ على اقتحام عزلتها، ليلبسها بسواده وخوفه وبطشه، أحياناً تشعر بأنّ ذلك المجرم المتوحّش الذي يجوب البلدة، يقتل دون رحمة، سوف يتسلّل إلى بيتها، ويجعلها طعاماً لنوارس الميناء، تتخيّل جسدها النّحيل متعفّناً مهصوراً تقتاته دواب الارض، وينخر الموت عظامه الصّغيرة، وفي قاع البحر تغوص جمجمتها، ويسكن السّمك محجري عينيها.

أجالت عينيها في الغرفة بترقب محموم، في هدوئها سمعت أصواتاً مريبة، تراءى لها أنّ السّرير اقترب منها قليلاً، وأنّ أغطيته القطنيّة البيضاء ترشح دماً، وهي تكفّن جسدها المسجّى بقهر، شعرت بالرّعب، وكادت تصرخ، وتولّي هاربه، لكن سريعاً ما غاب المنظر، وعادت الأغطية بيضاء تستلقي بفوضى على السّرير، وازداد خفقان قلبها.

قرّرت أن تتناول فطورها، ثم أن تذهب إلى عملها، على الرّغم من أنّها تشعر بأنّها متعبة ومنهكة، على رجليها كدمات كثيرة وعلى صدرها كدمات مماثلة، خمّنت أنّ السّير الطّويل البارحة إلى بيت العرافة الغجريّة قد استهلك قواها، الحقّ أنّه قد استهلك الكثير من صبرها ونقودها أيضاً، كم كانت سخيفة عندما فكّرت في اللّجوء إلى مثل تلك الدّجّالة التّي قالت لها: "إنّ روحاً شريرةً قد سكنت جسدها، وإنّ هذه الرّوح تزعجها، وتسبّب لها القلق والخوف؛ ولذا عليها أن تقدّم النّذور والقرابين لهذه الرّوح كي تغادرها بسلام".

لكنّ أنّى لها أن تصدّق مثل هذا الهراء؟ وإن كانت تشعر بحاجة إلى عون وحب وملجأ من شيء تخشى منه، لعلّها تخشى الوحدة، ولعلّه الخوف من المجرم الذي يسكن ليل البلدة، بعد أن غادرت خيمتها المنبوذة في أقصى ساحل البحر،

كادت تعود أدراجها، وترجو مساعدتها، لكنّها استقبحت الفكرة، ومضت في طريقها.

تقول في نفسها صارخة، وهي تحدّق في عينها في المرآة المواجهة لها: "لعلّ الرّوح الشّرّيرة أمرتها بأن تغادر خيمة العرّافة؛ لأنّها تستطيب البقاء في جسدها".

اللّيلة الماضية رأت كوابيس مزعجة ومخيفة، معظمها غير قابل للتّفسير، لكنّها تستطيع أن تتذكّر بوضوح وجه مديرها الوسيم، لكنّه لم يكن وجهاً وسيماً كما ألفته، بل كان وجهها مسلوخاً قد انزاح بعضه عن جمجمة شبه محطّمة، الآن تذكّرت ذلك الكابوس الرّهيب تماماً، وعادت أنفاسها إلى الاضطراب، لكن شيئاً غريباً همس في أذنيها بكلام خفيض، فعادت إلى سابق رتابتها.

في الطّريق إلى العمل الذي يقع بُعيد بيتها بشارعين راقبت الذّاهبين والآيبين، وحدّقت في الوجوه، لعلّها ترى وجهاً قد مرّ معها في أحلامها، كانت أوّل الواصلين إلى العمل بعد صبيّ المشروبات.

تأخّر المدير على غير عادته، وشعرت بقلق خاصّ عليه، لم يفارقها وجهه المسلوخ، فقد كان يتراءى لها كلّما حدّقت في ساعتها، في الظّهيرة كان الخبر يملأ أرجاء البلدة، وكان السّواد يسكن بيت ذلك المدير، لم تتفاجأ عندما علمت بأمر مقتله، في الحقيقة كانت تنتظر ذلك الخبر، لطالما تحقّقت كوابيسها؛ فقد عرفت بموت كثير من معارفها قبل أن تُعلم بذلك رسميّاً، لقد كانت كوابيسها المرآة لرؤية ذلك مسبقاً، حتى عندما قُتل خطيبها الذي كانت تحبّه إلى درجة الجنون، كانت تعلم بذلك مسبقاً؛ فقد رأته في منامها مسجىً على صخور التّلّة، وقد تناوشت الوحوش بعضاً من لحمه قبل أن تجده الشّرطة بأيّام، ولبست السّواد عليه، فهي لم تستطع أن تتجاوز حبّها الذي ما زالت تكنّه له على الرّغم من أنّه

كان على وشك أن يفسخ خطبتهما، وأن يمزّق قلبها، وأن يلقي به بعيداً؛ ليخلو له وجه صديقتها المقرّبة التّي اختفت منذ موت خطيبها هي الأخرى، البعض قال إنّها هاجرت بعيداً؛ لأنّها لم تطق الحياة في البلدة بعد موت من أحبّت، لكن شعوراً غريباً كان يقول لها إنّها قد لحقت من أحبّت إلى العالم الآخر بطريقة ما.

كان يوماً متعباً، كان وجه مديرها مرعباً، لنقل إنّه لم يكن وجهاً بالمعنى الدّقيق، بل قطعاً من اللّحم والعظم، كان جسده المسجّى في المشرحة يبدو أصغر حجماً ممّا أعتادت عليه، طلبتها الشّرطة لتتعرّف على جسده، كانت أعضاؤه بارزة بوضوح من تحت الغطاء الأبيض، تذّكرت كم قاومت هذا الجسد الذي امتدّ نحوها مثلل حيوان ليفترسها، وليهتك عرضها، ولينهش عذريّتها، ليته مدّ إليها يد عاشق بدلاً من مخالبه الذّئبيّة المفترسة، قالت في نفسها بتشفٍ ممزوج بتعبٍ: "لا بأس، فقد نال الجزاء الذي يستحقّه".

سريعاً ما حلّ الظّلام، وسريعاً ما انتصف اللّيل، أرادت أن تعود إلى بيتها، قرّرت أن تعبر الطّريق المختصر الذي يمتدّ خلف الأحياء السكنية، حيث الظّلام يتسلّل في بعض دروبه.

كانت تتدثّر بممطرها الشّتويّ، وهي تعدّ قطرات المطر الحزينة التّي بدأت تهرب من السّماء، وتحصي خطواتها كذلك، وتطرق ملياً إلى صوت وقعها على الأرض.

فجأة باتت الخطوات أكثر عدداً، شعرتْ بأنهّا يجب أن تهرب بل أن تركض، لكنّ الخطوات تبعتها، بل وانهكتها ركضاً، وصلت أخيراً إلى طريق موصد بالطّوب، واجهت وجهاً لوجه الخطوات التّي تترصدها، كان رجلاً يبدو السّكر على عينيه، كان جادّاً في انتهاكها واستباحتها، مدّ يديه اللّعينتين إليها،

فجأة شعرت بروحها تُزهق، رأت نفسها تسقط من بيت كـبير لتـدلف في غرفـة خلفيّة لم تكن تعرف بوجودها، في البيت وجدت نفسها، لكن في الغرفة الخلفيّـة وجدت آلامها ومخاوفها وانكسارتها وحشود من خانوها، ووجـدت مزقـاً مـن نفسها على شكل وحش، يتمدّد ليهصر من يخذلها، أو من يمتد إليها بيـد طامعـة معتدية.

نهشتْ وجه الرّجل بأظافرها المتوحّشة، ومزّقته إرباً بأسـنانها، ثـم داسـته، وتركته جثة هامدة، للحظات رأت خطيبها وصديقتها ومديرها المعتدي والكـثير الكثير من الرّجال يسكنون غرفتها الخلفيّـة التّـي تُوصـدها ببـاب مـن الفـولاذ الصّلب، ابتعدت عن المكان، وسمعتْ صـوت البـاب الفـولاذ يصـتكّ خلفهـا بشدّة، وعادت إلى بيتها الذي تجهل أنّها تعيش في غرفته الخلفيّة السّرّيّة منذ زمن طويل.

في الصّباح كانت متعبة من كوابيسها، أسندت ظهرهـا إلى أريكتهـا، ومثـل العادة غار جسدها في جلد الأريكة، كانت متعبـة، الكـثير مـن الخـدوش علـى يديها، تذكّرت كابوس البارحة بصعوبة.

في أوّل صفحة من الصّحيفة التّي طالعتها رأت صورة الـذي قتلتـه تتربّـع تحت خبر عن مقتله الشّنيع، شعرت بالخوف من ذلك المجرم الذي اعتدى علـى صاحب الصّورة، وقتلـه دون الرّحمـة، وفكّـرت بجديّـة في الـذّهاب إلى العرّافـة الغجريّة، لعلّها تخلّصها من الرّوح الشّرّيرة، ثم عادت، وتراجعت عـن قرارهـا، ومن جديد دخلت إلى الغرفة الخلفيّة حيث يقبع جزء من ذاتها.

(١٢)

المجموعة القصصيّة "مذكّرات رضيعة" (١)

١- صدرت المجموعة القصصيّة "مذكّرات رضيعة" في طبعتها الأولى عن نادي الجسرة الثقافيّ والاجتماعيّ، الدّوحة، قطر، ٢٠٠٦

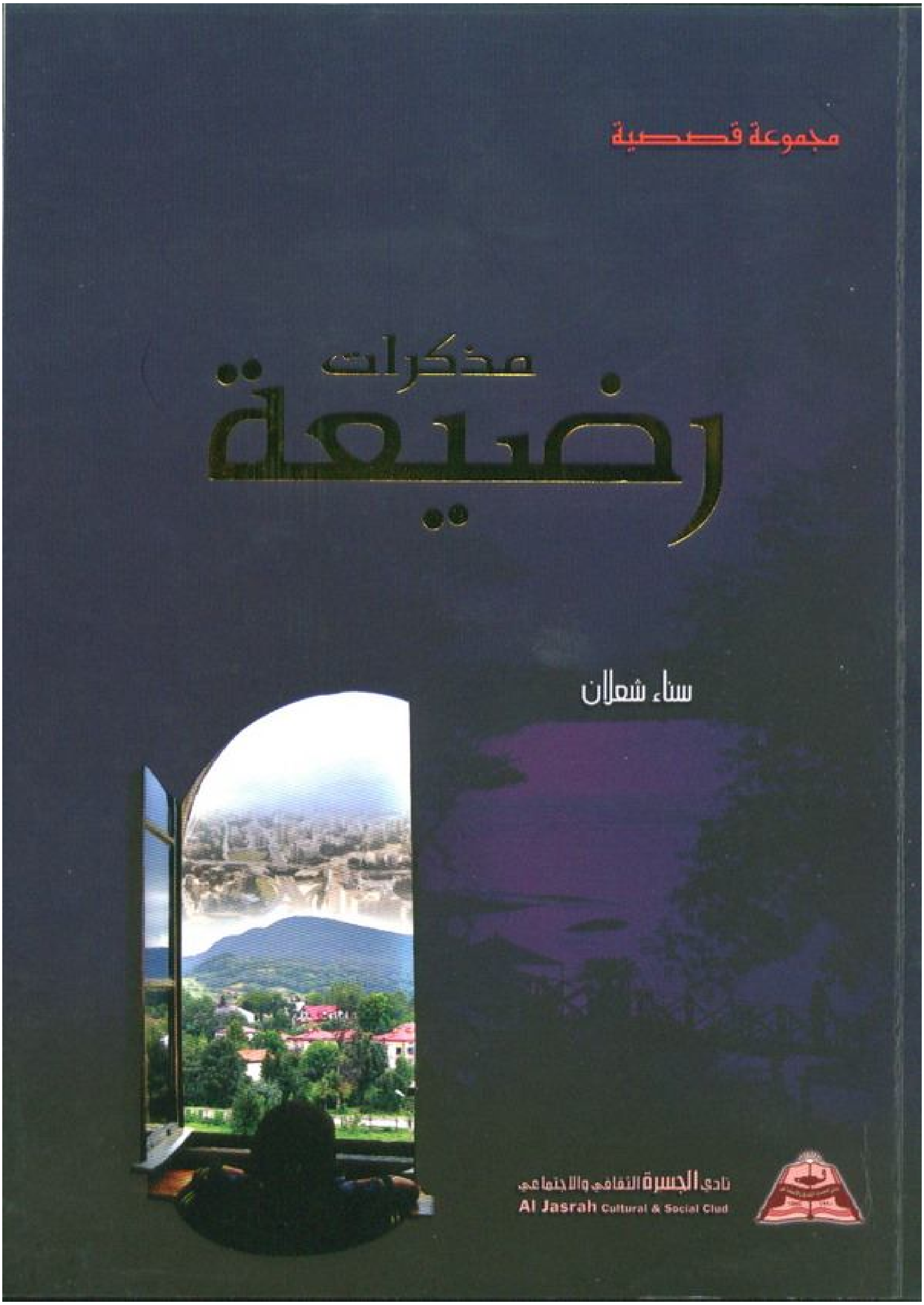
مجموعة قصصية
مذكرات رضيعة
سناء شعلان
نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي
Al Jasrah Cultural & Social Club

صانع الأحلام

"إلى روح مصطفى العقّاد الـذي رحـل، وبقيـت أحلامـه ترفـرف في أرض الأمنيات".

على الرّغم من أنّه صانع الأحلام، وأعظم حالمي القـرن العشـرين إلا أنّـه يكره هذا الحلم، الذي يشلّ لحظاته، ويتداعى أمامه بألم رهيـب يُضـاف إلى الألم الذي يشعر به، ولا يدرك معناه، أو يفهم سببه، حبيبته ريم هي الشّـيء الجميـل في هذا الحلم، يفتح ذراعيه لها، يدعوها بابتسـامته العريضـة الغارقـة في ملامحـه الشّاميّة الهادئة إلى أن تودّع لحظات الفراق في حضن حنانه، تكاد تفعـل، لكنّهـا تبتعد عنه، وتبتعد، ويبقى صوته معلّقاً في الفراغ، وهو يصرخ بصـوت مكتـوم: "ريم، لا تبتعدي عنّي، ريم، احذري، ريم، أين أنتِ؟"

ريم والموت الأحمر هما آخر عهده بالدّنيا قبل أن ينزلق في دنيا الأحـلام، لم يكن قد رآها منذ زمن طويل، هي وحيدته الجميلة بين ثلاثة ذكور، كانت زهرة بيته قبل أن تتزوّج زياد الملاّ، وترحل معه إلى لبنان، وتستقرّ معـه هنـاك، وتهبـه طفلين رائعين، احترق شوقاً لهذا اللّقاء، فهو لقاء بعد فراق طويل، هو جاء مـن أمريكا مع زوجته، وهي جاءت من لبنان ليلتقيا على وعد الأفـراح، وليحضـرا معاً زفاف أحد الأصدقاء.

أطلّت من البعيد بابتسامتها الطّفوليّة السّاحرة، رأى فيها طفلتـه الصّـغيرة التّي كانت تركض نحوه مشتاقة كلّما دخل البيت متـأخراً، فتمسـح عنـاء يومـه بقبلاتها البرئية، وما أشدّه من عنـاء كـان! فـتح ذراعيـه لهـا، كانـت علـى بعـد خطوتين منه عندما جاء الموت على شكل انفجار مرعـب، هـزّ المكـان، وأطـاح

بزجاج قاعة الاستقبال في فندق "جراند حياة" فرع العاصمة الأردنيّة عمّان حيث ينزل.

في لحظة غدا المكان جزءاً من الجحيم، الجثث في كلّ مكان، والحبيبة ريم غدتْ جثة هامدة لا روح فيها، ومع صوت الجلبة أسلم نفسه لغيبوبة قد تنقذه من آلامه الرّهيبة، ونسي كلّ شيء، بل كاد ينسى نفسه إلا منظر ريم، فقد كان يلّح على عالمه الغارق في الألم، سمع الكثير من الصّراخ، وأزعجته الجلبة المستحدثة، وتمنّى من كلّ قلبه أن يصمت الجميع؛ ليستلقي باستسلام في حمى الألم الذي يداهم جسده دون رحمة.

لكن الجلبة ازدات، والصّوت تعالى، كانت أصواتاً تطلب الأكسجين، وتصدر تعليمات سريعة لإنقاذه، أفواه كثيرة لفظت اسمه، فتذّكر أنّه مصطفى العقّاد، صانع الأحلام، صانع أجمل حلمين: حلم فيلم "الرّسالة"، وحلم فيلم "عمر المختار أسد الصّحراء"، وكاد يتذكّر أحلامه الأخرى، لكن الألم يزداد، فيتساءل ما معنى ما يحدث؟ وأين هو؟ وما نوع هذا الألم؟ يحاول أن يفتح عينيه، لكنّه يُخفق في ذلك.

يعرف من الأطبّاء الذين يحاصرونه باهتمامهم، ويبالغون في تضميده، وزرعه في أجهزة غريبة، أنّه ضحيّة من ضحايا الانفجار، يذكرون إنّ حالته خطيرة؛ فهو مصاب بجلطة في القلب، وبإصابات خطيرة في الرّئة، وكسور في أضلع الصّدر والأطراف، يأخذ نفساً بصعوبة، ومن جديد تمرّ ريم بابتسامتها الجميلة في حلمه، يسلم جسده للأطباء، ويرحل مع أطيافه الورديّة المكلّلة بدماء ريم.

- "هو في حالة خطيرة"، يقول أحد الأطبّاء بقلق شديد.

- "أتظنه سينجو؟"، يسأل ممرض بقلق بادٍ.

- "مسكين لقد ماتت ابنته على الفور"، تقول ممرّضة بأسىً.

يسود صمتُ خانق، فيقدّر أنّه لن ينجو من الموت، يكاد يبتسم هازئاً من الجبن والجبناء، بل ومن الموت، لكن أصابته البالغة تمنعه من ذلك، يشعر ببرد يحاصر جسده شبه العاري المستسلم لمبضع الأطبّاء، ولعشرات الأجهزة الطّبّية، ذلك الأكسجين الذي يُعطى له يهبه شعوراً رائعاً، شعوراً بالحياة مثلاً، ليته يستطيع أن يتحرك من مكانه، ليته يمتلك قوّة عظيمة تجعله قادراً على اصطياد أولئك المجرمين الذين حوّلوا أرضه إلى جهنم، وقتلوا الأبرياء، يحاول أن يتذكرّ ذنباً واحداً اقترفه ليستحقّ مثل هذا الألم عقوبة بسببه، فلا يفلح في تذكّر ذلك.

صورة ريم تطغى على الأحداث كلّها والجلبة التّي تزحم المكان، إلاّ على صوت زوجته الذي يتنزّى عبر باب زجاجيّ يفصله عن الرّدهة، فيحمل حزنها الموزّع بين البكاء والخشوع، وهي تقرأ القرآن الكريم طالبة عون الله له، يردّد في سره كلماتها التّي تنزل برداً وسلاماً على كبده، تقرأ قوله تعالى: "لو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك"، يردّد كلماتها من جديد في سرّه، كلماتها تعيده خمسين عاماً إلى الوراء، يجد نفسه طفلاً صغيراً يلعب في حارات حلب وزقاقها القديمة، والده يقرأ هذه الآية، وهو يردّدها من بعده بعد أن عرف تماماً معناها، فالرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام قد نفذ إلى قلوب النّاس بالحبّ والسّلام لا بالموت والعذاب؛ لهذا هو يحبّ الإسلام، ويحبّ نبيّ السّلام، ولهذا آل على نفسه أن يدافع بالكلمة عن رسالة الإسلام والمسلمين، ويلتقط بكاميرته صور إنسانيّة الإسلام.

يقف بفقره وأحلامه وموهبته وإيمانه بربّه وشعبه أمام والده، ويعلن أنّه سيستقيل من البنك الذي يعمل به، وسيتجه إلى أمريكا لدراسة المسرح؛ فهو يريد أن يكون مخرجاً عالميّاً كبيراً.

يسخر الجميع منه، ويرمقون جسده العنيد وملابسه القديمة بسخرية موجعة، لكنّه يصمّم على أنّه قادر على صنع الأحلام، وقادر على تحقيقها، فهو يريد أن يخرج أفلاماً كتلك التّي اعتاد على أن يشاهدها كلّما رافق جاره الذي يعمل موظّفاً في سينما الأوبرا، بل إنّه قادر على أن يصنع أفضل منها، لذلك سيتحدّى الدّنيا، وسيحقق حلمه.

كان والده الحنون آخر عهده بحلب وهو شابّ صغير، دسّ في يده على استحياء مئتي دولار، هي ثروته كاملة في الحياة، وأعطاه باليد الأخرى مصحفاً شريفاً؛ ليحفظه من كلّ سوء بعد أن حصّنه بالتّربية الدّينية العربيّة الحصينة، ثم دعا له بالتّوفيق، وأسلمه لأوّل طريق المجد الذي لم يكن معبداً، بل كان وعراً صعباً لفتىً مسلم فقير لا يملك إلا مئتي دولار، وأحلاماً لا تنضب، وموهبة فذّة مشبعة بفكر قوميّ عربيّ أصيل، واسم مصطفى الذي رفض أن يستبدل اسماً أجنبيّ به؛ لأنّه وسام منحه أبوه له، يعزّ عليه أن يتنكّر له.

من جديد يشتدّ ألم مصطفى العقّاد، يسمع زوجته الحبيبة تسبُّ الإرهاب والمجرمين الذين يجهلهم، يتمنّى لو أنّه يستطيع أن يطلب منها الاقتراب ليضمّها إلى صدره، فتمسح دموعه، لكن قواه أضعف من أن تجعله يستيقظ بكامل حواسه من غيبوبته، الطّبيب يقول إنّ حالته مستقرّة، وإنّه سيستيقظ في أيّ لحظة.

لكنّه يشعر بأنّ حالته تسوء، وأنّه ينزلق في غشاوة لا يشعر بأنّه سيستيقظ منها أبداً، في غيبوبته الضّبابيّة يرى أحلام عمره تتراقص أمامه بألوان زاهية، يرى سنيناً من العمل والإرادة تثمر فيلم "الرّسالة"، وفيلم "عمر المختار أسد الصّحراء"، يرى ملايين من المشاهدين يشاهدون هذين الفلمين، ويغيرون وجهة نظرهم إزاء الدّين الإسلاميّ والمسلمين، بل يرى الكثير يسلمون بعد أن يشاهدوا فيلم "الرّسالة"، يرى نفسه مخرجاً عالميّاً مرموقاً له أفلام كثيرة ناجحة، ويرى السّوريّ القادم من البعيد يغدو أهم مخرجي هوليوود بعد أن أنهى دراسة المسرح في لوس أنجلوس، يتنهدّ بارتياح؛ لأنّه غدا المخرج العربيّ المشهور الذي يحارب الأعداء بالكلمة والصّورة، فيحققّ ما لم يُحقّقه الموت.

لكن بعض أحلامه المؤجّلة ما زالت تلوح في أرض أمنياته، ما زال يحلم بإخراج فلم بعنوان "صبيحة ملكة الأندلس"، وآخر بعنوان "الإمام الحسين"، وثالث بعنوان "وامعتصماه"، ورابع بعنوان "محمد الفاتح"، وخامس بعنوان "كابوتشي".

يريد أن يستيقظ من هذه الغيبوبة اللّعينة ليعصر الإرهاب بيديه، وليخرج فلم بعنوان "صلاح الدّين الأيوبيّ"، ليصحّح به الكثير من الأخطاء التّاريخيّة، وليؤكدّ أنّ الحروب الصّليبيّة كانت نوعاً من الإرهاب الدّينيّ، سوف يجعل كلّ مسيحيّ ومسلم ويهوديّ يصفق لصلاح الدّين الإنسان قبل أن يصفق لصلاح الدّين القائد العسكريّ الفذّ، لكنّه بحاجة إلى تمويل ضخم قد يصل إلى ثمانين مليون كي يخرج الفيلم على سويّة مرضية، لقد أخذ الموافقة الأوليّة من الممثّل العالميّ "شين كونري" للقيام ببطولة هذا الفيلم، لكنّه حتى الآن لم يجد مموّلاً لهذا الفيلم؛ فالأثرياء العرب يريدون أفلاماً عن أنفسهم، أمّا هو فيريد فيلماً يسقط به عصر صلاح الدّين على الواقع العربيّ الحالي.

يسمع صوت هتافات باسم عمّان العرب، تستيقظ في نفسه الرّغبة في الاستيقاظ والانضمام إلى ركب عشّاق عمّان الذين ينّددون بالموت والإرهاب، لكنّه يعجز عن ذلك، وتبقى عمّان الحبيبة التّي احتضنته المرّة تلو الأخرى، التّي كان يحلم بأن يبني فيها مدينة سينمائيّة تغدو معلماً سياحيّاً في الوقت نفسه حبيبته الأولى، ألم تكن أوّل عاصمة عربيّة تعرض فلم "الرّسالة" عام ١٩٧٦ بموافقة خاصّة من المغفور له الملك الحسين بن طلال، في حين ما زال الفيلم فنّاً ممنوعاً بقرار أزهريّ في كثير من عواصم الدول العربيّة، لا سيما في مصر وفي حبيبته سوريا، بل إنّه في عمّان قد كُرّم على إبداعه الفنّي، وتقلّد وساماً من القائد الفذّ الذي انتصر بكامل وعيه وثقافته لفن العقّاد.

"ريم، أحبّك يا ابنتي الغالية، عمّان، أحبّك يا جميلتي الحزينة"، يناجي العقّاد نفسه قائلاً، في حين يطغى صوت جهاز القلب على صوته، يزحم الصّوت الآليّ القلق المكان، يهرع الأطبّاء إلى غرفته، يشعر العقّاد بغصة تضيق ذرعاً بروحه، يجنح قلبه إلى السّكون، بل يقّرر الانحياز إلى الصّمت، ويضرب صفحاً عن الصّعقات الكهربائيّة التّي يسلّطها الأطبّاء على صدره طمعاً في أن يدقّ من جديد، لكن قلب العقّاد الذي اتّسع لتاريخ أمّته وعروبتها يصمّم على الصّمت، فيتواطأ جهاز دقّات القلب معه، ويصمت، ويعلن الأطبّاء خبر موته بعجز وقهر، يسمع صوت انتحاب زوجته، يتمنّى لو أنه يستطيع أن يُسرّي عنها؛ فهو لا يحّب أن يراها باكية محزونة، وهي شريكة درب نضاله، لكن يبدو أنّ أحداً ما عاد يستطع أن يفعل ما يريد.

يستسلم للموت ليأخذ راحة من أحلامه وأمنياته، وليغيب في الظّلام، ولينسى الأصوات والرّوائح، بل لينسى من يكون إلا تلك الرّائحة الزّكيّة التّي يعرفها جيّداً، وهي رائحة الوطن، عند مدينة "نصيب" الحدوديّة يستلم أهله

وأقاربه التّابوت الحزين الذي سُجّي فيه، في أرضه يرقد رقدة الخلود، يعبق المكان بأريج شهادته، يطالع جراحه التّي استلقت في جسده في رمس حزين، تتراءى أحلامه في الظّلام، كلّها مضيئة بهيجة، وحلما الحرّيّة والأمن أشدّها بياضاً، وأعظمها ألقاً.

يعدّ أحلامه، فيجدها قد ازدادت حلماً، يبتسم بحزن لحلم اسمه: السّلام والحبّ، ويستسلم للموت مع أنّه ما يزال يجهل الذّنب الذي اقترفه، فاستوجب أن يفتك به وبأحلامه بسببه؟ وزغاريد النّسوة في فيلم "عمر المختار" تزّفه إلى نومه الأبديّ.

عروس عمّان

"إلى أشرف ونادية: عروسين سرق الإرهاب سعادتها، وألبسهما السّواد في ليلة زفافهما".

قالت بخفرها اللّذيذ: "بل أحبّك أكثر".

قال بإصرار: "بل أنا من يحبّك أكثر".

احتجّت مثل طفلة صغيرة: "ما خطبك يا أشرف؟ ألا تصدق أنّني أحبّك جدّاً، وأكثر ممّا تتخيّل؟"

ابتسم قائلاً وأطياف عشق عمره عامان تلوح في حاضر سعادته: "بل أعرف ذلك، ومتأكّد منه، لنتفق على أنّ كلّ منّا يحب الآخر أكثر". قالت بارتياح، وهي تتأبّط ذراعيه باسمة: "وأنا موافقة على هذا الاتّفاق".

وطفقا يكتبان اسم آخر مدعو إلى حفل زفافهما الذي سيوافق يوم الأربعاء ٩/ ١١/ ٢٠٠٥ في فندق "الرّاديسون ساس" في العاصمة الأردنيّة عمّان، بعد أن أُجّل الزّفاف أكثر من مرة لأسباب شتّى، كانا حريصين على دعوة الأصدقاء والأحبّة كلّهم؛ ليشاركوهم لحظة تتويج حبّهما الذي دام عامين، كانا يريدان أن يقولا للعالم بأجمعه: "أنا نادية، وأنا أشرف، كلانا عاشق، وها نحن نغدو زوجين".

أحلامهما كلّها باتت حمائم بيضاء ترفرف في دنيا سعادتهما، ساعات ويغدوان زوجين، سيسافران إلى شرم الشّيخ ليقضيا شهر العسل هناك، ثم سيسافران إلى الكويت ليعيشا في بيتهما الجميل الذي اختارا سويّة كلّ قطعة من

أثاثه الجميل، سيرفلان بالسّعادة، وسيعيدان في بيتهما الصّغير سيرة عائلات محبّة ومتعاضدة عرفاها في أسريتهما.

ثبتّتْ عاملة صالون التّجميل الإكليل الأبيض على شعر نادية، فاستلقى بسعادة بيضاء ليهبط إلى الأرض، وليلامس ثوبها الأبيض الذي اختارته بعناية، وبعد بحث طويل، عيناها تملكان سعادة غامرة لا تفلح في أن تخفيها، تتابع جمالها المتّشح بالأبيض في المرآة التّي تهبها آخر تأمّل في مظهرها قبل أن تغادر المكان، تستدير كفراشة برية سعيدة لتُلقي بفرحتها في أحضان أمّها هالة التّي تقرأ القرآن عليها؛ لتحميها من العين، وتلقّبها مزهوة بأجمل عروس في الدّنيا.

وجيب قلبها يتعالى، فتشعر بأنّ الدّم يتدفّق بسخاء في عروقها، برفقته برودة لذيذة تجتاح جسدها، تتأبّط ذراع أشرف، وتسلمه النّفس والعشق، وتغادر برفقته بيت أهلها وسط حشود من الأصدقاء الذين يستقبلونها بالأغاني والموسيقي الصّادحة والزّهور، تلقي نظرة عجلى وسعيدة على الرّؤوس التّي تطلّ باسمة من بيوت الجيران الذين تحبّهم جميعاً، وهم يرمقون ثوبها الأبيض، ويدعون لها بالتّوفيق، تشدّ على كف أشرف الذي يهبها نظرات مطمئنة تقول لها: "نعم، أنا أحبّك، سنعيش أجمل حياة سويّاً".

لم تشعر بمثل هذه الفرحة من قبل، كانت زفّة طويلة وصاخبة هي زفّتها حتى قاعة الفندق، شعرت بأنّ عمّان كلّها تشهد زفافها، وتمنّت لو أنّ الدّنيا كلّها تعلم مقدار سعادتها في مثل هذا اليوم، فسعادتها تتسع للبشر أجمعين، تمنّت لو أنّ اللّحظات تتسارع لتنتهي سريعاً التقاط الصّور التّذكاريّة في غرفة زفافها في الفندق مع أشرف، لتهبط طوابق عدّة بالمصعد الكهربائيّ، وتبدأ زفّة دخولها وأشرف إلى قاعة الزّفاف، أرادت أن ترى سعادتهما حبّاً في عيون المدعوّين جميعهم.

على باب القاعة انتظرتها أمّها الحنون ووالدها الحبيب الذي تحبّه حدّ الجنون، حماها وحماتها غمراها بابتسامة خاصّة، وتاهت نظراتها في يمٍّ من الابتسامات والأعين المحبّة لها، تعالى صوت الموسيقى والطّبول والأغاني الشّعبيّة، وملأ رقص الفرقة المكان بالسّعادة، وتعالت الزّغاريد، وكادت تدلف القاعة لتمطر الجميع بابتساماتها المزهوّة، أرادت أن يجتاح ثوبها الأبيض المكان بسعادة غامرة، وخطتْ خطوة مع أشرف، ثم جاء الموت، جاء انفجاراً رهيباً، صمّ أذنيها لثوانٍ خالتها سنوات، ظنّت أنّ انفجاراً في عبوة غاز أو تماس كهربائيّ قد حدث، لكن سقف الصّالة الذي انهار فجأة، وهوى مع زجاج الواجهات جعلها تظنّ أنّ زلزالاً قد ضرب المكان.

أرادت أن تستنجد بأبيها، لكنّها وجدته يشهق شهقات الموت غارقاً في دمه، أمّها كذلك كانت قرباناً للموت الذي حلّ في المكان، تعالت الأصوات، وغاب النّور، وحلّ الظّلام والخوف والموت، ثوبها الأبيض تلطّخ بدم الأهل والأقارب، انتابتها دهشة، وغشيها ذهول، أرادت أن تصرخ فلم تستطع، أرادت أن تستنجد بأشرف، فخانتها الكلمات، وكاد العالم يغيب عن وعيها، وكذلك كان وهي تُدسّ في سيّارة أحد الأصدقاء لتُبعد عن مكان خراب يسكنه الموت كان قبل دقائق حفل زفافها حيث الأحبّة والأهل.

لم تذق فرحة الزّفاف، بل قضت اللّيل بثوب أسود لبسته عندما يتّم جبناء متوحشون بياضه، وذبحوا سعادته، طافتْ على غرف المستشفى كلّها حيث الأهل والأقارب جرحى وموتى، تكوّمت على الأرض تحاول أن تصمّ أذنيها عن صراخ الأطفال والثّكلى، لكنّها لم تستطع من ذلك.

بقرار همجيّ وقنبلة آثمة أحرق الأوغاد عالمها كلّه، وتركوه يباباً، تمنّت أن تكون أسيرة حلم لتستيقظ منه، فتجد عالمها كما كان، يزخر بالأحبّة، وينعم ببركات الوالدين ودعوات الصّديقات، لكن أمنياتها ذهبت أدراج الرّيح، فقد

أيقنت أنّها تعيش أبشع حقيقة، وأنّها غدت عروس عمّان الثّكلى اليتمة المتّشحة بسواد الموت، وبدل أن تذوق طعم الغرام مع أشرف في شرم الشّيخ تلقّت التّعازي بوالديها وبحماها وبحشد من الأصدقاء والأقارب، وغدا ثوب الزّفاف الأبيض رديفاً للموت، وقضت أيّامها الأولى في بيت العزاء تتناوب على شتّى أنواع الألم والحسرة، أو في المستشفيات تزور الأقارب والأصدقاء المصابين، وتحمّل جسدها المضنى بالألم فوق ما يطيق من التجلّد، لتقدّم الدّعم للمنكوبين كلّهم، لتعود في آخر اللّيل إلى بيت سكنه الموت بعد أن هجره الأحبّة الذين غدوا صوراً في أطر ذهبيّة تنتشر في أرجاء المكان.

أمّا بيتها الذي ينتظرها في الكويت، فهو من ثكلى المجزرة الشّنيعة التّي خاضتها، لن تعود إليه، بل ستبيع أثاثه كاملة، وتستقرّ في عمّان لتكون عوناً لأخوة غدوا يتامى، ولحماة غدت أرملة، ستقف بكلّ شجاعة إلى جانب أشرف، سيتحدّيان الألم، وسيثبتان جدارتهما بالحياة، لن يلبسا أبيض الزّفاف من جديد كما عُرض عليهما من جهات كثيرة، بل سيتّشحان بأحزانهما، ويمضيان في درب الحياة.

تحاول نادية في كلّ ليلة أن تتجاوز بقع الدّم المنتشرة عبر ذاكرتها، تحاول أن تنسى أحزان ثوب زفافها الغارق في الموت، تتكومّ بانكسار إلى جانب أشرف، تشدّ على يده، فتحاول جاهدة أن تسأله إن كان يحبّها، لكن الكلمات تعيها صمتاً، تلتصق أكثر بأشرف الذي يضمّها إلى حضنه، ويغمرها بعطفه، تبتسم بصعوبة، وتمسح دموعاً تغالبها كثيراً، فتغلبها، تهمس في أذن أشرف بطهارة الأطفال: "لكن لماذا فعل أولئك الأوغاد ما فعلوا بنا؟ لماذا اغتالوا فرحتنا؟"

يقطّب أشرف حاجبيه وذكرى اللّيلة الرّهيبة تمرّ بتثاقل في ذاكرته، ويقول بحرقة دامية: "لأنّهم ليسوا بشر".

الطّرحة البيضاء

"إلى صديقات جمعهن الودّ، وفرقهن الإرهاب والموت، إلى نادية وفاتن وبتول وسوسن وربى اللّواتي حطّم الموت سوار صداقتهن".

الطّرحة البيضاء وثوب الزّفاف والحبّ الأبديّ الذي يتّوجه الزّواج كان من أجمل أحلام صداقتهنّ التّي جمعت بينهنّ في عمل واحد منذ سنتين في مؤسّسة "موبايلكم" للاتّصالات الخلويّة.

كنّ فتيات ست بأعمار الزّهور، وبأمنيات السّعادة والحبّ، تابعن باهتمام وشغف قصّة حبّ نادية وأشرف طوال سنتين، وحفظن أحداثها عن ظهر قلب، وانتظرن جميعاً أن يمتدّ الحبّ ثوباً أبيض ليجمعهما زوجين، وجاءت اللّحظة بعد انتظار طويل، وأزف موعد زواج نادية وأشرف اللّذين توقعا أن يكونا أوّل زوج في مجموعتهنّ، إلا أنّ ربى فاجأت الجميع بزواج سريع منذ أشهر قليلة، وكانت بذلك أوّل صديقة تدخل القفص الذّهبيّ على حدّ تعبيرهنّ.

أنفقت الصّديقات السّاعات في التّحضير للزّفاف، وفي شراء هديّة زفاف لنادية، ثم تشاورن طويلاً في أثواب الحفلة وفي تسريحات الشّعر، وقررن ماذا سيلبسن بعد عناء ومشقّة، فقد أردن أن يكنّ بكامل أهبة السّعادة والابتهاج في زفاف نادية التّي حجزت لهن طاولة خاصّة بالقرب من منصّة الزّفاف؛ ليكنّ قريبات منها في لحظة سعادتها، كما كنّ قريبات منها طوال سنتين.

جلسن جميعاً على كراسيهنّ إلى الطّاولة المحجوزة لهن، أحصين بعضهنّ، فألفين ربى وزوجها لم يأتيا بعد، انشغلت الصّديقات بالاتّصال بربى

لاستعجالها، وتذكّرت فاتن أنّ عليها أن تتصل بوالدتها كي تطمئنها على وصولها إلى قاعة الزّفاف؛ فأمّها من نوع الأمهات القلقات جدّاً على بناتهنّ، وهي تريد أن تطمئنها عليها، وتخبرها بوصولها إلى قاعة العرس.

ربى قالت إنّها الآن مع زوجها تخطو أول الخطوات على السّلّم الخارجيّ لقاعة الزّفاف، فطارتْ ناديا لاستقبالها ولمشاركتها لحظة دخول نادية وأشرف في زفّة العرس، في حين انشغلت الصّديقات بمتابعة الأحداث عبر تلفاز ينقل بالصّوت والصّورة لحظات جميلة لن تنسى أبداً، إلا أنّ فاتن ظلت مشغولة في محاولة الاتّصال مع والدتها، وأملّت النّفس بأن تجري المكالمة سريعاً، ثم تفرغ لمتابعة اللّحظات السّعيدة عبر التّلفاز، لكن الموت لم يمهلها، فقد كانت هي والصّديقات في أقرب نقطة من رجل مأفون دخل إلى القاعة، وفجّر نفسه ومن حوله.

في لحظات أسرع من أن تحصى وأبشع من أن تُوصف انفجر المكان، وتهشّم الزّجاج، وتبّدل الفرح موتاً، وغابت الرّؤية، واستسلمت الصّديقات للموت غير معنيات بمتابعة اللّحظة السّعيدة التّي غدتْ موتاً أسود، في حين بقي الجهاز الهاتف الخلويّ الذي كان في يد فاتن لحظة الانفجار يرّن، ويظهر رقم بيتها دون مجيب.

شعرت أمّ فاتن بحرقة غريبة مباغتة في صدرها في ساعة الانفجار، وظهرت فاتن في مخيلتها حزينة كسيفة تطلب مساعدتها بصوت واهٍ وبنبرة كسيرة، اتّصلت بها الأمّ هناء الحلبي مراراً دون إجابة، أرادت أن تلبّي دعوتها لكن دون مجيب، شعرت بأنّ وخزة في قلبها تقول لها إنّها لن ترى فاتن بعد اليوم بثوب زفاف وبطرحة بيضاء كما تمنّت دوماً، وها هي قد أخلفت وعدها لأوّل مرة،

ولم تتّصل بها لتطمئنها على وصولها إلى قاعة الزّفاف، وما كانت لتفعل ذلك أبداً، وهي على ما يرام.

فايزة وفتون شقيقتا فاتن كانتا أول من سمع عن الانفجارات من خارج الأردن من العائلة، أردن الاطمئنان على العائلة، اتّصلن طويلاً بفاتن دون مجيب، بعثن إليها رسائل إلكترونيّة دون ردّ، فاتّصلن بالبيت ليعرفن أخبار الأهل الذين هبّوا جميعاً ليبحثوا عن فاتن بعد أن سمعت بنات العم اللّواتي هنّ بمثابة أخوات لفاتن، ويقطُنّ في العمارة نفسها أنّ تفجيراً رهيباً وقع في حفل زفاف نادية صديقة فاتن.

بحث الأخوة والأعمام طويلاً عن فاتن بين جثث القتلى وأسرّة المرضى وحطام المباني، لكنّهم لم يجدوها، تمنّى الأخوة لو أنّهم منعوا فاتن من حضور هذا الحفل بالذّات، وشعروا كم هم حاجة في هذه اللّحظات الرّهيبة إلى وجود أبيهم الذي يعمل في الخارج منذ سنتين ليؤّمن لهم الحياة الكريمة والمعيشة الرّغدة.

ليته أصرّ على فاتن، وغيّر رفضها قبولاً، وأقنعها بالهجرة معه بعد أن أنهى معاملة هجرتها، ليتهم أحاطوها بعناية أكبر من تلك التّي أحاطوها بها، لعلّهم كانوا عندها سيحمونها من إرهابيّ قرّر في لحظة جنون أن يعدم سعادتهم، وأن يغتال فرحة أمّهم بفاتن.

بعناية راقبت هناء الحلبيّ الشّارع عبر النّافذة، انتظرت بفارغ الصّبر أن يعود الأخوة والأعمام بفاتن سليمة معافة لتضمّها إلى صدرها معاتبة لها على عدم اتّصالها بها، لكنّها لم تتوقّع أبداً أن تأتي محمولة على الأعناق بعد أن وُجدت ميّتة في مشرحة مستشفى الملكة علياء العسكريّ، كانت مكفّنة بالأبيض، لكن ليس بياض الزّفاف والسّعادة، بل بياض الموت المتّشح بالدّماء والألم.

ضمّتها الأمّ إلى صدرها قبل أن تهبها للقبر، بدل أن توصلها إلى عشّ الزّوجيّة، فقد أيقنت أنّ الإرهاب حرم فاتن من أن تلبس طرحة الزّفاف، بل حرمها من حقّ الحياة.

في مكان قريب كانت لانا صديقة فاتن تُودع القبر كذلك، وتستقبل تراب النّسيان، فقد ماتت هي الأخرى، ولم تستطيع أن تطمئن على باقي صديقاتها، ولم تعرف أن نادية وربى قد نجتا من الموت؛ لأنّهما كانتا خارج القاعة في حين أنّ سوسن وبتول كانتا تعانيان من كسور وجراح خطيرة، وتستسلمان للألم على أسرة الشّفاء، وأنهّن يسألن دون انقطاع عن مصير فاتن ولانا، فلا تكون الإجابة إلا آمال كاذبة وحقائق مزوّرة كي لا تعرفا الحقيقة؛ فتسوء حالتّهما النّفسيّة فضلاً عن الجسديّة.

نادية الوحيدة التّي كانت تعرف مصير الصّديقات جميعاً، وتعاني من سكرات موت التّي تلفح حلقومها المزكوم بشهقات مكبوتة، وهي تخبر بتول إنّ فاتن ولانا على ما يرام، في حين تعرف تماماً أنّ لا أحد على ما يرام، لا سيما هي التّي تدخل كلّ يوم إلى مكتبها في العمل لتجده خالياً من الصّديقات اللّواتي توزّعن على الموت أو أسّرة الشّفاء، في حين لم تبقَ لها إلا الذّكريات وصور في أطر ملوّنة تذكّرها بأجمل اللّحظات التّي قضتها مع الصّديقات اللّواتي لن يعدن إلى الحياة حتى ولو أشعلت لأرواحهنّ آلاف الشّمعات هي وموظّفو الشّركة على البوّابة الرّئيسيّة، تتكوّم بانكسار إلى جانب إحدى الشّمعات التّي تكاد تذوي، تمسح دمعة فارة من عينها دون إذن منها، وتتنهّد بانكسار، وتمسح من ذاكرة جهازها الخلويّ رقمي لانا وفاتن، وتنطلق مسرعة كي لا يفوتها موعد زيارة سوسن وبتول، لا تنظر إلى الخلف، ولا تلوي على شيء لا سيما على أحزانها وانكسار روحها.

الوداع الأخير

"إلى خالد الأخرس الذي أهدى ابنه أشرف في ليلة زفافه رعاية أمّ أرملة وأخوة أيتام".

للمرة العشرين قرأ دعوة الزّفاف على مسامع زوجته فرحاً بها، كانت الكلمات المكتوبة عليه محفورة على شغاف قلبه بحروف من أمل، بطريقة إذاعيّة فخورة قرأ من جديد على مسمع زوجته: "يتشرّف كلّ من خالد الأخرس وأنيس العلميّ بدعوتكم لحضور حفل زفاف ابنيهما: أشرف ونادية، وذلك يوم الأربعاء الموافق ١١/ ٩/ ٢٠٠٥ في فندق "الرّاديسون ساس"، في قاعة فيلادلفيا، السّاعة التّاسعة مساء، ودامت الأفراح حليفة دياركم العامرة".

- "يا رجل والله أصبتُ بالصّداع لكثرة ما قرأت بطاقة الدّعوة على مسمعي"، قالت الزّوجة أمّ أشرف وسعادة لذيذة تداعب زوجها الودود.

- "أكاد أطير فرحاً كلّما تذكّرت أنّ ابني البكر سيتزوج أخيراً، أتصدقين أنّ زفافه سيكون غداً؟" سأل خالد زوجته بسعادة طفوليّة.

- "أصدق والله، كما أخشى أن تقتلك الفرحة قبل أن تحضر هذا الزّفاف".

- "بل، أرجو الله أن يطيل في عمري حتى أزفّ أشرف لعروسه، وآراهما على منصّة الزّفاف".

- "إن شاء الله سيطول عمرك حتى تزّوج أولادهم بل وأحفادهم".

- "وأنا يا جماعة؟ أنسيتم أنّ لكم ابناً آخر اسمه بشّار عليكم أن تسألوا الله أن يطيل في عمريكما حتى تحضرا زفافه"، قال الابن بشّار بنبرة محتجّة لا يخفى الحبور والمزاح فيها.

– "هذا يوم المنى عندما أزفّك يا ولدي إلى عروسك"، قال الأب بنبرة دافئة تناجي إيماءات الأم بالدّعاء والرّجاء لله بتحقيق أمنيات الأب الذي ما تزال تتذكّر تماماً دموع الفراق في عينيه عندما أصرّ قبل أيّام على توديع الأصدقاء والمعارف والجيران كلّهم في الكويت، قبل أن يسافر إلى الأردن لحضور زفاف ابنه بشّار الذي أُوجّل أكثر من مرة حتى يعود الأقارب كلّهم من السّفر، ويتسنّى لهم أن يحضروا الزّفاف، يومها قال بلهجة حزينة يعلوها الإيمان بقضاء الله وقدره: "لا أحد يدري إن كنّا سنرى بعضنا مرة أخرى أم لا".

بالإيمان نفسه بقضاء الله وقدره والاستسلام لحكمه حضّر الأب عرس ابنه أشرف بعد أن صلّى صلاة المغرب، وتضرّع لله كي يرزق ابنه الخلف الصّالح، ويهيء له الحياة الحلال السّعيدة، وكان في مقدّمة المستقبلين للحضور إلى جانب والد عروس ابنه، كاد يطير فرحاً واعتزازاً بسنوات الغربة والحرمان والشّقاء التّي تمخضّت عن شاب وسيم خلوق، ها هو يزفّه إلى عروسه في هذا اليوم ذي الطّقس المنعش والنّسمات العليلة، وإلى جانب ابنه الآخر بشّار الذي يختال بشباب غضّ يحلو ببذلة رسميّة جميلة.

تذكّر نفسه وهو شاب صغير، وهو يحزم أمتعته القليلة، ويطير إلى الكويت بعد عام ١٩٦٧، بحثاً عن حياة جديدة بعيداً عن موطن رأسه في قرية سيلة الظّهر في جنين المحتلة، ويحمل في يد شهادة الهندسة، ويقبض بأخرى على نقود قليلها صرّها بحرص لتعينه على أن يبدأ بها حياته الجديدة في الكويت.

صوت الأغاني الشّعبيّة والطّبول علت على الأصوات كلّها، ومنعته حتى من أن يسمع صوته وهو يردّد الأغاني بجبور مع فرقة الزّفّة، لكنّه لم تعلُ على صوت الانفجار الذي دبّ رعباً في المكان، فخلع السّقف، وحطّم المرايا والزّجاج، وغاص قطعاً وشظايا في جسده الذي ذهب أشلاء ومزقاً في المكان،

جمعها المسعفون بعناء، ودسّوها في كيس بلاستيكيّ، كتبوا عليه: "الضّحيّة: خالد الأخرس".

آذان الفجر صبيحة يوم الزّفاف الأسود زار الدّنيا دون أن يشهده خالد الأخرس، فيكبّر مراراً، ويسبح باسم الله، ويتوّضأ لأداء صلاة الفجر، فقد رحل وترك أيتاماً وأرملة بكت بمرارة، وهي تقول: "كان زوجي رجلاً متديّناً، يحبّ الإسلام والمسلمين، وما ظنّ يوماً أنه سيقتل باسم الإسلام، وعلى أيدي دعاة يدّعون الانتصار للإسلام. أيّ إسلام هذا الذي يبيح سفك دماء الأبرياء واغتيال أحلامهم وأفراحهم؟"

مات خالد، وترك هديّة زواج صعبة لأشرف ونادية؛ إذ ترك لهما عبء رعاية أمّ أرملة وأشقّاء أيتام، وغاب في أرض الموت.

فنجان القهوة

"إلى أمّ حرمها الموت من أن تزفّ ابنتها البكر إلى بيت زوجها مثل سائر الأمهات: إلى هالة فاروقة"

اعتادت هالة في كلّ صباح منذ سنوات طويلة تعادل سنوات زواجها من أنيس العلميّ على أن تشرب قهوة الصّباح مع شريك عمرها، ورفيق درب حياتها، يجلسان إلى شرفتهما الصّغيرة، يحتسيان القهوة بشغفٍ وتلذّذ، يتجاذبان أطراف الحديث على عجل، يراجعان أهمّ فعاليّات اليوم وبرامجه، ثم يتجه كلّ منها إلى عمله على أمل اللّقاء في المساء مع الأبناء.

لم يقطعا عادتهما هذه طوال سنوات، ثم غدت هذه العادة طقساً سعيداً له فعاليّاته وجماليّاته الخاصّة منذ أن غدتْ فرصة مواتية لحديث طويل وديّ بعد فطور الصّباح، ومغادرة الأبناء كلّ إلى مدرسته أو جامعته أو إلى مكان عمله، فمنذ أن تقاعد أنيس وهالة طفقا يستمتعان بكلّ لحظة من لحظات حياتها، وأعلنا صراحة عن أنّهما سيقومان بجولات كثيرة في دول حلما بزيارتها منذ زمن، ووفق عبارة أنيس سيعيشان حياة جديدة فور زواج بكرهما الحبيبة نادية.

اعتادا على أن يطرحا قضاياهما كلّها للنّقاش مع فنجان قهوة الصّباح، لكن منذ أسبوعين احتلّ موضوع زواج نادية وتحضيرات الزّفاف وأسماء المدعوّين واختيار هديّة العروسين صدارة مواضيع حديثهما، إن لم يحتكرها تماماً.

كان هذا يسعد نادية التّي غدت شريكة جديدة في فنجان قهوة الصّباح منذ أيّام بعد أن أخذت إجازة من العمل بسبب الزّفاف، وإن كانت مشغولة الذّهن بتلك النّواقص التّي تظهر على غفلة كلّما ظنّت أنها قد انتهت من آخر التّجهيزات.

لم تفارق هالة ابتسامة أمومة هادئة، وإن عجزت عن أن تخفي دمعة حزن تترقرق في عينيها كلّما تذكّرت أن موعد انتقال حبيبتها نادية قد أزف، فهي لا تكاد تصدّق أنّ صغيرتها قد غدت امرأة جميلة ستغدو بعد أيّام زوجة، وليتها تغدو في أقرب وقت أمّاً تحمل بين ذراعيها أوّل حفيد لها ولأنيس.

"سيكون حفيدي المدلّل"، تحدّث هالة نفسها قائلة، وتبتسم لصورة حفيدها المرجو التّي تخطر على بالها.

كانت هالة أول حضن يحوي نادية، وهي ترتدي ثوبها الأبيض، أمطرتها بالدّعوات، وأوصلتها إلى سيّارة أبيها أنيس الذي طبع قبلة على جبين ابنته، وأقلّها بسيارته إلى بيت الجدّة أمّ أنيس؛ لتهنأ برؤية حفيدتها عروساً؛ إذ لن تستطيع أن تشارك الجميع فرحتهم بسبب كسر في حوضها منعها من الحركة، وألزمها الفراش.

فرحت الجدّة بحفيدتها الصّغيرة التّي كبرت في ليلة وضحاها، وغدت عروساً، وكادت تغصّ بدمعات غالبتها بقوّة وأنيس ينحني على يديها المرتعشتين يقبّلهما طالباً الرّضا منها، هالة وحدها من فهمت معنى تلك الدّمعات؛ إذ إنّها أمّ، وتعرف معنى دموع الأمّ في ليلة فرح ابن أو حفيد، لا سيما أنّها تغالب بصعوبة عبرات تحمل معنى عبرات الجدّة أمّ أنيس.

ابتسامة هالة كانت المستضيف الأوّل للضّيوف، كانت نادية جميلة جدّاً، كما قال لها الكثيرون من الحاضرين المعجبون بجمالها وبثوبها وبتصفيف شعرها، لكن كلمات إعجاب أنيس كانت الأجمل عندها، والأبلغ وقعاً في نفسها، كانت تصدفُ عيناها عينيه لحظة بعد أخرى، فتتبسم له ابتسامة ذات معنىً يفهمه، وتعده بفنجان قهوة سعيد غداً لا سيما أنّهما لم يحتسيا القهوة هذا الصّباح معاً لأوّل مرة بسبب انشغالهما بآخر تجهيزات الزّفاف، نظراتها أمّلته بأجمل فنجان قهوة.

كانت إلى جانب أنيس تصّفق، وتتمايل على أنغام الموسيقى مردّدة الأغاني الشّعبيّة التّي يصدح بها أفراد فرقة الزّفّة، وملء عينيها حبيبتها نادية التّي أندت المكان سعادة وحبوراً، كانت تتملّى وجهها، وهي تتخيّل سعادتها غداً، وهي تقدّم لها وأنيس هديّة الزّواج ،آه كم ستكون لحظات سعيدة،" قالت هالة مؤمّلة نفسها بسعادة منتظرة قبل أن تميد الأرض بها، وينفجر المكان على يدي إرهابيّ غاشم، وتنغرس شظيّة حديديّة في ظهرها، فتقطع نخاعها الشّوكيّ، وترديها جريحة غائبة عن الوعي.

ليالٍ ثمانٍ قضتها هالة في نفق طويل يصل الموت بالحياة، كانت متأرجحة حائرة بين موتٍ أسود أو حياة تقضيها مشلولة الأطراف بعد الإصابة البالغة التّي أصابت نخاعها الشّوكيّ، حيرتها منعتها من أن تسمع نادية ترجوها أن تصمد، وتتشبث بالحياة لأجلها ولأجل ابنها فارس كي تتلقى التّهنيئات في عرسه المتمنّى، بل منعتها من أن تحسّ بيد الملكة رانيا المعظّمة تمتدّ حانية لتمسّد على جبينها، وتهديها دمعة حرى؛ فهي أمّ تعرف معنى أن تُحرم أمّ من حياة وهبتها لأبنائها، تعرف معنى أن لا تحضر أمّ زفاف ابنتها، وتعرف معنى دمعة حبّ تترقرق في عيني أمّ كلّما شاهدت فرحاً في عيني ابن أو ابنة.

غادرت هالة المستشفى لترقد في رمسٍ بـاردٍ حـزين في مقـبرة وادي السّـير دون أن تقول وداعاً لنادية التّي انتظرت أن تضمّها أمّها صـباح زواجهـا مثلمـا تفعل الأمهات جميعهنّ، ودون أن تعدّ فنجان قهوة الصّباح لأنيس الـذي رحـل هو الآخر دون أن يشرب فنجان القهـوة، ودون أن يعلـم أنّـه قـد شـرب علـى عجل فنجان القهوة الأخير مع هالة قُبيل حفل زفاف نادية بيوم واحد.

خلا مطبخ هالة من دلائل الحياة إلا من فنجاني قهوة صُنعا على عجـل في انتظار رفيقي درب رحلا دون عودة.

اللّعبة الوحيدة

"إلى روح لينا ذنيبات التّي تركت لعبتها بارني وحيدة دون أنيس".

اعتادت أمّ محمد منذ تسع سنوات، هي بمقدار عمر حبيبتها لينا، على أن تعرّج كلّ مساء قبل النّوم على غرفة لينا، تفتح الباب بهدوء، وتتلصّص عبر النّور الخافت على الغرفة، فتجد لينا تغطّ في نوم عميق، وهي تحضن لعبتها المفضّلة "بارني"، تطبع قبلة حرى على جبين لينا، وتغلق الباب لتهنأ بنومها وبأمنها.

لكنّها منذ أيّام سوداء باتت تُلفي نفسها في كلّ ليلة أمام بكائيّة حزينة اسمها لعبة لينا، كلّ ليلة تمرّ رغم أنفها على غرفة لينا حيث بات المكان يتيماً دونها، تلقي نظرة على اللّعبة بارني التّي باتت وحيدة دون رفيقتها لينا، تطبع قبلة حزينة على جبين "بارني"، تضمّها إلى صدرها، وتغرق في بكاء حزين قد يطول إلى منتصف اللّيل.

منذ رحيل لينا وهي تعيش وحدة عظيمة وحزناً لا ينقطع، لم تكن ابنتها الوحيدة التّي انتظرتها تسع سنوات، ولم تكن بسمتها الوحيدة في الدّنيا، لم تكن واسط العقد بين شقيقين، ولم تكن عالماً من الحبّ والأمومة فجرّتهما في داخلها وحسب، لكنّها كانت صديقة صغيرة تمسح دمعتها، وتؤنس وحدتها منذ أن عادت الأسرة إلى الأردن، وبقي الزّوج في الخارج، ينتظم في عمله، ويرسل لأسرته من المال ما يكفل لهم الحياة الكريمة الطّيّبة.

لقد ضحّت الأسرة بالحياة التّي أسّستها في الخارج من أجل لينا التّي أراد لها الوالدان أن تعيش في بيئة عربية، وأن تتربّى على قيم مجتمعها وعلى طقوسه وأعرافه؛ لذلك كان انقسام الأسرة، وعودة الأمّ والأبناء إلى الأردن دون الأب الذي ظلّ ملتصقاً بمكان ترزّقه.

أحبّت أمّ محمد أبناءها جميعاً، لكن لينا كانت فرحة أمومتها، التقطت لها صوراً تسجل أفراح حياتها كلّها، حتى أنها لم تنسَ أن تلتقط لها صوراً تحمل ابتسامة عريضة لها، وهي تشارك الجيران لساعات ثلاث في إعداد كعك العيد الذي لم تكن تعلم أنّه سيكون العيد الأخير الذي ستشهده طفولتها المفعمة بالسّعادة والفرح وحبّ الحياة، والمتمثلّة لأجمل جزئيّاتها.

كانت تحلم باللّحظة التّي ستكبر فيها لينا، وتكون رفيقتها في الأماكن كلّها، لكنّها لم تستطع أن تنتظر تلك اللّحظة التّي بدت بعيدة؛ لذا فقد اعتادت على أن تصحبها من وقت إلى آخر إلى الحفلات، لا سيما حفلات الزّواج، فتمشّط لها شعرها الأسود النّاعم القصير، وتلبسها أبهج أثواب الطّفولة، وتصحبها أنّى كان الفرح.

كانت تظنّ أنّ لينا على موعد مع الفرح يوم الأربعاء، ولم تكن تعلم أنّها على موعد مع الموت؛ كانت تلبس ثوباً زاهياً، وتنتقل مثل فراشة بين المدعوّين في قاعة الزّفاف، على الرّغم من محاولة أمّها بأن تلزمها بالجلوس في مكان واحد، كانت تخطف أبصار الحضور بضحكاتها وسعادتها عندما خطف ضوء مفاجئ الأبصار، وهزّ انفجار أركان المكان، وبدّل النّور ظلاماً، وطغى بسواده على لون ثوب لينا الزاهي، وأسقطها أرضاً تتخبّط في دمائها، وتنزف من شتّى أنحاء جسدها، غرق ثوبها في دم أحمر حارّ، وانزلقت في سكون شاحب علا وجهها، وأجبر حركتها على الاستكانة، وألزمها الصّمت.

قليلة هي الإسعافات التّي بذلها الأطبّاء لمساعدتها؛ لأنّ روحها سرعان ما فاضت، وقطعت بقضاء الله كلّ محاولة لإنقاذها.

لم تكن أمّ محمد تعلم أنّ المرء قد يموت بموت حبيب يستلقي دون حراك في حضنه، تمنّت لو أنّ روحها تُوهب لحبيبتها التّي سرق إرهابيّ غادر روحها، واغتال فرحتها، ويتّم لعبتها "بارني".

حضنتها طويلاً حتى تيبّست أطرافها، وعلتها صفرة الموت، عندها اضطررت إلى أن تستسلم للأطبّاء، وتسلمهم جسدها النّحيل المسلوب الحياة، انتزعوا لينا من بين يديها، وأعطوها ثيابها الملطّخة بالدّم الباقي الوحيد من تلك اللّيلة المشؤومة.

عادت أمّ محمد إلى بيتها تحمل ثياباً ملطخة بالدّم دون لينا التّي اعتادت على أن تردّد على أذنّي عمتها ميسون التّي تعّدها ابنة لها؛ إذ لم ترزق بأطفال، كلّ ما رأت وسمعت، لكنّ العمّة ميسون تلقّت هذه المرّة ثياب لينا، فضّمتها إلى صدرها، فتلطّخت ملابسها بالدّماء، شمّتها مراراً، فميّزت فيها رائحة لينا التّي خالطتها رائحة الموت والدّمار، أشفقت على لينا الرّقيقة أنّى لها أن تواجه الموت المخيف، وأن تصارع المتفجرات والإرهاب، فيصرعانها؟

تتكّوم العمّة إلى جانب الأمّ الثكلى، تنخرطان في بكائيّة حزينة، ملابس لينا الملطّخة بالدّم هي اللّوحة الأبرز فيها بعد أن قامت أمّ محمد بالتّبرع بملابس لينا وألعابها لميّتم الأطفال، لتنعم بها طفلة بعمر لينا، لم تواجه الإرهاب وجهاً لوجه، فتقع ضحيته، أمّا "بارني" فقد بقي في البيت بعد رحيل الأشياء كلّها؛ إذ إنّه كان اللّعبة المفضّلة عند لينا، وما كنت لتنام دونه حتى لو اضطرت إلى أن تُجبر

أباها على أن يعود أدراجه من عمّان إلى مطعم سياحيّ في جرش، ليحضر "بارني" الذي نسيته في المكان كما حدث في مرّة سابقة.

رحلت لينا مجبرة بعد أن ذُبحت طفولتها مع أنّها لم تكن تحمل أيّ فكر سياسيّ أو دينيّ يعارض أيّ فكر في الدّنيا، أو حتى يساند أيّ فكر كان لتُقتل دونه، لكنّها على الرّغم من ذلك ذُبحت دون رحمة أو إشفاقاً، وتركتْ ثوباً دامياً تصمّم أمّها وعمّتها على عدم غسله ليبقى شاهداً على انتقام بشع من أطفال أبرياء كانت لينا في طليعتهم.

مذكّرات رضيعة

"إلى تولين التّي حرمها الإرهاب من حنان أمّها".

"دعوني أعترف لكم بأنّي لا أفهمُ جُلّ ما يحدث الآن، لكـنّني أعـرف شـيئاً واحد فقط على وجه اليقين، وهو أنّي خائفة كثيراً ووحيدة جدّاً، ولا أفهم لمـاذا تركتني ماما وحيدة في هذا المكان".

"كما أنّي جائعة، أريد ولو قطرات من حليب ماما، لا أريد أيّاً مـن حليـب تلك النّسوة اللّواتي يحاولن إرضاعي وهنّ باكيات لسبب أجهله، لماذا يبكين يـا ترى؟ لعلّهنّ جائعات مثلي، لكن أليس لهنّ أمّهات كـي يرضـعن مـنهنّ؟ لعـلّ أمّهاتهن قد اختفين فجأة مثلما فعلت ماماً".

"ليتني أستطيع الكلام إذن لسألت بابا سامر عن سـبب اختفـاء مامـا، كـم أشفقُ عليه كلّما يضمّني إلى صدره باكياً! لعلّ ماما قد خاصمته، لهذا السّبب هو حزين، ويبكي بحرقة، لكن ماما وبابا متحابّان، فأنّى لهما أن يتخاصما؟"

"المهمّ أنّي جائعة، ولا أطيق رائحة هذا المكان، ورسغي يؤلمني كثيراً منذ أن سقطت من حضن ماما بعد أن أرضعتني آخر مرّة لاصـطدم بـالأرض في حفـل زفاف عمّي أشرف وعروسه الجميلة ذات الثّوب الأبيض الطّويل، كـان الحفـل جميلاً كثيراً، الحقيقة أنّ ماما كانـت أجمـل الموجـودين، عيناهـا الجميلتـان كانتـا تشّعان فرحاً وألقاً، وأنا كنتُ أتأملهما طويلاً قبل أن أنهل مـن حليبهـا الـدّافئ الذي يكاد يختلط برائحة عطرها الذي أميّزه من بين ألف رائحة، كنت أتابع مـع ماما زفّة العروسين عندما بدأت مفرقعات مخيفة بالانفجار، أنا أكره المفرقعـات،

لقد تسبّبت بتحطيم الأشياء الجميلة في المكان، وتسبّبت في وقوعي على الأرض، المفرقعات أخافت ماما، وأخافت الجميع، فناموا كلّهم كي لا يسمعوا صوتها، وتركوني مستلقية على الأرض أبكي وحيدة، ثم جاء رجل طيّب، وحملني، ثم حملتني عروس أخرى تلبس الأبيض، ووضعتني في هذا السّرير، ثم لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك؛ لأنّني نمت، ثم استيقظت مرّات كثيرة، ثم نمت، ولم تأتِ ماما، وأنا الآن جائعة، وأريد ماما، وأريد أخوتي، هل تسمعني يا بابا؟"

"أنا جائعة، وإذا لم تأتِ ماما حالاً سأشرع أبكي، يا إلهي أنقذني ممّا أنا فيه، لا تقل لي يا بابا أنّك ستشرع من جديد في البكاء، كلّما اقتربت نحوي، وضممتني إليك، شرعت في البكاء، هذا لا يجوز، أنت يا بابا رجل كبير، وأنا تولين الصّغيرة التّي عمرها ثلاثة أشهر، وأنا الجائعة، وأنا المريضة، إذن يجب أن أبكي أنا، وتصمتَ أنت".

من جديد عادت تولين إلى نوبات البكاء الحادّة التّي تنتابها بين الفنّية والأخرى، كانت في حضن والدها بعد أن رفضت بإصرار أن ترضع من أيّ المرضعات اللّواتي تبّرعن حباً وكرامة بإرضاعها بعد أن شاهدن صورها في التّلفاز تبكي الطّعام بعد مقتل أمّها الشّابة وجدّها وجدّتها لأمّها في حوادث تفجير عمّان المريعة، سرت الرّأفة في قلوب الأمّهات الأردنيّات، وتوافدن على المستشفى لإرضاع تولين الصّغيرة، لكنّها بقيت مصمّمة على رفض المرضعات، وكانت حالتها تزداد سوء؛ لأنّها رضيعة صغيرة أضعف من أن تصمد أمام الجوع الموصول.

قال الأبّ محدثاً فداء الصّمادي التّي جاءت متبّرعة بإرضاع تولين "إنْ بقيت دون طعام ستموت دون شك، وستلحق بأمّها الحبيبة".

"لا سمح الله، صدّقني أنّي أشعر بأنّها ستقبل بحليبي، فمنذ أن رأيتُ صورتها في التّلفاز وحليبي قد ازداد تدفّقاً، عندها أدركت أنّ ما يحدث إشارة إلى أنّ الله قد جعل من حليبي نصيباً لتولين، لتكون شقيقة لرضيعي ولابنتي الصّغيرة"، قالت فداء بدموع أمّ حنون.

"أرجو أن تقبل بحليبك، فأنا لا أقوى على تحمّل صدمة موت تولين، أنا في حاجة إليها؛ فهي أجمل هديّة من زوجتي الحبيبة، يا إلهي كم تشبه زوجتي! كنت أنوي أن أذهب أنا وزوجتي لشراء عربة خاصّة لتولين هذا الأسبوع، لكن العمل كان سبباً في تأجيل مخططنا الجميل، حتى هذا العرس المنكوب لم أستطع حضوره بسبب ظروف عملي، وقررت أنا وزوجتي أن تحضره هي مع عائلتها ومع تولين، ليتني كنت معهم، ليتني متّ معهم، ولم أبقَ وحيداً مع هذه المسكينة الصّغيرة"، قال سامر، وهو يشهق بالبكاء المرّ.

قالت فداء وهي تمسح دموعها على عجل، وتمدّ يديها إلى تولين لتحملها، ولتضمّها إلى صدرها متأثّرة ببكائها وجراحها: "بل عليك أن تتماسك لأجل تولين، فأنتَ كلّ ما بقي لها من الدّنيا".

"آه يا تولين، أنت لا تعرفين يا حبيبتي أنّك غدوت دون أمّ وبأبّ حطّمه الألم"، قال الأب بنبرة يتيم مفجوع متحسّر.

"إلى أين تأخذينني يا هذه؟ بابا سامر أنقذني، إلى أين تأخذني هذه المرأة؟ من تراها تكون؟ بابا، أنقذني منها، رائحتها تشبه رائحة ماما، في عينيها عطفاً يشبه العطف الذي في عيني ماما، لكنّني لا أريد أحداً أيّاً كان، أريد ماما، ولا أحد غير ماما"، صرخت تولين في أعماقها بصوت مكتوم.

تمسّدُ فداء على جبين تولين، وتدسُّ ثديها في فمها التّي تقبل به دون تردّد، وتبدأ بالرّضاعة بنهم وجوع، وحتى دون أخذ فرصة للتّنفّس، كأنّها تخشى من أن تُحرم من الرّضاع من جديد.

تفرح الممرّضة التّي تشهد منظراً مؤثّراً من الألفة والحنان بين تولين وفداء، وتيمّم راكضة نحو الأبّ لتخبره بأنّ تولين قد قبلت أخيراً بمرضعة حنون.

"يا إلهي لم كلّ هذه الفوضى من جديد؟ إيّاكم أن تقولوا أنّ هناك مفرقعات ناريّة من جديد، فأنا أكره المفرقعات كلّها؛ فهي من تسبّبت في نوم ماما، وهي من جعلت ماما تختفي، أنا جائعة، سامحيني يا ماما إن كنت قد رضعتُ من غيرك، لكنّني جائعة جدّاً، وهذه المرأة تبدو طيّبة، فصدرها دافئ، ويداها ناعمتان مثل يديك، ورائحتها تشبه رائحتك، لكنّني بالتّأكيد أحبّك أكثر، وأفضل حليبك. ماما، أنا أحبّك، وأريد أن أقول أنّني أنتظرك، لكن متى ستعودين؟"

سريعاً ما داعب النّوم جفني تولين التّي استسلمت طائعة له بين يدي فداء التّي ضمتها إلى صدرها، يد ابنتها الصّغيرة مسّدت على رأس تولين، وقالت بفرح من وجد كنزاً: "أحقّاً يا ماما أنّ هذه الصّغيرة قد أصبحت أختاً لي ولأخي؟"، أومأت فداء برأسها مؤكّدة ذلك.

"مرحى، أخيراً أصبح لي أخت"، قالت الصّغيرة، وهي تقفز فرحاً في مكانها، ومن بعيد كان يراقبها والد تولين وهو متهالك على كرسي خشبيّ باكياً بصمت، ويقول مثل من يحدّث نفسه: "كنتُ أحبّ زوجتي، لا يمكن أن أنساها، سأعيش على ذكرها ما حييت".

– "سأمر كلّ يوم على تولين لإرضاعها، وسوف أصحبها إلى بيتي للعناية بها، هذا بعد إذنك طبعاً"، قالت فداء بتحفظ وحذر.

– "كانت أمّ تولين هي حياتي كلّها".

– "سأعتني بها ليلاً، وفي النّهار سأرسلها إلى ذات الحضانة التّي أضع فيها طفلي إلى حين انتهاء دوامي في المدرسة".

– "أنا لن أرى أمّ تولين أبداً".

– "سيّد سامر هل سمعت ما قلتُ لك".

– "تولين سوف تبقى في رعايتي، أنا لا أستطيع الاستغناء عنها، لكن يسعدني أن ترضيعها، بل يشرّفني ذلك".

– "لكن".

– "أرجوك هي كلّ ما تبقى لي في هذه الدّنيا، فالتّفجيرات الغاشمة التّي استعرض الإرهابيّون قوّتهم بها على النّساء والأطفال والعزل قد حطمّت قلبي، ودمّرت أسرتي، وحرمتني من أحبتّي إلى الأبد، أنت لا تستطيعين أن تتخيلي الجحيم الذي عشت فيه وأنا أبحث عن تولين بعد الحادث، لأجدها في هذا المستشفى تقبع وحيدة باكية.

– "لكن".

– "أرجوك".

تراقب تولين هذا النّقاش الحزين، وتتساءل في نفسها" لكن أين ماما؟ هل ستغيب طويلاً؟ هل ستبقى نائمة إلى الأبد؟ أنا أكره المفرقعات؛ لأنّها جعلت ماما تبتعد عني، ماما أنا أحبّك".

التوقيع: ابنتك تولين

نور الصّباح

"إلى عمّار جودة الرّوح المعلّقة بين الطّفولة والشّباب التّي أحرقها الإرهاب دون رحمة".

على باب البيت يشدّ نفسه، يأخذ نفساً عميقاً، يحاول أن يرسم ابتسامة على وجهه تنفي أنّه متعب ومجهد من عمل طويل في مطعم الفندق طوال اللّيل، يمسح قدميه بالدّواسة التّي تستلقي بهدوء على عتبة الباب، يفتح الباب بهدوء، يتنحنح، يخلع سترته الجلديّة السّوداء القديمة، ويدلف مباشرة إلى غرفة والديه التّي تعبق برائحة البخور والألفة التّي عمرها سنوات طويلة توجّها أبناء كثر، هو أصغرهم جميعاً، يشعل ضوء الغرفة الخافت، يقترب من أمّه باسماً، ويقول لها بهمس من يحدّث سادن معبّد: "صباح الخير يا أمّي، إنّه وقت صلاة الفجر، ألن تصلي يا حبيبتي؟"، تفتح أمّه عينيها بهدوء، وتقول بسكينة: "الله يسعد صباحك يا ابني يا عمار، هل عدت؟"

يقول لها، وهو يقبّل يديها الدّافئتين الصّغيرتين: "نعم، يا ستّ الحبّايب لقد عدت للتّو".

– "هل أنتَ متعب يا صغيري؟"

– "لا، يا أمّي، لكنّني في حاجة إلى النّوم، أرجو أن تيقظيني مساء لأذهب إلى عملي".

– "بكلّ تأكيد سوف أيقظك في الوقت المحدّد".

– "لا تنسي أن تدعي لي يا أمّي".

– "أنا لا أنساك أبداً من دعائي يا طفلي الحبيب".

– "طفل؟ لستُ طفلاً، لقد أصبح عمري تسعة عشر عاماً".

– "بل أنت طفلي الصّغير مهما كبرتَ، حتى ولو أصبحتَ أكبر مُعَمّر في الدّنيا، فستبقى طفلي الصّغير المفضّل".

– "إذن ادعي يا أمّي لطفلك الصّغير بأن تتحسّن ظروفه الماديّة، ويفتحها الله عليه من واسع كرمه، ومن يدري قد أصبح يوماً مدير فندق ما".

– "ما عند الله قريب يا عمار".

– "لا تنسي يا أمّي أن تيقظيني في الوقت المحدّد، إذا تأخرت سيُخصم ذلك من راتبي الشّهريّ".

– "لا تقلق يا بني، سأتذكر تماماً الموعد المحدّد لاستيقاظك".

ووَفْقَ عادتها أيقظته في الوقت المحدّد، كان متحّمساً للوصول إلى عمله قبل دقائق من الوقت المحدّد، ليثبت أنّه أهل لعمله، فطموحه يحتاج إلى الكثير من العمل والمثابرة، قد يكون حظّه قد قصّر دون أن يحصل على شهادة جامعيّة تمهّد طريق أمنياته أمامه، لكنّ إصراره ونشاطه ومثابرته ستكون الطّريق إلى ما يصبو إليه، بهذه العبارات وبهذه الفلسفة كان عمار جودة يتلّقى الدّنيا بصدر محبّ شابّ، للتّو ودّع الطّفولة، ودخل في ريعان الشّباب، يعمل "سفرجي" في مطعم فندق "حياة عمّان"، لكنّه متأكّد من أنّ هذا العمل هو أولى خطواته على سُلّم النّجاح.

وصل عمار إلى عمله، لكن متأخّراً قليلاً بسبب زحمة الشّوارع واكتظاظ المواصلات؛ فالجوّ الجميل كان مغرياً للكثيرين بالتّنزه والتمشّي في الطّرقات، المطعم كان مكتظاً بالزّبائن، وهذا يستدعي السّرّعة والنّشاط، بدلّ ملابسه

سريعاً، وانخرط في عمله المعتاد، ابتسم وهو يتذكر أمّه وهي تودّعه مساءً قائلة: "الله يرضى عليك يا عمار، احرص على نفسك، والله إنّك نور الصّباح الذي يأتي كلّ يوم مع آذان الفجر".

لم يكن يشّم رائحة أيّ غاز عندما اشتعل المكان مثل الجحيم المتّقد، وتطايرت محتوياته يمنة ويسرة، شعر بألم غريب يستقرّ في رأسه بعد أن اخترق جمجمته، كاد يصرخ طالباً عون أمّه، لكن الألم ابتلع صرخاته، فوقع أرضاً لا يملك تفسيراً لما يجري، دون أن يعرف أنّ سبعة من أصدقائه في العمل قد وافوا منيتهم فوراً، ودون أن يعرف أنّ المكان لم يتعرّض لتفجير عبوة غاز، ودون أن يرى وجوهاً آثمةً جاءت من الظّلام، وفجرّت المكان بأبرياء انتصاراً لإسلام هو منهم براء، هو يعرف شيئاً واحداً فقط، وهو أنّه متألّم ألماً قاتلاً.

كان في غيبوبة عميقة منعته حتى من أن يسمع آذان الصّباح، أو من أن ييقظ أمّه للصّلاة التّي لم يكن يعلم أنّها منذ أيّام تقف على باب العناية المركّزة تقرأ القرآن الكريم له، وتدعو الله أن يخفّف من كربه، فإصابته خطيرة، وحالته في سوء.

كلّها أمل في أن تستقر حالته كي يتسنّى لإدارة الفندق الذي يعمل فيه أن ترسله إلى العلاج في الخارج كما قد وعدت، تتأملّ وجه زوجها الذي بدت ملامحه قد شاخت بمقدار ألف عام منذ أن أُصيب عمار بشظيّة غاشمة، أبناؤها يلتفون حولها موزّعين بين غضب على عدوّ آثم أسود القلب يستبيح دماء الأبرياء، وبين عطف يقتات قلوبهم على أخ صغير بعمر فراشة بريّة يكافح الموت الذي يريد أن يضمّه إليه.

مراسل وكالة الأنباء الأردنيّة يهيء نفسه على خجل لأخذ تعليق زوجها حول حالة عمار، يقول الأبّ بصوت أجشّ يسكنه حزن رجل مكسور: "أنا محمد شاكر جودة، والد عمار جودة الذي أصيب في تفجير فندق "حياة عمّان"..."

وقع أقدام الطّبيب المناوب الذي يضرب الأرض هوناً، ويكاد يجرّ نفسه منهكاً حزيناً يقطع أيّ كلام، تتوجّه العيون نحوه، تشرئب الرّؤوس، وتجفّ الحلوق، ينكّسُ رأسه، فيدرك الموجودون معنى إيماءاته، لحظة صمت، ثم يعلو صراخ الأم الثّكلى قائلة: "يا عمّار، من سيوقظني بعدك لصلاة الفجر؟ عمّار، قتلوك دون ذنب، يا حبيبي يا ابني، يا نور عيني"، يتكوّم الأبّ على أريكة قريبة يبكي بحرقة رجل ما بكى من قبل، يطأطأ مراسل وكالة الأنباء الأردنيّة، يمنعه الموقف من أن يقول أيّ شيء، أو يصوّر أيّ مشهد، ينتبذ مكاناً قريباً، ويشرع يبكي عمّار الذي لم يقابله يوماً، ولن يعرفه إلا جثّة هامدة كانت قبل ساعات فتىً يمور بالصّحة والأمنيات، ويسعى في طريق المستقبل.

النّبوءة

"إلى حسام فتحي جارور الذي رأى الموت قبل أن يحضر بشهرين".

غار في مقعده الوفير في مطعم فندق "حياة عمّان"، وضع فنجان القهوة الذي كاد يرتشف آخر ما فيه، وقال بعصبيّة تعلوها رعدة تسير في أوصاله كلّها، وتعكّر حمرة وجنتيه: "تخيل أنّ يدخل الآن إرهابيّ إلى المكان، ويفجّر نفسه، ما هو ذنبنا إذا قُتلنا جراء ذلك؟"

نظر إليه خاله عبد السّلام محاجنة الذي غالباً ما كان يرافقه في أيّ جولة عمل، أو لقاء صفقة، أو اجتماع إعلانات أو استشارة أو تسويق، وفي عينيه تعاطف من يرقب طفلاً يتحرّق شوقاً من شرير حطّم لعبته، وقال: "صحتك يا حسام، لا داعي لهذا الانفعال كلّه، ربنا على الظّالم، فلا أحد يستحقّ أن يُقتل ظلماً".

قال حسام بنبرته المعتادة التّي يعلوها صدق مؤثّر وإقناع كبير عُرفا عنه: "إنّه ليس فقط ظلم، بل جبن، فمن الجبن أن تطعن أحداً في ظهره، وأن تتسلّل إلى حياته بالخفاء، وتسرق روحه دون أن تعطيه فرصة ليدافع عن نفسه، أنا شخصيّاً على استعداد للتّصدّي وجهاً لوجه لأعتى المجرمين"، قال عبد السّلام محاجنة،ـــ وقد هزت فكرة اغتيال حسام وجدانه: "الله يبعد الشّرّ عنك يا حسام، إيّاك والتّشاؤم".

"أنا لا أتشاءم، لكنّني أضع افتراضات ممكنة الوقوع"، ردّ حسام، وهو يكاد يتمالك أعصابه من جديد، ويمدّ يده لتناول فنجان القهوة.

لم يكن عبد السّلام محاجنة يعلم أنّ هذه الجلسة في مطعم فندق "حياة عمّان" ستكون آخر جلسة له مع ابن اخته حسام الذي لم يكن يعرف كذلك أنّ كلامه لم يكن افتراضاً مخيفاً، بل كان نبوءة أصابت كبد الحقيقة، فقد رأى الموت يدلف إلى قاعة المطعم على يد إرهابيّ جبان، فيغتال أرواحاً بريئة لا سيما روحه هو، ويسقط في الدّرك الأسفل من الجحيم، لقد أحسّ ببرودة الموت، وبصقيع يديه قبل شهرين من مساء يوم ٩/ ١١/ ٢٠٠٥

كاد ينسى حسام هذه النّبوءة، بل نسي ذلك الحديث كلّه الذي دار بينه وبين خاله عبد السّلام، وها هو الآن بعد مضي شهرين يحدّثه هاتفيّاً من القاعة نفسها في فندق "حياة عمّان"، ويجلس قريباً من المكان الذي كانا يجلسان فيه آخر مرة، ويبشره بأنّ الأمور تسير على ما يرام، وأنّه قد استطاع أن يعقد صفقات جديدة مع تجّار عرب ستدر المال الوفير على مصنعه، ويعلمه أنّه في انتظار رجال أعمال من مدينة أبو ظبي؛ ليبرم معهم صفقة جديدة، ووعده بأنّه سيكلمّه فور انتهائه من اللّقاء، أغلق الهاتف، واعتدل في جلسته، وطالع ساعته في انتظار الموعد الذي أزف، كان يرتب الأفكار التّي سيقنع رجال الأعمال بها في عقله، رشف من كأس القهوة الذي أمامه، دون قصد لاح في ذهنه صغيره كمال الذي رُزق به منذ ستة أشهر بعد طول انتظار دام عشرة أعوم، حمد الله في سره إذ أنعم عليه بحسام الذي ملأ حياته سعادة، وجعله يشعر بأنه قد استوفى أحلامه كلّها، فقد غدا أبا كمال، وصاحب أكبر مصنع دهانات في فلسطين، وحياته تتمتع بالرّاحة والاستقرار، داهمه شوق كبير لزوجه ولابنتيه رهام وآلاء، ووعد نفسه بضمّهم إلى صدره في آن واحد عندما يعود إلى أمّ الفحم في فلسطين حيث مسقط رأسه، ومستقرّ عائلته.

فكر في أن يهاتف زوجته لتسمعه صوت مناغاة كمال، وشرع في ذلك إلاّ أنّ الاتّصال لم يتمّ؛ لأنّ الموت الذي تنبّأ به منذ شهرين قد جاء على قدر هيئة النّبوءة، جاء أسود جبان لا عقل ولا قلب له، تسلّل إرهابيّ إلى مطعم الفندق، وفجّر نفسه بدعوى الإسلام والدّفاع عنه، لم يكن أمام حسام وقتٌ ليقول للإرهابيّ: "إنّه ظالم لا يملك عقلاً"، فقد تخبّط في دمه الذي كان أحمر صافياً كما لم يرَ الأحمر من قبل، تسارعت الصّور في رأسه الذي بدأ الموت يسكنه، رأى نفسه يلبس ثوب الأفراح إلى جانبه زوجته الجميلة، وفي عينيه ابتسامة أخيه محمد الذي تزّوج معه في اليوم نفسه، وشاركه حفل الزّفاف نفسه، سمع مناغاة كريم، ورأى ابنتيه وحيدتين خائفتين تتّشحان بالسّواد، تردَدت في غياهب ظلام الذّاكرة جملة قالها لأخيه محمد في آخر رمضان شهده عندما أقام حفل إفطار للعائلة حيث قال: "سأبني للعائلة أكبر إمبراطوريّة لصناعة الدّهان في العالم".

في ثلاجة موتى مستشفى الجامعة الأردنيّة سُجّي حسام الغارق في دمه الزّكي، وقد عُلّق في رقبته بطاقة كُتب عليها بعجل: "مجهول الهويّة".

أمضى حسام ليلته في برد تلك الثّلّاجة إلى أن جاء وفد من عائلته من أمّ الفحم على رأسهم عمّه زياد أبو جارور، وتعرّفوا عليه باكين تسحقهم حسرة حزن، ضمّه عمّه زياد إلى صدره باكياً، ونزع البطاقة من رقبته، وقال: "هذا ابن أخي، هذا هو حسام أبو كمال".

عاد حسام إلى أمّ الفحم محمولاً عن الأكتاف، ملفوفاً بعلم فلسطين، بعد أن قطع رحلة الحدود، ووقف في جسر الغور، واستلم شهادة من السّفارة الصّهيونيّة التّي لم تساعد في أي شيء كُتب فيها تاريخ وفاته، ثم أوُدع في تراب قرية أمّ الفحم، وحوله حشد من الأحبّة والأقارب والمساكين الذين كان يكفلهم، ويقوم بإعالتهم فضلاً عن تبرّعاته السّخيّة للمشاريع الخيريّة وللأندية

الرّياضيّة، ومشاركته المتكرّرة في ترميم المسجد الأقصى ودهانه، لقد كان حريصاً على إخفاء ما تنفق يمينه، لكن الخير يأبى إلا أن يكشف عن صاحبه.

غادر المشيّعون القبر بعد أن كلّلوه بزهورهم وبدموعهم، دون أن يروا أحلام حسام ترفرف حول القبر بجناح مكسور، فقد كان يحلم بأن يوسّع مصنعه الذي افتتحه منذ أشهر قليلة، ليصبح أكبر مصنع للدّهان في البلاد، بعد أن استطاع أن يرقى به من ورشة صغيرة إلى أخرى كبيرة ثم إلى مصنع.

لكنّ الإرهاب حرمه من أحلامه، وحرم أحلامه منه، وما زال سؤاله يخيّم على صمت القبور، فما ذنبه إن دخل إرهابيّ إلى أيّ مكان، وفجّر نفسه، أن يُقتل جرّاء ذلك؟!

ذات الشّعر الأسود

"إلى مرام عقرباويّ الحسناء الجميلة التّي قدّمها الإرهاب إلى المقصلة دون جرم".

شعرها الأسود الطّويل أجمل مفردات أنوثتها التّي تتفتّح لتوها على شباب يافع نضر، تطيل زمن تمشيط شعرها الذي تزهو به، تضّمخ حدقتيها بالكحل الأسود الذي يزيدها جمالاً، ويجعلها أميرة عربية تمتطي الجمال والشّباب، تأخّرت وفقاً لعادتها في تجهيز نفسها لحفل زفاف أشرف ونادية، استعجلتها أمّها سميرة وشقيقها عُلا، سريعاً ما لبست بنطالاً أسود، وحذاء أسود ومعطف أسود تحته قميص بلون سكّريّ غامق، ولم تنسَ أن تلبس في يدها الخاتم الذّهبيّ المفضّل عندها الذي أهداها إيّاه والدها منذ زمن.

تأملّت الأمّ ابنتها الصّغيرة الجميلة التّي تتحوّل سريعاً إلى سيّدة فاتنة رقيقة، منعها فرحها بصغيرتها مرام من أن تؤنّبها على تأخيرهم عن الحفل، شكرت الله في سرّها على زهرتيها مرام وعُلا اللّتين تتضوعان أريجاً.

في غضون نصف ساعة كانت سميرة وابنتاها وشقيقتاها وشقيقاها يلتفون حول طاولة في قاعة الزّفاف، يتقاسمون الحبور، ويتبادلون الابتسامات وسط قاعة تضجّ بالزّهور والمدعوّين الذين يراقبون باهتمام زفّة العروسين عبر أجهزة التّلفزة المنتشرة في القاعة، كانت الزّفّة جميلة، وأصوات الغناء تغلّفها إلى أن ظهر غريب في القاعة، وأخذ يتراقص في ساحة الرّقص مثل المجنون، ثم سريعاً ما تّحول إلى آلة دمار شامل، فتكت بأجساد الموجودين، وألهبت المكان بدوي مخيف أصمّ الآذان، وأزاغ القلوب، تناثرت الأشلاء البشريّة في كلّ مكان،

وغدت عائلة سميرة أشلاء بين الأثاث المحطّم بين بتلات الزّهور الغارقة في الدّماء البشريّة المندلقة في كلّ مكان.

رأس مرام غادرتْ جسدها مجبراً، تدحرجتْ بعيداً عنَ جسدها الذي غدا مضغة مسحوقة تماماً متكوّمة في ملابس سوداء، جمع رجال الإسعاف والطّوارئ جسدها مع ما جمعوا من الأجساد، وبقيت الرّأس وحيدة ملقاة بين الطّاولات المحطّمة.

محمود العقرباويّ والد مرام كان يتابع التّلفاز عندما صكّ أذنيه، وألهب قلبه خبر التّفجيرات في الفنادق الأردنيّة، مثل المجنون حزم نفسه، وغادر بيته الواقع في أمّ السماق، وحاول عبثاً الوصول إلى الفندق، لكن ذلك تعذّر بسبب إغلاق الطّرق إلى أن انفرجت الأوضاع، وأصبح من الممكن أن يطوف على المستشفيات، ويبحث عن زوجته وبناته وأنسبائه.

ذاق عذاب الجحيم في ليلة كابوسيّة قضاها يطالع الجثث، ويدلف إلى المشارح، لكنّه لم يظفر بأيّ خبر يطمئنه على عائلته، إلى أن انتهى به التّطواف في المركز الوطنيّ للطّبّ الشّرعيّ حيث قدّمتْ له أجساد ممزّقة، كأنّ وحشاً جبّاراً قد لاكها دون رحمة، ثم لفظها بتقزّز، الأجساد كانت معدومة الملامح، وكاد ينكر أيّ صلة بها، لكن الملابس المعجونة بالأجساد لفتت نظره، تحامل على نفسه، ودّقق النّظر في الملابس، كانت الأجساد أجساد عائلته، فهذا جسد زوجة سميرة، وهذا جسد ابنته عُلا، أمّا هذا الجسد مبتور الرّأس هو -دون شكّ- لابنته مرام، كم كان الجسد رهيباً بدون رأس! كأنّه دجاجة قد مزق رأسها على عجل، كاد ينكر الجسد، لكن الملابس والخاتم الذّهبيّ أكدا له إنْ شاء أم أبى أنّه أمام جسد حبيبته مرام، تذكّر كم كانت مرام تحبّ جسدها الغضّ ورأسها

الجميل ذا الشّعر السّاحر! وسأل عن رأسها دون جدوى، وخمّن أنها قد تهشّمتْ، وتلاشتْ.

قوّات الأمن والمخابرات الأردنيّة كثّفت البحث في الوقائع والدّلائل، وحارت لمن يكون الرّأس النّسائيّ ذو الشّعر الطّويل، في التّخمين الأوّل توقّعوا أنّها رأس إحدى الإرهابيين الانتحاريين، لكن الطّبّ الشّرعيّ أثبتَ أنها رأس فتاة صغيرة اسمها مرام العقرباويّ، سُلمتْ الرّأس سريعاً لوالدها لتدفن مع جسدها المطعون في شبابه.

بيديه المنهكتين أودع محمود العقرباويّ عائلته في التّراب، وكتب على شواهد قبورهم أسماءهم وأعمارهم، ثم احتضن من بقي من أولاده على قيد الحياة، وغادر المقبرة يصكّ يداً بيد، وهو يجهل ذنب عائلته التّي أرادت أن تشارك عائلتي الأخرس والعلميّ سعادتهم لتدفع أعمارها ثمناً لذلك، أيّ الجرائم اقترفت مرام كي تُقدّم إلى مقصلة الإرهاب، فتقطع رأسها دون رحمة، وتحرمها من متعة تمشيط شعرها الجميل؟

لم يستطيع أن يجد جواباً لأسئلته التّي كادت تزهق عقله الذي خبره راجحاً لخمسين عاماً، اقتربت منه طفلته الصّغيرة، وقالت له بنبرة سجع الملائكة، وبهدوء القبور: "بابا لماذا قتل الإرهاب ماما وأختيّ؟"

حدّق الأب في وجه ابنته، ومن دون قصد وجد نظره يركض سريعاً ليجثو أمام شواهد قبر أحبّته الذين دفنهم قبل قليل، بعد أن قال لطفلته بحقد يعتره الألم والحيرة: "لأنّه شرير لا قلب له، قد حالف الشّيطان وتحدّى إرادة الرّبّ باحترام النّفس الإنسانيّة وبتقديرها".

دعوة للكبار فقط

"إلى أطفال زهدي وزينب الخمسة الذين ودّعهم والدهم بجملة: "لن أتأخر عليكم"، ثم لم يعد إليهم".

كثيراً ما يبدي أبناؤه رغبتهم في مرافقته إلى الحفلات والرّحل العائليّة؛ فهم يعيشون داخل جو أسريّ متماسك متكافل متعاضد، حيث الأبوان والجدّة والعمّتان يعيشون جميعاً في بيت واحد عماده الحبّ، لا الغنى الذي يفتقدونه، لكن هذه هي المرّة الأولى التي يخرج أبناؤه فيها عن طورهم، ويرفضون أن ينصاعوا لقراره، ويأخذون بالبكاء والاحتجاج؛ لأنهمّ يريدون أن يرافقوه خمستهم إلى حفل زفاف، يخمّنون أنّهم سيكون جميلاً.

يمسّد الأب على رأس ابنه مصطفى، ويخاطبه بحزم عطوف، كأنّه رجل في أوج رجولته لا طفلاً في التّاسعة من عمره قائلاً: "يا مصطفى أنت الكبير، وعليك أن تتفهّم ما أقول، لا يمكن أن نصطحبكم إلى حفلة الزّفاف؛ لأنّ هناك عبارة في بطاقة الدّعوة تطلب عدم اصطحاب الأطفال، وأنتم لا ترغبون بإحراج ماما وبابا أمام أصحاب العرس، أليس كذلك؟"

يومئ مصطفى برأسه متفهماً مؤيداً والده، ويتناول أخته الصّغيرة تمارا البالغة من عمر سنة من يدي أمّه، معبّراً عن وعد برعاية أخوته الصّغار إلى حين عودة أبويهم من العرس، يتقدّم محمد ابن السّنين السّت من والديه على غير رضا، ويقول ويقول: "لكنّكم ستصطحبون العمّة فتحيّة معكم".

يبتسم الأب ابتسامة عطف على الثّائر الصّغير، ويقول "العمّة فتحيّة كبيرة؛ لذلك تستطيع أن تحضر حفل الزّفاف، عندما تصبح كبيراً مثلها سوف يكون بمقدورك أن تحضر حفلات الزّفاف كلّها".

تبرز رغد من غرفة النّوم قائلة: "هل هذا يعني أنّ لا فرصة لنا أبداً لنذهب معكم إلى حفل الزّفاف؟"

هزّ الأب والأم رأسيهما بالنّفي آسفين، وطبعت الأمّ قبلة سريعة على جبين الصّغيرة تمارا التّي تراقب ما يحدث بهدوء وبراءة، ودون فهم لما يجري بالتّأكيد، يفتح الأبّ باب البيت، ويقول وهو يخطو خطوة خارجه مودّعاً بعينه أزواجاً عشرة من العيون غير الرّاضية "أطيعوا جدتكم، وناموا مبكراً، لن أتأخر عليكم"، يردّ الأبناء برضا مصطنع: "حاضر يا بابا".

لا حظّ زهدي وزوجته زينب أنّ كثيراً من المدعوّين قد اصطحبوا صغارهم معهم، ولم يأبهوا برغبة العروسين بعدم اصطحاب الأطفال، وشعرا بتأنيب ضمير؛ لأنّهما لم يصطحبا أطفالهما معهم، مع أنّهما كانا راضيين الرّضا كلّه عن سلوكهما، تنهدا دون تعليق، لكن العمّة فتحيّة نكأت قريحتيهما للاحتجاج عندما قالتْ بتبرم: "أرى أنّ هناك الكثير من الأطفال في هذا الحفل"، قالت زينب بنهم من أُتيح له الكلام بعد منع "ليتني اصطحبت تمارا معي"؟

قال الأبّ بقناعة مصطنعة: "حسن أنّنا لم نصحبهم معنا، فالحفلة ستستمر حتى منتصف اللّيل، والصّغار عندهم دوام في المدارس غداً، وعليهم أن يناموا مبكّرين ليستيقظوا، وقد أخذوا قسطاً كافياً من النّوم".

"انظروا إلى شاشة التّلفاز، فقد بدأت زفّة العروسين"، قالت فتحيّة بحماس أنسى الأبوين حديثهم حول اصطحاب أطفالهم إلى حفل الزّفاف، كانت لحظات

سعيدة، أبصار المدعوّين تتوجّه إلى شاشات التّلفزة، سيطر الفرح على المكان، وشاعتْ أريحيّة في أنفس الحاضرين تناغمت بسهولة مع موسيقى الزّفّة وأغانيها.

رجل بثياب غريبة ظهر في المكان على حين غِرّة، رقص للحظات على منصّة الرّقص، ثم قام بحركة غريبة هي آخر ما رآه الجميع بوضوح قبل أن يحّول الأرض إلى جحيم تحتهم، ويحيل المكان إلى مجزرة بشريّة شنيعة، شظيّة مجنونة اخترقت على عجل مؤخّرة رأس زهدي، وفتتّ جمجمته، ونثرت دماغه في حضن فتحيّة التّي دبّت فيها حالة هستيريّة، تصرخ، وتطلب المساعدة لأخيها الذي لفظ آخر كلماته بسؤال حائرٍ قائلاً: "ما هذا؟"

كان المكان غارقاً في الهرج والمرج، حاولت فتحيّة المفجوعة وزينب أن تجّندا طاقتهما كاملة لتحررا زهدي من المكان الذيُ سُجن فيه بين الطّاولات المحطّمة، وأجزاء السّقف المنهارة، لكن دون فائدة، فلاهما استطاعتا إنقاذه، ولاهما هربتا من المكان، بقيتا تصرخان على الرّغم من إصابتهما إلى أن جرى الزّمن الرّهيب الذي تعيشانه بطيئاً، وجاء رجال الإسعاف لمساعدة زهدي الذي أصبح في غنى عن أيّ مساعدة؛ لأنّه رحل منذ لحظات عن دنيا البشر لا سيما عن دنيا أولئك الإرهابيين الذين لم يمهلوه حتى يعرف ماذا يحدث حوله بالضّبط، وبأيّ الطّرق يموت.

صراخ فتحيّة وزينب لم يتوقّف أبداً؛ فقد كانت فتحيّة في حالة عصبيّة رهيبة، فها هي تودّع في عام واحد أخاً ثالثاً لها، أخاً كان يعيلها هي وشقيقتها وأمّها، ويشكّل الملاذ الوحيد لها ولأسرته.

أمّا زينب فقد مزجت صرخات الألم الذي تعاني منه جرّاء أصابتها بالحادث بالسّؤال الذي لا يفتر عن زوجها، كانت تبكي قائلة لكلّ من يزورها:

"زهدي أُصيب في برأسه، وكانت رجلاه لا تتحرّكان، ولم أستطع بمساعدة أخته فتحيّة سحبه من صالة الحفل، هل هو ما يرام؟ أرجوكم أخبروني بما حدث له".

كان البيت يعيش كآبة مهيمنة بعد أن رحل عنه معيله مجبراً، وترك أسرة هو كامل عتادها وسلاحها في هذه الحياة، فتحيّة لم تستطع أن تنسى أبداً دماغ زهدي الذي تفتّت في حضنها، والدة زهدي الصّامتةَ صمت القبور دفنت زهدي في صدرها كما دفنت أخويه من قبل، فأنبت صمتها شجرة صبّار سقتها الدّموع الحوارق، حملتْ حفيدتها تمارا، وراقبت أحفادها الذين باتوا يفخرون بأبيهم زهدي الشّهيد، وحدقت لساعات في صورة فوتوغرافيّة لزهدي مع أسرته التّي التقطها مصوّر الحّي لهم في عيد الفطر الماضي، ولم تستطيع أبداً أن تنسى طلّته البهية قبل أيّام، وهو يخطو خطوة خارج البيت، ويقول: "لن أتأخر عليكم".

تمسّد على رأس حفيدتها تمارا، وتبكي بحرقة؛ لأنّ زهدي تأخر مجبراً، ولا يمكن أن يعود أبداً إلى بيته الذي هجره إلى الأبد.

مستشفى الأرواح

"إلى أميرة دعّاس التّي تحسن الإصغاء إلى نداء روحي ابنتيها: رهام وريما".

على الرّغم من نظرات الشّفقة والاستنكار التّي تُجابه بهما في المستشفى التّي غالباً ما تتحوّل إلى عيون مترّصدة تحاصرها، وتجبرها على العودة إلى فراشها، ثم تحقنها بالمهدئ لتسدر من جديد في عالم برزخيّ غريب تسمع فيه أصوات أغاني الفرح وزغاريده التّي سرعان ما يبدّدها انفجار عنيف له أنياب فكّ مفترس، هي مصّممة هذا اليوم بالذّات على تتّبع أصوات ابنتها مهما كلّفها الأمر، فهي على يقين من أنّ روحي ابنتيها تقبع في نهاية عنبر جرحى الانفجارات.

في كلّ ليلة تسمع ابنتيها تئنان، وتطلبان المساعدة، وعليها أن تساعدهما، لن تسمح لروحيهما بأن تتعذبا كما تعذبّ جسديهما في ليلة الانفجارات.

أميرة متأكّدة من أنّ هذا المستشفى قد بات يعجّ بالأرواح الهائمة منذ عشيّة ليلة الانفجارات، كثير من الأجساد الحيّة النّظرة السّعيدة التّي كانت تموج في سعادة زفاف ابن عمّها أشرف قد تحوّلت إلى جثث هامدة أو أشلاء متناثرة هنا وهناك أو حالات خطيرة مفعمة بالجراح والشّظايا.

هذا المستشفى الذي تقبع فيه منذ اللّيلة المشؤومة كان موئلاً لعشرات الحالات، كما كانت مشرحته آخر المطاف للجثث والأشلاء، معظم الجثث قد سلّمت لذويها كي تُدفن، لكن أرواحها ما زالت هائمة في هذا المكان تئنّ متألمة، بعيون زائغة، وملامح شاحبة، يعلوها خوف وحيرة، هي الوحيدة في هذا المكان

التّي ترى تلك الأرواح، تحدّثها طويلاً، هي ليست مجنونة كما قد يظنّ البعض، ولا مصابها بقواها العقليّة إثر ما حدث كما تقرأ في عيون الأقارب الذين يزورنها للاطمئنان عليها، فيحوقلون كلّما سمعوها تجأر باسم ابنتيها، وتناديهما، بل هي أمّ رأت ابنتها قتيلتين من دون ذنب، تريد أن تضمّهما إلى صدرها ولو مرة واحد قبل أن يلتهمهما الموت، تريد أن تسدل بيديها الحانتين أجفانهما قبل أن تتهاديا في دنيا من السّكون السّرمديّ، تريد أن توسّد رأسيهما للرّمس، وأن تكون آخر عهدهما بالدّنيا، كما ستكونان آخر عهدها بالسّعادة والفرح، لكن ذلك كلّه لن يكون؛ لأنّ رهام وريما قد دُفنتا منذ أيّام دون أن تراهما، أو أن تودّعهما، دفنتا بسرعة عبور الموت الذي جثا بجبروت على جسديهما الصّغيرين، فهما لم تتجاوزا الخامسة عشر والسّادسة عشر من العمر.

كان عندها الكثير من المخططّات لهاتين الزهرتين اللّتين تسيران بخفر نحو الشّباب والأنوثة؛ كانت تريد أن تدرسا في الجامعة، كانت تحلمُ بأن تزفّهما إلى دنيا الزّوجية في ليلة واحدة، كم ستكونان ليلتها رائعتين وجميلتين بابتسامتين تقطران رضا وتفاؤل مثل تلك الابتسامة التّي علت محياهما في ليلة زفاف ابن عمّها أشرف!

كانتا تجلسان متقاربين إلى صدر إحدى الطّاولات في المكان بعد أن صمّمتا على الحضور على الرّغم من التزامهما بدوام صباحيّ في المدرسة في اليوم التّالي، كانتا تتابعان زفّة العروسين في أقرب تلفاز منهما، عندما تركتهما أميرة، وانطلقت سريعاً نحو باب القاعة تستقبل العروسين بالزّغاريد التّي تحفظ الكثير منها، ولم تكن تعلم أنّ هذه اللّحظة ستكون لحظة الفراق، وأنها لن ترى ابنتيها على قيد الحياة بعد هذه اللّحظة أبداً.

فجأة لمع ضوء غريب في المكان رافقه دوي يصمّ الآذان، للحظة تخيّلت أميرة أنّه تماس كهربائيّ، لكنّها رأت شاشات التّلفزة تتحطّم، وألفت سقف القاعة يهوي على رؤوس الحاضرين، فأدركت لحظّتئذٍ أنّ الأمر يعدو أن يكون تماس كهربائيّ، وهي ترى الأجساد التّي حولها تتساقط صرعى وجرحى، عمّها والد العريس كان يخبط في دمه، حاولت أنّ تساعده، لكن كان يبدو أنّ الموت قد سبقها إليه، أسرعت نحو ابنتيها، حاولت أن تساعدهما، أن تحثّهما بكلماتها على التّحرّك، لكن دون فائدة، كانتا سادرتين في استسلام مخيف، لم تستطع أن تحرّكهما من مكانهما؛ فقد كانتا عالقتين بين الرّكام، سرعان ما أُغمي عليها متأثّرة بجراح لم تكن تعلم أنها قد نالت منها.

عندما استيقظت وجدت نفسها في سرير الشّفاء وحيدة تحمل ذكرى ابنتين لم تعودا في دنياها.

الكلّ يقول لها إنّ عليها الصّبر والاعتناء بصحّتها، ولا أحد يصدّقها، بل لا أحد يستطيع أن يسمع صوت ابنتيها تئنان، وتطلبان مساعدتها، روح رهام ورح ريما هائمتان في حاجة إلى احتواء، هي تسمعهما، وعليها أن تلبي نداءهما، وأن تمسح دموعهما، تدفع بجسدها خارج غرفتها، وتركض سريعاً في طرقات المستشفى لتلبي دعوة رهام وريما، ولتضمّهما إلى صدرها حيث لا موت ولا تفجيرات إرهابيّة غاشمة تفتك بالأحلام وبالابتسامات البريئة.

نوارس البحر

"إلى نورسي البحرين إيمان عبد الغفار وحمد جناحيّ"

كثيرة هي نوارس البحرين التّي تقطع البحر بأجنحتها البيضاء، وتيمّم نحو الأردن، تهجع غالباً في إحدى فنادق العاصمة لا سيما في فندق "حياة عمّان" الذي يفضّله البحرينيون، ويسعدون فيه بحسن الضّيافة وبتجمّع الأحباب والأقارب والمعارف لا سيما البحرينين، إيمان وحمد نورسان من نوارس البحرين التّي شدّت الرّحال إلى الأردن بهدف الدّراسة، لم يجتمعا يوماً، ولم يعرفا أحدهما الآخر على الرّغم من أنّهما مواطنان بحرينيان، لكن طموح العلم وحّد طريقهما، وشابه بين هدفيهما، إيمان طالبة جديدة العهد بالأردن، لكن حمد يعرف الأردن منذ سنوات؛ فقد درس في الجامعة التّطبيقيّة، وها هو بعد سنين من الغربة والجدّ يُعيّن مسؤولاً إعلاميّاً في جامعة العلوم التّطبيقيّة التّي فُتح لها مؤخّراً فرعاً جديداً في المنامة.

توقّع حمد أن يطول به البُعاد عن عمّان التّي أحبها، وأمضى فيها أجمل سنين الدّراسة والشّباب، وما زالت نفسه تنزع إليها، وإن كان حبّ الوطن والعيش بين العائلة يجذبه إلى البقاء في وطنه، لكن قد جاءه الخبر السّعيد عندما قرّرت الجامعة أن تبعثه في دورة تدريبيّة إلى الأردن مدّتها شهر، طار فرحاً بهذه الزّيارة، ونزل خبرها على كبده نزول البرد والثّلج، ألقى نظرة وداع على الوطن والأهل، وانسرب مع رياح الصّباح المثقلة بالنّور والحرارة والرّطوبة، وطار صوب الأردن.

كانت الأردن كما عهدها آمنة مبتسمة تحمل آلاف الزّهرات والحكايات والأمنيات، تضّم الغرباء ضمّة الأبناء والأحّباء، ضمّته بحبّ كما ضمّت مواطنته إيمان التّي التحقت مؤخّراً بإحدى جامعاتها للدّراسة، قطع شهراً كاملاً في متابعة فعاليّات الدّورة التّدريبيّة التّي اجتهد كي يحصّل منها ما استطاع من علم وخبرة، ويعود إلى جامعته التّي ابتعثته في هذه المهمّة بخير ما يُرتجى من المعرفة؛ لذلك لم يجد وقتاً يقضيه مع زملاء الدّراسة، ولا حتى متّسعاً يذرعه في عمّان التّي حفظها شبراً شبراً.

سريعاً ما انقضى الوقت، وكان عليه أن يعدّ العدة، ويحزم ما عليه أن يحزم لسفره ليمدّ جناحيه، ويطير إلى بلده، لكن رغبة في النّفس كانت ما تزال تلّح عليه لقضاء بعض الوقت مع حبيبته عمّان، فكّر قليلاً، فانتصر حبه لعمّان على دعوة الرّحيل والبعاد، مدّد زيارته ليومين آخرين، لا يظن أنّهما سوف يُعّدان تأخراً عن جامعته، سريعاً ما استجاب لقراره الأخير، وأعلم جامعته وعائلته به.

أخيراً خلا له وجه حبيبته عمّان، كان لديه مخطط لزيارة كلّ شبر فيها، بدأ برنامجه بشرب القهوة في مقهى فندق "حياة عمّان" الذي ينزل فيه، كان في انتظار صديق، لكن رغبة غريبة اجتاحته تملي عليه أن يطمئن على أسرته في البحرين، رأى وجه والده كسيفاً حزيناً يرجوه الإياب، أحسّ بطائر أسود يجثم على صدره، ويمنعه من الطّيران، انصدع قلبه قلقاً على أسرته، هرع سريعاً إلى خدمة الهاتف في استقبال الفندق، اتّصل بوالده، واطمأن عليه، فوجده في خير حال، أخبره أنّه سيعود بعد يومين، وأنهى المكالمة على أمل اللّقاء الذي ضجّ في نفسه قويّاً كما لم يعهده يوماً من قبل.

جلس إلى طاولة يحتسي القهوة بهدوء، من وقت إلى آخر كان يسرح مع ذكرياته التّي تتدافع الآن بقوّة في رأسه، في حين أنّها ما تزال تنمو صغيرة وببطء

في حياة إيمان التّي تقبل على الحياة الدّراسيّة والاجتماعيّة في عمّان، وتجتهد كي تثبت جدارتها واستحقاقها لشرف جهاد العلم، كلاهما كان نورساً جميلاً يحمل حكايات البحر وأسراره عندما جاء صيّاد إرهابيّ أسود لم يذق جمال البحر ولا حلاوة الحكايات، وأطلق الموت على النّورسين، ودوّى صوته زاعقاً بالموت والخراب، كلّ شيء غدا ذكريات مهشّمة في دقائق، شظايا كثيرة باردة مثل قلب الإرهابيّ سكنت جسدي إيمان وحمد، وكسرت جناحيهما، وخضّبت جسديهما بالموت.

لم يستطع جسد حمد أن يحتمل الشّظيّة القاتلة التّي استقرّت فيه، فأسلم الرّوح سريعاً، وحلّق نحو ملكوت الرّبّ، أمّا إيمان فقد قارع جسدها النّحيل الموت دون هوادة، كانت مصمّمة على الحياة، أُخضعت لعمليّات أربع كبرى، كان يعلوها صمت غريب، وهي تصارع الموت، وتتحدّاه مسجّاة على سرير في غرفة العناية المركّزة، لم تكن تدري بما يدور حولها، وما كانت تعرف من يكون ذلك الشّخص الذي جاء يحمل الموت إليها، ويكسر جناحيها دون أيّ ذنب اقترفته.

كانت في أحلامها ترى نفسها تطير إلى البحرين، فتجد والديها في انتظارها، تسكب نفسها في حضنهما وهما باسمان كعادتهما، وما كانت تدري أنّ والدها يقف خارج غرفتها يدعو لها بالشّفاء، وما كانت تعلم أنّ نوارس من بلدها قد أُستشهدت على أرض عمّان، وأنّها لن تعود طائرة بأجنحة من نور إلى البحرين، بل ستعود في صناديق باردة صماء لتُدفن في أرض البحرين، حيث الحبّ والأهل.

غناء الملائكة

"إلى نجاح سليمان التّي سرق إرهابيّ القرآن الذي حفظت نصفه من ذاكرتها".

الحكايات كلّها كانت محزنة، كلّ جثة أو جسد مسجىً على سرير الشّفاء معلّق بين عالمي الأجير والموت يحمل ترنيمة حزينة خاصّة، يتناوب الألم والأنين والصّراخ عليها، إلا ترنيمه نجاح سليمان، فهي ترنيمة خاصّة تحاكي غناء الملائكة فقد كانت بين الحياة والموت، غائبة عن الوعي تماماً، لكنّها كانت تردّد القرآن الذي تحفظه دون توقّف، تهمس به وفق إجهادها وتعبها بعد أن نزفت الكثير من الدّم، كأنّها تخشى إن توقّفت عن تلاوته أن تفقده للأبد، كما كادت تفقد حياتها قبل دقائق، ما زالت تقف عند بعض المقاطع التّي عندها مشكلة في حفظها حتى الآن، لكنّها سرعان ما تتذكرها، فتشرع تتلو ما تحفظ دون أن تفتر أو تصمت، كأنّها ترغب في أن تلاقي ربها، وهي تردّد كلماته التّي أنفقت جهداً وزمناً تحفظها، وتتدبّر معانيها، وإن كان عليها الكثير من العمل لكي تحفظ الجزء الثّاني من باقي القرآن الكريم الذي تؤمّل النّفس بالمزيد من العمر كي تحفظه، وتتدبّر آياته.

كانت متدثّرة بحجابها الشّرعيّ الذي مُسّت قداسته بالظّلم والبغي عندما أقدم آثم على تفجير نفسه في حفل زفاف قريبها أشرف، كانت لحظتها خلف زفّة العروسين، تسبح باسم الله، وتدعوه بأن يحفظ أشرف وعروسه من عيون الحاسدين، وشرّ الحاقدين، وما كانت تتخيّل أنّ الشّرّ الأعظم يتربّص

بالموجودين كلّهم، لا بأشرف ونادية فقط، بل يتربّص بكلّ إنسان آمن في وطنها الحبيب.

في لحظة واحدة غاب فيها ضمير ذلك الإرهابيّ حلّ الموت على الموجودين كلّهم، حتى أنّه لم يرحم الجمادات من أبواب وطاولات وزجاج، كلّها غدت شظايا وحطام يشبه تلك الشّظيّة التّي اخترقت الجهة الخلفيّة من يسار جمجمتها، واخترقت دماغها، وارتدت من الجهة الثّانية لتستقّر في مقدّمة الرّأس عند الجبين، لقد أدخلتها تلك الشّظيّة في غيبوبة لعينة حتى قبل أن تستطيع أن تدعو الله بالرّحمة واللّطف، وقبل أن تشكره على أنّه سيهبها الشّهادة التّي ما انفكت تحلم بها، وإن كانت تحلم بالشّهادة في أرض المعركة لا على يدي إرهابيّ يدّعي أنّه مسلم غيور على دينه؛ لذلك يُعمل سلاحه وفتكه في أجساد الأبرياء العُزل من السّلاح.

كان الألم هو كلّ ما تتذكّر نجاح عندما استيقظت بعد سكون طويل لتجد نفسها محاطة بالأقارب الذين قضوا ساعات رهيبة يبحثون عنها في المستشفيّات، ويطالعون الجثث في ثلاجات الموتى آملين أن لا تكون في إحداها.

يد دافئة شدّت على يدها، لم تستطيع أن ترى تماماً وجه صاحبها، كانت الرّؤية عندها قد تشوّشت تماماً بسبب الشّظيّة التّي اخترقت جمجمتها، سارعت صاحبة اليد الدّافئة قائلة بصوت يغلّفه بكاء مكتوم: "الحمد لله على سلامتك يا نجاح، أنا أختك سميرة، ألم تعرفيني؟" صمتتْ نجاح قليلاً، تدافع في ذاكرتها سيل من الصّور والأصوات، لكنّها لم تستطيع أن تميّز صوت أختها سميرة فيه، بل طغى عليه دويّ الانفجار، وصوت المصابين، قال الطّبيب: "لا عليكم، لا تخافوا، لقد تأثّرت ذاكرتها بسبب أصابتها الخطيرة، لكنّها ستسترجعها بالتّدريج، عليكم بالصّبر".

هزّت سميرة رأسها مستسلمة لقضاء الله، متفرّسة في وجه أختها نجاح الذي يعلوه حزن غريب، دون أن تدري أنّ رأس أختها الصّغير يضّج بذاكرة تحاول أن تتذكّر القرآن الذي كانت تحفظه، لكنّها تعجز عن ذلك، تقرأ البسملة أكثر من مرّة، ثم لا تفلح بتذكّر أيّ كلمة بعد ذلك، يعلق الصّمت بين شفتيها، يعلو صوت الانفجارات في أذنيها، وتخفق في ترديد غناء الملائكة الذي كانت تحفظه، تشهق بصمت، ثم تسدر في بكاء محموم.

دعوة إلى المـوت

"إلى فارس العتيبيّ الذي دعا ابن عمّه محمد إلى موته دون أن يدري بذلك".

" بلاد الله كلّها زينة، أنا أدري بذلك، لكن عليك أن تزور هذه الدّيرة، فهي غاية في الجمال"، بهذه الجملة التّي كررها فارس على أذني ابن عمّه محمد مـراراً حاول أن يقنعه بأن يزور الأردن للاستجمام فيها.

على غير توقّع وافق محمد هذه المرّة على أن يزور الأردن بناء علـى إلحـاح ابن عمّه؛ فهو في شوق حقيقيّ لرؤية فارس صديق طفولته، ثم إنّ هذه الزّيـارة تناسب برنامجه لا سيما أنه يشعر بملل في قطر، ويرغب في التّعرّف علـى أمـاكن جديدة، وأسبوع سيقضيه في الأردن ليس مدّة طويلة يغيبها عن أهله ووطنه.

كان محمد محمّلاً بالآف القصص والمغامرات ليرويها لصندوق أسراره محمد المنتظر الوحيد لفارس عند وصوله إلى الأردن، ضّمه بقـوّة إلى صـدره، وانهـال عليه بأصدق كلمات الاستقبال والسّعادة برؤيته.

سأله عن أحوال الأهل والأقارب، وشرع يعرّفه بالأماكن وبأسمائها طوال طريق عودتهما إلى الفندق حيث حجز غرفة مزدوجـة لـه ولابـن عمّـه، حدّثـه طويلاً عن الأماكن التّي عليه أن يزورها في الأردن، في حـين كـان محمـد يبـدي حماساً لكلّ مكان يعرض عليه زيارته.

بعد راحة قصيرة توّجه كلاهما إلى مطعم الفندق ليحتسيا الشّاي، وليطفقـا في زيـارة مرافـق عمّـان، كـان الشّـاي شـهيّاً، ويعلـوه حـديث أخـوي صـادق وضحكات بريئة مترعة شباباً وصحّة، وما كان أحدهما قادراً على أن يتوقّع أنّ عيناً آثمة تتلصّص على حدثيهما، وتعد بإنهائه بأبشع الطّرق التّي جاءت تحمـل أقسى أنواع الموت، قبل أن يكمل محمـد وفـارس أوّل رشـفة مـن الشّـاي كـان

المكان قد تحوّل إلى جهنّم تلظّى، وقد دبّ الهرج والدّمار في كلّ مكان، كان فارس يغرغر برشفة الشّاي التّي استقرّت في حلقومه، ويخبط في بركة من دمائه الحارّ اللّزج، اندفع محمد في صراخ يقطعه رجاء لفارس كي يرّد عليه، لكن دون فائدة، فقد كان فارس صامتاً مثل صمت القبور، وإن كان جسده نافورة تدفع الدّم الزّكي أنّى اتّفق.

تحامل محمد على جراحة الطّفيفة، وحمل ابن عمّه، وأوقف أول سيّارة أجرّة توقّفت في المكان، لينقل ابن عمّه إلى مستشفى الأردن، المستشفى الوحيد الذي يعرف اسمه في عمّان، وسرّه أن يجد رجال الأمن والإنقاذ قبالة باب المطعم، إذ بادروا إلى مساعدته، وتلقف ابن عمّه من يديه المجهدتين.

كان المستشفى يعجّ بالمرض والمسؤولين الحكوميين والزّوار ورجال الإعلام، وكان محمد يرقب ذلك كلّه بصمت تعلوه دموع من يفتقد أهله في هذه اللّحظة، كان عزاؤه الوحيد أنّه استطاع أن يقدّم المساعدة لابن عمّه فارس، وأنّه الآن يتماثل للشّفاء في مستشفى البشير الذي نقل إليه كما أُعلم قبل ساعات.

كان يعدّ اللّحظات كُي يُشفى فارس، ويستيقظ من غيبوبته ليعودا إلى وطنهما، قد يعودان في ما بعد في زيارة إلى الأردن، فهو لم يزُر أيّاً من معالمها خلا الفندق والمستشفيات، لكنّه الآن في حاجة إلى بيته، صرّح بتلك الأمنيّة لأحد مراسلي الصّحف الذي قام بإجراء مقابلة سريعة معه، ثم تكوّم في كرسيه القديم ينتظر أن يعود بفارس إلى قطر، دون أن يدري أنّ فارس قد أسلم الرّوح منذ ساعات، فهو لم يكن قد دعاه إلىّ زيارة عمّان وحسب، بل كان قد دعاه إلى تذوّق ثمار الحسرة في حفل موته دون أن يفي بوعده بتعريفه على معالم عمّان كلّها.

خيّم اللّيل، وهدأت الفوضى، وما زال محمد على كرسيه ينتظر أيّ خبر من طبيب أو ممرّضة يبّشره بتحسّن حالة صديق طفولته فارس.

أحلام المساء

"إلى سلطان محمد الذي كان يملك أحلاماً صغيرة صادرها الإرهاب دون أن يبالي بأحزان أحبّته".

كان سلطان يملك أحلاماً صغيرة لا تتجاوز حقوقه الطّبيعة في تكوين أسرة تشمله بحبّها، وفي حياة كريمة يموّلها براتبه الزّهيد الذي لا يكاد يكفي لقضاء ليلتين في إحدى حجرات الفندق الفاره التّي يعمل فيه ليلاً منذ زمن، لم يكن يريد الكثير من الحياة التّي علّمته بقسوة أنّ حظّ الكثير منها لا يعدو أن يكون الكفاف، وعلى أولئك النّاس أن يرضوا بنصبهم وحظّهم، هو كان راضياً بنصيبه، قابلاً بالصّحة وراحة البال غنيمة في هذه الحياة.

منذ أشهر قليلة شرعت أحلامه الصّغيرة تتحّقق، لقد خطب فتاة ظريفة، سيقترن بها بعد شهر، يعدّ أيّامه بفارغ الصّبر كي تنفد، ويجمعه بيت واحد مع الفتاة التّي اختارها لتكون شريكة لحياته، وأمّاً لأطفاله، لم يكن يعلم من قبل أنّ انتظار السّعادة يولّد في النّفس سعادة لذيذة تداعب كلّ ذرّة من كيانه، وتدفعه إلى سيل من الأحلام اللّذيذة التّي تنتهي بنقلها كلمات إلى أصدقائه زياد اللّحام وخليل العزّة وموسى تركي الذين اعتاد على أن يحدّثهم في المناوبات الطّويلة عن أحلامه ومستقبله وطموحه، لديه أحلام لا تنضب، تحتاج عمرين لا عمر واحد لتحقيقها وفق إمكانيّاته المحدودة.

اعتاد على أن يكون راوي الأحلام المسائيّة التّي تراوده دون توقف، فتسلّى لياليه الطّويلة، وتؤنس مناوباته الطّويلة.

شهر واحد فقط ويكون موعد زفافه؛ لذا عليه أن يضاعف جهـوده ليتـوفّر له مبلغ إضافيّ مـن المـال يسـاعده علـى أن يرفّـه نفسـه وعروسـه في أوّل أيّـام زواجهما، إذ إنّه سيأخذ عطلة من العمل ليرتاح فيها عن عناء السّهر والعمل.

كان حريصاً على أن يصل عمله قبل انتهاء مناوبة أصدقائه كي لا يأخّرهم عن موعد عودتهم إلى بيوتهم، فهو يعلم أنّهم متعبـون، وفي حاجـة إلى الرّاحـة، فضلاً عن حاجتهم لرؤية أبنائهم، ولو للحظات قبـل أن يودعـوهم في أسـرّتهم ليناموا.

وصل قبل السّاعة التّاسعة بدقائق، سريعاً ما اندسّ في زي عمله، وقّع على دفتر المناوبات، وودع أصدقاءه الذين تمنّوا له ليلة هانئة، وغادروا على عجل.

قبل أن يبدأ طقوس عمله اليوميّ كان طائر الموت يحلّ على المكان، ويغرز مخالبه في جسد سلطان، تفجير مفاجئ وقويّ قد هزّ المكان، تحّول كـلّ شـيء في المكان إلى ذكرى، وقع سلطان أرضاً يلفـظ آخـر أنفاسـه، ويراقـب بعجـز زيّـه يتلطّخ بدمه، حاول أن يصرخ بأسماء أصدقائه مستنجداً بهم، لكن ضعفه خانه، أغمض عينيه، فمرّ أمامه شريط أحلامه كاملاً، رآه منخرقـاً محترقـاً، كـاد يتبـيّن بعض أجزائه لكن دون فائدة، سريعاً ما أسلم الرّوح، وترك أحلامه يتيمة هائمة على وجهها.

أُجّل زفاف سلطان إلى الأبد، ولبستْ خطيبته الأسود بدل أن تلبس ثـوب الزّفاف الأبيض، ودفنت أحلامها مع أحلام سلطان الذي ما عاد قادراً علـى أن يروي أحلامه لأصدقائه، ولا قادراً على أن يأتي ليتسلّم مناوبته المسائيّة بعـد أن ترك زيّاً مخضّباً بالدّم صمّم صديقه زياد على عدم غسـله، ولـوّح بـه في مسـيرة الغضب الوطنيّة التّي نددّت بالإرهاب الذي حرم الأبرياء من أحلامه.

عاد زياد إلى عمله، وعلّق قميص سـلطان علـى مشـجب يواجهـه كـي لا ينسى أبداً أحلام صديقه التّي لن ترحل عن المكان.

الهاربة من الموت

"إلى آنّا بورد التّي مرّ الموت من جانبها".

قابلت الموت مراراً في بلـدها حيـث لا أمـن في الطّرقـات المظلمـة، ولا في قلب ظلام المساء، ودرّستْ فنون لعبتي الحياة والموت طويلاً في معهـد كولومبيـا لدراسات الحرب والسّلام منذ أن غدت أستاذة جامعيّة فيه، ثـم تحـدّت المـوت علانيّة عندما قبلت بأن تعمل في تطوير التّعليم في أفغانستان، حيث توقّعـت أن تصادف الموت في أيّ لحظة في تفجير أو في رصاصة طائشة، فتسقط قتيلة ضحيّة العنف أو الإرهاب أو أيّ شيء قد تدّعيه أمريكيا تعليلاً لموتها.

جاءت "آنّا" إلى الأردن لحضور مؤتمر برعاية جامعـة جنيـف عـن اللاّجـئين الفلسـطينيين، حضـرت الكـثير مـن المحاضـرات حـول أوضـاع اللاّجـئين الفلسطينيين، وكثيراً ما ألفت نفسها تمسح بطريقة تمثيليّة متقنـة بعـض العـبرات التّي علّلتها بالحزن على أوضاع الفلسطينيين، وإن كانت تخشى بحقّ الموت الذي كادت تجده في كلّ مكان في الوقت الحاضر، كانت تنوي أن تقتل الإحباط الذي أصابها في هذا المؤتمر ببعض الجولات التّرفيهيّة التّي تنوي أن تذرع عمّـان فيهـا برفقة صديقتها الفرنسيّة التّي تصغرها بعقد "شيراز سكيو" التّي كانـت متحمّسـة لزيارة وسط البلد بشكل خاصّ.

كان عرس أشرف ونادية أول فعالية تراها "آنّا" بعد حضـور فعاليّـات مـؤتمر اللاّجئين الفلسطينيين، وقفت هـي وثلّـة مـن الأصـدقاء فضـلاً عـن كـثير مـن الأجانب في قاعة استقبال الفندق تحضر زفّة العروسين.

قد كانت أوّل زفّة لعرس تراها في الأردن، أرهفت السّمع للأغاني الشّعبيّة التّي تصدح بها فرقه الزّفّة، وألفت نفسها تدندن مع الحاضرين، وتسمح لنفسها بأن تخرج عن وقارها الأكاديميّ، وتشاركهم التّصفيق والحبور، وقفت بعيداً تفصلها عن الزّفّة أجساد الكثير من الحضور وبعض نباتات الزّينة الضّخمة المزروعة في أحواض رخاميّة أنيقة، لم تقلّ عن باقي الحاضرين انبهاراً بالزّفّة وبمنظر العروسين المبتهجين، وإن كانت تفوق الحاضرين إحساساً بعظمة الحياة والسّعادة؛ لأنّها تعرف تماماً وقع الموت على الأماكن والبشر، كانت تبحث عن جهاز الاتّصال الخاصّ بها لتلتقط صورة للعروسين تخزنها فيه للذّكرى عندما أحسّت بحاضر بارد اعتادت على أن تسمع عنه، وأن تواجهه من بعيد.

لكنّه لأول مرة يمرّ من جانبها تماماً، فتدرك برودة قلبه، وتزكم رائحته المنتنة أنفها، لقد كان الموت في المكان، أحسّت بذلك تماماً، لكنّها خشيت من أن تصرخ هاربة منه، فيتّهمها الموجودون بالجنون، في حين كان إرهابيّ مجرم يتسلّل إلى المكان، يتخطّى الموجودين، ويضرب صفحاً عن سعادة المحتفلين، يتوسّط قاعة الزّفاف، ويفجّر نفسه مثل مجنون يصمّم على أن يخرق سفينة، ويغرق كلّ من فيها؛ فقط لأنّه يكره البحر، ولا يستطيع أن يفكّ أبجديّة جماله.

الزّفّة التّي كانت تراقبها آنئاً تحوّلت في لحظة إلى جداريّة فسيفسائيّة محطّمة، يغلب عليها اللّون الأحمر القاني، أحد الجدران سقط في القريب، فسحق بعض النّاس تحته، الشّظايا انغرزت بعشوائيّة في الأجساد التّي كانت قبل ثوانٍ سعادة تذرع المكان جيئة وذهاباً، شعرت آنئاً للحظات بأنّها قد فقدت السّمع، وما عادت تسمع شيئاً، بل ترى فوضى لا تستطع أن تفكّ أبجديتها، أو أن تعرف سببها، صوت الانفجار لا يختلف أبداً عن أصوات الانفجارات التّي اعتادت

على أن تسمعها في أفغانستان، لكنّها لأول مرة تكون في أرض الانفجـار، لا في أقصى نقطة ممكنة عنه بحيث تسمعه، ولا تتأذّى به.

أصابتها حيرة عجيبة جعلتها تـتمترس في مكانهـا، أتـراه المـوت قـادم مـن أجلها؟ فليس من المجدي أن تهرب منه إذن، أم أنّـه قـد الـتهم مـن يريـد ومـن الحكمة أن تبتعد عنه؟ سـيل الهـاربين قطـع تفكيرهـا، وأرغمهـا علـى الهـروب والتّقهقر سريعاً حيث الشّارع، داسـت في طريـق هربهـا بعـض الأجسـاد التّـي خمّنت أنها أجساد حالت بينها وبين أن تصلها شظايا الانفجار القاتلة، تجـاوزت كذلك نباتات الزّينة التّي غدت ضحيّة من ضحايا التّفجير، بعض من النّباتـات كانت ملطّخة بدماء الجرحى وساقطة بين أشلاء قد تناثرت هنا وهناك.

فناء الفندق تحّول في لحظة إلى ساحة إسعافات أوليّة، تعجّ برجـال الشّـرطة والإنقاذ، تكوّر النّاجون من التّفجيرات لا سيما الأجانب في زاوية كما الدّجاج الخائف، وقفت مشتّتة لا تلوي على شـيء، تستشـعر بـرودة المـوت الـذي مـرّ بالقرب منها تسكن في عظامها، كان صوت بكاء صديقتها "شـيراز سـكيو" يكـاد يصمّ أذنيها اللّتين بالكاد عادت تسمع بهما، شعرت برغبـة في التّقيّـؤ، وكـادت تستنزل اللّعنات على "شيراز سيكو" التّي صممت بانفعال هستيريّ على أن تعود إلى الدّاخل لتبحث عن حقيبته يدها، كأنّها الضّحيّة الوحيدة في المكـان، وتمنّـت بعمق أن يصدفها الموت في الدّاخل، فيبتلعها، فلا تعـود تسـمع صـوت بكائهـا الكريه، حاولت أن تقرّع نفسها على مشاعرها المخجلة تجاه صديقتها الفرنسـيّة، لكن الفوضى التّي ضجّت في نفسها جعلتها تجلس عنـد أقـرب سـور، وتتقـيء بقرف، فقد ضاقت نفسها بالإرهاب والموت أيّاً كان شكله، وبغض النّظـر عـن أسبابه، لا سيما إذا تبختر بصفاقة فوق أجساد المستضعفين والآمنين.

المقاتل

"إلى العميد بشير نافع الذي كان يحلم بأن يموت في ساحة المعركة لا في اغتيال جبان"

يؤمن بأنّ الجهاد المقدّس هو قدره، هكذا الرّجال، كلّ له قدره، وقدره أن يفني العمر لأجل قضيّته التّي ملأت عليه نفسه، منذ أن شبّ عن الطّوق وهو ينذر النّفس لفلسطين، الطّريق كانت طويلة، وفي الطّريق الطّويلة يضحّي الإنسان بالكثير، وقد ضحّى براحته وشبابه لأجل مهمّته التّي وكلّ نفسه بها.

أمضى أكثر من عشر سنوات في سجون العدوّ الصّهيونيّ، هناك ذاق من العذاب أصنافاً، لكن العذاب الأكبر كان في ابتعاده عن ساحات القتال، وإن كان سجنه على أرض وطنه عزاؤه في كربه.

أشرف مراراً على الموت على أيدي سجّانيه، لكن جذوة الحياة فيه لم تنطفىء، وخرج من سجنه ليشهد حقبة جديدة وصعبة في نضال الشّعب الفلسطيني، لقد نال الشّعب الفلسطيني حكماً ذاتيّاً مشوباً بكثير من المشاكل والمآزق في بعض أراضي فلسطين.

كان أمر تشكيل حكومة في تلك المناطق تحدّياً كبيراً، وها هو الآن يقوم بواجبه نحو وطنه قائداً للاستخبارات العسكريّة في الضّفّة الغربيّة، يسانده في ذلك الكثير من رفاق الجهاد، ورموز الثّورة.

العمل كان يستوجب الكثير من السّفر والتّنقّل والسّرّيّة، ومهمّة خاصّة استوجبتْ أن يمّر بعمّان لعدة أيّام. هذا المساء كان عليه أن يحلّ آخر القضايا المعلّقة كي يعود إلى مباشرة عمله في الضّفّة، إلا أنّ طارئ لم يحّدث حتى نفسه به

كي لا ينتهك سريّته جعله يغير مسير رحلته، ويعرّج على فندق "جراند حياة عمّان"، كان من المفترض وَفقَ خطّة عمله الجديدة والمفاجئة أن ينهي مهمّته في دقائق، ويغادر المكان الذي يعيش حالة انسجام هادئة، فهناك زبائن في المكان من جاليات مختلفة، بأزياء متعدّدة، وسحن شتّى، ولغات متعدّدة، الكلّ يقضي في المكان مساء استجمام، يشربون ما لذّ وطاب، ويديرون أحاديث سمر دون أصوات رصاص، أو مداهمات جيش الاحتلال الصّهيونيّ، أو تهديدات المستوطنين والمتطرّفين اليهود، تمنّى من كلّ قلبه أن ينعم وطنه في القريب بمثل هذا الأمن الذي تنعم فيه عمّان، تخيّل درب القتال الطّويل قد تمخّض عن هناء وطمأنينة تغمر وجوه الأطفال والنّساء والكهول في وطنه.

كان العميد بشير غارقاً في أمنياته المحاطة بالأشواك، يحرّض النّفس على إنجاز المهمّة سريعاً ومغادرة المكان الذي تمخّض في لحظات عن موت أحمر واجهه أكثر من مرة، لكنّه الآن بطعم حقير ورائحة منتنة، موت جبان يتسلّل مثل اللّصوص إلى المكان، يفتك بالعزل والضّيوف دون أن يعرّف بنفسه، إنما يتدّثر بدثار الإسلام البريء منه ومن إثمه.

كان دوي الانفجار هو أوّل ما أصمّ أذني بشير نافع، كان يعرف هذا الصّوت جيّداً، فقد ألفه في الضّفّة الغربيّة الفلسطينيّة، ظنّ الكثيرون أنّه تماس كهربائيّ أو انفجار أنابيب غاز، لكنّه كان يعلم جيّداً أنه صوت عبوات متفجّرة، لكن علمه ما كان ليسعفه في الهرب، ففي أجزاء من الثّانية اجتاحت عشرات الشّظايا جسده الذي صمد طويلاً أمام تعذيب العدوّ، وما استطاع أن يصمد أمام الإرهاب.

عيناه أدارتا نظرة وداع صادفتْ وجوه مرافقيه: جهاد فتوح وعبد علون ومصعب أبو خرما، أغلق عينيه المثقلتين بالجراح القاتلة، مر في ذهنه شريط من

الأحزان والآلام، وانفتح أمامه نفق من النّور يضجّ بالشّهداء الـذين عـرفهم في درب حياته، اجتاحه دفء نورانيّ سرعان ما استسلم له.

لم يعش بشير ليرى وطنه يرفل في الأمن والسّعادة، كان آخر عهـده بالـدّنيا نظرات الخوف التّي رآها في أعين الآمنين الذين روعهم جبان في لحظة صفاء في الفندق الذي عرج عليه.

لكن الموت سمح له تقديراً لنضاله الطّويل بأن يأخذ نفساً عميقاً من أريـج بلاده قبل أنْ يُدفن في رام الله بحضور الكثير من رِفاق دربه، بعد أن كـان يختـال بأعلام فلسطين التّي كُفّن بها.

استلقى بشير في قبره، وفي نفسه غصّة من الإرهاب الذي لا يعرف النّـور، والقتال وجهاً لوجه، بل يختبئ في الظّلام، ويقنص لحظات السّهو ليفرغ سمّه في لبن الآمنين، تمنّى لو أنّ له كرة أخرى في الحيـاة يكرّسـها لقتـال الجبنـاء الـذين يعيشون في الشّقوق الأرضيّة، ويسمنون بالحقـد، لكـن أنّـى للمـوت أن يفـرّط بغنائمه؟!

القصيدة

"إلى نتالي التّي باتت تخشى أن تحفظ أيّ قصيدة"

اعتادت نتالي ذات العقد الواحد على أن تنثر كنانة يومها الدّراسـيّ علـى مكتبها الواقع بالقرب من نافـذة غرفتهـا، مـن مكانهـا ذاك تسـتطيع أن تراقـب أسراب الحمام تحلّق في زرقة سماء المدينة، كمـا تسـتطيع منـه أن تراقـب كلـب الجيران، وتستطيع كذلك أن تسمح لنفسها بالتّلصّص على عشّ العصافير الذي يقبع على إحدى الأغصان في أعلى الشّجرة التّي تستطيع من مكانها أن تلمـس أعلى أغصانها بأطراف أصابعها.

من مكانها هذا ترى غروب الشّمس، كما أنّها ترى أضـواء المدينـة تـتلألأ بضوء يحاكي جمال القمر الذي يتربّع هذه اللّيلة في سمـاء صـافية تزخـر بنجـوم لامعة.

عليها أن تحفظ قصيدة جميلة تعلّمتها اليوم في حصة اللّغـة العربيّـة، تقرأهـا مرّة تلو الأخرى لعلّها تحفظها، تحاول أن تربط معانيها ببعض أقوال وتعليقـات زميلاتها في الصّف، وتلفي نفسها تحفظ بعض أجزاء منها، تلقـي مـن وقـت إلى آخر نظرة على مرآب العمارة لعلّ أمّها تكون هي سـائقة السـيّارة التّـي تسـمع صوت محرّكها يقترب، فقد اعتادت على أن تقرأ على مسمع أمّها ما تحفـظ مـن قصائد.

ندى أبو عوف كانت كذلك تحرص على أن تنتهي من عملها الذي أجبرها على الخروج من البيت هذا المساء لتطمئن على بناتها الثّلاث، وكي تتأكّـد مـن

حفظ نتالي للقصيدة، كانت تراقب حركة السيّارة التّي أمامها كي يأتي دورها، وتملأ خزان وقود سيارتها بحاجته من الوقود، وتقفل عائدة إلى بيتها عندما سمعت صوت الانفجار الرّهيب الذي هزّ فندق "ديز إن" في منطقة الرّابية في العاصمة الأردنيّة عمّان، صورة نتالي الجالسة إلى نافذة غرفتها هي أوّل صورة تداعت إلى ذهنها، تخيّلت وجهها الجميل وقد مزقت شظايا الزّجاج جماله، تخيلت كتاب اللّغة العربيّة وقد غرق في دم ابنتها.

صرخت ندى دون وعي "بناتي"، وقادت السيّارة بسرعة جنونيّة عائدة إلى بيتها، مرت من أمام الفندق الذي كان يعّج بسيارات الإسعاف، دم الضّحايا كان مندلقاً على الأرض، وبعض الجثث ملقاة على قارعة الطّريق، استطاعت أن تتبيّن ضحيّة ملقاة على الأرض بملامح آسيويّة، وضّج في أذنها عويل أمّه عندما تعلم بموته، كان الخراب واضحاً أمام الفندق، وتساءلت أيّ حادث سبب مثل هذا الدّمار؟

لم تتخيّل أبداً إرهابيّاً غاشماً يتسلّل إلى مطعم الفندق، ويجلس إلى طاولة رقم ١٠، يطلب كأساً من عصير البرتقال، ثم ينتقل إلى طاولة رقم ١١، ينتصب على قدميه محاولاً أن يفجّر الحزام النّاسف الذي يحيط بجسده، وعندما يفشل بذلك يتوجّه راكظاً إلى خارج الفندق، وهناك ينجح بتفجير نفسه، ويوقع عشرات الجرحى والقتلى، ويدمّر الواجهة الزّجاجيّة كاملة.

بصعوبة وصلت ندى أبو عوف إلى بيتها، ودلفت إلى شقتها بقلق خرافيّ، كانت ترى حياتها كلّها قد تلاشت، وتحطّمت إلى أن أسرعت بناتها الثّلاث إلى الارتماء في حضنها باكيات مرتجفات يقبّلنها بطريقة هستيريّة، عندها شعرت بأنّ قوّة عظيمة قد أنقذت بناتها من شرّ محتّم، انخرطت ندى في بكاء هستيريّ، وتساءلت في نفسها عن مصير أولئك العاملين اللّطيفين الذين كانوا يقابلونها

بابتسامة رقيقة كلّما ذهبت هي وبناتها لتناول مرطب أو بوظة في مطعم فندق "ديز إن".

عرفت ندى تفاصيل الحادث الإرهاب الشّنيع الذي وقع في فنادق عمّان من التّلفاز، وهي تحيط بناتها الثلاث بذارعيها، وتضمّهنّ إلى صدرها، كأنّها تخشى أن يطولهنّ الإرهاب بيده السّوداء المتوحّشة، ودعت الله أن يكون في عون أهالي الشّهداء والجرحى، وأن يكون كذلك في عون ابنتها نتالي التّي أصيبت بذعر شديد ليلة الحادث، وما انفكت تستيقظ ليلاً باكية صارخة: "بابا، ماما، أين أنتما؟" فتندسّ في فراش والديها، كما ترسّخ في وجدانها أنّ حفظ أيّ قصيدة سيلازمه تفجير ودماء وموت؛ لذا فقد باتت تخشى حفظ أيّ قصيدة، وتنخرط في بكاء مرير إذا ما أُجبرت على ترديد أبيات من أيّ قصيدة، لقد ظنّت أنّ الموت ينبع من كلمات القصيدة، ولم تسعفها براءة طفولتها لتعرف أنّ الموت يأتي فقط على أيدي المجرمين سُود القلوب.

التّذكار

"إلى الطّفل عمّار الكيلانيّ الذي يحتفظ بشظيّة في رأسه تذكاراً إجباريّاً من الإرهاب حتى آخر لحظة في حياته".

اعتاد كلّما خاف أو احتاج إلى شيء أو ضايقه أيّ طفل من أطفال الأقارب والأصدقاء على أن يهرع إلى والده عبد الرّحمن؛ فهو يعتقد أنّه أقوى رجل في الدّنيا؛ لأنّه طبيب قادر على شفاء أيّ مرض، هذا هو ما يعتقده، ويجزم به، بل ويكرّره مراراً وتكراراً على مسامع الأصدقاء مفاخراً بأبيه الرّجل الخارق.

يرى في قسمات والده حزماً يخشاه إنْ غضب، لكنّه يعلم بحدسه الطّفوليّ أنّ وراءه حبّاً وعطفاً عليه لا يعرفان حدّاً، فوالده الحازم الجادّ يغدو أمامه عالماً من الحبّ والعطاء، وهو بنظراته البريئة وأسئلته الفضوليّة ومشاكسته العذبة يجيد استدرار حبّ أبيه وعطفه.

اليوم قد أفلح من جديد في إقناع والده بأن يسبقه إلى حفل زفاف أشرف ونادية، إلى حين يلحق أبوه به، لينضمّ إلى المحتفلين مع عائلته، فقد كان فرحاً بثيابه الجديدة وبحذائه المميز، وتمنّى من كلّ قلبه لو أنّه يستطيع أن يحصل على دقيقتين من اهتمام المحتفلين ليعرض عليهم ثيابه الجديدة وحذاءه المميّز جرياً على عادته كلّما اشترى شيئاً جديداً، إذ سرعان ما يعرضه على أصدقائه الصّغار وعلى أفراد أسرته، وأحياناً يعرضه على جارات أمّه الثّرثارات الفضوليّات.

لكن انشغال المحتفلين بمتابعة زفّة أشرف ونادية قد جعله يتنازل عن أمنيته هذه، وينظّم طواعيّة إلى المتابعين للزّفّة عبر أجهزة التّلفاز المثبّتة على جدران قاعة الزّفاف.

لم تكن عنده خبرة كبيرة في مراسيم الزّفاف، فهو ما يزال طفلاً غرّاً، لكنّه حدس بفطرته أنّه يتابع أحداثاً سعيدة تستحقّ الاهتمام، كما تستحقّ ملابسه الجديدة التّي اشتراها حديثاً، لكن هذا الانفجار الرّهيب الذي حدّث على حين غرّة أربك خبراته المتواضعة التّي ما عرفتْ خوفاً كهذا الذي داهمه في تلك اللّحظة التّي تحوّلت إلى موت ودماء وأشلاء وألم غريب في جمجمته.

دخل عمّار في غيبوبة جرّاء شظيّة استقرّت في جمجمته، ولم يعلم أنّه فرداً وحيداً في مستشفى يعجّ بالموتى والجرحى، إلاّ عندما استيقظ من غيبوبته بعد أيّام، ليجد والده يبكي مصابه أحرّ البكاء، بعد أن وجده بعد رحلة طويلة من البحث عنه في مستشفيات العاصمة، بعد أن علق هو وأسرته في زحام العاصمة، ولم يتمكّن من حضور الزّفاف، وبذلك نجا وعائلته من الموت المحقّق، إلاّ أنّ صغيره عمّار قد واجه الإرهاب وحده دون أن يعلم أنّ هناك بشراً بقلوب سوداء يحترفون الموت، ولا يقفون إجلالاً لطهارة الطّفولة، ولا لسعادتها بالملابس الجديدة.

لقد استيقظ عمّار، وهو يحمل صوراً كابوسيّة غير مفسّرة عن لحظاته الأخيرة في حفل الزّفاف، ويحمل تذكاراً حديديّاً بارداً في رأسه من شظيّة، قال الأطبّاء إنّ إزالتها شيء مستحيل، وعلى عمّار أن يتعايش مع وجودها، وأن يتغلّب على ألمها، كما عليه أن يتغلّب على ذاكرته المشوّشة إثر إصابته، ويحاول أن يتذكّر ماضيه الصّغير، وإن كان يفشل بذلك في الوقت الحالي، بل يفشل في

تذكّر اسم والده، وإن كان ما يزال يشعر بأنّه أقوى رجل في العالم، لكن لسبب يجهله لم يستطع أن يحميه من ذلك الألم الذي ألمّ به.

في نفسه آلاف الأسئلة، لكنّه يفشل في أن يصوغها في كلمات، فيبثّها نظرات حائرة ممتنّة لكلّ يد حنونة تمتّد لتخفّف مصابه، ولتلعن الإرهاب الذي لم يرحم عمّار، أو يشفق على طفولته التّي تتكوّم في حضن والده الأقوى في عينه.

نظراته سرعان ما تتحوّل دون قصد إلى نظرات رجاء بالانتقام له من مجرمين قساة لا يعرف عنهم سوى أنّهم يكرهون الأطفال، ولا يبتهجون لملابسهم الجديدة، ويستخفّون بسعادتهم وحياتهم.

الطّيف

"إلى هيثم الذي ما زال طيفه يحوم، ويحوم دون توقّف".

عمله يفرض عليه أن يتقن طقوس الإسعاد والتّجميل والتّزيين؛ فهو منظّم حفلات أعراس في فندق "حياة عمّان"، تعلّم بالخبرة الطّويلة عبر عشرات من الأعراس التّي أعدّ حفلاتها ونظّم فعاليّاتها أنّ من يبحث عن الجمال تمتلئ نفسه جمالاً، ويغدو إسعاد النّاس من أهم مباهج ذاته، وسمات سلوكه.

تعلّم أنّ البشر جميعاً يتشابهون في البحث عن السّعادة، ويختلفون في تفاصيل تلك السّعادة، وهو يتحلّى بالصّبر الكافي الذي يجعله يستمع طويلاً دون تبرم إلى طلبات العروسين وآمالهما، ثم ينفّذها بدقّة، ليجعل كلّ عرس يشرف على تنظيمه صورة طبق الأصل عن أحلام العروسين، لا يعرف راحة أو رضا عن ما عمل إلا إذا رأى السّعادة في عيون العروسين.

كلّ عرس ينّظمه يحفزّ الأحلام والأمنيات في نفسه، ويدعوه لحثّ السّاعات والأيّام لتمضي سريعاً، فيعود أخوه من الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ليتمّ زواجه بحضوره؛ فسعادته لا تكتمل إلاّ بحضور شقيقه الحبيب.

أمّه تدعوه بحبيبها الصّغير، والأصدقاء يعتقدون أنّه بسنينه الأربع والعشرين ما يزال صغيراً على الزّواج وعلى تحمّل مسؤوليّة البيت والأسرة، لكنّه كلّما أعدّ حفل زفاف جاشت الأمنيات في نفسه، وأيقن كم يتوق إلى أنّ يكون عريساً لا معدّ حفل زواج وحسب.

في ذهنه تفاصيل مدهشة يدّخرها لزواجه، سوف يكون عرسه ليلة من ليالي ألف وليلة، سوف يستثمر كامل موهبته ليجعل من هذه اللّيلة ليلة لا تُنسى، كثيراً ما حدّث أمّه بتفاصيل اللّيلة المشتهاة، فتبتسم له مؤمّلة النّفس بالسّعادة والهناء.

كان هيثم يطوف كعادته في الفندق، يعطي التّعليمات لكلّ من له علاقة بالتّحضير للزّفاف الذي يعدّ له، كان يراجع على ورقة صغيرة بنود الحفل التّي استكمل آخرها قبل دقائق، فوجد نفسه قد استكملها تنفيذاً، فكّر في أن يغادر المكان، ويقفل راجعاً إلى البيت، فغداً عنده يوم عمل طويل، لكنّ موتاً مباغتاً قطع تفكيره، ففي لحظة غدا المكان حطاماً يحاصر جثث القتلى والجرحى الذين وقعوا فرائس في يدي إرهابيّ غاشم قررّ في لحظة جنون أن ينهي حياته وحياة مئات من الأبرياء الذين لا جرم لهم إلاّ أنّهم يحترفون الحياة والأمل.

لأوّل مرّة لا يشارك هيثم في التّحضير لفعاليّات حفل أو فعاليّة ما في فندق "حياة عمّان"؛ فقد كان جثة هامدة قد غادرتها الرّوح كما غادرتها الأحلام والاستعداد لزفافه القريب.

غُيّب هيثم في قبره في مقبرة سحاب الإسلاميّة دون أن تراه أمّه عريساً في حفل زفاف استثنائيّ، ودون أن يحضر أخوه الذي يحبّه من الولايات الأمريكيّة المتّحدة، لكنّ طيفه ذا القسمات النّورانيّة المشبعة بروح الشّباب وهسيس الأمنيات ما يزال يحوم، ويحوم في قاعة أفراح الفندق ينتظر بشغف حفل زفافه الذي لن يكون أبداً، فطيفه لا يدري أنّ صاحبه قد غدا ميّتاً، وأنّه لن يكون أبداً عريساً في حفل زفاف خياليّ مرتقب.

الباحث عن الشّمس

"إلى حسين الجبوريّ الذي جاء إلى الأردن باحثاً عن الشّمس".

سمع كثيراً عن الأمن، وتمنّاه من كلّ قلبه الذي ما فتئ يشرئب إلى نور الشّمس التّي تتوارى وراء التّفجيرات والقصف كي لا تعاين الموت والقتل والذّبح؛ فمنذ أن يفع وهو لا يعرف عن دورة الحياة إلاّ الموت والغياب، في عمره القصير عرف حربين طاحنتين لاكتا مقدّرات شعبه العراقيّ، ونهبتا خيرات وطنه، عرف لعشر سنوات الحرب مع إيران، ثم ذاق مجبراً وشعبه مرارة الحصار الذي تمخّض عنه احتلال أمريكيّ لئيم، عاث فساداً في أرض العراق، وحطّم بهمجيّة بربريّة حضارتها المرسومة بخطوط أسطوريّة على وهج الشّمس التّي تمنّى أن تبزغ ولو لمّرة واحدة، وتشمل كلّ عراقيّ بالأمن والسّلام والطّمأنينة.

اعتاد منذ أن كان صغيراً، بل عوّدته الحرب، على أن يرى الشّمس متوارية قسراً خلف سحب من الدّخان والغبار إثر القصف والتّفجيرات، وحفظ كثير من أسماء الأقارب والجيران والأصدقاء والأحبّة الذين قضوا في الحربين وفي الحصار، وغدوا جميعاً صوراً، لا شيء غير صور حزينة تتخزّن في ذاكرته الحزينة.

لقد ظنّ يائساً أنّ الموت والحرب قدر كلّ عراقيّ، فهكذا هي حضارة ما بين النّهرين حضارة جبّارة، وشعب ماجد، وقدر قاسٍ يُتصدّى له بكلّ بطولة.

لكنّه على الرّغم من كلّ شيء يحلم بالشّمس، ويحلم بصباح مشمس وسماء صافية وأسراب من الحمام تتهادى في سمائه، وتحمل رسالة سلام وأغصان زيتون، أليس من حقّه بوصفه إنساناً أن يعيش الطّمأنينة والسّعادة في وطنه؟ أليس من حقّ العراق أن تزهر ياسميناً؟ أليس من حقّ طيورها المهاجرّة أن تتعمّد في نهريها، وتتفيّأ نخيلها، وتعانق ترابها، وتغازل حور نسائها؟ أليس من حقّه أن يستيقظ على فرحة انتظرها منذ أن كان طفلاً؟

مثل طائر صيفيّ تهاجمه سحابة شتاء قارس طار من العراق، وحطّ في عمّان يحلم بالأمن، كانت الشّمس أوّل ما وجد في عمّان، وأعزّ ما طلب أن يجد، فقد كانت طِلْبَته، حدّق طويلاً في قرص الشّمس، وهزّه طرباً الأمن والاستقرار اللّذان يسودان في المكان، وطفق يزور كلّ شبر من العاصمة بسعادة طفل يتمتّع ببهجة السّلام، دون أنّ يشعر بأنّ عيوناً حاقدة تترصّد حركاته وسكناته.

زار المطاعم والأسواق والمتاحف، وسار طويلاً في الحدائق وفي المتنزّهات الوطنيّة، واستمتع أشدّ المتعة بالاستلقاء في سريره، وبإغماض جفنيه لينسرب في نوم يعلم تماماً أن لا قصفاً أو موتاً أو مداهمة محتملة قد تفزعه.

كان يوماً طويلاً قضاه في إنجاز أعمال معلّقة، بدّل ملابسه سريعاً بعد أن تناول عشاءه على عجل في مطعم الفندق الذي ينزل فيه، واستلقى في سريره ليستسلم للنّوم الذي يظنه قيد أُنْمِلة منه، وكاد ينزلقُ في نشوة النّوم، لكن انفجاراً مريعاً انقضّ على المكان، وسرق نومه، وبعثره مع ما بعثر من أثاث غرفته التّي تهاوى بعضها عليه، وسحق عظم فخذيه ويديه، سمع بكائيّة عظامه المتكّسرة وتفتّق جسده عن صراخ رهيب يحمل آهاته وأنينه، قدّر أنّ المكان قد تعرّض لانفجار أسطوانة غاز في المطبخ، وإن كانت أُذناه قد أسرّتا له بأنّ ما

سمع هو صوت انفجار بعبوّات ناسفة لا انفجار غاز، لكنّه صمّم على أن يكذّب حدس أذنيه، فهو جاء إلى عمّان هارباً من الانفجارات والموت، باحثاً عن الشّمس.

عندما استيقظ في اليوم التّالي من إغماء صدمة الألم كان حبيساً في غابة من الجبص الذي يحاصر فخذيه ويديه، أدرك أنّه كان ضحيّة لاعتداء إرهابيّ على الفندق الذي كان ينزل فيه، الكثير من الأردنيين الذي كان يقابلهم لأول مرّة في حياته كانوا قد حضروا لزيارته شأنه شأن أيّ أردنيّ زارته وفود الأردنيين التّي هبّت تواسي الجرحى، وتعزّي ذوي الضّحايا.

شعر بخوف يداهمه وهو يتخيّل يد الإرهاب طويلة تمتدّ بتطاول، فتطول الأبرياء كلّهم، وتقصف زهور أعمارهم، نظر إلى السّماء من نافذة غرفته حيث يرقد على سرير الشّفاء، كانت السّماء صافية، والشّمس مشرقة زاهية لا تحجبها أيّ يد إرهابيّة، بل تعمي بوهجها كلّ عين تنظر بسوء إلى أيّ مواطن آمن في وطنه، شعر باطمئنان وهو في عين الشّمس، واستسلم للنّوم.

وتمضي الأحزان

"إلى هبة غزالة وشكري عازر اللّذين تحديا الموت، ولبسا ثياب الفرح".

هذا اليوم يشبه بسعادته وثياب فرحته واجتماع الأحبّة يوم زفاف نادية وأشرف الذي خضبّه الدّم قبل ثمانٍ وأربعين ساعة، في فندق قريب كانت نادية في مثل هذه السّاعة تتأبّط ذراع أشرف، وترفل في ثوبها الأبيض، وتتهادى بطوق من الأمنيات والأحلام، وتتبادل أمنيات السّعادة والابتسامات مع الأحبّة والأقارب، كانت تهمس من آن إلى آخر في أذن أشرف بأجمل الوعود وأرقّ الكلمات، كانت الموسيقى والأغاني الشّعبيّة تشجي المكان، وتستفّز الأجساد لتنخرط في فسيفسائيّة فرح خاصّة، كانت اللّحظات ملك للفرح عندما تسلّل إرهابيّ قد تحزّم بحزام ناسف إلى المكان، وحوّل الفرح إلى مجزرة شنيعة.

منذ الصّباح الباكر طفق شكري وهبة يتّصلان بالأقارب والأصدقاء ليؤكّدا أنّ موعد زفافهم سيكون في الموعد نفسه المحدّد منذ زمن، ويقولان باسمان متحدّيان بإصرار يكافئ سعادتهما باللّحظة القادمة: "نحن لن نخاف، نحن لن نضعف، نتحدّى الموت والإرهاب، وننتظركم لبداية جديدة".

البعض أبدى خوفه من حضور أوّل زفاف أردنيّ بعد عرس عمّان الدّامي، البعض الآخر أبدى امتعاضه من تجديد الأفراح والأردنيّون يلبسون السّواد، وكثير أبدى قلقه حول سلوك المحتفلين في حداد وطنيّ يمرّ الوطن فيه، في حين انتقد بعض المحافظين من الأقارب والأصدقاء هذا الزّواج، ونصحوا بتأجيله إلى حين ظروف أفضل، لكن شكري وهبة أصرّا على أن يتزوجا في موعدهما المحدّد

من قبل، أبيا أن ينكسرا أمام الخوف أو الإرهاب، كان في قلبهما من قوّة الحبّ والإصرار والإيمان بالحياة ما يكفي لإشاعة الفرح في قلب كلّ أردنيّ حزين، أرادا أن يمدّا فرحهما ليكون بداية فرح أردنيّ يتحدّى كلّ معتدٍ، أرادا أن يكونا نفسيهما، فكان الزّفاف في موعده.

لبستْ هبة الأبيض، وتجملّت كما تتجمّل كلّ عروس، قبّلت أمّها، استسلمت لأحضان الصّديقات ولقبلاتهنّ، حملت الورد بيديها، وتأبّطت ذراع شكري، استقبلتهما الزّفّة بأغانٍ وطنيّة أمام قاعة أفراح فندق "ديز إن"، اعتلت الحطّتان السّوداء والحمراء كتفها وكتف شكري، تقاربت القلوب، وامتزجت روابط الحبّ في لحظة عشق هادئة، أحسّت هبة بأنّ أرواحاً متمرّدة على الموت تسكن كلمات فرقة الزّفّة وموسيقاها التّي استعادت الكثير من مخزون أفراح الأباء والأجداد.

بسمات عليلة حطّت في المكان، وغشيت وجوه الحاضرين، خمّنت هبة، بل كادت تجزم أنّ أرواح ضحايا عرس عمّان الدّامي قد تفلّتت من فردوسها، وهبطت على الأرض كي تشاركها أفراحها، وتستعيد معها لحظة حزن سُرقت منذ أيّام، فقد كانت الأرواح ما تزال مسكونة بحمى الفرح، وهي تلبس ملابس مزركشة موشّاة بالبهجة، ازدحم المكان في عيني هبة بضيوفها الأرواح، وزهت بضيوفها الاستثنائيين الذين وهوبها بحضورهم أجمل هديّة زفاف.

مالت هبة على شكري، وكادت تهمس له بفرحتها بالأرواح التّي تحضر زفافها، لكن ابتسامة مخضّبة بالدّمع رأتها في عيني شكري جعلتها تدرك تماماً أنّ شكري قد سبقها إلى التّرحيب بضيوفه الأرواح.

تعالت الموسيقى، وضجّتْ الفرحة في قلوب الحاضرين وفي وجدان الأرواح، وتغاضى الكلّ عن الدّماء التّي أعيت العاملين في الفندق تنظيفاً، فبقيت شاهدة على جدران الفندق وعلى أرضيته، تروي حكاية شهداء اغتالهم الإرهاب دون أدنى حقّ.

انتهت الزّفّة، ودلف العروسان إلى قاعة الاحتفال، بعد أن وقفا لحظة على بوابة القاعة، وأجالا ابتسامة في المكان، طافت على الوجوه كلّها، وزرعا ابتسامة على خدود الحاضرين، ومسّدت بلطف على رؤوس الأطفال المبتهجين، كانت ابتسامة اختزلت معاني التّآزر والتّلاحم والقوّة، وقالت بتحدٍ ها قد اجتزنا اللّحظة، وقفزنا عن الألم الذي غشي حفل زفاف أشرف ونادية في لحظة دلوفهما إلى قاعة زفافهما، دون أن يتسلّل غادر إلى القاعة، ويفجّر نفسه، ودون أن تتطاير الأجساد والزّهور، وتسقط أرضاً.

جلست هبة على كرسي الحفل المخصّص لهما مثل ملكة متوّجة، شدّت بيدها على يد شكري، إذ كانا منتصرين في لحظة حزن وطنيّ، وسدرا في طقوس فرح دامت إلى الصّباح الذي استقبلاه بدعوة جديدة إلى الحياة والتّفاؤل، إذ إنّ الأحزان تمضي، ويبقى الأمل...

انتهى الجـزء الثّالث

د. سناء شعلان

أديبة وأكاديميّة وإعلاميّة أردنيّة من أصول فلسطينيّة، ومراسلة صحفيّة لبعض المجلات العربيّة، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطّفولة والعدالة الاجتماعيّة، تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية/ الأردن، حاصلة على درجة الدّكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز، عضو في كثير من المحافل الأدبية والأكاديميّة والإعلاميّة والجهات البحثيّة والحقوقيّة المحليّة والعربيّة والعالميّة.

حاصلة على نحو٦٣ جائزة دوليّة وعربيّة ومحليّة في حقول الرّواية والقصّة القصيرة وأدب الأطفال والبحث العلميّ والمسرح، كما تمّ تمثيل الكثير من مسرحيّاتها على مسارح محليّة وعربيّة.

لها نحو ٦٥ مؤلفاً منشوراً بين كتاب نقديّ متخصّص ورواية ومجموعة قصصيّة وقصّة أطفال ونصّ مسرحيّ مع رصيد كبير من الأعمال المخطوطة التي لم تنشر بعد، إلى جانب المئات من الدّراسات والمقالات والأبحاث المنشورة، فضلاً عن الكثير من الأعمدة الثّابتة في كثير من الصّحف والدّوريات المحليّة والعربيّة.

لها مشاركات واسعة في مؤتمرات محلّية وعربيّة وعالميّة في قضايا الأدب والنّقد وحقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعيّة والتّراث العربيّ والحضارة الإنسانيّة والآداب المقارنة، إلى جانب عضويّتها في لجانها العلميّة والتّحكيميّة والإعلاميّة.

هي ممثّلة لكثير من المؤسّسات والجهات الثّقافيّة والحقوقيّة، كما أنّها شريكة في الكثير من المشاريع العربيّة والعالميّة الثّقافيّة.

تُرجمت أعمالها إلى الكثير من اللّغات، ونالت الكثير من التّكريمات والدّروع والألقاب الفخريّة والتّمثيلات الثقافيّة والمجتمعيّة والحقوقيّة.

مشروعها الإبداعيّ حقل للكثير من الدّراسات النّقديّة والبحثيّة ورسائل الدّكتوراه والماجستير في الأردن والوطن العربيّ والعالم.

من أعمالها المنشورة:

١- الرّوايات:

١. أعشقني.
٢. السّقوط في الشمس.
٣. أدركها النّسيان.

٢- روايات الفتيان:

١. أصدقاء ديمة.

٢. المجموعات القصصيّة:

١. قافلة العطش.
٢. تراتيل الماء.
٣. الجدار الزّجاجيّ.
٤. حدث ذات جدار.
٥. الذي سرق نجمة.
٦. تقاسيم الفلسطينيّ.
٧. عام النّمل.
٨. رسالة إلى الإله.
٩. أرض الحكايا.
١٠. مقامات الاحتراق.

١١. ناسك الصومعة.

١٢. قافلة العطش.

١٣. الكابوس.

١٤. الهروب إلى آخر الدّنيا.

١٥. مذكّرات رضيعة.

١٦. أكاذيب النّساء.

١٧. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء١

١٨. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٢

١٩. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٣

٤- مجموعات قصصيّة مشتركة مع أدباء عرب وعالميين:

١. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان "القصّة في الأردن: نصوص ودراسات".

٢. مجموعة قصصيّة بعنوان "الضّياع في عيني رجل الجبل".

٣. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان "في العشق".

٤. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصين أردنيين بعنوان "مختارات من القصّة الأردنيّة".

٥. مجموعة قصصية مشتركة مع أدباء مصريين مجموعة نجوم القلم الحرّ في سماء الإبداع.

٥- مسرحيّات للكبار:

١. دعوة على شرف اللّون الأحمر.

٢. "سيلفي" مع البحر.

٣. وجه واحد لاثنين ماطرين.
٤. محاكمة الاسم (×).
٥. السّلطان لا ينام.
٦. خُرّافيّة سعديّة أمّ الحظوظ.

٦- مسرحيّات للفتيان والفتيات:

١. اليوم يأتي العيد.
٢. رحلة مع المعلّمة فرحة.

٧- قصص أطفال:

١. قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم الناس والمروءة".
٢. قصّة للأطفال بعنوان "هارون الرّشيد: الخليفة العابد المجاهد".
٣. قصّة للأطفال بعنوان "الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أبو العروض والنّحو العربيّ".
٤. قصّة للأطفال بعنوان "ابن تيمية: شيخ الإسلام ومحيي السّنّة".
٥. قصّة للأطفال بعنوان "اللّيث بن سعد: الإمام المتصدّق".
٦. قصّة للأطفال بعنوان "العزّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك".
٧. قصّة للأطفال بعنوان "عبّاس بن فرناس: حكيم الأندلس".
٨. قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم النّاس والمروءة".
٩. قصّة للأطفال بعنوان "صاحب القلب الذّهبيّ".
١٠. مئات القصص المصورة للأطفال المبثوثة والمنشورة في مجلّات الأطفال المحليّة والعربيّة.

٨- المقالات والنّصوص النّثريّة:

١. أبي سيّد الكلمات.
٢. الذين لا ينامون.
٣. قالت النّساء.
٤. غصون وتخوم.
٥. الدّرب إليهم.
٦. الأعمال النّثريّة الكاملة.

٩ – لقاءات حواريّة:

١. الهدهد والخاتم: لقاءات مع مبدعين عراقيين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (١)
٢. العرّافة والجبل: لقاءات مع مبدعين عرب، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٢)
٣. لقاءات حواريّة: لقاءات مع مبدعين عالميين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٣)

١٠ – كتب نقديّة متخصّصة:

١. الأسطورة في روايات نجيب محفوظ.
٢. السّرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرّواية والقصّة القصيرة في الأردن١٩٧٠- ٢٠٠٢م
٣. دور جلالة الملك في مكافحة الإرهاب: تفجيرات عمان في قصص بالشّراكة مع المؤلّف وائل الفاعوريّ.
٤. الدّواني والغواني: غصون في الأدب المعاصر ونقده.
٥. السّراب وأهزوجة النّور: دراسات نقديّة في تجسيد الذّات والآخر في الأدب المعاصر.
٦. ترنّم الصّوت وثورة الصّدى: دراسات في إبداعات معاصرة.

١١- المشاركة في فصول نقديّة في كتب نقديّة محكّمة متخصّصة:

١. المشاركة بفصل بعنوان "السّرد الجميل لتأثيث عالم قبيح" في كتاب بعنوان "حنون مجيد في منجزه القصصيّ"، جمع وإعداد وتحرير د. سمير الخليل.

٢. مشاركة بفصل بعنوان "لقاء مع العلامة علي القاسميّ: أبو المعاجم العربية الحديثة" في كتاب "الدّكتور علي القاسميّ سيرة ومسيرة: مجموعة بحوث ودراسات مهداة إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسّبعين"، جمع وإعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم.

٣. المشاركة بفصل بعنوان "عبد الكريم غرايبة العملاق الذي ينير الدّرب للجميع" في كتاب "عبد الكريم غرايبة مؤرّخاً عربيّاً".

٤. المشاركة بفصل بعنوان "مساحة التّوتّر بين الانتظار والخيبة عند القاصّ العراقيّ فرج ياسين في مجموعته القصصيّة "واجهات برّاقة" في كتاب" في آفاق النّص القصصيّ: مقاربات في الهويّة والنّص والتّشكيل عند فرج ياسين".

٥. المشاركة بفصل بعنوان "البطل في قصص زياد أبو لبن" في كتاب "القصّة القصيرة في الوقت الرّاهن".

٦. المشاركة بفصل بعنوان "الذين لا يموتون" في كتاب "المبدع الرّاحل محيي الدّين زنكنه بأقلام أصدقائه".

٧. المشاركة بفصل بعنوان "الفنتازيا رداء للتّثوير في التّجربة القصصيّة عند محيي الدّين زنكنة" في كتاب نقديّ بعنوان "نظرات نقديّة في عالم محيي الدّين زنكنه الإبداعيّ".

٨. المشاركة بفصل بعنوان "شهادة إبداعيّة للأديبة الأردنيّة سناء شعلان" في كتاب "دراسات نقديّة عن الأدب الكرديّ".

١٢- الكتب المنهجيّة:

١. كتاب بعنوان "تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها: المستوى الخامس"، كتاب مشترك مع مجموعة من المؤلّفين الأكاديميين.

عنوان المؤلّفة: د. سناء شعلان

الأردن – عمان– الرّمز البريدي١١٩٤٢

ص. ب ١٣١٨٦

خلوي وواتس وفايبر: ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٣٦٦٠٩

البريد الالكتروني

Selenapollo@hotmail. com

العنوان على الفيس بوك

Sanaa shalan

9789957545468